الموسوعة التاريخية
العرب والاسلام

الأيام الأخيرة للدولة الأموية

عمر أبو النصر

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت

الايام الاخــــيرة للدولة الاموية

الطبعة الاولى
١٩٦٢

- ١ -

اثر القوميات في نشوء الامم

الفترة الرائعة :

هذه فصول أجراها القلم في جو مغمور بالنصب والارهاق ،وكتبتها اواخر الصيف المنصرم لسنوات خلت .. وأجريتها على انها وصف لما حفل في دمشق والعواصم العربية بعد عبد الملك بن مروان ، من حـالات نفسية ، وفتوحات عظيمة ، وخلافات قائمة ، غمرت الايام الاخيرة من امية ، فشقي فيها الامويون كل الشقاء ، وما تبرح الامة العربية تضّار بهذا الشقاء الى يومنا هذا .

اثارت في نفسي بعض الاحداث التي وصفتها في هذا الكتاب كثيراً من الغضب والاستفزاز ، والواناً من الاباء والاعراض ، وكدت في بعض الاحايين افقد الامل من هذه الشخوص التي اترجم لها ، او التي احاول ما كان الى ذلك سبيل ان اجعل من صروفها واحداثها عظة بالغة ، تدفعنا الى اطرّاح كل هذه الاسوار القديمة جملة واحدة ، والاخذ بكل رائع وجديد فيه فضيلة وروح وحيـاة .

ولست انكر الى ذلك الصعوبات التي يلاقيها المؤرخ المعـاصر في طريقه ،

وكيف يرى نفسه اذا اراد قول الحق ورغب في مجابهة الوقائع التاريخية بالمنطق الدقيق والاقسية الصادقة ، رجلاً قليل الحيلة ، ضعيف الوسيلة في التلطف والتكلف ، لا يحسنها ولا يبلغ منها بعض ما يريد ، فهو بين احد امرين : إما ان يؤرخ صادقاً مخلصاً ، او يكتب كاذباً متكلفاً ليس له عن احد هذين غناء.

العصبية الجاهلية :

وعلى هذا النحو من الاضطراب النفسي يمضي الكاتب في التأريخ للامة العربية ، أواخر عهد امية حتى يبلغ غايته ، واذا هو ينتهي الى ان الازمة التي كانت تشكو منها الدولة العربية ليست ازمة تنافس بينها وبين هذه الدولة او تلك من دول العالم القائمة في ذلك الحين ، وليست ازمة الخصومة بين هذا النظام او ذاك من نظم الحكم ، وليست ازمة اقتصادية مردها طرق الجباية ، وسبل الاستهلاك ، وانما هي ازمة اعمق من هذا كله واخطر من هذا كله ، هي ازمة عميقة لانها تمس حياة الشعب العربي ، في اعمق دخائلها ، وهي ازمة يسيرة لان هذا الشعب قوي خصب صالح للبقاء والنماء ، ولكن هناك شرطاً واحداً لا بد منه لحل هذه الازمة ، وهو القضاء على هذه العصبية الجاهلية التي ظفرت منها الامة العربية اواخر عهد امية بحظ موفور ، والتي كانت سبباً في اراقة الدماء الواناً واشكالا .. وهدم الحكومة القائمة وتمزيق الوحدة العربية .

وشيء آخر ايضاً ، وهو ان هذه الازمة التي أدّت لسقوط الدولة الاموية في دمشق هي نفسها الازمة التي أدت لسقوط الدولة الاموية في الاندلس، ولسقوط الدولة العباسية في بغداد مثلاً مع بعض التكلف والتحرز في اطلاق هذا السبب اطلاقاً تاماً عليها ، واذن فمن حق المؤرخ المعاصر وهو يجمع مستنداته ، ان يقول : ان الشعوب العربية مجبرة حقاً اذا ارادت الحياة الحرة الحقيقية ان ترفض بعد اليوم في كثير من الزهو والكبرياء هذه التقاليد والاوضاع التي لا تزال تجعل من شعوب البلاد العربية مدرسة يختصم فيها الناس حول العصبيات

الجاهلية، وحتى هذا البطن او ذاك من بطون العرب في الخلافة والحكم والسلطان من اوضاع الدولة ، مما كان سبباً في الماضي لسقوط هذه الامبراطوريات الرائعة ، ومما سيكون في المستقبل سبباً في الهلاك والانحلال وعدم التحرر والاستقلال .

والعوامل التي أدّت لسقوط امية لا تعدو جملة واحدة، هي هذه الاختلافات التي كانت تضطرب بين هاشم وامية ، وبين مضر واليمن ، وبين القبائل العربية الاخرى ، وهناك عوامل غير هذه سيصار الى بحثها في مكانها عملت على الهدم والتمزيق ، والتدمير والانحلال ، اتصلت بعوامل مختلفة ، وتدخلت في ترتيبها وضهورها عوامل مشتبكة الانحـاء متشعبة الاطراف ، واذا ذكرنا اختلاف القبائل العربية كاساس للانهيار والانحلال ، فلاننا اخترنا من كل هذه الاسباب العديدة ، الحوادث الجوهرية ، والدلالات الاساسية ، والعلامات اللازمة ، والشخوص الكافية ، واما ما سواها فليس في نظر المؤرخ إلا فضول وارهاق .

القومية الممزقة :

لم يكن في الدولة العربية عهد الدولة الاموية شعب عربي ، وانما كان هناك جماعات عربية ، مختلفة الامزجة والاخلاق والعصبية ، تظل مجتمعة هادئة ما كان السلطان قوياً شديدا ، فاما اذا ضعف هذا السلطان او دبّ اليه التخاذل اخذت هذه الجماعات بالتباعد بعضها عن بعض ، والاعتماد على عصبياتها الجاهلية ، وكأنه لا يربطها رابط بهذه الجماعات الاخرى التي تعيش معها ، وتقوم الى جوارها ، وتؤلف معها هذه الامبراطورية التي تسمى الاموية او الاندلسية او العباسية ، ولا أدّل على اختلاف هذه الجماعات التي كانت تؤلف الدولة العربية في عهد معاوية بن ابي سفيان من نصيحته الى ابنه يزيد حين احسّ بأنه لمآبه ، فقد قال له وهو يحاوره :

« انظر اهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فاكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده ، وانظر اهل العراق فان سألوك عزل عامل كل يوم

فاعزله عنهم ، فان عزل عامل واحد اهون عليك من سل مائة الف سيف ، ثم لا تدري علام انت عليه منهم ، ثم انظر اهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فان رابك من عدو ريب فارمهم به ، فان اظفرك الله فاردد اهل الشام الى بلادهم ، حتى لا يقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير ادابهم » ..

هذه صورة صحيحة ، بل هي صورة صادقة رائعة مخيفة عن حالة الجماعات العربية في الدولة الاموية ، في عهد معاوية وفي عهد عبد الملك بن مروان ، وفي عهد الخلفاء الامويين بعدهما ، وهي صورة تمثل لنا امة ليست موحدة إلا اسماً، ولا متفقة إلا قولا ، يجمع بينها الدين وهذا السلطان القائم القوي فقط ، والدين كما هو معلوم ومعروف ليس عاملاً فعالاً في توحيد الامم ، إلا على قدر، والعامل القوي كما يؤيد ذلك التاريخ وكل هذه الماضيات من الاعوام ، هو القومية والعصبية العنصرية ، وهذا ما كان معدوماً عند العرب ، فقد كانت القومية عندهم تقوم على القبيلة ، والقبيلة شيء صغير لا يؤلف ملكاً ، ولا يوطد سلطانا ، ومن هنا كان سبب انهيار الدولة الاموية بعد ذلك ..

والخلفاء الامويون في الواقع لم يفطنوا كما يظهر الى هذه الظاهرة الخطيرة ، ومعاوية وهو من يعرف الناس ذكاء ودهاء وبعد نظر ، لم يعمل شيئاً للقضاء على هذه العصبية التي كانت تضطرب في عهده ، بل نراه يساعدها ويقوّيها ، فينصح خلفه ان يرد اهل الشام الى بلدهم ولا يقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير ادابهم ، وهو امر غاية في سوءالسياسة، وآية في اقرار الشقاق ، وتقويةالخلاف، لان امة او دولة مولفة من شعوب مختلفة الاهواء والآداب والتقاليد لا يمكن ان تكون في صدر الوجود وهذا الحال حالها ...

وهذا ما وقع فعلا فقد استطاعت الدولة الاموية ان تفتح الفتوح ، وتستولي على ما استطاعت من رقعة الارض ، ولكن هذه الفتوح نفسها كانت عاملا قوياً في ضعفها وانهيارها ، فقد ازدادت العصبيات فيها قوة وشدة ، وزادت

التبعات الملقاة على عاتق الجيش لحماية هذه المملكة الواسعة الاطراف ، ولما ضعف الجيش ، واحست الامم المختلفة التي سكنت الى مصايرها بقوة الجيش وشدة الفتوح ، الى هذا الضعف اخذت تهب مطالبة باستقلالها ، او راحت تؤيد سلطاناً جديداً ترى انه سيكون اصلح من السلطان القديم رحمة بها وخيراً لها ، فقامت عندئذ الدولة العباسية مقام الدولة الاموية ، ثم تصدعت هذه الدولة الجديدة نفسها بسبب هذه القوميات الكثيرة التي كانت الامبراطورية مؤلفة منها ، والتي كانت الى حد بعيد ، لا تزال تشعر بأنها في وسط غريب عنها ، يختلف معها في التقاليد والعادات والعنصرية... حتى واللغة ايضاً ...

- ٢ -

الفتوح في الشرق

وعلى حدود الهند والصين

عهد الفتوح :

لعل عبد الملك بن مروان اول خليفة عربي تولى الخلافة بعده اربعة من اولاده : الوليد بن عبدالملك ، وسليمان ، ويزيد، وهشام،وهو الى هذا من الذين تخيروا حرائر زوجاتهم من اكرم البيوتات العربية ، فتزوج ولادة بنت العباس فاولدها ابنه الاكبر الوليد فسليمان فمروان الاكبر فعائشة ، وتزوج عاتكة بنت يزيد بن معاوية فاولدها يزيد ومروان الاصغر ومعاوية وام كلثوم ، وتزوج عائشة بنت اسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي فاولدها هشاماً وتزوج غيرهن ، فاولدهن من اولاده ما ليس يذكر التاريخ لهم خبراً الا ما كان من مسلمة بن عبد الملك فتى امية وزعيم شبابها ..

ولقد صرف عبد الملك بن مروان الشطر الاكبر في خلافته في توطيد ملكه وتنظيم امره ، وغمرت الثورات الداخلية المملكة الاسلامية في عهده ، وراح عبد الملك وعماله يعملون على تهدئة الامور ، وتسوية القلاقل ، واذا كان لنا

ما نقوله في هذه الثورات والاضطرابات فهي انها اضعفت القوات العربيـــة والسلاح العربي كل الضعف ، واذا كان هذا الضعف لم يظهر في عهد عبد الملك والوليد بن عبد الملك من بعده ، فقد ظهر في عهد الاواخر من خلفاء امية ، وليس من شك اليوم في ان الدولة العربية الناشئة كانت تعتمد في اكثر حروبها وزحوفها على رجال القبائل في العراق ومن نزل دمشق وسورية من العرب ، وهذه الحروب الداخلية المتتابعة قد افنت شباب هذين القطرين ، ثم ان هؤلاء العرب الذي اراد عمر بن الخطاب ان يكونوا قوة عسكرية متحركة لا ترتبط بارض ، ولا تتصل بزراعة قد اصبحوا مع الايام اهل زراعه وارض يكرهون ان يتركوا ارضهم ، وينكرون ان يذهبوا الى الحروب إلا قسراً ، وقد رأينا الحجاج يسّيرهم الى الحروب والمعارك بالقوة ، فما بالك بحالهم بعد عهد الحجاج وبعد ان اصبحوا اكثر اتصالا بالارض والزراعة ، بحيث ملوا العراك وملوا الحروب ، ولكنهم في الوقت نفسه لم يملوا الثورات الداخلية ، والاختلافات الخاصة التي كانت تعيث فساداً بينهم ...

ومن المؤكد اليوم ان الزحوف التي حصلت في عهد الوليد بن عبد الملك ، حصلت قبل ظهور الضعف الحربي عند العرب ، لان مثل هذا الضعف لايحصل فوراً ، ولا يحمل ثماره ارتجالا ، وبذلك تمكن الوليد بن عبد الملك من ارسال راياته من مشرق الارض الى مغربها ، فلما انتهى عهد الوليد ، انتهت الفتوح العربية البعيدة الاطراف وظهر الضعف الحربي الذي كان كامناً في النفوس ، بحيث انه لما اشتدت الثورات الداخلية في عهد مروان الثاني وجد العرب انفسهم قوة مستضعفة يحاربون بعضهم بعضاً ، ولا يستطيعون الوقوف امام القوات الفارسية التي غذّاها العباسيون ، واعتمدوا عليهـــا في انشاء سلطانهم وتوطيد امرهم ...

الوليد بن عبد الملك وقواده :

ولقد تسنم الوليد بن عبد الملك عرش الخلافة سنة ٨٦ للهجرة ، والسلام الداخلي يغمر ارجاء الامبراطورية العربية من اقصاها الى ادناهـا ، فعادت الفتوحات الاسلامية الى سابق عهدها ، ومشت الجيوش العربية الى ما حولها من الامصار تحمل اليها المثل الاسلامية المتواضعة في النظام والعدل والادارة والتسامح ...

وعهد الوليد ما في ذلك شك من اجّل عهود بني امية ، وهو يماثل عهد الفاروق من حيث تبسط الفتوح واتساع رقعة الاسلام وتقدم القوات الاسلامية الى السند والهند وجبال البيرنيه ، على ذلك يجمع مؤرخو العرب ، وعلى هذا يجمع المستشرقون ، وقد نعم الوليد بقواد خمسة قلّ ان نعم بمثلهم خليفة — الا ما كان من الفاروق نفسه — في ماضيات الأيام وحاضرها ، وهم قتيبة بن مسلم البـاهلي ، ومحمد بن القاسم بن محمد الثقفي ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، ومسلمه بن عبد الملك ...

ولقد كان لهؤلاء القواد اثر عظيم في هذه الفتوحات العظيمة التي انتظمت في المشرق وانتظمت في المغرب ، وبلغت الحدود الافرنسية ، واكتسحت اسبانيا ولو شاء ربك لامتدت منها الى بلاد الغال ـ فرانسا ـ وبلاد الالمان ثم نزلت القسطنطينية فجمعت بذلك بين المشرق والمغرب في صعيد واحد ، كان حتماً لو تمّ هذا واصبح امراً منظوراً ، ان يتبدل وجه التاريخ ، وان تظهر على اديم هذه الأرض دنيا جديدة ، ليست تساوق هذه الدنيا التي تراها اليوم في كثير ولا قليل ...

كان الاسلام يضطرب في حياة روحية ، قلّ ان رأى العالم مثيلاً لها منذ انبثاقه حتى يومنا هذا ، والذين يذهبون الى ان مصير الانسانية معلق برخائها المادي ، وان تطورها الى المثل العليا والكمال معلق بهـذا الرخاء ، يخطئون

خطأً عظيماً ما في ذلك شك ولا ريب ...

فالتاريخ الذي نتلطف في تسوية فصوله هذه شاهد على ان مصير الانسانية مرتبط بحياتها الروحية وبالايمان كل الايمان بهذه الحياة الروحية ، وتاريـــخ المسلمين الاولين يوم ركبوا الصحراء الى مشارف الشام وحدود فارس ، اكبر دليل على ان حياتهم الروحية الرائعة ، مكنتهم من الغلبة على الحياة المـــادية الجامدة التي كانت تضطرب في فارس ، وتغمر الروم وتسيطر على العالم القديم في ذلك العهد القصي ...

وتاريخ الخوارج نفسه ـ وقد تكلفنا سرد فصوله في الكتاب السابق ـ شاهد ايضاً على حياتهم الروحية وايمانهم القوي بهذه الحياه الروحية ،وقد مكنهم هذا من محاربة جيوش الامبراطورية العربية مدى اربعين عاماً ، ما انكسر لهم فيها لواء ، ولا انهزم جيش ، ولا ارتد جحفل ، وسبب ذلك ان حياتهم الروحية كانت اقوى من خصومهم ، وكذلك نرى ان القوة المادية اذا كانت تستطيع قهر القوه المادية ، فهي عاجزة كل العجز عن قهر القوة الروحية...

محمد بن القاسم الثقفي :

ولقد كان محمد بن القاسم الثقفي هذا الشاب الباسل امة وحده، تمثلت فيه سجايا الامة العربيه ، وعناصر قوتها بكل ما في الكلمة من معنى ، شرع في غزو الهند في السابعة عشر من عمره ، واتمّه ولما يتجاوز الثالثة والعشرين ... وبذلك سبق الاسكندر المقدوني الذي اشتهر بمعاركه وحروبه في سن الثلاثين...

وكذلك عادة الفتوح العربية عهد الوليد بن عبد الملك الى سابق عهدها ، بعد ان توقفت بسبب الثورات الداخلية التي توالت على المسلمين بعد مقتـــل عثمان بن عفان ، فاثبتت هذه الفتوح الجديدة ان الشعب العربي رغم اختلافاته العصبية وتقاليده البدوية في التحرر والانعطاق من كل سلطان وحكم قائم ، لا يزال يتمتع بالحياة الروحية التي كان ينعم بها اجداده اول الفتوح ، وهذه

الحياة الروحية هي التي مكنته اليوم ، وستمكنه في المستقبل من انشاء الدنيا التي يريدها ، ويحلم بها . . .

هذا محمد بن محمد بن القاسم بن الحكم بن ابي عقيل الثقفي ، ابن عم الحجاج امير العراق ، والمولود حوالي سنة ٧٣ هجرية ، يظهر للتاريخ وهو ما يزال شاباً صغيراً ، وحوله الفتن تجري في كل مكان ، والثورات تضطرب في كل موطن والجو مكفهر عابس ، فلا يحمله كل هذا على التبرم بالعيش ، والقلق من الحياة ، وانما نراه يأخذ اجمل الوان الحياة في عهده فينعم بها ، ويستسيغها كما لو كانت الدنيا تمشي وفاقاً لاغراضه واهوائه ...

يقبل على درس الادب الذي يتمثل في الشعر الغنائي الرقيق المأثور عن عمر ابن ابي ربيعة وجميل وكثير والنميري وغيرهم من شعراء عصره ، او العصر الذي سبقه ، فيستشعر في هذا الادب لوناً يرضيه وجمالاً يستعذبه ويقرّبه اليه ، فيعتدل مزاجه ، وترقى حواشي نفسه حتى يطلبه الحجاج اليه ، وهو من اعرف الرجال بالرجال ، فيوليه فتح الهند ، ويدفع بقتيبة بن مسلم الى غزو الصين ، ولعل الحجاج في سياسته هذه انما درج على سياسة الخليفة الاول ابي بكر الذي بعث بجنوده لغزو الروم والفرس في وقت واحد ، وذلك بعد انتهاء حروب الردة حتى لا يتعود العرب على الانكماش والراحة ، وحتى لا تدفعهم الراحة الى التفكير في السياسة الداخلية والاختلافات الحزبية ...

ولم يكن غزو الهند من مبتكرات الحجاج ، فقد عرف العرب الهند قبل عهده ، وركبوا البحر اليها تجاراً وطمعوا في غزوها في عهد الفاروق ، فسار عامله عثمان بن ابي العاص الثقفي على البحرين وعمان سنة ١٥ للهجرة الى تانه[١] ثم كتب الى عمر بذلك فمنعه عن المضي في غزواته ...

وتتابعت بعد ذلك غارات عرب البحرين على شواطيء الهند وجزائرها

(١) موضع قريب من بومباي الحاضرة .

خصوصاً « سيلان » فكانوا يعودون بالسبي والجواهر ،ومنهم من استقر في الهند حتى كان زمن الحجاج فاغزى عماله على (مكران) وهو ثغر الهند ، فلم يوفقوا، وكان يحكم الهند عدد من الملوك كان اخطرهم شأناً ملك يقال له «داهر» كان يرد قواد الحجاج وينكل بهم حتى كانت الحادثة التالية ..

التأهب للغزو :

وذلك ان ملك جزيرة الياقوت فيما يروي البلاذري ، اراد التقرب من الحجاج فاهدى اليه نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آباؤهن وكانوا تجاراً ، فعرض للسفينة التي كن فيها قراصين من الهند فاخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهن من بني يربوع : يا حجاج !!! وبلغ ذلك الحجاج فقال : يا لبيك!..

وارسل من فوره الى داهر يسأله تخلية النسوة ، فاجاب بانه انما اخذهن لصوص لا قدرة له عليهم .. فاغزى الحجاج اثنين من عماله ثغر السند فكلاهما قتل ، فاهتاج الحجاج وتجرد لقتال داهر ، وكان قد اعد ابن عمه محمد بن القاسم لغزو الري ، فلما حدث ما حدث على حدود السند رأى في هذا الشاب من يرأب الصدع ويدرك الثأر ، فرده عن غزو الري وعقد له على مكران وثغر السند ، وامره ان يقيم بشيراز حتى توافيه القوة التي أخذ يعدها لقتال العدو .

كانت هذه القوة مؤلفة من جيش واسطول ، اما الجيش فكانت عدته زهاء عشرين الف مقاتل منهم ستة الاف من جند الشام الذين كانوا عدة الدولة الاموية ومعولها ،والذين وطأوا للامويين اكتاف ملكهم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوبا ، واما الاسطول فكان يحمل المشاة والمؤن وعدد الحرب الثقيلة ، ومن هذه خمس مجانيق ضخام يقال لاكبرها (العروس)، ويروي البلاذري : انه كان يمد فيها خمسمائة رجل ، وبالغ الحجاج على عادته في اعداد الجيش حتى انه جهزه بكل ما احتاج اليه من الخيوط والمسال ، وعمد الى القطن المحلوج فنقع في الخمر الحاذق ثم جفف في الظل ، وقال : اذا سرتم الى السند فان الخل بها

ضيق فانقعوا هذا القطن ثم اطبخوا به واصطبغوا ، ثم تقدم الى محمــد ان لا يقطع عنه اخباره بحيث يختلف البريد بينهما كل ثلاثة ايام ..

وخرج محمد بن القاسم بجيشه من شيزار سنة ٩٠ هـ. ٧١٠ م. فسار مشرقاً متبعاً ساحل البحر يطوي الحزون والسهول ويجوب المهـامه والقفار ، ويحدوه ما يحدو الشاب الباسل من حب للمجد،وتعلق باسباب المعـــالي ، فتغلب على صحارى كرمان ومكران ، وبلغ الديبل سالماً ، ولم يكد يحط رحـاله حتى كان الاسطول قد وافاه بها ، فشرع من فوره في مهاجمة المدينة ..

قال صاحب فتوح البلدان : « فقدم الديبل يوم جمعة ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والاداة فخندق حين نزل الديبل ، وركزت الرماح على الخندق ، ونشرت الاعلام ، وانزل الناس على راياتهم ، ونصب منجنيقاً تعرف بالعروس ، وكان يوجد فيها خمسمائة رجل ، وكان بالديبـــل « بد »[1] عظيم عليه دقل طويل وعلى الدقل «سهم للسفينة» راية حمراء اذا هبّت الريح اطافت بالمدينة وكانت تدور .. وكانت كتب الحجــاج ترد على محمد وكتب محمد ترد عليه بصفة ما قبله ، واستطلاع رأيه فيما يعمل به في كل ثلاثة ايام ، فورد على محمد من الحجاج كتاب : ان انصب العروس واقصر منها قامة ولتكن ممـا يلي المشرق ، ثم ادع صاحبهـــا فمره ان يقصد برميته الدقل الذي وصفت لي ، فرمى الدقل فكسر ، فجزع العدو من ذلك ، ثم ان محمداً ناهضهم وقد خرجوا اليه ، فهزمهم حتى ردهم وامر بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال.. ففتحت عنوة .. وهرب عامل داهر عنها واختط محمد للمسلمين بهـا دوراً وبنى مسجداً وانزلها اربعة الاف » .

ثم سار محمد مصعداً مع النهر يريد داهراً ، وعظم جيشه فاستولى على مدينة الرور صلحاً وانضم ،اليه على اثر ذلك اربعة الاف من الزط ، وصار كثير من

---
(١) صنم .

قبائل السند عوناً له في حربه مع داهر ثم عبر نهر مهران والتقى بداهر وجيشه وكان على فيل عظيم ،ومن حوله الجند على فيلة تنذر محمداً وجيشه بفتك ذريع، ولكن محمداً اتقى شر الفيلة بقذائف من النفط الملتهب يرميها بهـا ، فهاجت واحترقت هوادجها بمن فيها من الجند ، وانتشب بين الفريقين قتال هائل انجلى عن قتل داهر وتمزق جيشه ، وتراجع فلوله الى مدينة (برهمنا باز) نفسهـا ، ومن ثم زحف محمد الى مدينة الرور فحاصرها اشهراً ثم دانت له على ان يحقن دماء اهلها وألا يعرض لصنمهم ، وان يؤدوا اليه الخراج ، وقد وفى لهم بشرطهم وبنى بالمدينة مسجداً ، ثم قطع نهر بياس الى الملتان جنوبي البنجـــاب اعظم بلدان السند العليا فامتنعت عليه اول الامر ، ثم استولى عليها بمالأة رجل من اهلها له ... ووضع يده على اموال عظيمة كانت بمعبدها البوذي العظيم .

وكانت الملتان اقصى ما وصل اليه ابن القاسم من ناحية الشمال، قال البلاذري: « ونظر الحجاج فاذا هو قد انفق على محمد بن القاسم ستين الف درهم ووجـد ما حُمل اليه عشرين ومائة الف الف ، فقال : شفينـا غيظنا وادركنـا ثأرنا وازددنا ستين الف الف درهم ، ورأس داهر ...

أخذت الملتان سنة ٩٥ هجرية ،وعلى اثر ذلك اتت محمداً وفاة الحجاج فقفل راجعاً نحو الجنوب ، مستولياً في طريقه على مدن لملوك آخرين غير داهر ، وكان آخر ما فتح مدينة يقال لها « الكيرج » استولى عليها عنوة سنة ٩٦ هـ ، ثم اتاه نعي الخليفة الوليد بن عبد الملك وولاية اخيه سليمان ، فلم يبرح تلـك المدينة ،وقلب له الدهر من ذلك الوقت ظهر المجن ، واخذ نجمه في الافول...

وكان مع حداثة سنه وصدق فروسيته قد ملك زمام اصحابه ، فلا نسمع ان احداً منهم حدثته نفسه بخلاف عليه ، او عصيان له ، ثم انه بهذه الخلال نفسها وبرجاحة عقله وسعة حلمه اجتذب قلوب السند انفسهم . فقـد قارنوا بينه وبين ملوكهم المترفين المتجبرين المتخاذلين ، فلم يتمالك كثير من قبائلهم

ان اعطاه الطاعة واخذ جانبه في الحرب كما سبق القول ، ويروي انه عندما شرط عليه اهل مدينة الرور ألا يقرب «صنمهم» ، وفى لهم بذلك وقال : ما البد إلا كفيره من المعابد وبيوت نيران المجوس . . . وكانت حكومته ايام عادلة رفيقة اذا قيست بحكومة ملوكهم وامرائهم ، فقد تقدم الى عماله بهذه النصيحة : « انصفوا الناس من انفسكم واذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية ، وراعوا في فرض الخراج مقدرة الناس على ادائه ، ولا تختلفوا ولا تنازعوا فتشقى بكم البلاد » وكان مدركا كل الادراك ان عليه واجبين عظيمين : عليه ان ينشر في البلدان التي فتحها الثقافه الاسلامية ، وان يصل بين الشرق والغرب الاسلاميين ، ومن اجل ذلك كان اذا فتح مدينة انزلها بعض اصحابه وبنى بها مسجداً ، ومن اجل ذلك نقل طوائف من الزط والسيابجة الى العراق فانزل الحجاج بعضهم كورة كسكر بفارس ، ووجه بقيتهم الى الخليفة ، فانزلهم انطاكية وسواحل الشام ، لينتفع بخبرتهم البحرية في قتال الروم ، كذلك ارسل الى الحجاج فيلة ضمت الى مشرعة الفيلة التي كانت بواسط ، كما بعث اليه بآلاف الجواميس الهندية فاطلق الحجاج بعضها في آجام كسكر وكور دجلة ، وبعث كثيراً منها الى الخليفه فاطلقها في الاجام التي بين انطاكية والمصيصة ، واتقى بها سباع تلك الاجام وكانت قد كثرت واخافت السابلة ، وقد نمت هذه الماشيه في العراق على مر الزمن ، واصبحت من اسباب ثروته الاقتصادية . . .

هذه الغزوة الموفقة الى الهند التي قام بها محمد بن القاسم تذكرنا بغزو الاسكندر المقدوني لتلك البلاد نفسها في القرن الرابع قبل الميلاد ، فان في الغزوتين بعض التشابه ، تتشابهان من حيث ان كلتاهما برية وبحرية الى حد بعيد ، ومن حيث حداثة كلا الفاتحين وكفايته ، ولكن محمد بن القاسم كان احدث من الاسكندر ، ومن حيث ان الفاتحين نهجا في نشر ثقافتها بالهند نفس المنهج الذي

نهجه الاخر ، ومن حيث ان كلا منهما كان يهدي الى استاذه الوانـاً من طرف فتوحه ، ويراسله مستطلعاً رأيه ، فالفـاتح المقدوني كان يهدي الى ارسطو الفيلسوف ويراسله وهو استاذه ، والفاتح العربي كان يهدي الى الحجاج حـاكم العراقيين ويكاتبه وهو اميره ..

نهاية محمد بن القاسم :

وكانت نهاية محمد جـاهمة مؤسفة ، فلما وُلي سليمان بن عبد الملك الخلافة وكان حانقاً غاضباً على الحجاج ، وكان الحجاج قد توفي قبله ، انتقم من اهـله وذويه ، وكان محمد بن القاسم منهم ، فقبض عليه عامله وعذبه حتى مات ..

قتيبة بن مسلم وغزواته :

وكان الحجاج في الوقت نفسه قد ولي قتيبة بن مسلم خراسان سنة ٨٦ هـ. ، فقام في اهلها خطيباً ودعاهم الى الغزو والفتح في سبيل الله وفي سبيل نشر الدعوة ، ومـا كاد يرتب امور خراسان ويضبط شؤونها حتى اخذ بالاستعداد للزحف على بلخ وغيرها ، ثم سار اليها فتلقاه دهاقينها وعظماؤها وساروا معه ، ولما عبر النهر استقبله ملـك الصغد – الصغانيان – بالهدايا ومفـاتيح من ذهب ، ودعـاه الى بلاده ، فمضى معه فسلمها اليه ، لان ملك « اخرون وشومان » كان يسيء جواره ، فتقرب الى قتيبة لعـله ينجو بواسطته من شر خصمه ، وسار قتيبة بعدها الى «اخرون وشومان» فصالح ملكها على فدية اداها اليه..

وغزا قتيبة في سنة ٨٧ للهجرة بيكند[١] وهي من بلاد ما وراء النهر حيث اغار على الصغد وقاتلهم قتالاً شديدا فانهزموا وتفرقوا ، ثم طلبوا منه الصلح ، فصالحهم وولى عليهم والياً من قبله ، غير انهم ما عتموا ان انتهزوا فرصة غيابه

---

(١) بلاد بين بخارى وجيحون على رحلة من بخارى .

فثاروا على عامله وقتلوه ...

فعاد اليهم قتيبة واقتحم مدينتهم عنوة ، ونقب سورهم وقتل من كان فيها من المقاتلة ، وغنم منهم غنائم عظيمة ، ثم قفل راجعاً الى (مرو) حيث مقره في خراسان ...

وفي ربيع ٨٨ هـ. ٧٠٥ مـ. استخلف قتيبة على مرو اخاه بشار بن مسلم وواصل فتوحاته في بلاد كرمينية [1] فحالفه النصر بعد عناء شديد ، وغلب الترك واهل فرغانه، ثم سار الى (بخارى) فلقي في فتحها عناء عظيماً واخيراً صالحه اهلها ...

والمستشرقون يقولون ان قتيبة في سنة ٧٠٥ استرد صخارستان ، وعاصمتها بلخ ، واقتحم بخارى وبلاد الصغد واستولى على سمرقند والبلاد التي حولها وخوارزم وتسمى اليوم « كيفا »، والظاهر ان هذه الفتوحات لم تكن ثابتة ، فما يحتل قتيبة بلداً ، ويعود منها ، حتى يعود اهلها الى الثورة ، وكذلك نراه سنة ٩٠ للهجرة يمشي الى بخارى كرة ثانية ، فيستنصر ملكها بالصغد والترك، ولكن قتيبة يسبق الاحلاف الى بخارى ويحاصرها ، وفي اثناء الحصار جاء المدد الى اهلها فخرجوا لقتال العرب ، فصبروا لهم ولكنهم تمكنوا من الوصول الى قلب معسكر قتيبة لكثرة عددهم وشدة هجومهم وجازوا قلب المعسكر ، حتى اخذ نساء العرب يضربن وجوه الخيل لتعود الى المعركة ، يرددن من ارتد ويشجعن من تراجع، فعاد العرب فقاتلوهم حتى ردوا العدو الى مكانه ، ولكن قوة من الترك صمدت في مكانها على مكان مرتفع ، فاستحمس قتيبة بني تميم وقال لهم :

– يوم كايامكم .. ابي لكم الفداء ...

فكان بنو تميم عند حسن الظن ، فاقتحموا على الترك ومازالوا بهم حتى

---

(١) بلاد من نواحي الصغد تقع بين سمرقند وبخارى وبينها وبين بخارى ١٨ فرسخاً .

اجلوهم عن مكانهم وتمّ النصر للعرب ..

وفي سنة ٩٣ ﻫ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحاً ، ثم غزا سمرقند ففتحها بعد قتال شديد ، وبنى فيها مسجداً وصلى فيه ..

وفي العام التالي تقدم قتيبة الى اواسط اسيا فاحتل فرغانة [١] وبلغ حجنده [٢] فاشتبك مع اهلها في حروب شديدة حالفه فيها النصر ، ثم انصرف الى كاشان [٣] ففتحها وعاد الى مرو ...

وكان تقدم قتيبة الى اواسط آسيا تحدياً للمغول والبوذية ، لان بخارى وبلخ وسمرقند كان فيها معابد بوذية ..

ولما تقبّل اهل هذه البلاد الاسلام بعد سنوات اصبحت بخارى وسمرقند وخوارزم مراكز للثقافة الاسلامية العربيه ، وفي سنة (٧٥١) استولى العرب على الشاش (تشكند) وبذلك ثبتوا الحكم العربي الاسلامي في وسط آسيا بحيث اصبح يصعب على الصينيين منازعتهم او اقصاءهم عن البلاد ..

وكان الحجاج كثير الاهتمام لفتوح قتيبة بن مسلم، وكان قتيبة لا يتأخر عنه بالرسائل والاخبار ، يأخذ رأيه ويمشي على طريقته ، فلما كان قتيبة يحاصر (بيكند) وقد استنصر اهلها الصغد واستمدوهم فامدوهم في جمع كثير، واخذوا الطرق على قتيبة ، ولم ينفذ لقتيبة رسول الى العراق مدة شهرين ، اضطرب الحجاج واشفق على الجند فامر الناس بالدعاء لهم في المساجد ..

واتاه كتاب الوليد بن عبد الملك في هذه الاثناء يقول له فيه : « قد عرف امير المؤمنين بلاءك وجدك في جهاد اعداء المسلمين ، وامير المؤمنين رافعك

---

(١) اقليم متاخم لبلاد تركستان ومن مدنه حجنده .

(٢) مدينة مشهورة على نهر سيحون بينها وبين سمرقند عشرة ايام شرقاً .

(٣) عاصمة فرغانة .

وصانع بك كالذي يحبب لك ، فاتم مغـــازيك ، وانتظر ثواب ربك ، ولا تغيب عن امير المؤمنين كتبك ، حتى كأني انظر الى بلادك والثغـــر الذي انت فيه .. » [1]

مع ملك الصين :

وسار قتيبة في سنة (٩٦) ه الى حدود الصين على رأس جيش عظيم ، فلما كان في طريقه اليها جاءه نبأ وفاة الوليد بن عبد الملك ـ وكان الحجاج قد توفي قبله ـ فلم يعقه ذلك عن الغزو ، وواصل سيره حتى اقترب من الصين فارسل الى مليكها وفداً برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي، وبعد ان دارت بينه وبينهم عدة مراسلات قال ملك الصين يحاور الوفد :

– انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فاني قد عرفت حرصه وقلة اصحابه ، او ابعث عليكم من يهلككم ويهلكه .. »

فقال هبيرة : كيف يكون قليل الاصحاب من اول خيله في بلادك واخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصاً من خلـّف الدنيا قادراً عليهـــا وغزاك.. ؟ واما تخويفك لنا بالقتل فان لنا آجالاً اذا حضرت فاكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه ..

فاجابه ملك الصين : فما الذي يرضي صاحبك ..؟

فقال هبيرة : انه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ ارضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية ...

فقال الملك : فاننا نخرجه عن يمينه ، نبعث اليه بتراب من تراب ارضنا فيطؤه ، ونبعث ببعض ابنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها..

---

(١) الطبري ...

ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب واربعة غلمان من ابناء ملوكهم ، ثم اجاز الوفد .. فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردّهم ووطأ التراب ثم عاد الى مرو ..

نهاية قتيبة :

وكانت نهاية قتيبة بن مسلم قاسية جاهمة ، فقد كان من القواد الذين ايدوا الوليد بن عبد الملك لما حاول عزل سليمان شقيقه عن ولاية العهد ، وتوليه ابنه عبد العزيز مكانه فاضطغنها عليه سليمان ، وكان الى ذلك من صنائع الحجاج ورجاله ، فلما ولي سليمان اشفق منه قتيبة وخاف ان يولي خراسان يزيد بن المهلب ، فكتب اليه كتاباً يهنئوه بالخلافة ، ويعزيه بالوليد ، ويعلمه بلاءه ، وطاعته لعبد الملك والوليد من بعده ، وانه له على مثل ما كان لهما عليه ، من الطاعة والنصيحه ان لم يعزله عن خراسان ، وكتب كتاباً ثانياً يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظيم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم ، وعظم صوته فيهم ، ويذّم المهلب وآل المهلب ، ويحلف بالله لئن استعمل يزيداً على خراسان ليخلعنه ...

وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه ، وارسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلي يثق به وقال له :

ـ ارفع اليه الكتاب الاول ، فان كان يزيد بن المهلب حاضراً ، فقرأ الكتاب ورماه اليه ، فادفع اليه الثاني ، فان قرأه ورماه اليه ، فادفع اليه الثالث ، وان قرأ الكتاب الاول ولم يرمه الى يزيد فاحتبس الكتابين الاخرين.

فقدم الرسول على سليمان وعنده يزيد بن المهلب ، فدفع اليه الكتاب الاول فقرأه ورماه الى يزيد ، فدفع اليه الثاني ، فقرأه ورماه الى يزيد ، فاعطاه الثالث فقرأه ، فتغير وجهه واحتبس الكتاب في يده ،وحوّل الرسول الى دار الضيافة ، ولما امسى ...اجاز الرسول واعطاه عهد قتيبة على خراسان ..

القتـــل :

وكان قتيبة قد تعجل الامر قبل وصول رسوله اليه فاجمع رأيه على خلع سليمان لعدم اطمئنانه من جهته ، ودعا الناس الى خلعه ، فابى عليه الناس ، وولوا امرهم وكيعا سيد بني تميم ، وثاروا على قتيبة حتى قتلوه هو واخوته واكثر بنيه ، فقال رجل من عجم خراسان :

ـ يا معشر العرب قتلتم قتيبة بن مسلم القائد العظيم لخوفه من سليمان بن عبد الملك ، وضيق صدر هذا، ورغبته في الاقتصاص من خصومه ولو كانوا من كبار القواد ، وعظماء الابطال ...

سياسة خاطئة :

ولقد كانت سياسة سليمان بن عبد الملك مع قواده غاية في الخطاء وسوء الرأي ، قتل محمد بن القاسم فاتح الهند،وكان مصير قتيبة فاتح الصين مثل ذلك ، وحبس وأهان وطوّف بالاسواق بموسى بن نصير فاتح الاندلس ، لخلاف خاص وقع بينه وبين قائده طارق ، فايد الخليفة طارقاً ، ولم يحاول تسوية الامر بالتي هي احسن فقضى بعمله هذا على ثلاثة من اكبر ابطال العرب واعظمهم بطولة وبسالة وفتوحاً ...

- ٣ -

العرب والامبراطورية البيزنطية

منذ اول الفتوح الى هذا العصر

ضعف الامبراطورية :

كانت الامبراطورية البيزنطية الشرقية وعاصمتها القسطنطينيه ، قد ورثت كثيراً من مساوىء الامبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما ، وكما سقطت هذه تحت معاول البرابرة الهدامة ، افسحت الامبراطورية البيزنطية للبرابرة ، والفوضى ، وضروب الانقسام والشقاق المجال الاوسع تتسرب الى نظمها السياسة والاجتماعية والعسكرية ، فتطرقتها الفوضى وتعاورها الانقسام ودبّ في شعوبها روح الذعر والانحلال ، وجعلت هذه الشعوب الخاضعة لها تتنكر لاحكامها ، وتتمرد على نظمها ، وترفض دفع الضرائب ، وتحرض غيرها على ذلك ، وذريعتها في هذا التنكر انها لا تريد ان ينفق القياصرة الاموال التي تجبي من الشعوب على تشييد القصور ، وتعمير الصروح ، واتراعها بوسائل اللهو والعبث والمجون ، ولا تسيغ ان يمضي عمال الامبراطورية في حياتهم

المترفة الراغدة ، على حين لا تستطيع هذه الشعوب ان تنعم بشيء من العدل والاطمئنان والرغد والهناء ، المفروض ان يقدمه كل شعب من الشعوب الذي يرغب في تأسيس دولة وانشاء حضارة الى الامم الاخرى التي نزلت تحت حكمه وقبلت بنظمه وسلطانه .

وكانت القسطنطينية في هذه الفترة ، وذلك قبيل الفتح ميـــدان سباق تتطاحن فيها الاحزاب الدينية .

ويتقدم القسس والكهنة بمثال صارخ على الاغراق في القسوة والظلم فلا يرى البطريرك سيريل بأساً من السير على رأس عدد من الكهنة الى منــازل اليهود لاحراقها وتدميرها . وتمتد هذه المذابح الى الاسكندرية نفسها فتحرق فيهـا (هيباتي) العالمة المثقفة التي كانت مجداً لمدرسة الاسكندرية ، ويشدّ احــد البطاركة (ديوسكور) بيديه على عنق المصلح اثيوشيوس فيميته خنقـــاً ، تحت سقف الكنيسة في مؤتمر افسس بعد اتهامه بالزندقــة والخروج على روح النصرانية ، وكانت مثل هذه المآسي تقع في كل اطراف الامبراطورية الواسعة الاطراف ، بحيث كان الانقسام عاماً ، والفساد شاملاً .

كانت هذه المـآسي تعصف بالامبراطورية البيزنطية في الوقت الذي كان فيه اللومبارديون والصقالبة والبرابرة والبلغار والفرس ، يتبـــارون في تدمير الامبراطورية الفخمة ، وكان حصاد البيزنطيين هذه المـآسي ، وعصر فوكاس الظالم ، ففي هذا العصر رابطت جيوش كسرى على ضفاف البوسفور ، وعبث قائد من قوادهم بحرمة قبر السيد المسيح في بيت المقــدس ، واخـــذ الصليب وهو رمز النصرانية فازاله عن موضعه ، ومضى به الى بلاده .

ولما قتل الامبراطور فوكاس وخلفه الامبراطور هراقليوس او هرقــل ، تمكن من استرجاع الصليب ورد الفرس الى بلادهم واجلاهم عن ارضه وامصاره ، ونشر السلام والموادعة في انحاء الامبراطورية وعاد الى عاصمته مكللاً بالامجاد

والازهار فلم يكد يستخذي الى حياته هذه الوداعة قليلا ، حتى دهمه من الصحراء مالاقبل لهبه ،واذا هذه الامة العربية التي لم يكن الرومان يحسبون لها حساباً في تاريخهم الطويل العريض ، قد استفاقت من غفوتها ، واذا هذه الدنيا التي احرقتها الشمس تنكشف عن امة قوية بارعة، واذا رمال الصحراء تتكسر عن جيش عربي يقتحم مشارف الشام وينزل على غوطة دمشق ، وضفاف بردى ، ومجاري النيل في مصر ، واذا هناك جيش عربي آخر ، يهوي بذلك الصرح الذي اقامه الفرس طوال العصور الماضيات،فيقتحم معاقل الاكاسرة ، ويقيم فيها دولة عربية جديدة .

الفتوح العربية :

وكذلك مكّن الله للعرب من دنيا الرومان والفرس والفراعنة ، ومكّن لهم في هذه الدنيا العريضة الواسعة الاطراف ، كما لم يمكن لاحد سواهم ... من الامم ، حتى لقد ذهب بعض مؤرخي الفرنجية يعجبون من العرب مع قلة عددهم ونقص سلاحهم ، وضعف أهبتهم ودربتهم كيف تمكنوا من اقتحام الممالك والعروش دفعة واحدة ، وفي جهات متعددة مع ان الرومان مع اتساع امبراطوريتهم وقوة سلاحهم وكثرة جندهم ، لم يكونوا يحاربون عدوهم الا في جبهة واحدة ، وكان قوادهم يكرهون توزيع قواهم ، وينفرون من البعد عن قواعدهم ، ثم لا يوفقون مع العرب ابداً ، والعرب مع توزيعهم قواهم ، وقلة عددهم يوفقون وينجحون .

والواقع ان معركتين في اجنادين واليرموك، فتحتا للعرب سورية وفلسطين من امصار الامبراطورية البيرنطية،ثم تبعتها مصر،ومعركتين ثانيتين في القادسية ونهاوند ، مهدتا لهم فارس باسرها ، فالامبراطورية الرومانية بعد ان انتزع العرب منها سورية ومصر وافريقية، بقيت لها اسيا الصغرى او الاناضول..

واما الامبراطورية الفارسية فقد انهارت امام الفاتحين بتمامها ، وهكذا

امتد سلطان العرب في بضع سنوات من افريقية وجبال طوروس ، الى سيحون وجيحون ، ولم يلبث ان قطع بعد قليل .. ما وراء النهر حتى وصل الى حدود الصين والهند ...

هذا التبسط العجيب السريع ادهش بعض المستشرقين فصرح (ماكس مايرهوف) قائلا :

« يكاد يكون مستحيلاً ان نفهم كيف ان اعراباً منقسمين الى عشائر ، ليس عندهم العدد والاعتدة اللازمة ، يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الاعداد والعتاد ، وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة »

التفسخ الروماني :

ومن المفروض ان لذلك اسباباً عرض لها المؤرخون بكثير من الصراحة والجرأة فقالوا : ان الدول المضمحلة المشتتة المقسمة التي يغمرها الفساد وتتمزق فيها الروح القومية تكون ابداً عرضة لان تقهرهادولة ناهضة جديدة، خصوصاً اذا كانت هذه الدولة الجديدةتعيش في جوار الأمم المضمحلةالمتفسخة، كما كان شأن العرب مع الرومان وشأنهم مع الفرس .

ولعل أسوأ ما كانت تمتاز به القوانين الرومانية قبيل الفتح العربي ، سواء أكانت اجتماعية او سياسية او ادبية ، انها خلقت فروقاً عظيمة بين طبقات المجتمع ، فلا ينتظم في سلك الجيش او المناصب الا وطني روماني ،ولاتتساوى بالوطنيين رعية البلاد التي تظللها الدولة بحمايتها ، كما ان هؤلاء الرعايا الذين ادخلتهم الدولة الرومانية في امبراطوريتها بالقسر والطغيانلم يكونوا يتساوون مع الوطنيين الرومانيين في الحقوق الاجتماعية او السياسية .

وشيء آخر ايضاً وهو ان الأمبراطورية الرومانية كانت تنظر الى هذه

الأمم والشعوب الغربية كمصادر خصبة لأغتصاب الأموال والأرزاق ، وكانت الكنيسة تعتبرهم ميداناً لنشر دعوتها ...ونشر دينها الى أقصى ما يكون ... وكان الحكام ورجال الدين المكلفين بحماية الأمم وحكمها وتهذيبها يشتدون في القسوة على كل من لم يعتنق دين الأمبراطورية ويتقبل بتعاليمها .

وفي القرن السابع بلغ الاختلال في السياسة الرومانية غايته ، وادى هذا الاختلال الى اضمحلال سلطة الأمبراطورية البيزنطية ، بحيث اضطرت بعض الشعوب المحكومة ان تتولى امر الدفاع عن نفسها ، فبعثت هذه الواجبات في الشعوب المذكورة روحاً جديدة ، وخفت المغارم المالية والأعباء الشخصية التي كانت تفرضها حكومة القياصرة على رعاياها دون ما تفريق بين الطبقات والاشخاص .

وادى هذا الى اضمحلال الجيش ، وتكاثر الجنود المرتزقة فيه ، وزوال الصبغة الوطنية عن الأنظمة الحربية الرومانية ،ولكن هذا لم يمنع هذه الجيوش التي كانت تتألف من افضل طبقات المجتمع ومن المرتزقة من سكان الجبال ، من الصمود للجيوش الاخرى التي كانت تناجزها العداوة في هذه الفترة ، كجيوش القوط والفندال والعرب احياناً ، وظل هذا شأنها حتى ظهرت على حدود الأمبراطورية البيزنطية قوة جديدة ، تحمل روحاً جديدة ، ومثلاً علياً جديدة ، فخلقت هذه القوة العربية الجديدة مجتمعاً عربياً اسلامياً قوياً ، كان شعاره العدل والمساواة والحرية ، ومن مميزاته الزهد والفضيلة والمثل والمساواة والمثل العليا الأنسانية ، وقد فازت هذه الروح بالأستيلاء على فارس وسورية ومصر ، كما اتبعت في فتوحها هذه سياسة اللين والأعتدال ، فلم يكن عجباً ان تقام الكنائس حيث تقام المساجد ، كما كان من الامور الطبيعية ان ينعم النصراني واليهودي بحرية الأعتقاد والتمتع باقامة شعائر دينية على الوجه الذي يريده ويختاره ، بعد ان يدفع جزية متواضعة كانت كل

ما صحب هذا الفتح الجديد من الأعباء المالية ..

واذن فليس غريباً ان يسجل التاريخ ، ان توغل المسلمين في امصار الامبراطورية البيزنطية كان في الغالب محوطاً بعطف الشعوب المحكومة من الروم ، وفي هذا يقول المؤرخ (فنلي) تعليقاً على ما بسطناه :

« كانت انظمة الحكومات البيزنطية ابلغ في الاستبداد والظلم من الحكومات العربية ، ولذلك رحب سكان الشام بشيعة محمد ، وتعاون قبط مصر مع المسلمين الفاتحين في اخضاع الروم ، وقاتل البربر مع الجيوش العربية لافتتاح افريقية ، كرهاً منهم لحكومة القسطنطينية واغتباطاً بالحكم الاسلامي العادل ، ولا بد ان تقتسم الكنيسة والحكومة عبء هذه الاخطاء ،اذ يصعب ان نحدد العوامل والاسباب التي يمكن ان تنسب الى جور الروم في فرض الضرائب واستلاب الارزاق ، او التي يمكن ان ترد الى مبالغة الكنيسة في القهر الديني والضغط على الضمائر وحرية الاعتقاد » .

ابو بكر والروم :

ولقد اصطدم العرب بالروم اول ما اصطدموا – وذلك في فجر الفتوحات الاسلامية – عهد ابي بكر ، وكان الاصطدام اول مرة ضعيفاً ليناً ، وذلك يوم انفذ ابو بكر اسامة بن زيد على رأس قوة من الجيش لغزو بني قضاعة ، وذلك تنفيذاً منه لامر رسول الله وهو على فراش موته بانفاذ هذا الجيش ، وكانت قضاعة من القبائل العربية التي تتعاون مع الروم ، وكانت قد اغارت وساعدت الروم في يوم (مؤتة)عهد رسول الله ،فذهب اسامة واغار على قضاعة وعاد منتصراً رابحاً ..

ثم كانت حروب الردة ، وقد شغلت هذه الحروب الخليفة الاول ، فلم يقع بينه وبين الروم والفرس اصطدام ولا خصومة ،فلما انتهت حروب الردة بعودة القبائل العربية النافرة الثائرة الى سياسة الوحدة العربية والجامعة الاسلامية ،

انفذ ابو بكر جيوشه تهاجم حدود فارس ، بقيادة خالد بن الوليد ، ثم بعث بقوة اخرى وذلك في اواخر ايامه تعبث بالحدود الرومانية السورية ..

لم تكن القوة الغازية قوية ولا ضخمة ، ولكنها كانت قوية الايمان عظيمة البطولة ، وحديث المعارك التي دارت بين هذه القوة والروم في سورية وفلسطين ثم في مصر ، والتي انتهت بانخذال الروم ، وانحلال سلطانهم ، واستيلاء العرب على ما كانوا يحكمونه من مدن وامصار ، يجده القارىء مفصلاً في غير هذا الكتاب ، يجده في مؤلفاتنا السابقة التي عرضنا فيها لسيرة الخلفاء الاولين ، ونشوء الدولة الاموية .

ولقد توفي ابو بكر والمعارك بين العرب والروم في سورية على اشدّها وضراوتها ، وانتقل الى رحمة ربه ، والامبراطورية الفارسية لا تزال شديدة قائمة ، وقد كان ابو بكر من الذكاء وبعد النظر ، بحيث فطن الى الموقف الخطير ، الذي يقفه العرب ، وتحارب فيه الجيوش العربية الصغيرة ، الجيوش الرومانية والفارسية الجرارة في جبهات مختلفة ، فاختار عمر بن الخطاب ليكون الخليفة من بعده ، ثقة منه انه اقدر الصحابة على المضي بالسياسة التي رسمها ، والفتوح التي بدأها ... الى غاياتها ونتائجها المقررة ...

وحياة ابو بكر وخدماته للاسلام والعربية غرة في جبين الدهر ، كانت حياته الخاصة كحياته العامة ، وليس هناك بين المستشرقين من يجد سبيلاً للانتقاد عليه ، والذين نأخذ عنهم ليس فيهم واحد مسلم ، وذلك لاننا لا نرى حاجة على الاستشهاد على قيمة الخلفاء المسلمين بكلام المسلمين ، وانما نريد ان نقيم الادلة من اقوال العلماء الاوروبيين الذين ليسوا بمسلمين ، والذين لا يمكن ان يتهموا بمحاباة الاسلام والرغبة في ارضاء ابنائه وجماعاته .

نقول انه ليس هناك بين المستشرقين من يجد مجالاً للكلام في حياة ابي بكر إلا ما يذكرونه من عطفه على خالد بن الوليد ، وكان هذا منه سياسة واجبة ، وضرورة حربية ، وقد استعمل الخليفة الاول الاموال التي وردت عليه من

الانتصارات الواسعة لمصلحة الدولة ، اما هو فبقي فقيراً كما كان سابقاً ، وظل مدة اشهر وهو خليفة يصرف على نفسه من ماله الخاص ، حتى قرّر له الصحابة معاشاً متواضعاً ... وكذلك عاش رجلاً مخلصاً تقياً طاهراً ... لا تأخذه في الحق لومة لائم .

عمر بن الخطاب :

واكثر الفتوحات الاسلامية وقعت في عهد عمر بن الخطاب لا في عهد ابي بكر الذي لم تطل خلافته اكثر من سنتين إلا قليلاً ، وكما يمتدح نولدكه المستشرق الالماني الشهير ابو بكر ، ويجعله من اعظم العظماء ، فكذلك يقول المستشرق الالماني وايل: ان هناك نجماً براقاً كان يراقب نشأة الاسلام لانه جعل الامر بعد محمد لأبي بكر ، ثم لعمر الذي كان كما وصفه ابو بكر بعيداً عن الزهو والكبرياء ، حازماً شديداً قوياً مخلصاً عادلاً ، همه تعزيز الاسلام ورفع شأنه ، وهو يقف اليوم ، وبعد ان بعدت الشقة بيننا وبينه ، وذلك بسبب تقواه واخلاصه ، وعدم محاباته ، وعدله وانصافه ، وبعد نظره ، وحزمه ، شخصاً يضرب به المثل بين الحكام والخلفاء ، وقد كان في عهد محمد وابي بكر ، صاحب نفوذ ظاهر ، ومن حيث الحياة البسيطة ، والاقتصاد على نفسه ، لا يقل عن ابي بكر ، بل يعدّه بعضهم اكثر منه بساطة وتقشفاً وبعداً عن الدنيا ، فقد كان طعامه عبارة عن خبز الشعير ، والزيتون والتمر ، وشرابه الماء ، وفراشه القش ، ولم يكن عنده من الملابس غير معطفين واحد للشتاء وآخر للصيف ، وفي كل منها رقع عديدة ، وكذلك كان يعيش الرجل الذي كان يحكم جزيرة العرب كلها ، ويمتد سلطانه الى بلاد الفرس وسورية ومصر ، وغيرها من الامصار التي كانت تدرّ على بيت المال من الغنائم والاموال ما لا يحصى ولا يقدر ، ومع ذلك لم يفكر في تعديل طعامه ، وتحسين لباسه ، بالقدر الذي يجعله كأحد افراد شعبه المعتدلين في معيشتهم ، بل فضّل هذه الحياة الخشنة

ارهاقاً لنفسه ، وتأثراً برسول الله ، وحملا للمسلمين على التأسي به ، والسير على طريقه ، وهل كان بينهم احد يستطيع مثل ذلك ، وهو شيء فوق الطاقة وفوق الامكان ؟.

لقد كان همّ عمر ان يكون ملاذاً لامته في العدل والانصاف والاعتدال وكظم الشهوات ، وان يحافظ على نقاوة الدين ، ويمدّ سلطان محمد الى اقصى العالم ، وهو هو الرجل الذي رفض الاحتفاظ بخالد بن الوليد مع ما اسداه خالد الى الاسلام من خير وفتوح ، لانه اعتبر عمله في حروب الردة ليس بعيداً عن الانتقاد ، مع سكوت ابي بكر عن عمله ، واعتباره امراً يسيراً يجوز اغتفاره ، واما عمر فلم يكن يرى هذا الرأي ، وسبب ذلك انه رغب الى قواده ان يكونوا مثلاً يحتذى به في الصغائر والامور البسيطة ، ولذلك عزل صاحب اليرموك ، ورب الانتصارات العظيمة على الفرس في العراق ، حتى لا تبعث به انتصاراته على الغرور والزهو ..

التفكير في فتح مصر :

ولقد كان من نتائج الانتصارات العربية العظيمة التي نالتها الجيوش الاسلامية العربية ان زاد عدد الجنود المحاربين من العرب ، او زاد عدد العرب الذين اخذوا ينضمون الى الجيش الزاحف ، في فارس وسورية وفلسطين ، كما زادت الاموال التي اخذت تدرّها هذه الفتوح العظيمة على الجنود المنتصرين ، فقد حصل في بلاد فارس ان كان نصيب الجندي المحارب في بعض الوقائع ١٢ الف درهم او ما يقرب من هذا الرقم من الفرنكات الحاضرة ، ولا يخفى ما يوجد من فروق بين الفرنك اليوم ... والدرهم الموازي له في الماضي ، من قوة الشراء ، بحيث نستطيع القول ان مبلغاً كهذا المبلغ الذي ذكرناه ، والذي كان يحصل عليه المحارب العربي البسيط من بعض الفتوحات كان يمثل ثروة كبيرة ، مما يؤكد ان الاموال التي وردت على بيت المال ، في الفتوحات الاولى

كانت عظيمة جداً لا تكاد تقدر ولا تحصر ..

والظاهر ان نجاح هذه الفتوحات حدا بعمرو بن العاص، وكان يعرف مصر قبل الاسلام الى التحدث الى عمر بن الخطاب بالسماح له في اقتحامها، ففعل عمر بعد تردد ، وكان امره هذا فاتحة العراك بين العرب والروم في افريقيا ..

وليس هنا مجال التبسط في فتوح عمرو بن العاص لمصر ، فان لهذا مكاناً آخر في غير هذا الكتاب ، وانما نريد ان نبحث الان هذه الزحوف التي قام بها العرب في افريقية ، وفي مصر الواقعة تحت النفوذ البيزنطي ..

ففي سنة احدى وعشرين للهجرة مشى عمرو بن العاص فاتح مصر لأول مرة الى افريقيا ، فوصل الى برقة ، بعد ان طوى الصحراء ، وصالح اهلها على الجزية ، ثم سار الى طرابلس فاستولى عليها بعد ان حاصرها شهرا ، وبعد ان اجبر سكانها على الالتجاء الى سفنهم في البحر ..

وكان في ميسور عمرو ان يستصفي افريقية جميعاً لو اراد ، وكان في طوقه ان يقوّض دعائم الامبراطورية البيزنطية فيها لو شاء ، ولكنه آثر الراحة لجيشه بعد هذا الطواف المذيب في دنيا افريقيا ، خصوصاً وقد انكر عليه امير المؤمنين عمر بن الخطاب توغله هذا ، خشية ان يبتعد جيشة عن قواعده فيسلبه أبهى انتصاراته ..

فلما كانت خلافة عثمان بن عفان دعا عمرو بن العاص اليه ، وولى امر مصر عبدالله بن ابي سرح اخاه في الرضاع ، فخرج في جيش من المدينة سنة ست وعشرين للهجرة ، وكانت احوال افريقية السياسية والاجتماعية مواتية للزحف العربي ، فانه ما كاد الامبراطور هراقليوس يلفظ انفاسه في القسطنطينية حتى نادى البطريرك غريغوري بنفسه اميراً على تونس ، وجعل مدينة قرطاجنة قاعدة بلاده ، واستعان على تحقيق امانيه ومقاصده بالبرابرة ، وهم جيل من الناس عرف ببأسه وشدة مراسه ، وطول صبره على المجالدة والمقارعة ..

وقد خيل الى البيزنطيين حين رأوا عبدالله بن ابي سرح يقود جيشاً لجباً نحوهم ان العرب تلقوا مدداً ، فيئسوا ، ووقر في اذهانهم انهم لا يقدرون على المنافحة ، ولحظ عبدالله يأسهم فاستضعفهم ورماهم بفرسانه ، وضيّق عليهم السبل فلما كان الضحى احاط بخيامهم ومضاربهم ، ونشر فيهم القتل والذعر ، فهاموا على وجوههم من كل ناحية ، وهلك في هذه المعركة غريغوري قائدهم – ٦٤٧ – ميلادية ، وكان جيشه لا يقل عن مائة الف مقاتل .

وعاد عبد الله من طوافه هذا مؤيداً منصوراً ، بعد ان استولى على سبيطلة وخربها ، وبثّ جيوشه في البلاد الى (قفصه) وهي من اعمال تونس ، وفرض عل الروم الجزية ثم عاد الى مصر بعد ان انشأ الحاميات في برقه وزويله .

وفي عهد عثمان بن عفان ايضاً وصل العرب الى نهر الاكس من جهة الشرق ، وفي فارس تقدم الوليد بن عقبة حيث استولى على اذربيجيان ، وتقدم نحو ارمينيا وآسيا الصغرى .

اما عبد الله بن عامر فقد حارب الثوار في فارس ، واستولى على (برسو بوليس) ثم تقدم نحو خراسان حيث كان (يزدجرد) كسرى الفرس لا يزال يقاوم وينافح ويناضل فحاربه حتى قتل يزدجرد ، وانهارت الامبراطورية الفارسية بموته .

الفتوح في ارمينيا :

واذا نحن عرضنا لبعض الفتوحات العربية في غير العهد الذي نؤرخ فيه لخلفاء امية الاواخر ، فلأن هذه الفتوحات لها نتائجها في العهد الذي نؤرخ له ، ومن ذلك الفتوح في ارمينيا ..

فالذي عليه الاجماع ان ارمينيا شاهدت العرب لاول مرة سنة ٦٣٨ م . وفي سنة ٦٣٩ دخل العرب الى (توفين) من اعمال ارميليا ، ثم اضاعوها

بعد ذلك .

وفي سنة ٦٥٠ نجد ارمينيا تصبح ولاية عربية .

وفي سنة ٦٥٦ يثور الارمن على الحكم العربي ،بفضل دسائس الامبراطورية البيزنطية طبعاً ، وفي سنة ٦٥٧ يتمكن العرب من تخضيد الثورة ، وكانت ارمينيا في هذه الاثناء يحكمها امراء من الارمن .

واما في سنة ٦٨٦ اي في عهد عبد الملك بن مروان فانا نجد الروم يحاولون استرداد ارمينيا ، لما رأوه من الاضطراب السياسي الداخلي في البلاد العربية ، وتظل الحرب في ارمينيا مستعرة حتى سنة ٦٩٣ حيث يتمكن العرب من اخضاعها ، ويولون عليها عمالاً من العرب .

وفي سنة ٦٩٣ حدثت معركة سباستبول بين العرب والروم وقد وقعت في عهد الامبراطور جوستنيان .

ثم صارالصلح بين الدولتين، حتى نقضه جوستنيان بحجة ان الدراهم العربية المسكوكة حديثاً غير مقبولة ، فعادت الحرب وانتصر العرب على الروم .

الحرب في افريقيا :

ولما قتل عثمان بن عفان توقفت الفتوحات العربية في افريقيا نحواً من عشرين سنة ، بسبب الحرب الاهلية ، والخلاف الداخلي ، بين هاشم وامية ، او بين الارستقراطية الملكية الممثلة في بني امية ، وبين بني هاشم الذين كانوا يمثلون الارستوقراطية الدينية في الجاهلية والاسلام . فلما انحسرت هذه المنازعات .. وقتل امير المؤمنين علي بن ابي طالب [١] وولى الامر بعده معاوية بن ابي سفيان ، رمى اطراف الامبراطورية اي افريقيا.. بعمرو بن العاص

(١) وتنازل الحسن بن علي بن ابي طالب عن الخلافة الى معاوية حسماً للدماء ، وعاد الى المدينة في ايلول ٦٦١

فولاه امر مصر لمدة ثانية ..

وكان الروم في هذه الفترة قد استرجعوا كثيراً من البلاد التي استولى عليها العرب قبلا ، وتغالوا في السلب والاغتصاب، واثقلوا كاهل الافريقيين بالمغارم، فاستنفر هؤلاء العرب عليهم ، واصغى معاوية الى ندائهم ، فاوفد سنة خمس واربعين معاوية بن خديج في عشرة الاف مقاتل ، فهزم الروم عند حصن الاجم ، وارسل عبدالله بن الزبير الى (سوسة) فافتتحها ، وافتتح عبد الملك بن مروان حصن جالولا ...

ومن غريب المصادفات ان نجد عبدالله بن الزبير وعبد الملك بن مروان في افريقيا يعملان لرفع الراية العربية ونشر الثقافة الاسلامية في هذه الفترة من الزمن ، ثم نجدهما بعد سنوات ، وبعد موت معاوية ويزيد ابنه يتخاصمان حول الملك، ويجندان الجيوش الواحد ضد الاخر للاستيلاء على الخلافة ..

وفي سنة خمسين للهجرة انفذ معاوية الى عقبة بن نافع ، وكان يقيم في افريقيه منذ عهد عمرو بن العاص ، عشرة الاف مقاتل ، فاخترق صحراء ليبيا وبرقه بهم ، ومن انحاز اليه من البربر الذين اسلموا حتى دخل المغرب الاقصى ، ووصل الى سواحل المحيط الاطلسي ، وقضى على فلول الروم التي كانت هناك ، وبنى قلعة القيروان ليستعين بها على صد غارات الروم والبربر ، ولتكون معسكراً للمسلمين وعيالهم ، وبنى فيها المسجد الجامع، وتم بناؤه سنة ٥٥ للهجرة ، وسكنها الناس وكان في اثناء عمارة المدينة يبعث السرايا يميناً وشمالاً ، فدخل كثير من البربر في الاسلام ، واتسعت خطة المسلمين ، وقوى جنان من هناك من الجند ، وامنوا ، واطمأنوا على انفسهم وارزاقهم وعيالهم ، اذ اصبح قسم كبير من اهل البلاد لهم انصاراً واعواناً .

وتداولت على افريقية بعد هذا التاريخ حالات وحالات ، ليس يهمنا التبسط فيها ، الا ما نذكره من ثورة البربر سنة ٦٥ للهجرة ، وحصارهم لقلعة

القيروان ، ومقتل عقبة ومن كان معه من الجنود ، وذهاب اكثر افريقية من يد المسلمين .

فلما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان تأهب لاستعادتها وارسل جيشاً سنة ٦٩ للهجرة بقيادة زهير بن قيس البلوي الذي كان يتولى رد البربر عن قلعة برقة ، فهاجم زهير جموع الروم والبربر واجلاهم عن ولاية برقة ، ثم فرق جنده لاخضاع الثوار في مختلف الجهات ، فانتهز الروم الفرصة ، وهاجموه بجيش ضخم فانهزم المسلمون وقتل زهير ، وذهب المغرب من قبضة المسلمين كرة اخرى .

بعد الفتن :

هذا هو الموقف في افريقيا قبيل الفتن الداخلية التي غمرت الدولة العربية ايام يزيد بن معاوية وبعد يزيد بن معاوية ، واوائل عهد عبد الملك بن مروان لما كان في دمشق خليفة ، وفي مكة خليفة هو عبدالله بن الزبير [1] ، لم نجد بدأ عن تفصيله على الوجه الذي بسطناه ، ليلم القارىء بما تعاور على افريقية بعد ذلك ، من تراجع العرب عن بعض امصارها ، ووثوب الرومان عليهم ووقف الزحف العربي .

---

(١) ولد عبد الله بن الزبير في المدينة في السنة الاولى للهجرة ٦٢٢ م. ، او بعد عشرين شهراً كما يقول الواقدي ، وقتل في مكة ١٧ جمادي الاولى ، سنة ٧٣ للهجرة ، ٤ تشرين الاول ٦٩٢ م. ..

كان والده من اشراف قريش ، وكان ابن اسماء بنت ابي بكر ، وخالته عائشة ام المؤمنين زوج الرسول ، ولما كان في الرابعة عشر من العمر حضر اليرموك مع والده ، ٦٣٥ م. ، وكان كذلك مع والده في جيش عمرو بن العاص بمصر بعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ .

وقد لعب دوراً في الفتوح الافريقية ، وقتل البطريرك غريغوري ٦٤٩ - ٦٥٠ بيده .

ثم كان مع سعيد بن العاص في خراسان بعد سنة من هذا التاريخ .

وكان مع العلماء والصحابة الذين اشتركوا في جمع القران عهد عثمان .

وقد سهى عن بال رجالات العرب في ذلك العهد ، ان هذه الزحوف الاولى في افريقية لم تكن قد توطدت كل التوطيد ، وانه ليس بميسورهم ان يغمضوا عيونهم على لذائذ الحياة واهوائها ، وان الروم ما يزالون قوة يجب ان يحسب حسابها ، وتصرف الجهود لكسر شوكتها واخراجها من افريقية كلها .

وكان الروم في افريقية كما قدمنـــا قد استخلصوا من العرب كثيراً من فتوحاتهم ، فاراد عبد الملك سنة ٧٤ للهجرة جنوده على الايغـال في افريقية ليكمل العمل الرائع الذي بدأ به العرب في الشرق ، حـاملاً الى الشعوب التي روّعتها الحضارة البيزنطية ، هذه المثل العليا الجديدة التي ولدت في مكة ونمت في دمشق ، خصوصاً والناس في افريقيا كانوا في هذا العهــد يعيشون عيشة السائمة ، فلا تخالط نفوسهم اعراف الحرية ، ولا يندى صدورهم شعور بالرحمة ، فلقد سلبهم البيزنطيون حرياتهم جميعاً ، ومنعوهم ان يمارسوا عقائدهم الدينية ، وحصدوا زروعهم وحقولهم ، ووزعوها بين الجند ، فضاقت صدورهم بهـذا الذي يجترحه الرومان ، وانمى مخاوفهم وهواجسهم ان بالسجون الافاً من شهداء الحرية ، وان بالقبور اضعافها ، وان بالمنافي عدداً ضخماً من الهائمين على وجوههم تحت كل كوكب .

كما كان من المؤيدين لعثمان لما هاجمه الثوار في المدينة .

وفي معركة الجمل اشترك مع عائشة في محاربة علي بن ابي طالب وكان قائد فرسانها (٦٥٦)م.

وفي عهد معاوية لم يكن له شأن ، ورفض الاعتراف بخلافة يزيد في عهد معاوية .

ولما مات معاوية اعلن رفضه لبيعة يزيد ، وهرب الى مكة فاعتصم بها ..

وكان من جملة من نصح الحسين بالذهاب الى الكوفة تلبية لدعوة اهلها ، الذين عـاهدوه في كتبهم فقط ، على تأييده ومحاربة يزيد وانتخابه خليفة مكانه .

ولما قتل الحسين اعلن ابن الزبير خلافته في مكة سنة ٦١ هجرية ٦٨٠ - ٦٨١ م . .

وقد بويع له بالخلافة في الحجـاز والعراق ومصر مدة سنوات قليلة حتى تمكن عبد الملك بن مروان من التغلب عليه ، بارسال الحجاج لمحاصرته في مكة حيث قتل في ساحة الحرب .

ولما استقر رأي عبد الملك على ذلك ، انفذ الحسن بن النعمان في اربعين الفاً من الجنود المدربين فزحف بهم الى قرطاجنة حيث ازال الروم عنها ، واقتحمها ولكنه عاد ادراجه الى القيروان وتحصن فيها هو وجنده لما ظهرت على السواحل الافريقية قوة رومانية عظيمة بقيادة جوهن القائد البيزنطي ، وارسل الى الخليفة ينبئه بامره ويستعجله في ارسال النجدات لا كمال الفتح ... فلما وصلت النجدات سار الى الروم فدحرهم ، واستولى على قرطاجنة مرة ثانية ، ولما رأى ما كان عليه اهلها من الغدر امر جنده بهدم اسوارها ، وتشريد جندها ومن ساعد العدو منهم ، ثم نهد الى من بقي من الروم في السواحل الافريقية فاجلاهم عنها .

وما كاد العرب ينتهون من (جوهن) وجنده ، حتى دهمتهم ضائقة جديدة بقيام امرأة تزعم السحر ، وتدعى (كاهنة) ..أثارت البربر وغيرهم من سكان افريقية على سلطان العرب، فاجتمع حولها عدد كبير تمكنت معه من صد العرب وردهم حتى الحدود المصرية ، وحتى لا يعود العرب الى غزو افريقية والافادة من زروعها ومدنها ومياهها ، امرت جندها بهدم المنازل وحرق الزروع ، ولكن العرب عادوا اليها وكروا على جندها ، فاثخنوا فيهم ، وبعد معارك عديدة تمكنوا من الساحرة آخر الامر عند سفح جبل اوراس فقطعوا رأسها، ولم يغن عنها سحرها ولا جندها ، واضطر البربر الى قبول الحكم العربي وامداد الجيش بخمسة وعشرين الفاً من المقاتلة .

موسى بن نصير :

وفي سنة تسع وثمانين هجرية ، استعمل الوليد بن عبدالملك موسى بن نصير على افريقية ، ويقال ان الذي استعمله هو عبد العزيز بن مروان في عهد عبد الملك نفسه ، وكان موسى في الستين من عمره ، ولكنه كان نشيطاً قوياً ، وقائداً بارعاً ، فلما تسلم زمام الامر في افريقية جمع جنده اليه وخطبهم فقال :

« اني احدكم فان احسنت فاشكروا الله ، وافعلوا مثل مـــا أفعل ، وان اسأت فقوّموني وانصحوني » .

ثم اخبرهم بان امير المؤمنين قد امره ان يدفع لهم مبلغاً من المال زيادة على عطائهم ، فاكتسب بعمله هذا حب الجنود واخلاصهم ، كمـــا اطمعهم بالنصر والثروة ، مما زادهم قوة على قوة ، ومضاءً على مضاء .

ومضى موسى في فتوحاته الافريقيـــة ، فقضى على الثوار من البربر حتى وصل الى طنجة ، وكان قد تحصن بها جماعة منهم ، فاقتحمها واستعمل عليها مولاه طارق بن زياد ، وجعل معه جيشاً كان جله من البربر ، وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض ، وطهّر المغرب من العصاة والثائرين ، واستـــمال اليه وجوه القبائل ، فلم يمضى وقت قصير حتى اعتنق البربر الاسلام .

وكان الروم بعد ان اخفقوا في الحروب البرية ، قد لجاؤا الى مهاجمـــة الثغور الاسلامية الواقعة على ساحـــل البحر الابيض ، فأنشأ موسى في تونس مرفأ كبيراً لصنع السفر ووسائل النقل البحرية ، فما مضت سنة واحدة حتى كان لديه من القطع البحرية ما استطاع بواسطته مطاردة الاسطول البيزنطي في البحر المتوسط ، كما بعث ابنه عبدالله الى جزيرة « ميورقه » فاقتحمها وغزا العرب سردينية وصقلية ، وكانت ولاية موسى في ذلك الحين تمتد من حـــدود مصر ، الى سواحـــــل المحيط الاطلسي ، ما عدا (سبته) التي كان يحكمها الكونت جوليان القوطي من قبل ملك اسبانيا ، كما كانت تشمـــــل جزائر البحر الابيض الغربية .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك ، هـــذا العهـــد الذي كان غرة في تاريخ بني امية ، استولى العرب على شمالي افريقية كلها كما قدمنا ، كمـــا ظفروا بالسند من بلاد الهند ، وبكل البلاد الواقعة في المشرق الى حدود الصين ، وفتحوا الاندلس ،واستولوا على انطاكية وكليكيا من ارض الروم (٧١٢ – ٧١٣) .

الفتوح في تونس :

ولما فتح غزاة العرب ما يعرف بالساحل التونسي ... اصطدم المسلمون بالروم في افريقيا كما اصطدموا بهم في سورية ومصر وفلسطين ، وكانت الحالة في افريقيا كانت مثلها في سورية ، من حيث تمزيق الخلاف الديني للقوى الرومانية في البـلاد ، وكان سلطان الامبراطور يخف شيئاً فشيئاً عن الولاة ، فاخذوا ينزعون الى الاستقلال واضطرهم هذا الى الاستعانة بشيوخ القبائل المحلية فافادت القبائل من هذا الموقف والقت عن كاهلها نفوذ الروم وسلطانهم ..

وغزا العرب هذه البلاد غزوتين بينهما ثمانية عشر عـــاماً ، والواقع انهما كانتا اقرب الى الغارات منها الى الغزوات ، وقد مهدتا الطريق لحملات احسن نظاماً واكمل عدة ، ومن الغريب ان المغيرين الفوا افريقية البيزنطية في الغارتين على ابواب محنة سياسية ، ففي عام ٦٤٧ كان البطريرك غريغوري قـد انفصل وشيكاً عن الامبراطور واستقر به المقام بين البربر ، لما دهمه والي مصر عبد الله بن سعد بن ابي سرح عند (سبيطلة) وقضى عليه ..

وفي عام ٦٦٥ كان اهل قرطاجنة قد جاهروا الامبراطورية العداء لما هاجم معاوية بن خديج افريقية وغزا جلولا .

والواقع ان الفتح الحقيقي لم يتم إلا بين عامي ٦٦٩ و ٧٧٠ بانتصـــارات عقبة بن نافع وبناء مدينة القيروان .. وكان هذا فاتحة دخول قبائل البربر في الاسلام .. واهم حوادث الفتح انشاء هذه المدينة الجديدة التي اصبحت حاضرة من حواضر الإسلام ودار صناعة ومحط قوافل وسوق تجارة ...

ثم كانت ثورة (كسيلة) وأيده البربر ، وناصره الروم ، وظل هذا الرجل اميراً على دولة بربرية مترامية الاطراف ناهضت غـــارات العرب وقتاً حتى سقط (كسيلة) قتيلاً بناحية سبيتيه عام ٦٧٨ م. ...

فلما كان عام ٦٩٣ تفرغ الامويون للفتح وخرج (حسان بن النعمان) في جيش عدته ٤٠ الف مقاتل لغزو افريقية ، ثم تقدم مسرعاً صوب الشمال للقضاء على الروم قبل ان يحارب البربر ، واستولى على قرطاجنة عـام ٦٩٥ ، ولكنه فقدها وهزمه البطريرك (يوحنا) .. ثم هزمه البربر في سهل (باغـاية) بقيادة الكاهنة ، فرجع الى برقة ثم هاجم قرطاجنة في العام التالي بحراً وبراً ، فاستولى عليها وثبّت اقدامه فيها ، وفي عام ٦٩٨ انتزع العرب من البربر والروم جميع ما يعرف الان بتونس تقريباً ، واستطاع حسان ان يشيد تونس ، واستولى خلفه موسى بن نصير على (زغوان) ثم قاد بربر افريقية لغزو المغرب.

وتمكن معظم الروم في افريقية من الهرب ، بحراً الى صقلية ومالطـة ، واسلم اكثر السكان إلا اقلهم ، ولكن بربر افريقيـة حتى بعد اسلامهم كانوا ينزعون الى الاستقلال والثورة ، فكان القرن الثـامن كله فتناً ، وقد استعانوا بمذهب الخوارج الاشتراكي لاثارة اهل البلاد على العرب الحاكمين ، كما كان القرن نفسه حافلاً بفتن الجند العرب الذين كانوا يسارعون الى الشغب والخروج على النظام ما كان الى هذا سبيل ..

ولقد عجز الأمويون في اواخر ايامهم عن تثبيت اقدامهم في هذه البـلاد النائية ، ورأى العباسيون ان الاندلس بمنجاة عن سلطانهم فعملوا على استعادة افريقية من ابي الخطاب الخارجي الاباضي ، واسترجع قائدهم محمد بن الاشعث القيروان وعمّر ارباضها ، ولكنه اضطر الى ترك البـلاد فقد نقم جند العرب عليه ، وعجز الاغلب بن سالم التميمي عـن الثبات للمغتصبين من المضرية ، وقتل في فتنة عام ٧٧٢ فسادت الفوضى خمسة اعوام ..

وظلت البلاد في فوضي حتى ظهر ابراهيم بن الاغلب وناصر العباسيين ، فعينه هرون الرشيد أميراً على افريقيـا مكافأة له وتوطيـداً لاركان الحكم في البلاد ، فظل السلطان في يده اكثر من قرن بلا انقطاع (٧٩٩) م.

وقد احدثت دولة الاغـالبة اثراً بالغاً في تونس ، وكان الامراء يتبعون الخلافة في الظاهر ، ولكنهم كانوا مستقلين عنها يتوارثون الحكم فيما بينهم ، فجنحوا الى السلم والنظام والتوسع ، بيد ان التميمية في تونس لم تهدأ ثائرتهم ، وكان ابراهيم تميمياً ، ولكنه اختلف مع هؤلاء الجند من مضر ، وقـد برموا باولى الأمر سواء اقربت ديارهم ام بعدت عن العباسيين ، الذين قرّبوا اليمانية اعداءهم القدماء ، فاضطر ابراهيم الى الاعتماد على جند بينهم كثير من الأعاجم الوافدين من خراسان ، وكان حرسه حديث النشأة من الزنج يعتصم بحصون القصر القديم او العباسية التي اقامها على بعد فرسخ من القيروان ..

وفي عهده اخذت تنتشر الحصون المعروفة بالمحـارس على حدود الساحل الشرقي ، ولما توفي عام ٨١٢ عادت الفتنة الى طرابلس .

وقد اشتهر ابنه زيادة الله بنشاطه وقوته وذكائه ...

- ٤ -

غزو المغرب

فتح الاندلس

الحالة في اسبانيا :

في اثناء الفتوحات العربية في افريقيا ، اشتبكت طلائع العرب بقوات القوط سكان اسبانيا مرة في البحر ، واخرى في قرطاجنة وشمالي افريقيا .

ولقد ظلت بلاد اسبانيا تحت حكم الرومان الى ان اغارت عليها قبائل «الفندال» في القرن الخامس الميلادي ، ومن ذلك الوقت اطلق على هذه البلاد اسم «فاندلوسيا» اي بلد الفندال،ويسميها العرب بلاد الاندلس كما يطلقون عليها اسم الجزيرة ، لأنها تدخل في البحر من جميع جهاتها إلا جهة الشمال كما هو حال الجزيرة العربيه نفسها ،وهي شبه جزيرة في الواقع ولكن العرب يسمونها الجزيرة فحسب .

وفي سنة ٥٠٧ اغارت على الأندلس قبائل القوط الغربيين وطردوا الفندال الى افريقية ، واستقروا مكانهم فيها ، وكانوا اقوياء اول في امرهم، غير انهم ما

لبثوا ان ضعف امرهم وسرت فيهم روح التخاذل ، وقسم الاشراف ورجال الدين البلاد الى اقطاعات كبيرة ، وسكنوا القصور الفخمة ، وصرفوا اوقاتهم في اللهو ، وتركوا امر الصناعة والزراعة في يد الارقاء الذين كانوا يعيشون في ذل وضعف ، كما اثقلوا كاهل الطبقة الوسطى من الزراع والتجار بالضرائب الفادحة ، فكان هؤلاء يعيشون عيشة اقرب الى الحيوانات منها الى بني الانسان ، وكان واحدهم لا يملك عقاراً ولا مالا ، ولا يستطيع الزواج إلا باذن الامير الحاكم .

وكان اليهود اشد طبقات الشعب بؤساً وذلاً ، لما نزل بهم من الضيق والعنف ، وقد حاولوا الثورة غير مرة فلم يوفقوا ، ونهبت ديارهم وقتل كبارهم ، واضطر اكثرهم الى اعتناق المسيحية خوفاً ورهبة وزلفى .

واذن فقد كانت الاندلس مؤلفة من عنصرين كما قدمنا : القوط حكام البلاد الذين لم يختلطوا بسكان البلاد الاصليين ، ذلك الاختلاط الذي يمزج الفاتح برعيته ، بل كانوا هيئة مستقلة تعتبر مجموع الشعب خرافاً تأكل لحومها والبانها وتتحكم فيها على هواها ، وعنصر السكان الاصليين المؤلفين من اليهود والفندال وغيرهم الذين كانوا يعيشون عيشة الانعام .

وكان القوط الى ذلك بسبب انغماسهم في شهواتهم ولذائذهم قد فقدوا كثيراً من رجولة القوط الاقدمين ، الذين غزوا رومية ، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط ، وكان الفرق عظيماً بينهم وبين العرب الذين كانوا في قوة روحية عظيمة ، لم يكن بمقدور القوط ان يبلغوا منها كثيراً ولا قليلاً ، ولو ارادوا واتحدوا واجتمعوا ..

وفي هذه الاثناء كان العرب قد تمكنوا من افتتاح بلاد المغرب كلها عدا مدينة (سبتة) الحصينة التي كانت تحت حكم الكونت جوليان كما قدمنا .

فلما كانت سنة (٧٠٩) ميلادية حدث في اسبانيا حادث عظيم كان له ابعد

الاثر في مصيرها ، ويدل في الوقت نفسه على الاختلاف الذي كان واقعاً في البلاط والدولة .

فقد عُزل الامبراطور (وتيزا) وهو الذي يسميه العرب (غيطشة) وتولى الحكم مكانه (اخيلا) في اوائل سنة ٧١٠ ، ثم عزل هذا ايضاً في ربيع هذه السنة على يد نبلاء القوط ورجال الكنيسة ،وجلس مكانه (رودريك) قائد الجيش القوطي ، وهو آخر اباطرة الدولة القوطية في اسبانيا ، فاغضب هذا التبدل ابناء (وتيزا) وايدهم في غضبهم عمهم (اوباس) اسقف طليطلة واشبيلية، وزعيم الكنيسة الاول ، والرجل الثاني في الدولة ، كما ناصرهم كثيرون من انصارهم واعوانهم الذين شقّ عليهم الابتعاد عن البلاط ،والحرمان من الاموال والوظائف والمراكز العالية ، ومن المؤكد ان جوليان حاكم (سبتة) كان من الذين لا ينظر اليهم رودريك الملك الجديد وانصاره بعين الرضى والعطف ، ولا يبعد ان يكون جوليان قد احسّ بالشر ، وادرك ان مركزه زائل عنه لا محالة، فقرر تأييد الحزب الجديد والاعتماد على العرب في ازالة عرش رودريك .

ويردّ بعض مؤرخي الفرنجة سبب هذا التبدل في موقف جوليان الى ما دهم فتاته من شر ونكر في بلاط رودريك.. فلما عرف جوليان باغتصاب مليكه لابنته قرر الغدر به ، والعمل على هلاكه .

الاتفاق مع العرب :

وفيما كان موسى يفكر ذات يوم في امر (سبته) ومركزها الحصين ، وكيف ان من يحكمها يقبض على مفتاح الجزيرة الاسبانية ، ورده كتاب من جوليان يستنصره على ملك القوط رودريك ، ويدله على مواطد الضعف في دولته وجيشه ، ويصف له جزيل خيرات الجزيرة وعظيم غناها ، فكتب موسى بالامر الى الخليفة الوليد يستأذنه بفتح الجزيرة فجاءه الجواب بالايجاب والتأييد .

ورأى موسى نزولاً على نصيحة الوليد بن عبد الملك له ، ان يرتاد الطريق اولاً ، حتى لا يؤخذ على غرة ، وحتى يتأكد من اخلاص جوليان للعرب ، وانه لا يريد التغرير بهم ، فارسل طريف بن مالك على رأس خمسمائة مقاتل سنة ٩١ هجرية . (٧١٠ م) ، فذهبت هذه القوة العربية الصغيرة الى بعض الثغور الجنوبية في الاندلس وغزتها، وايدها جوليان بان امدّها بالسفن والرجال، فعادت غانمة منتصرة ، ولا يزال يطلق على المكان الذي نزله العرب اسم قائدهم طريف ، كما ان القوة العربية عند عودتها حملت معها ما يؤيد ما قاله من تأييد القوم في الجزيرة للغزاة ، ورغبتهم في الخلاص من رودريك وجماعته.

وفي شهر رجب من سنة ٩٢ للهجرة (مارس – نيسان ٧١١) جهز موسى بن نصير قوة مؤلفة من عشرة الاف مقاتل ، اكثرها من العرب والبربر بقيادة طارق بن زياد حاكم طنجة ، وامره بغزو الاندلس ، فعبر طارق البحر في سفن جوليان ، ونزل بالبقعة التي تسمى الى الآن بجبل طارق .

وقد حاول احد قواد رودريك حربه ومقاومته فلم يوفق ، فكتب بالامر الى مليكه ، وكان يحارب الثوار في الشمال ، فجأ يسعى وقد جمع قوة عظيمة من قرطبة وما حولها ، لا تقل عن مائة الف جندي على قول اكثر المؤرخين ، ومثل هذا الجيش كان كفيلاً بالقضاء على القوة العربية الصغيرة ، لولا ما كان يغمره من سؤ النظام وقلة الاخلاص .

واما طارق فلما عرف بقدوم عدوه على رأس هذا الجيش الضخم ارسل يستنجد موسى فامده بخمسة الاف مقاتل ، كما انضم اليه بعض المسيحيين من اعوان جوليان ، وانصار ابناء ويزا الناقمين على الحكم الاسباني الجديد .

المعركة :

والتقى الجيشان على ضفاف نهر (بكة) سنة ٩٢ هجرية (٩ تموز ٧١١) وذلك لليلتين بقيتا من رمضان، وفرّق النهر بين الجيشين مدة ثلاثة ايام، وفي اليوم

الرابع التحما ، ونشبت بينهما المعركة الفاصلة ... وكانت شديدة العنف ،سالت فيها الدماء من الجانبين ، وانجلت عـــن انتصار العرب ، وانسحب الجيش الاسباني من المعركة تاركاً على اديمها ستة عشر الف قتيل ، وخسر طارق نصف عدد جنوده ، وخرج من المعركة وليس معه الا تسعة الاف جندي ، ونظر عندئذ الى جيشه وخطبهم قائلاً: ايها الاخوان ، البحر وراءكم والعدو امـــامكم ، فمن اين المفر ، فاتبعوا قائدكم فاني عازم على القضاء على العدو في هذه الجزيرة ، او افقد حياتي (١) .

واختلف المؤرخون في مصير رودريك ، فبعضهم يقول ان طـارقاً قتله ، وبعث برأسه الى الوليد ، واخرون وهم الفرنجة يقولون: انه رمى بنفسه في بئر او نهر فمات ..

وكان من اثر هذه المعركة ، وهذا الانتصـــــار ، ان ساد الرعب في البلاد الاسبانية طولها وعرضها ، فامتنع القوط في قلاعهم وحصونهم ، وتوغـلوا في السهول البعيدة ولم يعد يجرؤ احدمنهم على مقاومة الجيش العربي ومنازلته في معركة ، وذاعت انباء النصر في (طنجة) (وسبتة) وما جاورهما ، فاندفع الى الجيش العربي سيل من المغامرين من العرب والبربر ، وسار طارق بجيشه يقتحم الحصون ، ويحتل القلاع ، ويستولي على المدن والامصار ، فاستولى على اشبيلية ، وقرطبة وطليطلة ، التي فر منها النصارى اول الامر ، حـــاملين آثار القديسين معهم ، فلما دخلها طارق لم يعرض لمن بقي منهم ، وتركهم وشأنهم ، وابقى بها سبـع كنـــــائس ، وترك للاسقف والكهنة الحرية في اقامة شعائرهم ، واباح للقوط والرومان اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، وبعد ان عهد بادارة المدينة الى اوباس الاسقف ، زحف بجيشه شمالاً وغزا قسطيلة وليون ثم عبر جبـــال استوريا ، واشرف على ميناء كيجون الواقع على خليج غسقونية ، فكانت نهاية فتوحاته ،

---

(١) هذه الحادثة يرويها كاتب انكليزي في تاريخ التواريخ ، واما المؤرخون العرب فيقولون ان خطبة طارق سبقت المعركة .

ورده عباب المحيط عن التقدم ، ووصلته في هذه الاثناء اوامر قائده موسى بن نصير بالعودة الى طليطلة ...وكان ذلك لعام من اقتحام المضيق ..

العرب والشعوب الاخرى :

وكان موقف طارق من اليهود موقفاً ليناً محمودا ، وسبب ذلك ان اليهود أيدوه ونصروه في فتوحاته بسبب ما كانوا يلاقونه من عنف القوط ، وشدتهم وجبروتهم ، وقبيل الفتح العربي فقط كان مجمع توليدو (٦٩٤) قد اصدر بعض القوانين بحق اليهود ، وكانت هذه القوانين الجديدة ، والتي لم تكن الاولى من نوعها ، تجعل من اليهود الاسبان عبيداً بكل ما في الكلمة من معنى ، فتعود املاكهم للدولة ، ويمنعون من القيام باعمالهم الدينية ، ويحظر عليهم الاحتفال باعيادهم ، وايام صومهم ، حتى ويمنعون ايضاً من الزواج وفاقاً للشريعة اليهودية. فلا عجب والحالة هذه اذا ايد اليهود العرب ، واذا حفظ لهم طارق هذا الموقف ، فترك بعض المدن التي فتحها في اسبانيا تحت ادارة اليهود ، الذين كانوا ينظرون الى العرب كحماتهم واسيادهم .

والواقع انه لم يكن هناك ما يدعو الاسبان الى النفور من الفتح الاسلامي ، فقد ابدى المسلمون في فتوحاتهم اعتدالاً في معاملة الشعوب المحكومة واحتراماً لعقائدهم ، فسمحوا لهم بالاحتفاظ بكنائسهم ، وحكامهم وقضاتهم ، وفرضوا الضرائب عليهم بالمساواة والعدل ، وكان في قرطبة ابان الدولة الاسلامية سبع كنائس ، وفي طليطلة ست ، وكان الاسبان احراراً في اقامة شعائرهم ، فلم ينلهم المسلمون الفاتحون باذى ، ولم يحاولوا هدم الانظمة الدينية ، ولا تمزيق التقاليد التي توارثوها من ابائهم ، بل اكتفوا بان عرضوا امام العيون جمال الاسلام وفضائله ، فاعتنقه عند الفتح عدد كبير من الاسبان .

فتوحات موسى :

فلما بلغ موسى ما فتحه الله على يد طارق اشتد به الامر ، وخاف ان

يذهب نصيبه من هذا الفتح ، فكتب الى طارق ان لا يتقدم بعد وصول كتابه اليه ، ريثما يلحق به ، ثم عبر البحر في عشرة الاف من العرب وثمانية الاف البربر ، فاستقبله جوليان في رمضان من سنة ٩٣ ، وكان اكثر جنده من الفرسان ، وكانت تتبع كل كوكبة من فرسانه طائفةمن حملة الارزاق بالبغال ، وانتحى موسى طريقاً غير الطريق التي سلكها طارق ، وفتح بلداناً اخرى مثل (ماردة) و(سرقسطة) وحاصر اشبيلية فسلمت بعد عناء ، واستقبله طارق بالقرب من طليطلة فانبّه موسى على مضيّه في فتوحاته رغم امره اليه بالتوقف ، فاعتذر طارق بان وقف القتال كان يعرض جيشه للخطر ، فطالبه موسى بالغنائم وحبسه ، فشكاه طارق وهو في سجنه الى الوليد ، فكتب الى موسى يأمره بتخلية سبيله ، ورده الى عمله ، ففعل موسى ، وعاد القائدان يغزوان معاً فزحفا على اراجون ، واستوليا على تراغونه ، وبرشلونه حتى وصلا الى جبال البرانس او (البيرنيه) فتم بذلك فتح شبه الجزيرة عدا الاقاليم الجبلية في الشمال الغربي التي التجأ اليها اشراف القوط وكبراؤهم . .

وهنا فكر القائد العظيم في غزو اوروبا والوصول منها الى القسطنطينية ودمشق ، وكان بطوق موسى انفاذ مشروعه هذا لضعف الجماعات الفرنجية القائمة في طريقه ، ولكن الوليد استدعاه الى دمشق ، ولو تركه وشأنه لتبدل وجه التاريخ .

رينو يحدثنا :

ويصف لنا رينو الافرنسي الموقف في هذه الفترة فيقول :

« وقد كان من اشد ما بهت له المسيحيون في ذلك الحين ، انهم كانوا يرون اعداءهم هؤلاء في كل مكان وفي وقت واحد . وكانت طريقتهم في الفتح انه اذا خضع لهم بلد بدون قتال لم يعتدوا عليه ولا على سكانه في مالهم ولا في دينهم ، وانما كانوا يحوّلون جانباً من الكنائس الى جوامع ، ويغنمون ما فيها

من النفائس ويضعون ايديهم على الاراضي التي نزح اهلها ، وعلى الخيل والاعتدة التي كانت ضرورية لهم في تلك الغزوات المتواصلة. وكانت الجزية التي يفرضونها على الاهالي متفاوتة ، وربما اخذوا من الاهالي رهاين ليستوثقوا منهم ، فاما البلاد التي لم تخضع لهم إلا بالسيف ، فقد كانت عرضة لجميع المظالم التي تصحب الفتوحات ، وكان يضرب عليها ضعف جزية البلاد الخاضعة بلا قتال ، وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها ، وربما جعلوا في هذه الحامية بعض اليهود الذين كانت عداوتهم للاسبان اضمن سبب للثقة بهم » .

وقبل رحيل موسى عن الاندلس نظم الحكومة فيها ، فجعل حاضرتها اشبيلية لاتصالها بالبحر ، وعهد بادارتها الى ابنه عبد العزيز ، ثم ركب البحر الى المشرق في شهر ذي الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه ، وكان مقام طارق في الاندلس قبل دخول موسى سنة واحدة ، وبعد دخوله سنتين واربعة اشهر ...

كثرة الغنائم :

ويقول المؤرخون : ان موسى حمل معه من اسبانيا الى دمشق ثروة عظيمة جداً ، فقد كان معه عدا العبيد والاسرى ، ما يقارب زنته ثلاثين مركبة من مركبات سكك حديد اليوم الحاضر ، عدا الاف الجمال التي تحمل الكثير من الغنائم والاموال والتحف ايضاً ، وصرف في الطريق سنة واحدة قبل ان يصل الى الفسطاط في مصر (كانون الاول ٧١٤) ... حيث استقبله حاكمها استقبالا فخماً .

ومن مصر تابع موسى سيره الى طبرية ، فبلغه فيها ان الوليد بن عبد الملك مريض ، وانه يستحثه للقدوم اليه ومعه التحف والغنائم الكثيرة . وهنا يختلف المؤرخون في وصول موسى الى دمشق (شباط ٧١٥) والوليد حي ام ميت ، والاكثر على انه كان حياً ، وأن سليمان بن عبد الملك ولي العهد

انفذ الى موسى كتاباً وهو في فلسطين او في الطريق الى دمشق ، ان يتمهل في سيره رجاء ان يموت الوليد ، فيقدم عليه في صدر خلافته بالغنائم الكثيرة ، والتحف العظيمة ، ولكن موسى رفض نصيحة سليمان وجدّ في السير حتى قدم دمشق والوليد حي ، فسلم اليه اخماس الغنائم والذخائر والتحف ، فوزعها هذا على اهله وما لبث ان مات بعد قليل ، فحقد عليه سليمان وبالغ في اهانته واستمع لشكوى طارق فيه ، وزجه في السجن ، وفرض عليه غرامة فادحة ، جردته من كل ثروته .

مصير موسى :

ومن الحق ان نذكر بشيء من الصراحة ، ان بعض خلفاء دمشق خصوصاً سليمان ، كانوا من ازهد الناس كما يظهر في تقدير قوادهم وعظماء عهدهم ، فهذا موسى بن نصير فاتح الاندلس ، ما كاد يصل الى دمشق حتى قوبل بالوان من الجحود والنكران يصعب على المؤرخ الاعتذار لها مهما كانت العوامل والذرائع.

ومهما يكن من قيمة التهم التي وجهت الى موسى ، فلا خلاف في ان سليمان بن عبد الملك قد انتهك حرمة قائده الكبير ، والفاتح العظيم ، فقد اقامه في الشمس اياماً حتى كاد يهلك ... وسليمان نفسه هو الذي عامل قتيبة بمثل ذلك ، وهو الذي انتقم من محمد بن القاسم فاتح الهند ، على ما سبق تفصيله ، واذن فنحن امام خليفه من اغرب خلفاء بني امية ، لم يكن همه في خلافته إلا الانتقام من قواده ، وعظماء دولته ، والتنكر لهم ، والتغرير بهم على نحو لا يصدر من عامة الناس .

ولقد آلت حالة فاتح افريقيا والاندلس ، الى ان كان يطاف به في احياء العرب يسألهم ما يقتات به ، ومات وهو في هذه الحال من افقر الناس بوادي الحجارة حيث نشأ وحيث ولد ، وذلك سنة سبع وتسعين للهجرة .

ومع استفظاعنا جناية سليمان بن عبد الملك نحو قائده موسى وغيره من

القواد، فيجب في الوقت نفسه ان نذكر ان موسى بن نصير اخذته الغيرة مما وفق اليه طارق بن زياد من الفتوح فاهانه وسجنه بعد ان تلاقيا في الاندلس، وكان هذا العمل الصغير لا يتناسب مع كبر نفس موسى، وعلو همته، ولم يخل كما يظهر من تأثير في قضية نكبته، لان طارقاً شكا الى الخليفة ما فعله موسى به، وظاهره في ذلك مغيث الرومي رسول الوليد الى الاندلس، وحامل كتابه الى موسى بلزوم عودته الى دمشق ..

وليس ببعيد والحالة هذه ان يكون سليمان قد اشتدّ عليه بسبب ما فعله مع طارق، وراح يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة مما وقع ومما لم يقع.

اما مصير الكونت جوليان فيمر عليه المؤرخون بالسكوت والصمت، ويقول الرواة القسس انه قتل بيد شرذمة من العرب، ولكن الواقع في نظرنا غير ذلك، فالعرب احسنوا مكافأة ابني (وتيزا) واعادوا اليهما ميراث ابيهما، وعند وفاة اكبر الاخوين اغتصب اخاه نصيب ابنته من الميراث، فشكته الى الخليفة فقضى لها برد ميراثها، وتزوجت احد اشراف العرب وقضت معه حياة رضية راغدة.

اما طارق بن زياد فامره على غرار امر الكونت جوليان ايضاً، فان احداً لا يذكر عنه شيئاً بعد الفتح، ومما يقال في صدده، ان سليمان بن عبد الملك فكر في ارساله حاكماً على اسبانيا، ولكنه عاد ففطن الى ان رقعة الدولة العربية اصبحت من السعة والعظمة بحيث اصبحت بعض اطرافها البعيدة تشكل خطراً على وحدتها فخشي ان هو ارسله اميراً على الاندلس، وهو القائد المحبوب من الجند، ان تحدثه نفسه بالثورة والاستقلال، وهو في موطن قصي من اطراف الامبراطورية، فعاد عن رأيه فيه، ولا يبعد ان يكون ابقاه عنده، فعاش طارق في دمشق عيشة هادئة ناعمة.

العرب في فرنسا :

ولقد تركنـا عبد العزيز بن موسى بن نصير يقوم باعباء الحكم في الاندلس بعد مسير والده الى دمشق ، فنظم الحكومة ، والف مجلساً خـاصاً لاقرار الاحكام الشرعية التي تتفق وحـالة السكان ، وعني بالزراعة وتنظيم الطرق ، ورفع عن الاسبانيين مظالم العهد السابق ، وخفف الضرائب التي اثقلت كاهلهم، وساوى بين طبقات الامة من غير ما تفرقة في الدين والجنس ، كما أمّن الناس على دينهم واموالهم وانفسهم وحرياتهم ، وشجع الزواج بين الفاتحين والاسبان، وتزوج هو بارملة رودريك الملك السابق ، وكان من اثر مغالاة عبد العزيز بن موسى في ارضاء المسيحيين ان نقم عليه بعض اعدائه ، ووشوا به الى الخليفة سليمان بن عبد الملك بأنه يريد خلعه فدبر له من قتله في احد شوارع اشبيلية ، ولعله فعل ذلك لما كان يخافه من خروجه عليه انتقاماً لابيه .

وبعد وفاة عبد العزيز بن موسى اختـار الجند قائدهم ايوب بن حبيب ابن اخت موسى بن نصير والياً على الاندلس ، فاحسن الحكم والادارة ، واتخذ قرطبة عاصمة لولايته حتى اقاله حاكم افريقية .

وكانت الفتوحات العربية بعد ذهاب موسى عن الاندلس قد توقفت ووصل العرب بها الى جبال البيرينيه فقط، الى ان وُلّي السمح بن مالك ١٠٠ — ١٠٢ هـ. بلاد الاندلس ، في عهد عمر بن عبد العزيز فجدد عهد الفتوح ، واخترق جبال البيرينيه والبرانس ، وزحف على مقاطعتي سبتمانيا و بروفانس ، من اعمـال فرنسا الحاضرة ، ثم اغار على (اكيتانيا) وحاصر (تولوز) ، فقابله (يودو) دوق اكيتانيا بجيش كبير ، ونشبت بين الفريقين موقعة عظيمة ، قتل فيهـا السمح واكثر رجاله ، فتولى عبد الرحمن الغافقي قيادة الجند وانسحب بفلول جيشه الى مدينة (نربونة) .

وفي سنة ١٠٤ هجرية تولى على بـلاد الاندلس عنبسة بن سحيم الكلبي ،

فعاد الى غزو فرنسا ، واستولى مرة ثانية على سبتمانيا ، ووصل الى حوض نهر الرون ، وتوغل في اقليم (بورغندية) حتى بلغ مدينة ليون واستولى عليها ، ولكنه قتل اثناء عودته ، فاضطر العرب الى التراجع مرة ثانية عن البلاد التي غنموها ، وعادوا الى (نربونة) سنة ١٠٧ .

وخلف عنبسة امرأ لا شأن لهم إلا ما كان من امر الهيثم بن عبد الكلابي، فانه كان اقدر الجميع من الولاة والقواد ، فقمع الفتن ولطّف من حدة الاختلافات بين القبائل ، وغزا ثوار المقاطعات في الشمال والغرب ، واصلح الادارة ، وعمّم العدل بين السكان ، ولما مرض واشتد مرضه شقّ البربر عصا الطاعة ، وعادت المنازعات بين القبائل الى سابق عهدها ، وثار سكان المقاطعات الاسبانية فقتلوا عمالهم واطبقوا على اموال المسلمين يوسعونها نهباً وحرقاً وهدماً ..

الحالة الداخلية في الاندلس :

ومن الامور التي يجب بحثها موقف البربر وغير البربر من الفتوحات العربية في الاندلس ، فان هؤلاء القوم الذين أيدوا الزحوف العربية الاولى في هذه البلاد، وجمعوا الارباح الطائلة من الاسلاب ، كان همهم في الزحوف التالية ، ما تحمله هذه الزحوف من غنائم واسلاب ، لا تدفعهم الى القتال عصبية وطنية ، ولا يحملهم على الثبات دين ولا ايمان بعزتهم وامجادهم ، فكانوا في كثير من المواقع اذا احسوا بشدة الضغط من العدو يرتدون بلا نظام ، او يركنون الى الفرار ، الذي كثيراً ما كان يبعث الاضطراب والخلل في صفوف بقية المحاربين فيلحق بها افدح الخسائر ، وان اتفق وثبتوا في الميدان فيكون ذلك عن امل بالظفر للنهب والسلب ، حتى اذا تمّ لهم ذلك ايضاً حوّلوا اهتمامهم من حماية الميدان الى حماية الاسلاب والنهاب ، ولما نما عددهم بعد فتح الاندلس في خلافة هشام بن عبد الملك واوشك ان يصبح الغلب لجندهم على جند القبائل العربية في جيوش المغرب ، اعتزوا بامرهم وشمخوا بانوفهم وتغيرت قلوبهم وتعكرت نواياهم

وزاد تعكيرها دعايات التشيع لبني العباس ، التي كانت تنتشر على ايدي نفر من العصاة الخارجين على حكومة دمشق ، اذ كانت لهم مراكز خاصة في المغرب يغزونها بالسلاح والمال ، فاشتط البربر ، وانحطت طاعتهم عن مستواها الاصلي ، وصاروا لا يتحرجون في اغلب الاحيان عن العصيان فيعمد قادتهم العرب لاستعمال الشدة بحقهم ..

والى جانب البربر نرى مسلمي الاسبان والبرتغال الذين كان عمال الاندلس يصطنعونهم في الجندية ، وفكرة الاسلام فجة لما تنضج بعد من نفوسهم ، نراهم كالبربر من جهة ضعف اخلاصهم للعرب ، والواقع انه كان لدعايات الاديرة التي الحنا الى نفوذها بين نصارى الاندلس بواسطه رجال الدين دخل لا يستهان به في افساد عقيدة اولئك الجنود . وهكذا كان الجيش العربي ابان منعته ، تنطوي اضلاعه على علتين لم يشعر بألمها في باديء الامر ، ولكنه عانى اخيراً الامّرين من جرائها ..

واذا التفتنا الى ناحية اجناد العرب في الجيش وجدنا روح الطاعة والانتظام المقرونين بالشجاعة والاخلاص والتفاني سائدة بين الجميع في ظل القيادة العامة سوى النزاع الذي كانت حلقاته مستحكمة بين جند كل قبيلة وقبيلة اخرى ، وكذلك كان الامر بين قادة الجيش كل يتعصب لجند القبيلة التي ينتمي اليها ، واستمرت هذه الحال زمناً تفاقم في خلاله خطر الثورات التي كانت ناشبة وقتئذ بين قبائل المغرب وخطر البربر ... وتأثرت وضعية الجيش العامة بسبب الخطرين ، فدبت جراثيم الفساد ببطء الى العصبية العربية لدى الجند واصبح الشعور بالطاعة في نفس الجندي لا يتعلق بمبدأ الايمان بحب العرب والاسلام ، بل بالمنفعة التي تربطه بالقيادة ، وبما للقائد في قلبه من ولاء ، وبمقدار ما يأنس في شخص القائد من تسامح واغضاء وفتور وضعف حتى اذا كان القائد عاقلاً عادلاً من ذوي الدربة والحزم والجرأة ، يعرف كيف يعامل جنده ، ويسوس عسكره ، سكنوا اليه ، وسلس له قيادهم ، وانتهى اليه خضوعهم ،

ويكون هذا لمدة قصيرة او طويلة وفاقاً للوقت الذي تصطدم به مصـــالحهم بارادة قائدهم ، فاذا تبدل القـــائد بقائد غيره ، عـــادوا الى التمرد والملل وسوء الطـــاعة ، وكان يزيد هذا اشتعالاً تبديل القواد والعمال بسرعة في الاندلس ...

والمؤكد اليوم ان من اهم الاســـباب في الانكسارات العربية على الارض الافرنسية : وجود البربر والاسبان من المسلمين الجـــدد في الجيش العربي ، وضعف العصبية بين الجنود العرب ...

- ٥ -

عهد الوليد بن عبد الملك

وصف لبعض رجاله والوان الحياة في عهده

٨٦ – ٩٦ هجرية – ٧٠٥ – ٧١٥ ميلادية

العهد الرائع :

لما دفن عبد الملك بن مروان انصرف الوليد عن قبره فدخل المسجد وصعد المنبر ، واجتمع اليه الناس فخطبهم وقال :

« انا لله وانا اليه راجعون ، والله المستعان لموت امير المؤمنين ، والحمد لله على ما انعم علينا من الخلافة ، قوموا فبايعوا .. »

فكان اول خليفة عزى نفسه وهناها ..

وكان عهد الوليد بن عبد الملك ابهى عهود الدولة الاموية في التبسط والفتوحات والعمران ، وقد تحدثنا عن الفتوحات في عهده ، ووصفنا قواده بما هم اهله ، وسنعرض الان وفي هذا الفصل الى شيء من ألوان الحياة في عهده، وسنصف شقيقه واحد قواده مسلمة بن عبد الملك ، وهو شقيق الوليد من غير

امه ، لان له من الاعمال والفتوح ما يجعله بين الخالدين .

والواقع ان عبد الملك بن مروان وفق في اولاده الى ابعد حدود التوفيق ، فاذا نظرنا الى الخلفاء الاربعة الذين تداولوا الملك بعده ، وجدنا الوليد اجلّهم فتوحاً ، واكثرهم نفقة في سبيل الله ، وأعظمهم عمراناً وعمارة ، وسليمان اعظمهم يمناً وبركة على الرعية من حيث انه رفع مظالم الحجاج وغير الحجاج من العمال الاشداء عن كاهل الرعية ، إلا ما كان منه مع بعض قواده وعماله ، حيث شدد" عليهم الخناق ، واغرق في القسوة والعسف لغير ما مبرر ، وكان من الحق والانصاف ان يعفو ويصفح لما لهم من جميل الاثر وعظيم الفتوحات ، خصوصاً وانه بدأ خلافته برفع مظالم الحجاج ، وختمها باستخلاف عمر بن عبد العزيز ، الملك الصالح ، والخليفة العادل ، فلم يكن يصح منه ان يجعل ما بين حاشيتيها مغموراً بالقسوة ، مطرّزاً بالشدة على قواد عصره ، وهم من عرف الناس بلاء وجهاداً .

واما يزيد ، فكان مستهتراً لا يذكر بخير ، ولا يعرف عنه عمل مفيد، واما هشام فكان أكملهم عقلاً ، واكثرهم شحاً ، واظهرهم مرؤة غير انالاجماع وقع على ان مسلمة انجب ولد عبدالملك، بل فخر بني امية،وسناد دولتهم ويدهم الباطشة وسيفهم المسلول .

مسلمة بن عبد الملك :

كان مسلمة شجاعاً مقداماً ، عارفاً بفنون الحرب ، لبقاً بقيادة الجيوش ، خاض غمار المعارك في عهد ابيه ، وهو حدث طرير ، ثم في عهد اخوته الوليد وسليمان ويزيد ، فاظهر بسالة وبعد نظر ، وابلى احسنالبلاء ، وجلّ وقائعه في ارض الروم ، ومن وصفها وذكر اسمائها وتاريخها يدرك القارىء اهميتها وخطورتها ..

ففي سنة ٨٦ هجرية فتح حصن بولق وحصن الاخرم ، وفي سنة ٧٨ فتح قمقم، وفي سنة ٨٨ فتح طورانة من ارض الروم هو وابن اخيه العباس بن الوليد ، وفي سنة ٨٩ غزا عمورية ، وهزم الروم هزيمة منكرة ، وفي سنة ٩٠ حارب الروم وافتتح الحصون الخمس بسورية ، وفي سنة ٩١ ولاه اخوه الوليد الجزيرة واذربيجان فغزا حتى وصل الى الباب من بحر اذربيجان ، وافتتح مدناً وحصوناً كثيرة ، وفي سنة ٩٢ غزا الروم وفتح عده حصون منها (سوسة) ، وفي سنة ٩٣ غزا الروم وفتح حصن الحديد ، وقلعة غزاله ، وفي سنة ٩٤ فتح سندره من اعمال الروم ، وفي سنة ٩٥ فتح مدينة الباب من ارض ارمينيا وخربها ، ثم بناها بعد ذلك ، وفي السنة التالية غزا الصائفة ، وظل هذا شأنه يغزو بلاد الروم ، ويعمل لتثبيت الامن على حدود الامبراطورية ، وفي عهد شقيقه سليمان بن عبد الملك نراه يقود جيشاً لجباً لحصار القسطنطينية ولكنه لا يوفق ، وظل هذا شأنه حتى قضى نحبه .

الحالة الداخلية :

وسار الوليد على سيرة ابيه عبد الملك في سياسته الداخلية ، وكان ميالاً الى العمارة وعمران البلاد واقامة المصانع والجوامع وعمارة الضياع فقلده رعاياه في ذلك ، فكان الناس في ايامه يخوضون في رصف الأبنية ويحرصون على التشييد والتأسيس ويولعون بالضياع والعمارات لوفرة الثروه في ايدي الناس . وقد كتب احد عمال الوليد بن عبدالملك اليه : ان بيوت الاموال قد ضاقت من مال الخمس ، فكتب اليهم ان يبنوا المساجد . واجرى الوليد على القراء وقوّام المساجد الارزاق ، وكذلك على العميان واصحاب العاهات والمجذومين ، واخدم كل واحد منهم خادماً ، وكان يهب اكياس الدراهم تفرق في الصالحين ، واخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة ، وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة عشرة ، وذلك للشاميين خاصة ، وزاد اهل بيته في جوائزهم الضعف ، وفي مئات الالوف

من الدنانير التي انفقها على اقامة الجوامع والمصانع ، وما كان فى خزائنـــه من الاموال التي تكفي الدولة خمس عشرة سنة ، مقنع لمن اراد ان يتصور الاموال التي احتجنها هو ومن قبله من الخلفاء استعداداً للطوارىء .

ودخلت الدولة في حالة استقرار ونظـــام في الادارة، وانتهى [1] تعريب المملكة والادارة ، وأخذت الوظائف الكبرى من النصـــارى ونُحيّ آل سرجون الدمشقيون عن ادارةالاموال ، وبلغت الفتوحات اقصىحدو دهـا . وظهرت ابهة الملك والسلطان ، ومالت الدولة الى اقامة الاعمال العظيمة على الدهر ، تخليـداً للذكر واشادة بالفخر ، والوليد هو الذي جوّد القراطيس وجلل الخطوط وفخّم المكاتبات ، وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبـد العزيز ويزيد بن الوليد ، فانهما جريا في المكاتبات على طريقة السلف . ثم جرى الامر بعدهما على ما سنه الوليد بن عبد الملك الى ان صار الامر الى مروان بن محمد فعمدوا الى الاطناب . وكان الوليد موفقا في فتوحه في الشرق والغرب بفضل قواده وولاته ممن كان يعرف لهم اقدارهم ، وما كانت فتوحه تشغله عن النظر في عمران البلاد . ومن خلق الوليد انه كان سمحاً يسره ان يرى لعماله شيئاً من الرفاهية . كتب اليه الحجاج انه أصيب لمحمد ابن يوسف خمسونومائة الف دينار فان يكن اصابها من حلها فرحمه الله ، وان تكن من خيانة فلارحمه الله. فكتب اليه : ان محمد بن يوسف اصاب ذلك المال من تجارة احللناها له ، وامره ان يترحم عليه .

وتوسع الامويون في هذه الحقبة في افاضة الاموال على عمالهم ، وكان القاضي بمصر مثلاً يرزق الفدينار فيالسنة. كان ابن حجيرة الاكبر في مصر (٦٩ – ٨٣) على القضاء والقصص [2] وبيت المال ، فكان رزقه من القضاء مائتي دينـار ،

(١) معلمة الاسلام . الوليد .

(٢) صبح الاعشى للقلقشندي.

وفي القصص مائتي دينار واضعافها من غيرهماوالعادة الجارية عندهم ان لا يعطى العامل سوى رزق واحد . ولم يكن احد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو ، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلاً .

اما الحجاج بن يوسف والي العراق فانه كان يشتد في تجنيد الناس لانه يقظ حذر دائما ، فكان لا يدع قرشياً ولا رجلاً من بيوتات العرب الا اخرجه « وضرب [1] البعث على المحتلمين ومن انبت من الصبيان ، فكانت المرأة تجيء الى ابنها وقد جرّد فتضمه اليها وتقول له : بابي ، جزعاً عليه ، فسمي ذلك الجيش ، بابي ».وكان يصار الى تجريد الشبان من ثيابهم للاطلاع على عيوب اجسامهم ، فينبذ السقيم ويجند السليم . وخطب الحجاج لما جاء والياً على العراق ، وقد بعث بشر بن مروان المهلب الى الحرورية ومما قال «واياي وهذه الزرافات والجماعات.. وقال وقيل وما يقولون.. وفيم انتم ، والله لتستقيمنّ على طريق الحق او لأدعنّ لكل رجل شغلاً في جسده ، ومن وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه ، وانتهبت ماله وهدمت منزله » . فشمّر الناس بالخروج الى المهلب .ولا يمنع بعث البعوث عند الشدائد من وجود جيوش عند الخليفه وعماله في الاقطار ، تشبه الجيش الدائم تحت السلاح ، ليتيسر حشده عند الحاجة بقليل من العناية [2] .

الحجاج والفتوحات :

وليس من شك اليوم في ان الحجاج نفسه وهو عامل الوليد على العراق كما كان عامل ابيه من قبله ، يجب ان يذهب بفخر هذه الفتوح ، فهو الذي جهزها وانفق عليها ، وامر بها وسيّرها وفاقاً لرأيه ، واذا كان لنا ان ننتقد سياسة الحجاج القامعة ، واغراقه في العنف والقسوة والبطش ، فان علينا كمؤرخين

(١) الاغاني .

(٢) الادارة الاسلامية في عز العرب .

منصفين ان نحمد له رأيه في هـذه البعوث العظيمة ، التي حملت رايات الاسلام الى حدود الصين والهند ، فلولا شدته وحزمه ولولا جبروته وقوته لما كان بالامكان الوصول الى هذه الانتصارات العظيمة التي كلفت مالاً طائلاً والتي لم يكن يستطيع احد ان يتحمل مسؤوليتها الا الحجاج نفسه ...

لقد كلفت حملة محمد بن القاسم التي انتهت بالاستيلاء على (المولتان) ستين مليون درهم ، ولكنها حملت الى بيت المال من الغنائم والاسلاب ١٢٠ مليوناً من الدراهم .

والمستشرقون وان كانوا لا ينكرون على الحجاج شدته وقسوته ومظالمه ، الا انهم لا يعترفون في الوقت نفسه انه لولا هذه الشدة لما تمكن الحجاج من القضاء على الفتن الداخلية التي كانت تهدد الامبراطورية العربية ، ولا تمكن بعد القضاء على هذه الفتن ، من توجيه البعوث الى ما وراء الامبراطورية من الاقطار والممالك ...

ويذهب بعضهم الى ان زحوف العرب المسلمين الجديدة في المشرق والمغرب ، كانت على غرار الزحوف السابقة قوة وسرعة وتضحية ، وبينما كان العرب المسلمون يغزون الشرق الاقصى ويقتحمون الحدود الصينية والهندية ، وبينما كان طارق يمشي على رأس جنوده في ارض الاندلس الجديدة ، كان مسلمة بن عبد الملك يحارب الامبراطورية البيزنطية والارمن ، بحيث لم ير الاسلام في عهده — اذا استثنينا عهد عمر بن الخطاب — عهداً كثرت فيه الزحوف ، وانتشرت رايات الاسلام في مختلف البلاد والاطراف .

وكان الحجاج يأخذ بايدي العلماء ممن لا يتدخلون في سياسته ولا يشاركونه في سلطانه ، ويضع في كل يوم الف خوان في رمضان .. وفي سائر الايام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة انفس وعشرة الوان وسمكة مشوية طرية وارزّة بسكر ، وكان يحمل في محفة ، ويدار به على الموائد يتفقدها ،

فاذا رأى ارزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليجيء بسكرها فابطأ ... امر بضربه مائتي سوط ، فكانوا بعد ذلك لا يمشون ... إلا متأبطي خرائط السكر . وكان يوسف بن عمر والي العراق في ايام هشام ابن عبد الملك يضع خمسمائة خوان ، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة ، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره ، فكان عند الناس احمد .

واشتهر عهد الحجاج [1] باصلاح الموازين والخراج والزراعة فهو رجل الدولة باصلاحاته ، ولم يكن مصلحاً فحسب بل كان مصلحاً وموجداً ، ومن ايجاده وضع الحركات والاعجام في المصاحف لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن . واتخذ الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والبهرجة وغيرها ، ثم اذن للتجار وغيرهم في ان تضرب لهم الاوراق واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من فضول الاجرة للصناع والطباعين وختم ايدي الطباعين .

الحجاج والبيت المالك :

والواقع انه ليس في التاريخ شخص وثق به ملك من الملوك او خليفة من الخلفاء كما وثق عبد الملك بن مروان والوليد ابنه بعاملهما على العراق الحجاج بن يوسف .

واذا استثنينا بعض الحوادث الصغيرة التي عاتب فيها عبد الملك عامله الحجاج وافضى اليه بغضبه وانكاره ، فان العلاقات بين الرجلين كانت ودية لاتشوبها شائبة ، حتى بلغ من ثقة عبد الملك ان اورثه لولي عهده ، واوصاه بالاحتفاظ به وعدم التفريط في امره ..

والحجاج في الوقت نفسه كان مغرقاً في اخلاصه لعبد الملك بن مروان

---

(١) معلمة الاسلام – مادة الحجاج .

ولاهل بيته ، فكانت مصلحة عبد الملك فوق كل مصلحة عنده ، وفوق كل اعتبار ، وعبد الملك كان يعرف ذلك ، ويعلم ان الحجاج قد وطّد له ملكه ، وهزم اعداءه ، وقتل خصومه ..

واما علاقات الحجاج مع الوليد ابنه وخليفته فكانت على احسن ما يرام وما نعرف ان الوليد انكر على الحجاج امراً ، او عتب عليه في يوم من الايام حتى انه لما مات الحجاج دخل الناس على الوليد يعزونه بوفاته – لما كان له من المقام عنده – ويثنون على الحجاج خيراً ، وكان عنده عمر بن عبد العزيز الرجل الصالح ، فالتفت اليه الوليد ليقول فيه ما يقوله الناس فقال عمر :

– يا امير المؤمنين فهل كان الحجاج إلا رجلاً منا ؟ ..

فرضيها منه .

وكان الوليد بن عبد الملك يقول :

– كان عبد الملك يقول : الحجاج جلدة ما بين عيني وانفي ، وانا اقول: « انه جلدة وجهي كله » .

ولما بلغ عمر بن عبد العزيز موت الحجاج خرّ ساجداً وكان يدعو الله ان يكون موته على فراشه ليكون اشدّ لعذابه في الآخرة .

الوليد والمساجد :

ومن اعمال الوليد العظيمة بناء مسجد المدينة ومسجد دمشق ، فقد أمر عمر بن عبدالعزيز لما ولاه امارة الحجاز بهدم المسجد النبوي وهدم بيوت ازواج الرسول وادخالها في المسجد ، وان يشتري دوراً في مؤخره ونواحيه ليتسع حتى يكون مئتي ذراع في مثلها ، ومن ابى فليقوّم داره بعدل ، ولتهدم ويدفع الى اصحابها ثمنها ، وارسل اليه بالفعلة والبنائين من الشام ، وبعث الوليد الى ملك الروم يعلمه بذلك ، ويطلب اليه ان يعينه فيه ، فبعث اليه

بمائة عامل ، وبعث اليه من الفسيفساء باربعين جملاً ، فابتدىء بعمارته وادخلت فيه جميع الحجر التي كانت لازواج رسول الله ، ولم يبق إلا حجرة عائشة وفيها القبور الثلاثة .

واما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الاموي فقد وسّعه الوليد وأنشاءه انشاءً جديداً ، ولا تزال اثاره باقية الى يومنا هذا .

وحج الوليد سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز اميراً على المدينة ، فلما وصلها دخل المسجد ينظر في بنائه ، فأخرج الناس منه ، فما تُرك فيه احد .

وبقي سعيد بن المسيب وهو من جلة التابعين ، ما يجترىء احد من الحرس ان يخرجه ، وما عليه من الثياب لا يساوي خمسة دراهم فقيل له :

— لو قمت ..

فابى ان يقوم قبل الوقت الذي يقوم فيه ، فسألوه ان يسلم على امير المؤمنين فأبى ان يفعل .

قال عمر بن عبد العزيز : فجعلت اعدل بالوليد بناحية المسجد رجاء ان لا يرى سعيداً حتى يقوم ، فحانت من الوليد نظرة الى القبلة فقال :

— من ذلك الجالس ؟ اهو الشيخ سعيد بن المسيب ؟

فقال عمر : نعم يا امير المؤمنين ، ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر .

فقال الوليد : قد علمت حاله ، ونحن نأتيه ونسلم عليه .

فدار في المسجد حتى وقف على المنبر ، ثم اقبل حتى وقف على سعيد فقال:

— كيف انت ايها الشيخ ؟

فلم يتحرك سعيد ولم يقم وقال :

بخير والحمد لله ، فكيف امير المؤمنين وكيف حاله ؟

فقال الوليد : بخير والحمد لله ..

وانصرف وهو يقول لعمر : هذا بقية الناس .

والواقع ان قليلاً من ذوي السلطان كان يعرف لمثل سعيد بن المسيب بقية التابعين حقه ، وسبب ذلك يرجع الى العلماء ، والى اصحاب السلطان ، فاما العلماء فقد رضوا لانفسهم المذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتى صار كل ما يصيبهم في الحصول عليها سهلا ، وعلم ذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما افاضوا عليهم من الدنيا ، وكان من اثر ذلك ان ضعف احترامهم لهم ، وقلت مكانتهم ..

واما ذووا السلطان فانهم احياناً يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون ان يكون لاحد من رعيتهم كلمة فوق كلمتهم ، فيتجهمون لمن يبدي لهم نصيحة ، او يعرّفهم واجباً ، ولكن الذي يريد الله ومصلحة الامة بالنصيحة لا يضره شيء من كل هذا ..

. . .

وكان الوليد الى ذلك لحّاناً لا يحسن النحو ، وعاتبه عبد الملك ابوه على اللحن وقال له :

– انه لا يلي العرب إلا من يحسن كلامهم .

فدخل الوليد بيتاً ، واخذ معه جماعة من علماء النحو ، واقام مدة يشتغل فيه ، فخرج اجهل مما كان يوم دخوله ، فلما بلغ ذلك عبد الملك قال :

– قد اعذر ...

ويقول المسعودي : ان الوليد كان جباراً ظلوماً غشوماً .

ولم اجد في اخباره ما يؤيد هذا الرأي إلا ان يكون في سكوته على مظالم الحجاج في العراق ، ما يدل على ظلمه ...

الوليد ووالده :

ومما يذكر عن الوليد ، انه لما كان والده عبد الملك في حالة النزع اخذ يبكي فوق رأسه فنظر اليه ابوه وقال :

– يا هذا احنين الحمامة ؟ اذا انا مت فشمّر ، واتزر ، والبس جلد نمر ، وضع سيفك على عاتقك ، فمن ابدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه .

ثم اقبل على جميع ولده فقال يذم الدنيا :

« ان طويلك لقصير ، وان كثيرك لقليل ، وان كنا منك لفي غرور » .

ثم قال يخاطب ولده :

« اوصيكم بتقوى الله ، فانها عصمة باقية ، وقبلة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وافضل في المعاد ، وهي احصن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير مع سلامة الصدور ، والاخذ بجميل الامور ، واياكم والبغي والتحاسد ، فيها هلك الملوك الماضون ، وذو العز المكين ، يا بني اخوكم مسلمة ، نابكم الذي تفرون عنه ، ومجنّكم الذي تستجنون به ، اصدروا عن رأيه ، واكرموا الحجاج فانه الذي وطأ لكم هذا الامر ، كونوا اولاداً ابراراً ، وفي الحروب احراراً ، وللمعروف مناراً ..

ولما مات عبد الملك صلى عليه ابنه الوليد ، فتمثل هشام ابنه الاخر فقال:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

فقال له الوليد : اسكت فانت تتكلم بلسان شيطان ، ألا قلت كما قال الاخر :

اذا سيد منـــا مضى قام سيد قئول لمـا قال الكرام فعول

وفي منتصف جمادي الاخرة سنة (٩٦) توفي بدير مران الوليد بن عبدالملك (٢٥ شباط ٧١٥) بعد ان مكث على عرش الخلافة تسع سنين وثمـانية اشهر ، وكان سنه اذ توفي ستاً واربعين سنة .

- ٦ -

سليمان بن عبد الملك

الزحف على القسطنطينية

٩٦ - ٩٩ هجرية ٧١٥ - ٧١٧ ميلادية

صورة لسليمان :

يذكر بعض المؤرخين انه لما اشتكي الوليد ، بلغه عن اخيه سليمان تمنّي لموته ، لما له من العهد بعده ، فكتب اليه الوليد يعتب عليه للذي بلغه منه فاجابه سليمان بما يأتي :

« فهمت ما قاله امير المؤمنين ، ووالله لئن كنت تمنيت ذلك لما يخطر بالبال اني لأول لاحق به ، فعلام اتمنى زوال مدة ، لا يلبث متنميها إلا بقدر ما تحل السفر بمنزل ثم يظعنون ، وقد بلغ امير المؤمنين ما لم يظهر من لفظي ولا يرى من لحظي ، ومتى سمع امير المؤمنين من اهل النميمة ومن ليست له روية ، اوشك ان يسرع في فسادالنيات ، ويقطع بين ذوي الارحام والقرابات »

وكتب في اسفل الكتاب :

ومن لا يغمّض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع جاهداً كل عثرة يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

فكتب اليه الوليد : ما أحسن ما اعتذرت به ، وانت الصادق في المقال والكامل في الفعال ، وما شيء اشبه بك من اعتذارك ، ولا ابعد مما قيل فيك والسلام » .

سليمان خليفة :

ولما توفي الوليد كان سليمان في الرملة من اعمال فلسطين فعاد الى دمشق وبايعه الناس ، فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

« الحمدلله الذي ما شاء صنع ، وما شاء اعطى ، وما شاء منع ، وما شاء رفع ، وما شاء وضع ، ايها الناس ان الدنيا غرور وباطل وزينة ، وتقلب باهلها ، تضحك باكيها وتبكي ضاحكها ، وتخيف آمنها ، وتؤمن خائفها ، وتثري فقيرها ، وتفقر مثريها ، ميالة باهلها ، عباد الله اتخذوا كتاب الله اماماً ، وارضوا به حكماً ، واجعلوه لكم هادياً ودليلاً . »

استقبال الوفود :

ولما افضى الامر الى سليمان بن عبدالملك اقرّ عمال من كانوا قبله على اعمالهم إلا قليلاً ، وجلس في صحن المسجد وقد بسطت لديه البسط والنمارق عليها ، ووضعت الكراسي ، واذن للناس بالجلوس ، والى جانبه الاموال والكساوي وآنية الذهب والفضة ، فيدخل وفد الجند ويتقدم صاحبهم فيتكلم عنهم وعمن قدموا من عنده ، فيأمر سليمان بما يصلحهم ويرضيهم ، فما يطلب احد شيئاً إلا نوّله مرامه ، وردّ المظالم ، وعزل عمال الحجاج ، واخرج من كان في سجنه في العراق .. واعتق سبعين الف مملوك وكساهم .

سليان ونهمه وملبسه :

ومن غريب أمر اولاد عبد الملك بن مروان من الخلفاء ان كل واحد منهم كان يختلف عن اخيه كل الاختلاف ، فالوليد كان ميالاً الى العمارة والعمران كما قدمنا ، وسليان كان نهماً محباً للأكل ، فكان الناس في عهد الوليد اذا التقوا يسأل بعضهم بعضاً عن الابنية والعمارات ، واما في عهد سليان فكانوا اذا التقوا في خلافته سأل بعضهم بعضاً عن الاكل والطعام .

وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشى ، وفي ايامه عمل الوشي الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ، ولبس الناس جميعاً الوشي جباباً واردية وسراويل وعمائم وقلانس ، وكان لا يدخل عليه رجل من اهل بيته الا في الوشي ، وكذلك عماله واصحابه ، ومن في داره ، وكان لباسه في ركوبه وجلوسه وعلى المنبر ، حتى الطباخ كان يدخل عليه في صدرة وشي وعلى رأسه قطعة من الوشي ايضاً ..

وكان يأكل في النهار كمية عظيمة من الطعام ، وكان ربما اتاه الطباخون بالدجاج المشوية ، فلا يصبر حتى يبرد ، فيأخذه بكمه لنهمه وحرصه على الاكل .

قال الاصمعي : كنت يوماً عند هرون الرشيد ، فجرى حديث اصحاب النهم ، فقلت : كان سليمان بن عبد الملك شديد النهم ، وكان اذا اتاه الطباخ بشواء تلقاه فاخذه باكامه .

فقال الرشيد : ما اعلمك (يااصمعي) باخبار الناس ، لقد كنت انظر منذ ايام في جباب سليان فوجدت اثر الدهن في اكامها ، فظننته طيباً .

قال الاصمعي : ثم امر لي بجبة منها ، فكنت اخرج احياناً فيها الى الناس فاقول : هذه جبة سليان التي كسانيها الرشيد .

وذكروا ان سليان خرج من الحمام ذات يوم وقد اشتد جوعه ، فاستعجل

الطعام ولم يكن فُرِغ منه ، فامر ان يقدّم له مـا لحق وانتهى من الشواء ، فقدم اليه نحو عشرون دجاجة ، فأكل اجوافها كلها ، مع اربعين رقاقة ، ثم قرب اليه بعد ذلك الطعام ، فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئاً .

وحكي انه كان يتخذ سلال الحلوى ، ويجعل ذلك حول مرقده ، فكان اذا قام من نومه ، يمد يده فلا تقع الا على سلة يأكل منها .

الفتوح في عهده :

وليس في عهد سليمان ما يستحق الذكر من الفتوح ، إلا ما كان من حملة القسطنطينية وسنعرض لها ، وكان يزيد بن المهلب صديقه قد اصبح في عهده حاكم العراق ، وهو الذي عذّب آل الحجاج ، وضرب انصار سلفه الحجاج بشدة وقسوة ، وقام يزيد ببعض الفتوحات في جرجان وطبرستان ، وكان من شأنه انه لما تولى امارة المشرق ، بما فيها خراسان سار الى دهستان فحاصرها وفتحها ، ثم أتى جرجان فصالحه اهلها ، وخلف فيها جندا ، وسار الى طبرستان فقاتله بها صاحبها قتالاً شديداً ، ثم صالحه اخيراً ، وبينما هو محاصر طبرستان ، بلغه ان اهل جرجان غدروا بعامله وقتلوه هو ومن معه ، فعاد اليهم وفتح جرجان بالسيف ، بعد حصار دام سبعه اشهر ، وقتل من اهلها مقتلة عظيمة ، وكتب الى سليمان يعلمه بالفتح، ويذكر له كثرةالغنائم والاموال التي حصل عليها ، وانه باعث اليه حصته من الفيء والغنيمة ..

ولم يحدث في الامصار الاخرى ما يستحق الذكر ، ففي الهند تمكن العرب من الاحتفاظ بالسند ، واما في اسبانيـا فان الاختلافات فيها بعد مقتل عبد العزيز بن موسى لم تكن تبعث على الارتياح والطمأنينة ، خصوصاً وان هذه الاختلافات جرأت المسيحيين المعتصمين بالجبال في استوريا ونافار وغيرهما على المقاومة ...

حملة القسطنطينية :

ومن اهم الحوادث التي وقعت في عهد سليمان الحملة التي وجهت الى الامبراطورية البيزنطية بقيادة مسلمة بن عبد الملك ، ويقدر بعض المؤرخين عدد الجنود فيها بمائة وثمانين الفاً ، ورابط سليمان نفسه في مرج دابق شمالي الشام ، وارسل شقيقه امام الجيش ، وكان على الدولة البيزنطية انستاسياس الثاني فدافع عن حاضرة ملكه بشدة ، وارسل حملة الى الثغور الشامية لتحول دون ارسال الاقوات والمؤن بالبحر الى جند المسلمين ، ولكنها عادت بالفشل ، وقد انضم الى الجيش الاسلامي في آسيا الصغرى رجل من الروم كان يطمع بالملك ويدعى ليو الاسوري ، وتمكن المسلمون اول الامر من الاستيلاء على اسيا الصغرى مدينة اثر مدينة ، حتى وصلوا الى اسوار العاصمة ، وتبعهم الاسطول العربي من الثغور الشامية والمصرية ، فاشترك في حصار حاضرة البيزنطيين ، غير ان (ليو) عاد وانضم الى الروم ، واعلن نفسه امبراطوراً مكان الامبراطور انستاسياس الذي كان مكروهاً من الاهلين ، واستدرج الاسطول العربي الى مقربة من الشواطيء التي كان الروم يدافعون عنها ،حيث رموه بالنار الاغريقية فارتدمشتتاً ، وفشلت حملة القسطنطينية بعد ان قتل كثير من الجند العربي ...

سليمان وقواده :

ومن المصائب الكبرى التي وقعت في عهده ، فتكه باكبر قواد المسلمين في عصره ، فقد كان سليمان يكره الحجاج بن يوسف لاختلاف حصل بينهما ابان خلافة شقيقه الوليد ، ويقال ان السبب الاساسي في ذلك اجابة الحجاج وقتيبة بن مسلم الوليد بن عبدالملك لما اعتزمه الوليد من عزل سليمان من ولاية العهد ، وتولية ابنه مكانه ...

ومن مظاهر هذا الاختلاف ان سليمان كان يكتب الى الحجاج في ايام اخيه الوليد كتباً ، فلا ينظر له الحجاج فيها ، وكان الحجاج في خدمته لعبد

الملك وللوليد من بعده لا يفطن الى غيرهما ، فكتب اليه سليمان بما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

«من سليمان بن عبد الملك الى الحجاج بن يوسف ، سلام على اهل الطاعة من عباد الله ، اما بعد فانك امرؤ مهتوك عنه حجاب الحق مولع بما عليك لا لك ، منصرف عن منافعك ، تاركا لحظك مستخف بحق الله وحق اوليائه ، لا ما سلف اليك من خير يعطفك ، ولا ما عليك لا لك ، تصرفه في مهمة من امرك ، لا تسكت عن قبيح ولا ترعوي عن اساءة ولا ترجو الله وقاراً ، حتى دعيت فاحشاً سباباً ، فقس شبرك بفترك ، وايم الله لئن امكنني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ، ولأجعلنك شريداً في الجبال تلوذ باطراف الشمال ، ولأعلقن الرومية الحمراء بثدييها ، علم الله ذلك مني ، فقدما غرتك العافية وانتحيت اعراض الرجال ، فانك قدرت فبذخت ، وظفرت فتعديت فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك ، ان كانت بي وبك مدة اتعلق بها ، وان تك الاخرى فأرجو ان تؤول الى مذلة ذليلة وخزية طويلة ويجعل مصيرك في الآخرة شر مصير والسلام . »

جواب الحجاج :

فكتب اليه الحجاج :

« بسم الله الرحمن الرحيم من الحجاج بن يوسف الى سليمان بن عبد الملك ، سلام على من اتّبع الهدى ، اما بعد فانك كتبت الي تذكر اني امرؤ مهتوك عني حجاب الحق ، مولع بما عليّ لا لي ، منصرف عن منافعي تارك لحظي ، مستخف بحق الله وحق ولي الحق ، وتذكر انك ذو مصاولة ، ولعمري انك لصبي حديث السن ، تعذر بقلة عقلك وحداثة سنك ، فاما كتابك اليّ فلعمري لقد ضعف به عقلك واستخف به حلمك ، فلله ابوك أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضائك ، ورجاء الله دون رجائك ، وامتّ غيظك وأمت عدوك ،

وسترت عنه تدبيرك، ولم تنبهه فيلتمس من مكايدتك ما تلتمس من مكايدته، ولكنك لم تشف بالامور علماً ، ولم ترزق من امرك حزماً ، جمعت اموراً دلك فيها الشيطان على أسوأ امرك فكان الجفاء من خليقتك ، والحمق من طبيعتك واقبل الشيطان بك وادبر ، وحدثك انك لن تكون كاملاً حتى تتعاطى ما يعيبك ، فتزحلقت صخرتك لقوله ، واتسعت جوانبها لكذبه ، واما قولك لو ملكك الله لعلقت زينب ابنة يوسف بثدييها فارجو ان يكرمها الله بهوانك وان لا يوفق ذلك لك ، ان كان ذلك من رأيك ، مع اني اعرف انك كتبت اليّ والشيطان بين كتفيك ، فشر محـــلّ على شر كاتب ، راض بالخسف ، فاحرى بالحمق ان لا يدلك على هدى ولا يردك إلا الى ردى ، ومال بك الامل وتحلّب فيك للخلافة ، فانت شامخ البصر طامح النظر تظن انك حين تملكها لا تنقطع عنك مدتها ، انها نعمة الله اسأل الله ان يلهمك فيها الشكر ، مع اني ارجو ان ترغب فيا رغب فيه ابوك واخوك فأكون لك مثلي لهما ، وان نفخ الشيطان في منخرك ، فهو امر اراد الله نزعه عنك واخراجه الى من هو اكمل به منك ، ولعمري انها النصيحة ، فان تقبلها فمثلها قبل ، وان تردها علي اقتطعتها دونك ، وانا الحجاج » .

وفي جواب الحجاج تهديد ووعيد ، يدلك على جبروته وغروره، خصوصاً وسليمان بن عبد الملك ولي العهد ، فان اقبلت اليه الخلافة والحجـــاج حي ، فمصير الحجاج سيكون اسوأ مصير ..

ولكن الله اراد غير ذلك فقد توفي الحجاج في عهد الوليد ، فلما ولي سليمان الخلافة تتبع اهل الحجاج وانصاره واصدقاءه فمزقهم تمزيقاً وقتلهم قتلاً ذريعاً انتقاماً من اهانة الحجاج له ، وعدم مبالاته بامره ..

خوف الحجاج من موت الوليد :

وكان الحجاج في العراق يعلم بالخطر الذي يتهدده فيا اذا مات الوليد ابن

عبد الملك وهو حي يرزق في العراق ، وقد ادرك بثاقب نظره ان سليمان ابن عبد الملك سيحاسبه حساباً عسيراً وسينتقم منه انتقاماً عظيماً ، وكان للحجاج عيون في دمشق وفي قصر الخليفة ، فمرض الوليد يوماً مرضاً شديداً أغمى عليه فيه ، فظن اهله انه فارق الحياة ، فارسل عيون الحجاج اليه بالخبر، فاضطرب اضطراباً شديداً ، وأسقط في يده ، واحس بالخوف يغمر قلبه ، فاطلق بصره الى السماء ، وقال : نحن الى الله والى الله نعود ...

وكان الحجاج كثيراً ما يطلب من الله ان يقبضه اليه قبل الوليد ، مخافة ان يهان في آخرته ، ويذل في اواخر ايامه ، ومن حسن حظ الحجاج ان الوليد عاد الى وعيه بعد اغمائه فأرسل الخبر الى الحجاج ، ففرح فرحاً عظيما، وسجد الى الله شاكراً حامداً ، واعتق كثيرا من عبيده ، وارسل للوليد كثيرا من الهدايا ، وبعث اليه بقوارير من عطور الهند .

وفي كتاب سليمان بن عبد الملك ظهرت جهالات ما كان يجب ان تظهر من مثله ، منها ما قاله الحجاج في كتابه ، من تنبيه عدوه لما اضمره له ، فاما ان يلتمس له المكايد ، واما ان يحترس منه ، حتى لا يبلغ فيه مرامه ، ومنها توعده الحجاج بما سيكون منه في حقه حين يتولى الخلافة ، وهذا امر معلق بالقدر ، وليس معلقاً به ، ولا يبعد ان يثير وعيده وتهديده واظهاره ما خفي من امره غيرة الخليفة القائم فيكون منه ما يكره ، ويكون ذلك سبباً للايقاع به او لتحويل الخلافة الى غيره ..

قتل محمد بن القاسم :

ولقد انفذ سليمان وعيده لما ولي الخلافة ، فلما افلت منه الحجاج بموته قبله ، صبّ نقمته على اهله .

ويقول بعض المؤرخين ان سليمان بن عبد الملك كان مضطغناً على الحجاج لانه كان قد زين للوليد خلع سليمان من ولاية العهد ، فلما مات الحجاج رأى

سليمان ان يشفي غيظه من اقربائه ، واذكى نار الحقد في صدره رجلان كلاهما قد وتره الحجاج، وكلاهما كان متأثراً بالعصبية القبلية بين قيس واليمن، احدهما يزيد بن المهلب وكان اثيرا مكيناً لدى الخليفة سليمان ، والآخر صالح بن عبد الرحمن وقد ولاه سليمان خراج العراق .

وعزل (سليمان) محمد بن القاسم عن السند ، وولى مكانه يزيد بن ابي كبشة السكسكي ، فاخذ محمداً وقيده وسيره الى العراق مع رجل من بني المهلب ، فعذبه صالح بن عبد الرحمن مع رجال من اقرباء الحجاج حتى قتلهم .

ولقد تلقى محمد المحنة صابرا محتسباً ، ولم يكن في محنته اقل شجاعة وصبراً وانفة منه وقت الحرب ، وحين البأس ، ولم تحدثه نفسه بالفرار مع ان ذلك كان باستطاعته كما يظهر من هذه الابيات التي قالها :

ولو كنت اجمعت الفرار لوُطئت   اناث أعدت للوغي وذكور
وما دخلت خيل السكاسك ارضنا   ولا كان من عك عليّ امير

وقد بكى اهل السند على محمد ، ورثاه الشعراء فقال بعضهم :

ان المرؤة والسماحة والهدى   لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة   يا قرب ذلك سؤددا من مولد .

واما موسى بن نصير فقد اشرنا الى نهايته ، وكيف راح في اواخر ايامه يسأل الناس الصدقة والمعونة ، وكذلك نرى ان سليمان وهو الخليفةَ الذي كان يجب ان يكون قدوة للناس ، قد انام عقله ، وايقظ شهوته ، واشبع بطنه ، فقضى على قواد العرب المشهورين في عهده ، كما قضى في الوقت نفسه على النبوغ والعبقرية العسكرية عند الناس ، اذ كان مصير القائد النابغ ، والبطل البارع التشهير والقتل في عهده [1] ..

(١) هناك رواية ان قتيبة لم يخلع سليمان ، وانما تجنى عليه وكيع وجماعة من بني تميم .

سليمان وكاتب الحجاج :

ومما يجب ان يصار الى ذكره بهذه المناسبة انه دخل على سليمان في يوم من الايام وفي اول خلافته يزيد بن ابي مسلم كاتب الحجاج ، وهو مكبل بالحديد ، فلما رآه ازدراه وقال :

– ما رأيت كاليوم قط ، لعن الله رجلاً اجرّك رسنه ، وحكمك في امره.

فقال له يزيد : لا تفعل يا امير المؤمنين ، فانك رأيتني والامر عني مدبر ، وعليك مقبل ، ولو رأيتني والامر مقبل عليّ لاستعظمت مني ما استصغرت ، ولاستجللت مني ما استحقرت .

قال سليمان : صدقت ، فاجلس ..

فلما استقر به المجلس قال له سليمان : عزمت عليك لتخبرني عن الحجاج ما ظنك به ، أتراه يهوي بعد في جهنم ، ام قد استقر فيها ؟ ..

قال: يا اميرالمؤمنين لا تقل هذا فيالحجاج، فقد بذل لكم نصحه ، واحقن دونكم دمه ، وامّن وليكم ، واخاف عدوكم ، وانه يوم القيامة لعن يمين ابيك عبد الملك ، ويسار اخيك الوليد ، فاجعله حيث شئت ..

فصاح سليمان : اخرج عني الى لعنة الله ..

ثم التفت الى جلسائه فقال : قبحه الله ما كان احسن اعتذاره لنفسه ولصاحبه ولقد احسن المكافأة .. اطلقوا سبيله ..

لماذا نكره الموت :

ودخل عليه ابو حازم فقال : يا ابا حازم مالنا نكره الموت ؟

قال : لانكم عمرّتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فانتم تكرهون النقلة من العمران الى الخراب ..

وقال سليمان يوماً لعمر بن عبد العزيز ، وقد اعجبه سلطانه : كيف ترى ما نحن فيه ؟

قال : سرور لولا انه غرور ، وحيـــاة لولا انه موت ، وملك لولا انه هالك ، وحسن لولا انه حزن ، ونعيم لولا انه عذاب اليم ..

فبكى سليمان من كلامه ..

وكان سليمان بخلاف الوليد وعلى الضد منه ، في الفصاحة والبلاغة وحسن الكلام والحديث ...

مدينة الرملة :

وبنى سليمان مدينة (الرملة) في فلسطين ، وجعلهـا مقراً له ، وبنى فيها مسجداً كبيراً جعله على مثال جامع دمشق ..

واخذ الخلفاء من بعده وقبله ايضاً يكثرون من مغادرة العاصمة (دمشق) الى خارجها، فقد سكن الوليد في دير (حران) مدة من الزمن ،وعاش يزيد بن معـاوية في (حوارين) عدة اشهر قبل وفاته ، وصرف سليمان مدة في الرملة مع قصر خلافته ، كما سكن هشام بن عبد الملك الرصافة وهي مدينة رومانية قديمة بجانب الرقة ، وسبب ذلك كثرة الامراض والاوبئة التي كانت تفتك في سكان المدن الكبرى ، فكان الخلفاء والحالة هذه ، يغادرون العاصمة الى غيرها من القرى القريبة من البادية ، هرباً من الطاعون وغيره ، واستمتـاعاً بهواء البادية النشيط الصحيح ..

الصيد والقنص وسباق الخيل :

وكان الصيد والقنص من الالعاب المحببة عند العرب والخلفاء ،ثم تدرجوا من ذلك الى سباقات الخيل يشجعونها ويحضرونها بانفسهم ، كما اخذوا لعبـــة (البولو) عن الفرس ، في آخر ايام امية ، اما الصيد فقديم عنـــد العرب ،

واستعملوا فيه الكلاب السلوقية التي اخذوهـا من اليمن ، ويقال ان كلاب بن ربيعة (الذي نشبت حرب البسوس بسببه) اول من استعمل الكلاب من بين العرب ، ولكن الواقع ان الهنود والفرس استعملوا الكلاب قبله .

وكان يزيد بن معاوية اول صياد في الاسلام ، وكان أشد الناس كلفاً بالصيد لايزال لاهياً به ، وكان يلبس كلاب الصيد الاساور من الذهب ، والجـلال المنسوجة منه ، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه .

اما سباق الخيل فقد صار الاهتمام به ايام بني امية ، واول من انشأ وشجّع سباقات الخيل العامة الوليد بن عبد الملك .

وكان سليمان يستعد لسباق عظيم لما اخذه الموت ، وفي احد السباقات عهد هشام بن عبد الملك كان عدد الخيل التي اشتركت في السباق اربعة الاف فرس، وكانت شقيقة الخليفة هشام من المولعين بتربية الخيل للسبق .

الزحف على القسطنطينية :

ولعل اهم اعمال سليمان بن عبد الملك ما قام به في عهده من مهاجمة العاصمة البيزنطية ، وكانت الانتصارات العظيمة التي وصفناها في الفصل السابق ومـا قبله قد مكنت العرب من الوصول الى ذروة المجد العسكري ، ولكنهـا في الوقت نفسه كانت تعمل على اضعاف الجيش الاسلامي الذي كان يحـارب في جهات متعددة في وقت واحد ، لان هذه الزحوف المتعددة كانت كفيـلة مع الايام بانهاك القوى العسكرية العربية ، وتوزيع الجهود توزيعاً كان من المفروض ان يؤدي آخر الأمر الى شيء من الاعياء والضعف .

وكما وصل الاسلام في عهد امية الى ذروة مجده الحربي ، لاقى في عهـد امية ايضاً هزيمتيه الفادحتين الحاسمتين في مصايره ، فارتد امام أسوار القسطنطينية لما اراد ان يجوزها الى اوروبا واسبانيا ، كما ارتد في ارض فرنسا ، وكان

ارتداده في هاتين المركتين حاسماً قوياً ..

ولكن غزو القسطنطينية واقتحامها كان يملك على بعض الخلفــاء شعورهم وعواطفهم ، فما كاد سليمان بن عبد الملك يجلس على عرش الخلافة ، حتى اخذ في هذا المشروع الحربي الخطير ، خصوصاً بعد الانتصارات العظيمة التي نالها شقيقه الوليد في الشرق والغرب، فاصبح من الحق والحالة هذه ان ينال انتصاراً واحداً، ومكـّن هذه الفكرة في رأسه اضطراب الاحوال الداخلية عند الروم واختلاف الملوك عنـدهم بعضهم مع بعض ، وتـــداولهم على العرش بسرعة غريبـة ..

الزحف :

وجرد سليمان بن عبد الملك ٧١٥ – ٧١٧ ، جيشا كثيفاً للغزو ، عهـد بقيادته لاخيه مسلمة ، قدرّه بعض المؤرخين اول الامر بثمانين الف مقاتل، ثم زاد فاصبح مائة وثمانين الف مقاتل بما في ذلك بحارة الاسطول والامدادات التي ارسلت الى مسلمة فيما بعد .

سار مسلمة الى (عمورية)قاعدة الاناضول فحاصرها ،ثم رفع الحصار عنها بعد مفارضات جرت بينه وبين ليو الاسوري قائد البيزنطيين ، غير ان القائد البيزنطي لم يعد ادراجه نحو الشمال إلا ليقاتل ابن ملكه تيودسيوس الثالث ، فقاتله وهزمه وتنازل الامبراطور عن عرشه ، وارتد الى احد الاديار ، ودخل ليو او ليون القسطنطينية ظافراً ، وتوج امبراطوراً في مارس سنة (٧١٧) م .

واعتقد سليمان بن عبد الملك ان في هذا التبديل الجديد الذي طـــرأ على العرش البيزنطي ما يؤذن باضمحلال الحالة الروحيه عند الروم فامدّ اخاه بجيش آخر ، وأمره بمحاصرة القسطنطينيـــة على ان يسير هو في اثره بجيش ثالث ، وبعد ان استولى مسلمة على برجاموسى، سار الى ابيدوسى حيث التقى بالاسطول العربي ، ثم نقل جيشه الى الضفة الاوروبية من الدردنيل ،وزحف على ضفاف

مرمرة ، وطوّق (ليو) في عاصمته براً وبحراً ، وحاول العرب اقتحام الاسوار بالهجوم والمباغتة فلم يوفقوا لمناعة الاسوار ، وقوة آلات الدفاع من قاذفات النار والاحجار وغيرها،فادرك مسلمة عندئذ ان العاصمة لاتؤخذ إلا بالمحاصرة، فحفر خندقاً كبيراً حول معسكره ، واقام حوله سداً منيعاً ، وبعث بالسرايا الى انحاء البلاد حوله ، للاستيلاء على الاقوات ، ومنعهـــا من الوصول الى المدينة المحصورة .

اما الاسطول العربي فكان اكبر اسطول حشده المسلمون العرب حتى اليوم، وكان يتألف على قول بعض المؤرخين من الف وثمانمائة سفينة للحرب والنـقل صار تقسيمها الى قسمين لاحكام الحصار على المدينة .

وقد رابط القسم الاول من الاسطول على الشاطيء الاسيوي في ثغـــرى (يوتروبوس) و (انتيموس) ليحـول دون وصول الاقوات الواردة ، واحتل الآخر ساحل البسفور الاوروبي حتى رأس غلطه ليقطع كل اتصال للمدينةبثغور البحر الاسود ، ولاسيا شيرسون وطرابزون .

ولقد وقعت اول معركة بحرية لمـــا سار الاسطول العربي الذي خصص بالشاطىء الاوروبي ليدخل مرافئـــه ، فثارت الرياح واشتدت الامواج ، فاصطدمت السفن الكبيرة بعضها ببعض ، وانتهز البيزنطيون الفرصة فوجهوا النارليونانيةعليه،فاحرقوا بعضهاودفعوا البعض الآخر الى اسفل السور،فاعتزم عندئذ قائد الاسطول الانتقام من البيزنطيين فحشد امنع سفنه وهيأ كلا منها بمائة من خيرة جنده ، وزحف على اسوار المدينة، وبذل الجند في اقتحامها ، فردته الحامية وفتكت في رجاله وسفنه النار اليونانية.وعندئذسحب الاسطول العربي المرابط في الشاطى الاوروبي الى خليج سوستينان .

وبدأ المسلمون حصارهم الثاني للعاصمة في ٢٥ آب ٧١٧ م اي قبيل دخول الشتاء، وبعد اسابيع توفي سليمان بن عبد الملك وخلفه عمر بن عبد العزيز وكان

يكره الغزوة ولا يرضاها ، فكان همه عودة الجند الى ديارهم ، وقد قاسى المسلمون في هذه الحملة من الصعوبات والاهوال ، ولاقوا من برد الشتاء وقساوة الاقليم ما لا عهد لهم به، فمات كثير من الجند بسبب ذلك ، وهلك معظم الخيل والابل ، ومات امير الاسطول سليمان ، اما البيزنطيون فقضوا الشتاء داخل اسوارهم ، فلما وافى الربيع قدم على مسلمة اسطول من ثغر الاسكندرية يحمل الاقوات ، واسطول آخر من افريقيا ، ولكن هذه القوات كلها لم تنفع مسلمة الذي اضطر اخيراً الى الارتداد بجيشه واسطوله عن عاصمة الامبراطورية البيزنطية ..

وكذلك رفع العرب حصارهم عن العاصمة في ١٥ اب سنة ٧١٨ م ،بعد ان تحطمت امام اسوارها قوة من اضخم القوات التي جردها العرب وحشدوها في حروبهم ...

وفي عهد عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ، نرى السلام يخيّم على حدود الدولتين ، واما في عهد هشام فتبدل الحال قليلا ، وذلك سنة ٧٢٦ لما بدأ هشام بارسال الغزوات على الحدود الرومانية ..

المعركة الاخيرة :

وفي سنة ٧٣٩ حصلت المعركة الاخيرة مع الروم لما مشت قوات عربية مؤلفة من اربعة جيوش بقيادة مسلمة والبطال وغيرهما الى الحدود الرومانية ، فصدتها قوات الامبراطورية ، ولم توفق القوات العربية الى تمزيقها فعادت ادراجها ، وكانت هذه اخر معارك الامويين والروم ..

ومما لا شك فيه ان وقوف القسطنطينية في وجه العرب قد منع الامم الاوروبية من الاخذ باسباب الحضارة العربية والحضارة القديمة التي اصبح العرب حماتها وانصارها ، بحيث تأخر وصول الحضارة اليهم مئات السنين ، وبحيث نعمت الامم العربية قبلهم بكل ما استطاع العقل البشري اخراجه من علم وتفكير

وفلسفة وصناعة وغيرها ..

اسباب الاخفاق :

واما اسباب الاخفاق فيردها المؤرخون الى حداثة عهد العرب بالمعارك البحرية وقسوة الاقليم الى درجة لم يعتدها جند العرب الذين نشأوا في اقاليم الشام ومصر وافريقية ، ثم الى مناعة الحصون واساليب الدفاع البيزنطية ، والى حذق الروم في استعمال النار اليونانية، التي اضرّت ضرراً عظيماً بالاسطول العربي والجيش العربي ..

ولم يعمّر سليمان في الخلافة اكثر من سنتين ، وتوفي يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ للهجرة ، بدابق من ارض قنسرين بعد ان حكم سنتين وثمانية اشهر ، وكان عمره اذ توفي ٤٥ سنة ..

- ٧ -

عمر بن عبد العزيز

٦٢ – ١٠١ هجرية

شخصية جديدة :

نحن امام شخصية جديدة من خلفاء امية ، ليس لها مثيل في تاريخهم ، ولا في تاريخ من بعدهم من الخلفاء والممالك ، ذلكم عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين والتقي الورع الصالح من خلفاء امية ، واذا حمدنا لهذا الخليفة اخلاصه وعدله ورفعه المظالم عن الناس ، فليس يمنعنا ذلك من القول انه حاول الاقتداء بعمر بن الخطاب في اعماله واخلاقه وسياسته ، فوفق في بعضها ولم يوفق في البعض الآخر ، خصوصاً فيما حاوله من تطبيق النظم المالية على النحو التي كانت عليه عهد عمر بن الخطاب ، متناسياً الفروق بين العهدين مما سنعرض له في مكان من هذا الفصل .

وقد اجتمع في تكوين هذه الشخصية العجيبة عاملا الوراثة والبيئة معاً ، فابوه عبد العزيز قد ولي مصر عشرين سنة دلت على ثقافته العالية واضطلاعه

باعباء الحكم ، وبصره بتألف القلوب ، وجده مروان بن الحكم هو السياسي الجرىء العارف بنفسية الافراد والجماعات ، والخبير بانتهاز الفرص واقتناصها . وأما نسبه لأمه ، فأمه ام عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وكفى بانتسابه الى تلك الشخصية العظيمة تعريفاً بسبب من اسباب ورعه وجرأته في الحق على نفسه وغيره .

وليس اثر البيئة في تكوين ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة ، فقد ولد بالمدينة عام ٦٢ هـ وشبّ بها على اصح الروايات . فلما ولى ابوه مصر عام ٦٥ هـ حُمل اليه ، ولبث بمصر زمناً نعم فيه بصحبة أبيه، ومشاهدة آثار الحضارة المصرية والبيزنطية ، وهنا رمحته دابة فشج شجته التي عرف من اجلها باشج بني امية ، فلما بلغ سن التأديب بعث به ابوه الى المدينة ليتأدب بها وينشأ نشأة اسلامية مدنية . وكانت المدينة اذ ذاك تتألف من بيئة غريبة يعرف فيها من يحللها ، الروح الديني الصحيح ماثلاً في نفر من بقايا الصحابة وكبار التابعين ، امثال أنس بن مالك وعبدالله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، كما يعرف فيها الجانب الأرفه من الحياة ممثلاً في مثل عبد الله بن جعفر اول نصير لصناعة الغناء العربي ، وطائفة من المغنين والقيان يتقدمها معبد ومالك بن ابي السمح المغنيان المدنيان الشهيران .

ثم ان المدينة كانت اذ ذاك من الناحية السياسية موطناً للمعارضة التي تستند الى الكتاب والسنة في مقاومة الحكومة الاموية ... وفي هذه البيئة تخرج ابن عبد العزيز ، فروى الحديث عن حملته ورواته ، ودرس صناعة الغناء وأعانه على المساهمة فيها صوت ندى عذب . كما اشرب روح الحكومة الاسلامية القديمة التي كانت تختلف عن الحكومة الاموية اختلافاً كبيراً . الى ذلك كله كان ابن عبد العزيز فتى مليح الخلقة ناعماً مترفاً كعادة فتيان بني امية . يروى انه ابطأ يوماً عن الصلاة فسأله مؤدبه صالح بن كيسان عن سبب أبطائه فقال: « كنت اصفف شعري » ، فكتب مؤدبه بذلك الى ابيه ، فبعث ابوه رسولا

فلم يكلمه حتى حلق شعره .

بعد وفاة والده :

وفي عام ٨٥ هـ توفي عبد العزيز بن مروان بمصر ،وكان ابنه عمر قد أتمّ تأدبه بالمدينة ،فاجتذبه الخليفة عبد الملك بن مروان الى الشام وزوّجه ابنته فاطمه ، ثم ولاه (خناصرة) وهي بلدة من اعمال حلب توغل في البادية ، فلبث والياً عليها سنتين كانتا من انعم سني حياته وحياة زوجه . وقد اعجبته (خناصرة) حتى انه عندما استخلف اتخذها منزلاً على عادة ملوك بني اميــة في ايثارهم سكنى البادية على الحاضرة .

وفي عام ٨٧ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية المدينــة بدلا من هشام بن اسماعيل المخزومي الذي أساء السيرة في أهلها ،ولا شك ان الوليد انما اختار عمر للمدينة لما يعلم من المشاكلة القوية بينه وبين هذه الولاية ، ثم انه بعد قليل ضمّ اليه مكة والطائف فاصبح اميراً على الحجاز كله .

كانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز (٨٧ ـ ٩٣ هجرية) حكومة شورية أبوية يمازجها من ناحيته الشخصية مقدار غير قليل من الحرص على الترف والرفاه ، وعند قدومه المدينة اصطفى عشرة من العلماء اتخذهم نصحــاء ومستشارين يصدر في الأمور عن رأيهم ، ثم عكف على اصلاح شئون الحجاز فهدم المسجد النبوي واعاد بناءه على نحو أوسع ، واصلح الطرق ، واكثر من الآبار ، فتيسر بذلك الماء للجميع .. كما عمل بالمدينة فوارة يستقى منهــا اهلها . وقد اعجب الخليفة بتلك المنشآت عندما زار المدينة سنة ٩١ هـ وأمر للفوارة بقوم يقومون عليها ، وان يسقى اهل المسجد منها ، ففعل عمــر ذلــك ..

ومن مظاهر بساطة عمر في امارته بالحجاز انه جلس مرة في المسجد يرتل

القرآن بصوتة العذب فتأذى بذلك سعيد بن المسيب اعظم علماء المدينة وكبير اتقيائها .. على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم ير عمر بأساً بان يتنحى ناحية اخرى من المسجد ..

وبلغه ان قاضيه على المدينة استخفه الطرب عندما سمع جارية تغني حتى اخرجه من وقاره ، فعزله عمر ، ولكن القاضي المعزول تحدى الامير لسماع الجارية ، فسمعها عمر وكاد هو ايضاً يستخف ، فعذر القاضي ورده الى عمله وعندما قدم الفرزدق الشاعر المدينة وكانت السنة ممحلة .. وخاف اهل المدينة لسانه ، رفعوا أمرهم الى عمر فأخرجه من المدينة ونهاه ان يعرض لأحد من اهلها بمدح او بهجو .. أما من حيث حياة عمر الشخصية في تلك الفترة فكان مترفاً مسرفاً في الترف ، يرخي شعره ويسبل أزاره ، ويلبس الثوب تبلغ قيمته عشرات الدنانير ، ويكثر من الطيب حتى لتعبق رائحته اذا مشى مشيته « العمرية » ، وهي مشية كان يتبختر فيها ويختال ، ولملاحتها كانت الجوارى تأخذها عنه .

الحادث المحزن :

حادث واحد نغّص على ابن عبد العزيز امارته على الحجاز ، ذلك مصرع خبيب بن عبدالله بن الزبير .. فقد نقم الخليفة الوليد من (خبيب) اشياء بلغته عنه وكتب الى عمر ان يضربه ، فضربه عمر ضرباً كان فيه هلاكه . وقد جزع عمر لذلك جزعاً شديداً ، ويقولون : انه لبس المسوح سبعين يوماً حداداً على خبيب ، ثم اقلع عن ذلك . فلما استخلف دفع دية خبيب الى اوليائه ، ومع ذلك كان يرى ان الله لا بد مؤاخذه بذلك الذنب ، فكان اذا بشرّه أحدهم بالجنة قال .

« وكيف بخبيب ! »

وغدا الحجاز ينعم بأمن وعافية مما أبتليت به الأمصار الاخرى ولاسيما

العراق من الفتن والقلاقل ، ولذلك أخذت فلول ثوار العراق والخوارج تفدعلى الحجاز فراراً من وجه الحجاج وسيفه المسلول ، فكان ابن عبد العزيز يجيرهم ويحميهم . لم يكتف بذلك فكتب الى الخليفة يندّد بعسف الحجاج وبطشه فاضطغنها الحجاج عليه وكتب الى الخليفة يشكو من ان امير المدينة يجير مرّاق العراق وان ذلك موهن له ، وقد نظر الخليفة في الامر ملياً ، ثم رأى ان يشدّ ازر الحجاج في هذه الخصومة ، فالعراق اخطر من الحجاز ، والحجاج اولى بالمصانعة من عمر بن عبد العزيز . فصرف عمر عن الحجاز وبعث باميرين أحدهما للمدينة والآخر لمكة . فكان أول ما صنعا أن اخرجا من الحجاز الى الحجاج كل عراقي في الجوامع والاغلال ، وتوّعدا كل حجازي انزل عراقياً أو آجره داراً ..

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز الى الشام مغاضباً للخليفة الوليد ، وقد ساءه ان عزل عن امارة المدينة حتى قال لمولاه مزاحم وهو ببعض الطريق :

« اخشى أن اكون ممن تنفيه المدينة » .

أشارة الى الحديث الوارد من ان المدينة تنفي خبثها ، فلما وافى الشام شغل نفسه بالغزو فراراً من وجه الوليد والتماس الاجر والثواب .. فلما توفي الوليد عام ٩٦ وولى سليمان بن عبد الملك لزمه عمر ، وكان أثيراً عنده يستشيره سليمان وينزل على رأيه في كثير من الامور ، على ان عمر نفعه أن ُعزل عن الامارة على النحو المتقدم ، فقد دفعه ذلك في السنوات الست التي قضاها بالشام قبل ان يستخلف (٩٣ – ٩٩) الى النظر في حال الدولة العربية في اواخر القرن الأول الهجري ..

درس الموقف :

نظر فاذا الدولة الاسلامية قد أبعدت في التخلي عن الصفة الدينية التي

كانت لها قديماً ، وأسرفت في الاصطباغ بالصبغة الزمنيـة المتطرفة ، أليست حكومة عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب حكومة تجبّر وطغيان ؟ أليست حكومة سليمان حكومة الشهوة العطشى والجسد المنهوم ؟ لقد اصبح السلطان يعتمد في شد اركانه وتقوية دعائمه على القوة الغشوم والسيف المرهف، اما العدل ، واما الرفق ، واما الرحمة .. فلم يعد لكل ذلك عنده محـل ولا حساب ..

ونظر فاذا اموال الدولة قد عراها الخلل والاضطراب من كل نواحيها . فنحو ثلث اموال الدولة قد استحال ملكاً خاصا لبني امية ، واكثر الضرائب تُجبى من غير وجوهها، وتصرف في غير مصارفها الشرعية . فكثير من الاراضي الخراجية التي لا يصح تملكها قد استحالت أرضا عشرية يمتلكها افراد من المسلمين يؤدون عنها من الزكاة دون المقـدار المطلوب . . . وكثير من الموالي او مسلمي الاعاجم لا يزالون مع اسلامهم يؤخذون بالجزية لغير ما سبب سوى ان العمال لحظوا في اسلامهم معنى الفرار من الجزية فأبوا ان يعفوهم منها ... هذا فوق ان هؤلاء الموالي لم يكونوا والعرب سواء في الحقوق ، فكانوا يغزون الى جانب العرب دون ان يكون لهم عطاء ، ثم ان عدم انفاق الزكاة في مصارفها الشرعية ، بعد ان ترك الامر للاغنياء من المسلمين يصرفونها كما يشاؤن ، قد ادى الى كثرة الفقراء والمساكين والمرضى ممن جعل لهم الشرع حقاً في الصدقات العامة .

ونظر عمر الى الامة فرآها موزعة ممزقة ، فمن شيعة تتحين الفرص ، ومن خوارج لا يردهم شيء عن الشغب والثورات ، ومن موال قد ساءهم ان لا يساويهم العرب معهم في الحقوق والواجبات كما فرض الاسلام ، ومن قبـائل عربية شماليه وجنوبية يحاول كل منهما ان يكون له التفرد والسلطان في الدولة هذا من حيث السياسة الداخلية ، واما من حيث السياسة الخارجية فقد رأى

عمر ان الحروب التي يقوم بها الجيش الاسلامي قد اصبحت لجــمّ المغانم لا لنشر الدين .

وقد ردّ عمر كل هذه النقائص في الدولة الاسلامية الى عدم تمسكها بالدين ، وكان في هذه الاثناء قد اخذ هو بدوره يخضع لتطور نفساني جديد ، فضعف حرصه على الترف والنعيم ، واخذ ميله الى الزهد والتقشف يقوى شيئاً فشيئاً ، واصبحت نظرته الى الحياة نظرة الى متاع قليل زائل ، وقد كان هذا مـا في ذلك شك ولا ريب كامناً في نفسه منذ اول نشأته ، فقد كان في طفولته يحاول التشبه بعمر بن الخطـاب الذي هو من سلالته ، وكان كذلك وهو في طفولته يحاول التشبه بخاله الزاهد عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وفي فترة من الزمن نراه يلبس المسوح سبعين يوماً يأساً من غضارة العيش ولذاذة الحيـاة ، ثم نصحوه بالاقلاع عن ذلك ففعل ، ثم ان الحياة الاسلامية في عهده كانت قد المّت بهـا نزعة زهـــد ضد المـادية التي كانت تطغى عليها اذ ذاك ، ثم تحولت هذه النزعة الى الصوفية التي اخذت تظهر في طبقة العباد والنساك ، وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو في المدينة ، فكان من اشد الناس تأثيراً فيه عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ..

فلما صار بالشام خضع لتأثير رجلين يعتبران بحق من اقطاب عصرهما علماً وزهداً وورعاً ، وهما الحسن البصري ورجاء بن حيوة الكندي ، واما الحسن فقد اتصل به عمر عن طريق المراسلة ، واما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبد الملك ، وهو الذي نصحه بتولية عمر مكانه ، فكان اقرب الى عمر واقوى به اتصالا ...

عمر خليفة :

ولم يكن عمر بالخليفة المنتظر ، ولكن فضله وورعه اوصـله الى الخلافة ، فلما مرض سليمان بدابق مرضه الذي مـات فيه ، ولم يكن له ولد بالغ يعهد

اليه ، لم يزل به رجاء بن حيوة واصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبدالعزيز ، ثم من بعده ليزيد بن عبد الملك ، ثم امر فأخذت البيعة من بني امية لمن سمى في عهده دون ان يعينه لهم ، فلمـــا قبض سليمان واعلن الامر الى بني امية ، جددوا البيعة لعمر على كره منهم (٢٠ صفر ٩٩ هجرية) .

ومـــا كاد عمر يجلس مجلس الخلافة حتى اخذ في تنفيذ برنامجه الاصلاحي الديني ، وكان اهله.. من زوجه فاطمة الى ابنه عبد الملك واخيه سهل ومولاه مزاحم خير عون له في عمله ، وكان اول اعماله ما حدثنا عنه ابن عبد الحـكم فقـــال :

« لما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز قربت اليه المراكب ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة اول ما يلي ..

فتركها وخرج يلتمس بغلته وقال :

- يا مزاحم ضم هذه الى بيت المال ..

ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها احد قط كانت تضرب للخلفاء اول ما يولون فقال : ما هذه ؟

فلما اخبروه بامرها امر بضمها الى بيت المال ،وكذلك فعل بالفرش والبسط التي كانت تفرش للخلفاء اول ما يلون .. ومثل ذلك كان امره بشأن الادهان والطيب والملابس التي كانت للخليفة السابق ، والتي كان امرها جميعهـــا يعود للخليفة الجديد ، اذا كانت جديدة لم تمس ولم تلبس ، وامــا ما لبس الخليفة السابق من الملابس او من الطيب فكان لولده ، فهذه كلها ردهــا عمر ايضاً الى بيت مال المسلمين .

وكذلك فعل بالجواري من نازلات البلاط ، فجعل يسألهن واحدة واحدة من انت ؟ ولمن انت ؟ ومن لقبك ؟ فتخبره الجـارية باصلها ولمن كانت وكيف أخذت ...فيأمر بردهن الى اهلهن ويحملهن الى بلادهن حتى فرغ منهن ..

ثم عمد عمر الى النظام الاداري فاصلحه بان عزل العمال المتشبعين بروح الحجاج بن يوسف في العسف والطغيان ، عزل يزيد بن المهلب وحبسه في مال كان للدولة بذمته ، ونفى نفراً من بني عقيل اسرة الحجاج ، وولى عمالاً جدداً عرفوا بحسن السيرة وطهارة الذمة ، وكان من عماله عدي بن ارطاة الفزاري امير البصرة ، وعبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي والي الكوفة ، وعبد الرحمن بن نعيم القشيري امير خراسان ، وابو بكر بن حزم امير المدينة ، والسمح بن مالك الخولاني امير الاندلس ، وشدّ ازر الولاة بقضاة عدول ، فجعل الحسن البصري على قضاء البصرة ،وعامراً الشعبي على قضاء الكوفة ، كما جعل ابا الزنار كاتباً لامير الكوفة ، ثم تقدم الى العمال في امر العقوبات ألا يأمروا بقطع او صلب قبل مراجعته اولاً ، وقد سلك عماله طريقته .

ثم عرض للمسائل المالية فرد المظالم ، او الاموال التي استولى عليها بنو امية بغير حق الى بيت المال ، وبدأ بنفسه ، حتى لم يبق له إلا عقار يسير ببلاد العرب يغلّ عليه غلة يسيرة فوق عطائه ، الذي كان يبلغ مائتي دينار في السنة ، ثم اخذ يتتبع اموال بني امية يرد منها ما ليس حقاً الى مستحقه ، فاغضب هذا بنو امية ، ولكنه مضى في سبيله غير مكترث باحد ، وكان عمر يشعر قبل الخلافة كما يظهر بأن في ادارة الدولة شيئاً من الظلم ، فقال يوماً لاسامة بن زيد ، وقد بعثه سليمان على ديوان جند مصر وحثه على توفير الخراج :

— ويحك يا اسامة انك تأتي قوماً قد ألحّ عليهم البلاء منذ دهر طويل ، فان قدرت ان تنعشهم فانعشهم ..

شدته في الحق :

ويروي ابن عبد الحكم : « ان رجلاً من أهل حمص أتاه يخاصم روح بن الوليد بن عبد الملك في حوانيت بحمص كان أبوه الوليد أقطعه أياها ، فقال له عمر :

ـ أردد عليهم حوانيتهم ..

قال له روح : هذا معي بسجل الوليد .

قال : وما يغني عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم ، قد قامت لهم البينة عليها ؟ خل لهم حوانيتهم .

فقام روح والحمصي منصرفين ، فتوعد روح الحمصي ، فرجع الحمصي الى عمر فقال : هو والله متوعدي يا امير المؤمنين .

فقال عمر لكعب بن حامد وهو على حرسه :

ـ أخرج الى روح يا كعب ، فان سلم اليه حوانيته فذلك ، وان لم يفعل فأتني برأسه . فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذي أمر به عمر ، فانخلع فؤاده . وخرج اليه كعب وقد سلّ من السيف شبراً ، فقال له :

ـ قم فخل له حوانيته !

قال : نعم ! نعم ! ... وخلى له حوانيته ..

وسار عمر في إصلاح الشؤون المالية على الأساس الشرعي ، فالأموال ينبغي أن تجبى من وجوهها وتنفق في مصارفها الشرعية ، فمن اسلم من أهل الذمة سقطت عنه الجزية ، وقد اسقط الجزية فعلاً عن كثير من موالي خراسان واهل مصر ، وقال مقالته المشهورة :

« إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » وكان سبب ذلك ان عامله على مصر حيان بن شريح كتب اليه يقول : « ان اهل الذمة قد اسرعوا في الاسلام وكسروا الجزية » ، وطلب اليه ان يأمر بتوقيف الذميين عن انتحال الاسلام ، فارسل اليه يعنفه ويقول له هذه الكلمة المشهورة وفعل مثل ذلك بعامله على العراق .

ونهى عن أن تصير الارض الخراجية أرضا عشرية ابتداء من سنة ١٠٠ ﻫ

مع عدم التعرض للحقوق التي اكتسبت من قبل ، والغي ضريبة مالية وضعها أخو الحجاج بن يوسف على اهل اليمن فوق الزكاة، ونهى العمال عن مثل ذلك مما لم يرد به الشرع، وقد جمعها في كتابه الى عامله على الكوفة فقال: « ولا تحمل خراباً على عامر ، ولا عامراً على خراب ، انظر الى الخراب فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن في الخراج ... أجور الضرابين ، ولا هدية النيروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور الفيوج ، ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا خراج على من اسلم من أهل الأرض » وابطل السخرة ، واقرّ القطائع وزاد اهل الشام في اعطياتهم عشرة دنانير ثم رجع عن ذلك ، وكسر دنان الخمرة ، وعطل الحانات .

عمر واهل الذمة :

وقد وسعّ عدل عمر اهل الذمة من هذه الناحية كما وسع المسلمين ، فانه لما شكا اليه أهل نجرانية الكوفة تناقص عددهم الى العشر مع بقاء جزيتهم على حالها ، أمر برد جزيتهم الى العشر[1] ،وكذلك رد جزية قبرس الى ما كانت عليه وقت الفتح والغى ما زاده عليها عبد الملك بن مروان.. ويروي البلاذري أيضا انه : « وفد عليه قوم من اهل سمرقند فرفعوا اليه ، أن (قتيبة) دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر » فكتب عمر الى عامله يأمره ان ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فان قضي بأخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جُميع بن حاضر الناجي ، فحكم بأخراج المسلمين على ان ينابذوهم على سواء . فكره أهل سمرقند الحرب وأقروا المسلمين ..

وأبلغ من ذلك في الدلالة على تحري عمر العدل المطلق مما رواه البلاذري

(١) البلاذري

قـــال :

« قال ضمرة عن علي بن ابي حملة ، خـــاصمنا عجم اهل دمشق في كنيسة كان فلان قد قطعها لبني نصر بدمشق، فاخرجنا عمر منها وردها الى النصارى».

ويروي البلاذري ايضاً ان الوليد بن عبد الملك قد ادخل كنيسة يوحنـــا في مسجد دمشق بغير رضا النصارى .. « فلمـــا استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى اليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم ، فكتب الى عـــامله يأمره برد ما زاده في المسجد عليهم . فكره اهل دمشق ذلك وقالوا : نهدم مسجدنا بعد ان أذّنا فيه وصلينا ويرد بيعة ، وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحـــاربي وغيره من الفقهاء ، واقبلوا على النصارى فسألوهم ان يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصـــارت في ايدي المسلمين ، على ان يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك واعجبهم . فكتب به الى عمر فسرّه وامضاه » .. ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من اهل الذمة .

اما ما ينسب اليه في بعض كتب الفقه من تحـــامل عليهم ، وانه كتب الى عماله بعزلهم عن اعمال الدولة واخذهم بالوان من الاضطهاد والتضييق عليهم(١) فغير مؤتلف مع المعروف من سيرته على فرض صحته ، وقد يكون نوعـــاً من العقاب كان يعـــاقب به ذميو الحدود الاسلامية اذا هموا بمظاهرة العدو على المسلمين ، كما امر عماله بالرفق بأهل الذمة ، واذا كبر الرجل منهم وليس له مال تنفق عليه الدولة فان كان له حميم ينفق عليه حميمه .

وكتب الى عامله على الكوفة «ان قوّ اهل الذمة فانا لا نريدهم لسنة او سنتين» وكان يعطي بعض كبار الدين من النصارى المال يستألفهم الى الاسلام ..

عمر والعطـاء :

وكما كان عمر حريصاً على جباية الاموال العامة من مصادرها الصحيحة .

---

(١) الخراج لابي يوسف ...

فقد كان كذلك حريصاً على ان تنفق في مصارفها الشرعية . فمن حيث الفيء قد فرض لذرية المقاتلة وعيالهم عملاً بسنة عمر بن الخطاب التي ترك بنو امية العمل بها ، وكتب الى عامله على الكوفة : « وانظر من اراد من الذرية الحج فعجل له مائة يحج بها » . وفرض لعشرين الفاً من الموالي كانوا يغزون بخراسان بغير عطاء . واظهر استعداده لان يحمل من بيت المال الى خراسان اموالاً اذا كان خراجها لا يفي بعطاء اهلها . ومن حيث اموال الزكاة ، كانت صدقات كل اقليم تقسم على عهده في فقراء اهله ، وقد قسم في فقراء البصرة كل انسان ثلاثة دراهم واعطى الزمني خمسين خمسين ، وفرض للفقيرات من عوانس النساء ، واعتق كثيراً من الرقاب . وقد كتب الى احد عماله : « ان اعمل خانات في بلادك ، فمن مرّ بك من المسلمين فاقروهم يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين . فان كان منقطعاً به فقووه بما يصل به الى بلده » ، وأمر عماله بقضاء الديون عن الغارمين فكتب اليه بعضهم : « انا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس والاثاث في بيته » .. فكتب عمر :

« لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى اليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، واثاث في بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه. »

ولما رأى عمر ان ليس للشعراء حق في بيت المال جعل يجيزهم من عطائه وماله الخاص على قلته ، بالدراهم والدنانير المعدودة ، وقد ادرك الشعراء سبب تحرجه هذا فكانوا يقبلون منه العطاء اليسير او يعودون احياناً بغير عطاء، ثم لا يقصرون في مدحه وتقديره ..

عمر والسلم الداخلي :

على ان اهم ما تميز به عمر بن عبد العزيز عن غيره من خلفاء الاسلام ورؤساء الدول طراً فيما نعلم انما هي رغبته الصادقة في نشر لواء السلم ، لا على بلاده وحدها ولكن على العالم باسره ، ولبيان ذلك نقول انه عمد في داخل الدولة

الاسلامية الى الاحزاب التي ناوئت الامويين منذ قام ملكهم فترضاها وحملها على ما يريد من ايثار السلم والعافية ، فالشيعة استجلب مودتهم بان منع سبّ علي بن ابي طالب على المنابر ، وبأن ردّ على العلويين (فدكا) التي رآها حقاً قديماً لهم قد منفوه ، والخوارج قد كبح جماحهم من طريق المجادلة بالحسنى والاقناع بالحجة والبرهان .

فعندما ظهر شوذب الخارجي بأرض فارس أمر عمر ألا يقاتلوا حتى يسفكوا دماً او يفسدوا في الارض، وكتب في الوقت نفسه الى شوذب يطلب اليه المناظرة في دعواه ، فانفذ اليه الخارجي اثنين من فقهاء الخوارج ليناظراه وقد استطاع عمر ان يهدم كل حجة اورداها الا ما احتجا به عليه من اقراره يزيد بن عبد الملك على ولاية العهد مع ما يعلم من قبح سيرته ، وكان من وراء هذه المناظرة الطريفة ان انضم احد الخارجيين الى عمر ، واما الآخر فعاد الى اصحابه وأنهى اليهم على ما يظهر من سيرة الخليفة بما حملهم على السكون طوال عهده ..

واما الموالي فقد قطع أسباب شكواهم بان أسقط الجزية كما رأينا عنهم ، وبأن فرض لمقاتلتهم العطاء ..

واما العصبية القبلية من يمنية ومضرية وربعية فقد هدأ من حدتها ، بأن ردع الشعراء الذين كانوا يذكون نارها ، وبأن اختار الولاة بالنظر الى كفايتهم لا الى قبائلهم ..

السياسة الخارجية :

اما من حيث العلاقات الخارجية ، فقد سلك عمر بن عبد العزيز في الامر مسلكاً لم يسبق اليه ولم يلحق فيه. ذلك انه اوقف جميع الجيوش الاسلامية التي كانت تغزو وراء الحدود ، اعاد مسلمة بن عبد الملك وكان مرابطاً حول اسوار القسطنطينية واعانه على القفول باموال بعث بها اليه . واوقف الغزاة فيما

وراء النهر على كره منهم ،كما اوقف من كانوا يغزون بالسند. على ان عمر لم يقف في هذا الامر الخطير عند هذا الحد ، بل اتبع العدول عن سياسة العنف بالدعوة السلمية الى الاسلام . يروي (البلاذري) انه لما اوقف الجيوش التي كانت تغزو بما وراء النهر ، كتب الى ملوك تلك الجهة من الترك يدعوهم الى الاسلام فاسلم بعضهم . ولما انتقض ملوك السند كتب اليهم يدعوهم الى الاسلام والطاعة على ان يملّكهم... ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ..

قال البلاذري : « وكانت بلغتهم سيرته ومذهبه ... فاسلم (جيشبة) والملوك وتسموا باسماء العرب » ..

وكذلك كانت سياسته ازاء بربر المغرب الذين اشجوا الجيوش العربية زهاء ثمانين عاماً .

يقول البلاذري : « ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ولى المغرب اسمعيل بن عبدالله بن ابي المهاجر مولى بني مخزوم ، فسار احسن سيرة ، ودعا البربر الى الاسلام ، وكتب اليهم عمر كتباً يدعوهم الى مثل ذلك ، فقرأها اسمعيل عليهم في النواحي فغلب الاسلام على المغرب . ويذكر المؤرخ اليوناني تيوفان ان عمر كتب ايضاً الى الامبراطور البيزنطي يدعوه الى الاسلام ..

وكأن عمر بن عبد العزيز قد اطلع بلحظ الغيب على نظمنا الحديثة التي تفرض على الدولة الاشراف على التعليم والعمل على نشره بين ابنائها ، فقد اراد تعليم الناس كما يؤخذ من قوله في رواية ابن عبد الحكم :

« ان للاسلام حدوداً وشرائع وسننا ... فان اعش اعلمكموها واحملكم عليها » ..

بل لقد اخذ في ذلك بالفعل فبعث يزيد بن ابي مالك الدمشقي والحارث بن محمد الاشعري الى البادية ليفقها الناس واجرى عليهما رزقاً . ثم هو اول خليفة امر بجمع احاديث رسول الله وتدوينها .

ولقد نقل السيوطي : « ان عمر بن عبد العزيز كتب الى ابي بكر محمد بن حزم ان انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ او سنته فاكتبه ، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلمـــاء .. واخرج ابو نعيم في تاريخ اصبهان عن عمر بن عبدالعزيز انه كتب الى الافاق ان انظروا الى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه» وقال في فتح الباري : يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوي .

هذه الجهود :

وبعد ، فما كان اثر تلك الجهود كلها ؟ لقد أدّت الى الغـاية التي كان يرمي اليها عمر .. فقد طاف بالامة الاسلامية اذ ذاك طائف من الزهد والورع والتدين اقتداء بخليفتها ، والناس على دين ملوكهم كما قالوا قديماً ويروي الطبري : « كان الوليد صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع ، وكان النـاس يلتقون في زمانه ، فانما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ، فولي (سليمان) فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن الزواج والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القران ؟ ومتى تختم ؟ وما تصوم من الشهر ؟ واصبح النـــاس وقد شملتهم نعمتا الرضا واليسر ، فقال (كثـيّر) يخاطب عمراً ويمدحه :

تكلمت بالحق المبين وانمـــا تبيّن آيات الهـــدى بالتكلم
وصدقـت موعود الذي قلت بالذي
فعلت فامسى راضيـــاً كل مسلم

وكذلك نرى ان عمر بن عبد العزيز في سياسته هذه قـــد اغنى الناس في عهده ، إلا اهله وولده ، فلم يُرَ ولي قوم اعفّ عن مـال المسلمين منه ، ولم يرَ اهل بيت اجدّ على الطعام الخشن والثوب المرقوع والبيت المتهدم منـــه ومن اهل بيته ، فاراح عمر الناس ولكنه اتعب نفسه ، فذهبت نضرته ، واحترق جسمه ، وزاده هماً فقدانه في آجال متقاربة من عهده القصير احبابه واعوانه ،

فقد ابنه عبد الملك واخاه سهلاً ، ومولاه مزاحماً ، فلم يقوَّ جسمه على احتمال الالم والعمل فاسلم الروح بخناصرة في ٢٥ رجب سنة ١١٠١ ولما يبلغ التاسعة والثلاثين من عمره ، ودفن بدير سمعان قريباً من دمشق .

صورة ثانية :

وهذه صورة ثانية لهذا الخليفة العادل !

يقول المسعودي في وصفه : كان الخليفة الجديد في نهاية النسك والتواضع صرف عمال من كان قبله من بني اميه ، واستعمل اصلح من قدر عليه ، فسلك عماله على طريقته ، وترك لعن علي عليه السلام على المنابر »

وكان عمر قبل ان يتقلد الخلافة قدعهد اليه الوليد بامارة الحجاز — مكة والمدينة والطائف - فابطأ عن الخروج فقال الوليد لحاجبه :

ـ وما بال عمر لا يخرج الى عمله ؟

قال : زعم ان له اليك ثلاث حوائج .

قال الوليد : فعجله عليَّ ..

فلما اجتمعا قال له عمر : انك استعملت من كان قبلي فـانا احب ان لا تأخذني بعمل اهل العدوان والظلم والجور .

فقال له الوليد : اعمل بالحق ، وان لم ترفع الينا درهماً واحداً .

ومعنى ذلك انه كانت له طريقته الخاصة في الادارة ، فاشترط قبل ان يتولى الاماره ان تترك له حرية العمل .

ادارة عمر واعماله :

ولما بويع عمر كتب الى جميع عماله : ان النـاس قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله ، وسنن سيئة سنها عليهم علماء السوء الذين قلما قصدوا

الحق والرفق والاحسان .

وكان اول خطبة خطبها : ايها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا .. يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي اليه ، ولا يغتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه .

قالوا : ولما اقبل عمر على ردّ المظالم وقطع عن بني امية جوائزهم وأرزاق حراسهم ، وردّ ضياعهم الى الخراج، وأبطل قطائعهم ضجـوا من ذلك على رؤوس الملإ في المسجد . وكانت انتهت لهمهذه الاقطاعات من الخلفاءالسالفين. وذكروا انه كانت غلة عمر لما بويع بالخلافة بين اربعين وخمسين الف دينار، وما زال يردها حتى كانت يوم وفاته مائتي دينار، ولو بقي لردها كلها فأفقر نفسه حتى يقوى على بعض آله ، فيسترد منهم ما اخذوا من عقار ومزارع . وخلـّف من المال بضعة دنانير ولم يرتزق من بيت مال المسلمين شيئاً حتى مات . وأداه اجتهاده الى ان في طريقة امتلاك آل بيته الضياع والرباع نظراً ، وان مـا ورثه وورثوه بالطرق السابقة يقضي العدل المطلق برده على من أخذمنه. واعتقاد الضياع واستثمار الاموال من شأن الرعايا لا الرعاة ، فكان نظره أعـلى ، وطريقته أمثل واعدل .

وكان الرسول أقطع بلال بن الحرث المزني ارضاً فيها جبل ومعدن فبـاع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضاً منهـا فظهر فيهـا معدن أو اكثر فقالوا :

ـ انما بعناك أرض حرثُ ولم نبعك المعادن ...

وجاؤا بكتاب النبي لهم في جريدة فقبّلها عمر ومسح بهـا عينه وقـال لقـيمه :

ـ انظر ما خرج منهاوما أنفقت...وحاسبهم بالنفقة ورد عليهم الفضل..

وكتب الى احد عماله ان يستبريء الدواوين . وينظر الى كل جور فعله من قبله ، في حق مسلم او معاهد فيرده اليه ، فان كان اهل تلك المظلمة قد ماتوا يدفعه الى ورثتهم .

وقضى على عماله بابطال المائدة والشجرة [1] .

ومن ادى زكاة ماله قبل منه ، ومن لم يؤد فالله حسيبه . وردّ الخمس على اهله وعلى اهل الحاجة ، وقضى ان لا يؤخذ من المعادن الخمس بل تؤخذ الصدقة.

اصلاح الفساد القديم :

وجرت عادة الخلفاء إذا جاءتهم جبايات الامصار ان يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ،ليقولوا لم يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه، وانه فضل اعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد ان أخذ كل ذي حق حقه...

وقضى على عماله ان يُنظروا الارض ولا يحملوا خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وان أطاق الخراب شيئاً يؤخذ منه ما اطاق ويصلح ليعمّر ، ولا يؤخذ من عامر لا يحتمل شيئاً ، وما اجدب من العامر يؤخذ خراجه في رفق وكانوا في فارس يحسبون الثمار على اهلها ، ثم يقومونها بسعر دون سعر النـاس الذي يبتاعون به فيأخذونه ورقا على قيمهم التي قوموا بها ، فرد عمر إلى من شكوا الثمن الذي أخذ منهم . . واخذوا بسعر ما باع اهل الارض غلتهم .

وكتب إلى عامله إلى البصرة :

« اما بعد فاني كنت كتبت الى عمرو بن عبدالله ان يقسم ما وجد بعُمان من عشور التمر والحب في فقراء أهلها ومن سقط اليها من أهل البادية ومن اضافته

---

(١) ما يفرض على الناس من اصلاح القناطر والطرق وسد البثوق ، ولعل المائدة ما كان يألفه العمال من اطعام الناس على موائدهم ، وهذا مال كبير يمكن اقتصاده حتى لا يضار بيت المال ..

اليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل،فكتب إليّ أنه سأل عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر انه قد باعه وحمل اليك ثمنه ، فاردد الى عمرو مـا كان حمل اليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي امرته بها ...ويصرفه فيها ان شاء الله والسلام .

ولما كتب اليه عامله على العراق عدى ابن ارطاة يقول : ان الناس قد كثروا في الاسلام حتى خفت ان يقل الخراج » ، كتب اليه : « والله لوددت ان الناس كلهم اسلموا حتى نكون انا وانت حراثين نأكل من كسب ايدينا .

وقال في احد خطبه وهو ما يدل على روح الاشتراكية : وددت ان اغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوي نحن وهم ، واكون انا اولهم .

وكان شديداً في تحري اعمال عماله واختيارهم كما قدمنا ، واذا شكي اليه عامل وتحقق ظلمه ،جاء به مقيداً وامر بضربه ، وقد كتب الى احد عماله :

ـ اما بعد فاذا دعتك قدرتك على الناس الى ظلمهم ، فاذكـر قدرة الله عليك ...وفناء ما تؤتي اليهم وبقاء ما يأتون اليك »

وكتب إلى عامله على العراق :

« ان العرفاء من عشائرهم بمكان ، فانظر عرفاء الجند فمن رضيت امانته لنا ولقومه فاثبته ، ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه ، وابلغ في الامانة والورع .. »

وما كان يضن على عماله بالمشاهرات الحسنة وقد قيل له : ترزق الرجل من عمالك مائة دينار ومائتي دينار في الشهر واكثر من ذلك قال : اراه لهم يسيراً ان عملوا بكتاب الله وسنة نبيه ، واحب ان افرغ قلوبهم من الهم بمعايشهم .

وقال : ما طاوعني الناس على ما اردت لهم من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً .

واخذ عمر نفسه بالسير في اصلاحه بالتدريج ، ناظراً قبل كل اعتبـار الى

الدين لا يحيد عن صراطه قيد انملة ، ولو كان في ذلك بعض الضرر على بيت المال او ادخال بعض الوهن على ما اصطلحوا عليه من قبله ، لأجل القاء الهيبة في النفوس . وقال لابنه : ما مما انا فيه امر هو اهم الي من اهل بيتك ، هم اهل العُدة والعدد وقبلهم ما قِبلهم ،فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره عليّ ، ولكني انصف من الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من ورائه فيكون انجع له، فان يرد الله اتمام هذا الامر اتمه ، وان تكن الاخرى فحسب عبد الله ان يعلم الله انه يحب ان ينصف جميع رعيته..وكتب الى عامله على خراج خراسان :

« ان للسلطان اركاناً لا يثبت إلا بها ، فالوالي ركن ، والقاضي ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع انا ، وليس من ثغور المسلمين ثغر اهم اليّ ولا اعظم عندي من ثغر خراسان ، فاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم ، فان يك كفافاً لاعطياتهم فحسناً ، وإلا فاكتب اليّ حتى احمل اليك الاموال فتوفر لهم اعطياتهم » ولما وجد خراج تلك البلاد يفضل عن اعطيات جندها واهلها قسم عمر الفضل في اهل الحاجة .

الاشتراكية في الاسلام :

وكتب الى امصار[1] الشام ان يرفعوا اليه كل اعمى في الديوان او مقعد او من به فالج ، ومن به عجز يحول بينه وبين القيام الى الصلاة ، فامر لكل اعمى بقائد ، ولكل اثنين من العجزة بخادم .وامر ان يرفعوا اليه كل يتيم ومن لا احد له ممن قد جرى على والده الديوان ، فامر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية ، وفرض للعوانس الفقيرات ، وكان لا يفرض للمولود حتى يفطم، فنادى مناديه : لا تعجلوا اولادكم عن الفطام ، فانا نفرض لكل مولود في الاسلام ..

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

واتخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل ، واوصى ان لا يُصيب احد من هذه الدار شيئاً من طعامها لانه خاص بمن طبخ لهم .

وقسم في ولد عليّ بن ابي طالب عشرة الاف دينار ، وكان الناس في عهده يعرضون على ديوانهم لتناول عطائهم ، فمن كان غائباً قريب الغيبة يعطى اهل ديوانه ، ومن كان منقطع الغيبة يعزل عطاؤه الى ان يقدم او يأتي نعيه او يوكل عنه الى الوالي ...بوكالة بينة على حياته ليدفعه الى وكيله ..

ونظر في السجون وامر ان يستوثق من اهل الدعارة والفساد ، ويكتب لهم برزق الصيف والشتاء ويعاهد مريضهم ممن لا اهل له ولا مال ، ولا يجمع في السجون بين قوم حبسوا في دين .. وبين اهل الدعارات في بيت واحد ، ولا حبس واحد ، وجعل للنساء حبساً على حدة ، وعهد بالمحبوس الى من يوقن بامانتهم ومن لا يرتشي « فان من ارتشى .. صنع ما أُمر به » .

وانشأ الخانات في بلاده يقرى من مرّ بها من المسلمين يوماً وليلة ويتعهد دوابهم ، ويُقرون من كانت به علة يومين وليلتين ، فان كان منقطعاً .. يقوّي بما يصل به الى بلاده ، وامر ان لا يخرجن لاحد من العمال رزق في العامة والخاصة ، فانه ليس لاحد ان يأخذ رزقاً من مكانين في الخاصة والعامَة . واطلق الجسور والمعابر للسابلة يسيرون عليها بدون جُعل لان عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به ، وجعل لكل مدينة رجلاً يأخذ الزكاة ..

ولى عاملاً على الموصل فلما قدمها وجدها من اكثر البلاد فساداً وسرقة .. فكتب الى عمر يعلمه حال البلد ويسأله اخذ الناس بالظنة ، وضربهم على التهمة او يأخذهم بالبينة ، فكتب له :

« أن خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة ، فان لم يصلحهم الحق فلا اصلحهم الله». وكتب اليه احد عماله يذكر شدة الحكم والجباية ، فاجابه انه لم يكلفه ما يُعنته وان يجبي الطيب من الحق ويقضي بما استنار له من الحق ،

فاذا التبس عليه امر يرفعه اليه قائلا : فلو ان الناس اذا ثقل عليهم امر تركوه ما قام دين ولا دنيا . وكتب الى احد عمـــاله : ان العمل والعلم قريبان فكن عالماً بالله عـــاملاً له ، فان اقواماً علموا ولم يعملوا فكان علمهم عليهم وبالا .
وكتب ايضا : امـــا بعد فاعمل عمل رجل يعلم ان الله لا يصلح عمل المفسدين .
وكتب الى عامل : ان دع لاهل الخراج من اهل الفرات مـــا يتختمون به من الذهب والفضة ، ويلبسون الطيالسة ويركبون البراذين ، وخذ مايزيد عنهم .

وكتب الى عامل له : اما بعد فالزم الحق ينزلك الحق منازل اهل الحق ، يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون .

- ٨ -

الدولة الفاضلة

في عهد الخليفة الصـــالح

دولة عادلة :

كذلك كانت سيرة عمر بن عبد العزيز ..

سيرة رجل اراد ان يخلق الدنيـا خلقاً جديداً .. وان يجعل من رعيته جماعة من الزهاد والصالحين العاملين للخير ، والناهين عن المنكر ..

وكان عمر مذ كان والياً على المدينة لا يقطع أمراً بدون استشارة ، وكان دعا إليه عدة من الفقهاء وحرّضهم على ان يبينوا له زلاته إذا رأوا منه ذلك وسمعوا ، فكان إذا جلس مجلس الامارة في عهد خلافتـه أمر فألقى لرجلين منهما وسادة قبالته وقال لهما: إنه مجلس شرة وفتنة، فلا يكن لكما عمل الا النظر اليّ فاذا رأيتما مني شيئاً لا يوافق الحق فخوفاني وذكراني بالله عز وجل. وكان يقول بعد ان ولي الخلافة : لأن يكون لي مجلس من عبيد الله - احـد الفقهاء السبعة بالمدينة ومؤدبه لما كان صغيراً - أحب إلى من الدنيا وما فيها ، وقال : واني والله لاشتري ليلة من ليالي عبيدالله بألف دينار من بيت المال .

فقالوا : يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحرّيك وشدة تحفظك . فقال : أين يُذهب بكم، والله اني لاعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف. وكان يحب السمر مع اهل الفضل فقيل له في ذلك فقال : لقاء الرجال تلقيح الألباب . وقال : ان في المحادثة تلقيحاً للعقل ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهم ، وتنقيحاً للأدب . وما زال يرد المظالم ويحيي السنن ويطفيء البدع ويقسم الاموال والاعطيات بين الناس . حتى قبضه الله اليه .

عمر وعماله :

ابعد عمر بن عبد العزيز عن حماه الشعراء والخطباء ، ولم يكن يحب المديح والهجاء ، وهو يعرف استرسال الشعراء في المجون والهزل ، وانهم يمدحون من يعطيهم ويهجون من يضن عليهم ، ولما كان رجل جد وتقوى حجبهم فتفرقوا عنه كلهم ، وثبت الفقهاء والزهاد فكان يعطيهم عطاء كثيراً ، اما الشعراء فاكتفوا بالقليل الذي كان يعطيهم من ماله الخاص ، واعطى قوماً في حمص نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا مائة دينار لكل رجل منهم ، يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين . وبحسن سياسته سكنت الخوارج في ايامه فلم يثوروا لأنه ناقشهم فافحمهم واقسموا ان لا يشغبوا ما دام خليفة . وما حدثته نفسه قط بإهراق دماء من خالفوه في مذهبه . وقد كتب الى عامله على الكوفة ان يستتيب القدرية مما دخلوا فيه ، فإن تابوا يخلى سبيلهم والا فينفيهم من ديار المسلمين. اراد بذلك حقن دمائهم، وكان غيره من الخلفاء يبادر الى قتلهم .

وطريقة عمر في ادارة ولاياته طريقة اسلافه في اطلاق الحرية للعامل ، لا يشاور الخليفة الا في اهم المهات مما يشكل عليه امره . كتب الى عامله على اليمن : اما بعد فاني اكتب اليك آمرك أن تردّ على المسلمين مظالمهم، فتراجعني

ولا تعرف مسافة ما بيني وبينك ، ولا تعرف أحـداث الموت حتى لو كتبت اليك ان اردد على مسلم مظلمة شاة،لكتبت اردهـا عفراء او سوداء ، فانظر ان ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني . واملى على كاتبه يوماً كتاباً الىعامله على الكوفة قال فيه :

« يخيل الي اني لو كتبت اليك ان تعطي رجلاً شاة ، لكتبت إليّ أضأن ام ماعز ، فان كتبت بأحدهما كتبت اليّ أصغير أم كبير ، فان كتبت اليك ، كتبت إلي أذكر أم أُنثى ، فاذا اتاك كتابي في مظلمة فاعمل به ولا تراجعني » وكتب الى آخر : « انك تردد الي الكتب فنفذ ما اكتب به اليك من الحق ، فانه ليس للموت ميقات نعرفه » .

قال له بعض اصحابه : عليك بأهل العذر قال : من هم ؟

قالوا : الذين إن عدلوا فهو ما رجوت منهم ، وإن قصروا قال الناس قد اجتهد عمر . وكان ينهى عماله عن التمثيل في العقوبة أي جزّ الرأس واللحية ، وينهاهم عن الاسراف حتى في القراطيس التي يكاتبونه فيها . فقـد قيل له :

«ما بال هذهالطوامير التي تكتب بالقلم الجليل وتمد فيها وهي من بيت مال المسلمين».فكتب الى العمال أن لا يكتبن في طومار ولا يمدن فيه. قالوا وكانت الطوامير شبراً ونحو ذلك . ومما كتب الى أحد عماله : ادق قلمك ، وقارب بين سطورك ، واجمع حوائجك فاني اكره أن اخرج من اموال المسلمين مـا لا ينتفعون به . وكان عمر من كبار الكتاب والخطباء ، وكان اذا خطب على المنبر فخاف فينفسه العجب توقف،وإذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه، ويقول : اللهم اني أعوذ بك من شر نفسي . ولما بويع بالخلافة دعا اليه كاتباً فاملى عليه كتابا واحداً من لسانه إلى الكاتب بغير نسخة...فأملى احسنإملاء وابلغه وأوجزه ، ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بـلد ...

وكان يكتب بيده الى العمال في الامصار .

وكان عمر يحسن ظنه بعماله ولا يتخلى عن كشف أحوالهم ، فقد وفد عليه بلال ابن ابي بردة بخناصرة فقال عمر للعلاء بن المغيرة بن البُندار ، وقد رأى بلالاً يديم الصلاة :

ـ ان يكن سر هذا كعلانيته ، فهو رجل اهل العراق غير مدافع .

فقال العلاء : انا آتيك بخبره ... فاتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء ..

فقال له : اشفع صلاتك فان لي اليك حاجة ... ففعل .

فقال له العلاء : قد عرفت حالي من امير المؤمنين فان انا اشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟

قال : لك عمالتي سنة .

وكان مبلغها عشرين الف الف درهم .

قال فاكتب لي بذلك . قال : فاسرع بلال الى منزله فاتي بدواة وصحيفة فكتب له بذلك . فاتى العلاء عمر بالكتاب ، فلما قرأه كتب الى والي الكوفة :

« أما بعد فإن بلالاً غرّنا بالله ، فكدنا نغتر ، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله والسلام »

وبلال هذا كان فيما يقال أول من اظهر الجور من القضاة في الحكم ، وكان أمير البصرة وقاضيها . وكان عمر يقول :

«لاينبغي للرجل ان يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال : يكون عالما قبل ان يستعمل ، مستشيراً لاهل العلم ، ملقياً للطمع ، ومنصفاً للخصم ومقتدياً بالأئمة . »

وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة ، فشكا ذلك الى عمر بن عبد العزيز فكتب اليه : ان من حفظِ أنعُم الله رعاية ذوي الاسنان ، ومن اظهار شكر الموهوب صفح القادر عن الذنوب ، ومن

تمام السؤدد حفظ الودائع واستتمام الصنائع. وقد كنت اودعت (العريان) نعمة من أنعمك فسلبتها عجلة سُخطك وما انصفته ، غَصَبْتُه على ان وليّتة ثم عزلته وخليّته ، وانا شفيعه ، فاحب ان تجعل له من قلبك نصيبه ، ولاتخرجه من حسن رأيك ، فتضيع ما اودعته ويهلك ماأفدته» . فعفى عنه ورده الى عمله .

عمر يخطب :

وخطب يوماً فقال : ايها الناس ، لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد ﷺ ، الا واني لست بقاض ، ولكني مقتد ، ألا واني لست بمبتدع ولكني متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص، ولكن الامام الظالم هو العاصي ، ألا لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق ». وقال من خطبة: وما منكم من احد تبلغنا حاجته يتسع لهما عندنا.. إلا حرصنا أن نسد حاجته مااستطعنا وما منكم من احد تبلغنا حاجته لا يتسع له ماعندنا إلا تمنيت أن يبدأ بي وبخاصتي حتى يكون عيشنا وعيشه سواء ». ومن غريب امره في اطلاق حرية القول ان يخطب الناس عبدالله بن الاهتم ، ويذكر ما آل اليه امر الامة على عهد صاحب الشريعة والخليفتين من بعده ثم يقول : إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضَلع [1] اعوج . يقول هذا في عهد عمر بن عبد العزيز ، وعمر يسكت عنه ، ولطالما أسمعه بعض الناقمين على اهل بيته ما يغضب له الحليم ، فما كان يقابلهم بغير الاغضاء يفهمهم من طرف خفي انه لا يليق بالرجل أن ينال من آله .

وكان عمر يجلس الى قاصّ العامة ويرفع يديه إذا رفع ،وقاصّه محمد بن قيس. وعلم ان أناساً من القصاص يصلون على خلفائهم وأُمرائهم يلتمسون الدنيا بعمل

---

(١) الضلع الميل .

الاخرة ، فأمرهم بالدعاء للمؤمنين عامة وان يلغوا ما سوى ذلك . وعلم ان اهل البادية يتحفزون ليرجعوا الى سيرتهم في الجاهلية ،فبعث اليهم برجلين من ارباب الفقه يفقهان الناس في البدو وأجرى عليهما رزقاً . وكأنه قطع عهداً على نفسه اذا ولي أمر المسلمين،«ان لا يضع لبِنَة على لبنة ولا آجرة على آجرة لئلا يقع في ذلك حيف على الرعية . وهم يتولون من ذلك ما يصلحهم من اقامة القصور والبيوت ، اما هو فيعمل لإغنائهم وحملهم على الجادة ، حتى لم يبق فقير في ايامه في اكثر الامصار ، لكثرة ما وزع على الفقراء من اموال الصدقات ، يقبض عماله الصدقة ثم يقسمونها في الفقراء حتى انه ليصيب الرجل الفريضتان او الثلاث فما يفارقون الحيّ وفيهم فقير ، ولا ينصرفون الى الخليفة بدرهم».وقدبعث عاملاً على صدقات إفريقية [1] فاراد أن يعطي منها الفقراء فالتمسهم في كل مكان فلم يجد فيها فقيراً يقبل ان يأخذ صدقة بيت المال ، فاشترى بها رقاباً وأعتقها وجعل ولاءهم للمسلمين . وما مات عمر حتى جعل الرجل يأتي بالمال العظيم ويقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، لا يجد من يضعه فيهم ، لكثرة ما اغنى الناس عمر .

ومن اهم ما عمله عمر في حسن الادارة والسياسة انه لم يشأ — لما وسدت اليه الخلافة — أن يبدأ بعمل قبل ان يستدعى المسلمين من أرض الروم، وقال: «لرجل من المسلمين احب اليّ من الروم وماحوت » وفي سنة ١٠٠ امر اهل طرندة بالقفول عنها الى ملطية ثم اشترى ملطية من الروم بمائة الف أسير ، فجعل لدولته سداً منيعاً ، وانقذ المسلمين من ذل الاسر ، واراد هدم المصيصة ونقل اهلها عنها لما كانوا يلقون من الروم فتوفي بعد ذلك .

ولما بلغ صاحب القسطنطينية نعيه نزل عن سريره وبكى وذكر من مآثر عمر امام وفد من العرب ، كان ذهب للفداء بين المسلمين والروم ، ما

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي وابن عبد الحكيم .

ابكى المقل ، ومما قال : لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لو كان احد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت انه يحيي الموتى ، ولقد كانت تأتيني اخباره باطناً وظاهراً فلا اجد امره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه اشد حين خلواته بطاعة مولاه ، ولم اعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب (١) .

واحب عمر ان يجلي المسلمين من الاندلس لانه كان يعتقد ان مقامهم فيها غير طبيعي ، لانهم محاطرون بالاعداء بعيدون عن مقر الخلافة . فأمر احد عماله ان يرسم له مصور الاندلس ليرى في اجلاء المسلمين رأيه . وكتب الى عامله عبدالرحمن بن نعيم يأمره باعادة من وراء النهر من المسلمين بذراريهم فابوا ، وكتب الى عمر بذلك فكتب اليه : « اللهم اني قد قضيت الذي عليّ فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم » ، كل هذا يدل على ان عمر ما كان يريد التوسع في الفتوح ، ويحاول ان يقتصر على البلاد التي دخلت في المملكة الاسلامية حتى لا تهرق الدماء على غير طائل ، ويعمّر الناس البلاد ، ويصلح اهلها صلاحاً دائماً على ان يكونوا بين آخروي يرجو ثواب الله ، ودنياوي يستجمع صفات الشرف في نفسه .

كتابه الى الملوك :

وكتب الى ملوك الهند يدعوهم الى الاسلام والطاعة على ان يُملكهم .. ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فاسلموا وتسموا باسماء العرب . ولما ولى اسماعيل بن عبدالله بن ابي المهاجر مولى بني مخزوم ببلاد المغرب سار احسن سيرة ودعا البربر الى الاسلام ، وكتب اليهم عمر بن

(١) مروج الذهب للمسعودي .

عبد العزيز كتاباً يدعوهم الى الاسلام ،فقرأه اسماعيل عليهم في النواحي فغلب الاسلام على المغرب. وكتب في اللواتيات : ان من كانت عنده لواتية فليخطبها الى ابيها او فليرددها الى اهلها ، و(لواتية) قرية من البربر كان لهم عهد . ولما استخلف كتب الى ملوك ما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام فاسلم بعضهم ورفع الخراج عمن اسلم بخراسان وفرض لمن أسلم ، وابتنى خانات . ثم بلغ عمر عن عامله عصبية ، وكتب اليه انه لا يصلح اهل خراسان إلا السيف ، فانكر ذلك وعزله وكان عليه دين فقضاه .[1]

وقال عمر بن عبد العزيز لمزاحم مولاه : ان الولاة جعلوا العيون على العوام ، وانا اجعلك عيني على نفسي ، فان سمعت مني كلمة تربأ بي عنها او فعلا لا تحبه ، فعظني عنده وانهني عنه .

وكان عنده رجلان فجعلا يلحنان فقال الحاجب :

– قوماً قد آذيتما امير المؤمنين .

فقال عمر : انت آذى لي منهما ..

هذا مجمل ما تمّ في عهد امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من الاصلاح فاعاد الى الخلافة جمالها وجلالها على ما كانت عليه ايام جده لامه عمر بن الخطاب .. ولكن عمر بن عبد العزيز عمل في غير زمان عمر بن الخطاب وعمل بغير رجاله. وكان دأب عمر بن عبد العزيز ان يذكر الناس بالآخرة ويخوّفهم العذاب ، ودأب عمر بن الخطاب ان يذكرهم بالعمل للدنيا مع شدة التمسك بحقوق الاخرة.

---

(١) من قوله تعالى : فانبذ اليهم على سواء ، معناه اذا هادنت قوماً فعلمت منهم النقض للعهد فلا توقع بهم ... حتى تعلمهم انك نقضت العهد ... فتكونوا في علم النقض مستوين ، ثم اوقع بهم (المصباح) .

فكانت ادارة عمر بن الخطاب ملائمة لزمانه وسيرة حفيده كذلك ، لأن الناس فسدوا في اواخر القرن الاول او بدأوا بالفساد ، فكان همّه ان يذكرهم بالمعاد ويطهّر اخلاقهم . وعمل عمر كل هذا في سنتين وخمسة اشهر، وهذا من اعجب ما يدون في تاريخ عظماء الارض. ولما مرض مرضته التي مات فيها دخل عليه مسلمة بن عبدالملك فقال :

– ألا توصي يا امير المؤمنين ؟

فقال : فيم اوصي ، فوالله ليس لي من مال ..

فقال : هذه مائة الف فمر بها بما احببت ..

قال : أو تقبل ؟

قال : نعم .

قال : ترد على من أُخذت منه ظلماً .

فبكى مسلمة ثم قال : يرحمك الله .. لقد ألنت منا قلوباً قاسية ، وابقيت لنا في الصالحين ذكرا [١] ...

عمرو بن المهلب :

ولم يحدث في عهد عمر شيء من الحوادث الداخلية ، الا ما كان من القبض على يزيد بن المهلب واحضاره الى عمر ، فسأله عن الاموال التي كتب بها الى سليمان بن عبد الملك فقال : كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت ، وانما كتبت الى سليمان لأسمع الناس، وقد علمت ان سليمان لم يكن ليأخذني بما كتبت..

فقال عمر : لا اجد في امرك الا حبسك ، فاتق الله ، وأدِ ما قبلك ، فانها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها ... وحبسه بحصن في حلب، واستمر يزيد

(١) الادارة في عز العرب .

بن المهلب في السجن حتى اذا احس بقرب موت عمر ، اعدّ للهرب عدته خوفاً من يزيد بن عبد الملك ، لانه كان قد ضرب آل ابي عقيل ، وهم اصهار يزيد لانه كان متزوجاً ببنت اخي الحجاج ، وهرب ابن المهلب قاصداً البصرة ، وكتب الى عمر : اني والله لو وثقت بحياتك لم اخرج من محبسك ، ولكني خفت ان يلي يزيد ، فيقتلني شر قتلة .

فورد الكتاب وبعمر رمق فقال : اللهم ان كان يريد بالمسلمين السوء فالحقه به ، وهضه فقد هاضني .

المسألة المالية :

اما المسألة المالية الخطيرة التي افقرت بيت المال ، فهي ان عمر بن عبد العزيز رأى من الحكمة رفع الضريبة عن كل من أسلم ، فاسرع غير المسلمين الى اعتناق الاسلام ـ ولم يفكر عمر في طريقة ثانية تحفظ لخزانة الدولة الموارد العظيمة التي كانت تنالها من الضرائب التي زالت ـ فضعفت موارد الخزانة وصارت الضرورة تقضي بخلق موارد جديدة ، وفرض ضرائب حديثة على المسلمين وغير المسلمين ، مما اغضب العرب المسلمين الذين لم يتعودوا ذلك ، واغضب المسلمين الجدد الذين اسلموا للخلاص من هذه الضرائب ..

وهذه الازمة المالية لم تظهر في ايام عمر وانما ظهرت في زمن من اتى بعده من الخلفاء والولاة ، وكانت من الاسباب التي عجّلت في انهيار امية .

- ٩ -

شيء من اللهو والعبث والشراب

او عهد يزيد بن عبد الملك

(١٠١ — ١٠٥) — هجرية (٧٢٠ — ٧٢٤) — ميلادية

شيء من سوء الحظ :

كان من سوء حظ يزيد بن عبد الملك انه وَلي الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز الخليفة التقي الصالح ، لانه كان على طرفي نقيض في اخلاقه من سلفه ، فبقدر ما كان عمر تقياً صالحاً ورعاً عادلاً ، كان يزيد ظالماً جائراً مسرفاً في الشراب واللهو متبذلا ، حتى عاتبه شقيقه مسلمة وراح يقول له :

— انما مات عمر امس وكان من عدله ما قد علمت ، فينبغي ان تظهر للناس العدل ، وترفض هذا اللهو ، فقد اقتدى بك عمالك في سائر افعالك وسيرتك ..

فارتدع عما كان عليه ، واظهر الاقلاع والندم ، واقام على ذلك مدة .

وكان الغالب على يزيد حب جارية يقال لها (سلامة القس) ، اشتراها يزيد

من صاحبها بثلاثة الاف دينـار ، واعجب بها وغلبت على امره ، وذكرها ابن الرقيات الشاعر في بعض شعره .

والظاهر ان بعض اهل بيته لم يرضهم تسلط هذه الجارية عليه ، فاحتالت ام سعيد العثمانية جدته بشراء جارية يقال لها (حبـابة) ، قد كان في نفسه منها قديماً شيء ، فغلبت عليه ، ووهب سلامة لأم سعيد ، فلمـا اشتهر حبه لحبابة وولعه بها عند النـاس وعزله مسلمة ، ونصحه بالاقلاع ، واقلع مدة ، صعب ذلك على حبابة،فبعثت الى الاحوص الشاعر ومعبد المغنى : « ان انظرا ما انتما صانعان » .

فقال الاحوص في ابيات له :

ألا لا تلمه اليوم ان يتبـلدا   فقد غلب المحزون ان يتجـلدا
اذا كنت لم تعشق ولم تدر مـا الهوى
فكن حجراً من يابس الصـلد جلمدا
فما العيش إلا مـا تلذ وتشتهي   وان لام فيه ذو الشنـان وفنّدا

وغناه معبد ، واخذته حبابة ، فلما دخل عليها يزيد قالت :

— يا امير المؤمنين ، اسمع مني صوتاً واحداً ، ثم افعل ما بدا لك ..

وغنته ، فلمـا فرغت منه جعل يردد قولها :

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي ...

وعاد بعد ذلك الى لهوه ، وقصفه ، ورفض ما كان عليه .

هدم ما بناه عمر :

والواقع انه ما كاد يزيد يتولى الخلافة ، حتى أزال اكثر الاصلاحات التي وضعها الخليفة السابق ، كما عزل عمال عمر بن عبد العزيز جميعاً ، وأعاد سبّ عليّ على المنابر ، وكتب الى عماله :

« امــا بعد فان عمراً كان مغروراً غررتموه ، انتم واصحابكم ، وقد رأيت كتبكم اليه في انكسار الخراج والضريبة ، فاذا أتاكم كتــابي هذا ، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا النـــاس الى طبقتهم الاولى ، أخصبوا ام اجدبوا ، أحبوا ام كرهوا ، حيوا ام ماتوا والسلام » .

واذن فنحن امام خليفة ليس يعنيه من امر شعبه شيء ، وليس يهمه مات النــاس ، ام حيوا ، أثروا ام افتقروا ، احبوا دولتهم ام كرهوها ، وهذا في نظرنا غاية الغايات في سوء السياسة ، وقصر النظر ..

ثورة يزيد بن المهلب :

وليس في خلافة يزيد ما يستحق الذكر إلا ما كان من فتنة يزيد بن المهلب الذي هرب من سجن عمر بن عبد العزيز لما بلغه مرضه وذهب الى البصرة .

وقد اختلف المؤرخون في سبب هذه العداوة التي كانت بين الرجلين يزيد بن عبد الملك ، ويزيد بن المهلب ، فالطبري وابن الاثير يقولان: ان يزيد بن المهلب لما تولى العراق في عهد سليمان بن عبد الملك تولى تعذيب آل الحجاج اصهار يزيد ابن عبد الملك اذ كان متزوجاً ام الحجاج ابنة محمد بن يوسف الثقفي ، وكانت ام الحجاج ممن اخذهم يزيد بن المهلب ، فشفع فيها زوجها ، فلم يقبل ابن المهلب شفاعته ، فقال له يزيد بن عبد الملك :

— أما والله لئن وُليت من الامر شيئاً لأقطعن منك عضواً .

فقال له ابن المهلب : وانا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة الف سيف ..

سبب آخر :

وذكر ابن الاثير سبباً آخر ، وهو ان المهلب خرج يوماً من الحمـــام ايام سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغـــالية ، فمر بيزيد بن عبد الملك وهو الى

جانب عمر بن عبد العزيز فقال يزيد :

– قبّح الله الدنيا لوددت ان مثقال الغالية بالف دينار فلا ينالها إلا كل شريف ...

فسمع قوله ابن المهلب فقال له : بل وددت ان الغالية لا تكون إلا في جبهة الاسد فلا ينالها إلا مثلي[1] .

فقال له يزيد : لئن وليت يوماً لأقتلنك .

فقال له ابن المهلب : والله لئن وليت هذا الامر ، وانا حي لاضربن وجهك بخمسين الف سيف .

وهنا لا بد لنا من لفت النظر الى ان المهلب من عرب الجنوب اي من اليمنية . وان آل الحجاج من المضريين عرب الشمال ، والخصومة كانت شديدة ابداً بين هذين الحيين العظيمين من العرب ..

المعركة :

ولما فرّ ابن المهلب من السجن ذهب الى البصرة وعليها عدي بن ارطاة فاستولى عليها ، وعلى ما فيها من فارس والاهواز ، واشتد خطره ، وانضم اليه اهل بيته وكثير من يمنية العراق ، عصبية منهم له ، وخطب المهلب في الناس يدعوهم الى نصرته ، ويحثهم على جهاد اهل الشام ، وزعم ان جهادهم اعظم ثواباً من جهاد الترك واليمن .

ولم يكن يزيد بن المهلب مخلصاً في دعوته ، وقد كان في ابّان ولايته يأخذ الناس بالحديد والسيف ، يريد رضاء الخليفة في الشام ، فارسل اليه يزيد بن عبد الملك شقيقه مسلمة في جيش عظيم ، وخرج يزيد من البصرة حتى اتى

---

(١) يريد من الشجعان البسلاء .

واسطاً، فأقام بها اياماً، ثم سار منها الى قرية يقال لها (الصقر) بجوار البصرة، حيث التقى بجنود مسلمة، فكانت بين الفريقين معركة هائلة دامة ثمانية ايام، انجلت عن قتل خلق كثير من الطرفين منهم يزيد بن المهلب واخوه حبيب، كما اثخن في انصارهم جند الشام.

وسار اهل المهلب عن البصرة وحملوا عيالهم واموالهم على الدواب حتى اذا انتهوا الى (قنداميل) لحقهم الجند الذي كلّف باتباعهم، فقاتلوا حتى قتلوا عن اخرهم الا ابا عينية بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب.

ويظهر انهم حملوا بعض آل المهلب الى يزيد فامر بقتلهم جميعاً، وابى ان يعفو ويصفح وقال لكثير عزة الذي خاطبه بهم قائلاً:

فعفواً امير المؤمنين وحسبة فما تأته من صالح لك يكتب

فقد اجابه جواباً ينم عن الحقد والعداوة قال: «هيهات يا ابا صخر لا سبيل الى ذلك».

نتائج معركة:

وبذلك انتهت اسرة عظيمة من اسر العرب، كان لها شأن عظيم في حرب الخوارج، وفي حروب خراسان ومحاربة الخزر والترك وكان زعيمها المهلب بن ابي صفرة قائداً عظيماً، وسياسياً بارعاً، اظهر في حروبه مع الخوارج من رباطة العزم، ورحابة الصدر، وبعد النظر ما لا مثيل له، فمدحه، ومدح اولاده الشعراء الذين كانوا مثله بسالة وجوداً وكرماً، وكانوا — اي آل المهلب — معقل اليمنيين لانهم هم الذين رفعوهم، ولذلك رأينا العنصر اليمني في العراق يؤيدهم ويناصرهم، وكان القضاء على هذه الاسرة، سبباً في اشعال نار العصبية عند ذلك العنصر وحقده على الدولة، وقد اصبح العنصر اليمني منذ هذا الوقت يمثل دوراً مزدوجاً خطراً على سلامة الدولة الاموية.

ومما ينكر على يزيد انه اعلن سره وكرهه ليزيد بن المهلب قبل ان يلي

الخلافة ، فكان هذا سبباً في حذر يزيد واثارته هذه الفتنة التي كانت لها نتائج خطيرة مؤسفة عظيمة .

وكان من حق الخليفة لو كان عـاقلاً بعيد النظر ان يخفي سره ، ويستر رغباته ، لانه في اظهارها يعرّض نفسه وملكه لأشد الاخطار ، فلو تمكن ابن المهلب من النصر في هـذه المعركة لكان شأن يزيد الاموي شأن يزيد المهلبي .

علائم الانحلال :

وفي عهد يزيد هذا ظهرت علائم الانحلال في الدولة ، وكان اول مظـاهر هذا الانحلال ، ظهور الضعف العسكري في الجيش الاموي .

فان حمـلة القسطنطينية في عهد سليمان بن عبد الملك ، وهي التي لم تكلل بالنجاح والفلاح ، قد قضت على نخبة من الجنود العرب ، وكذلك قضت ثورة المهلب على كثيرين من احسن جنود الدولة الاموية ، وقد ظهر هذا الضعف جلياً بعد هشام وعهده .

وفي ايام يزيد ايضاً ، حصلت بين الجيش العربي والخزر من سكان ارمينيـا معارك كثيرة انتهت بانتصار العرب ، والاثخان في الخزر وحملهم على السكون ودفع الجزية .

ولكن هذه الانتصارات لم تكن ذات طائل ولا فائدة عسكرية للدولة ، وكذلك الحالة في بلاد ما وراء النهر ، فانها لم تكن على ما يرام ، وامـا في افريقيا فان الموقف كان لا يزال متلبداً جاهماً دقيقاً .

الانقسام في البيت الاموي :

وفي ايام يزيد ظهر النفور بينه وبين اخيه هشام بن عبد الملك لمـا كان من سوء سيرة يزيد ، ولما بلغه ان اخاه هشاماً ينتقصه ويتمنى موته ويعيب عليه

لهوه كتب اليه :

« اما بعد فقد بلغني استثقالك حياتي ، واستبطاؤك موتي ، ولعمري انك بعدي لواهن الجناح ، اجذم الكف ، وما استوجبت منك ما بلغني عنك » .

فاجابه هشام : اما بعد فان امير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول اهل الفساد واعداء النعم ، يوشك ان يقدح في فساد ذات البين وتقطع الارحام ، وامير المؤمنين بفضله ، وما جعله الله اهلاً له ، اول ان يتعهد اهل الذنوب ، فاما انا فمعاذ الله ان استثقل حياتك او أستبطيء وفاتك .. »

فكتب اليه يزيد : نحن مغتفرون ما كان منك ، ومكذبون ما بلغنا عنك فاحفظ وصية عبدالملك ابانا ، ونصحه لنا في ترك التباغي والتخاذل وما امر به من اصلاح ذات البين واجتماع الاهواء ، فهو خير لك ، واملك لك ، واني لأكتب اليك واعلم انك كما قال الشاعر :

ستقطع في الدنيا اذا ما قطعتني ... يمينك فانظر اي كفٍ تبدّل
وان انت لم تنصف اخاك وجدته ... على طرف الهجران ان كان يعقل

فلما اتى الكتاب هشاماً ارتحل اليه ، فلم يزل في جواره مخافة اهل البغي والسعاية حتى مات يزيد .

اليمنية والمضرية :

ولقد تبسطنا في هذه العصبية التي كانت بين القبائل العربية ، وذكرنا موقف يزيد من ابن المهلب واهل اليمن من انصاره واعوانه ، ومما يؤسف له ان يزيداً بعد هذه المعركة لم يتورع عن زجّ نفسه وحكومته في الخصومات العربية الجاهلية ، فانضم الى المضريين او القيسيين نكاية باليمنيين ، وذلك خلافاً لما جرى عليه شقيقه سليمان من تقريب اهل اليمن وعلى رأسهم يزيد بن المهلب اليه ، وبذلك استهدف لغضب اهل اليمن ، وهم الكثرة الغالبة في جيوش الشام ، وهذا التفضيل لقبيل على قبيل من قبائل العرب كان شائعاً في

عهد امية ، وكان من الاسباب في زوال دولتهم وانهيار ملكهم ، اذا افسدوا قلوب رعيتهم عليهم ،وشجعوا القبائل على الثورة والعدوان بعضهم على بعض، وكان من الحق وحسن السياسة ان يكون الخليفة فوق الاحزاب والقبائل، وان يكون وجهه للجميع لا لحزب دون آخر .

وكان من نتيجة هذه السياسة الجديدة في الدولة ان اقصى يزيد اهل اليمن عن الوظائف والامارات ، فولى اخاه مسلمة على المشرق ، ثم ولى عمر ابن هبيرة وهو من القيسيين ، وبذلك اصطبغت الدولة كلها بالصبغة الجديدة القيسية المضرية ، واصبح العنصر اليمني ضعيفاً لا يملك من الامر شيئاً .

موت يزيد :

ولما ماتت (حبابه) حزن عليها يزيد حزناً عظيماً ، وضمّ اليه جارية كانت تحدثها فكانت تخدمه ، فتمثلت يوماً :

كفى حزناً للهائم الصب ان يرى   منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى حتى كاد ان يموت ، ولم تزل هذه الجويرية معه يتذكر بها حبابة حتى مات .

وتوفي يزيد لخمس بقين من شعبان سنة ١٠٥ هـ. بالبلقاء من ارض الشام ، وسنه يومئذ ثمان وثلاثون سنة .

وكان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده ، فقيل له : انه صغير .. فولى اخاه هشاماً ، ومن بعده ابنه الوليد .

مسح السواد :

ومن اعمال يزيد بن عبد الملك انه كتب الى عمر بن هبيرة وهو عامله على

العراق يأمره ان يمسح السواد – وهي الارض الخصبة السوداء في العراق – مقدمة لزيادة الضرائب على المزارعين وصغار الفلاحين ، ولم يمسح السواد منذ مسحه عثمان بن حنيف بامر عمر بن الخطاب ، فمسحه عمر بن هبيرة ، فوضع الضريبة على النخل والشجر ، وأضرّ باهل الخراج ، ووضع الضرائب ايضاً على الذين لا يحاربون ولا يغزون ، واعاد السخرة والهدايا ، وما كان يؤخذ في النيروز والمهرجان – وهي ضرائب فارسية قديمة – فكان عمله هذا مما اغضب اهل الذمة ، واهل الخراج ، فنقموا على سياسة امية وصاروا يتحينون الفرص للثورة على الدولة .

ومن اعمال يزيد ايضاً فرض الغرامات المالية على كبار رجال الدولة لا لجرم اجترموه ، ولكن لاسباب قد تكون شخصية ولا يجوز للحاكم التعرض لها والتفرغ لمثلها ، من ذلك ان عامله على المدينة عبدالله بن الضحاك بن قيس الفهري خطب لنفسه فاطمة بنت الحسين ، فعزله يزيد عن المدينة ، وولاها عبد الواحد بن عبدالله النصري ، وكتب اليه ان يأخذ الضحاك باربعين الف دينار ويعذّبه ، ففعل ذلك ، وبعد مدة نرى الضحاك هذا وفي عنقه خرقة صوف يسأل الناس ، بعد ان اصبح لا يملك شيئاً .

وهناك شيء ادهى من هذا ، وهو تدخل بعض الفتيات في امور الدولة ، فقد غلبت (حبابة) صاحبة يزيد وعشيقته على امور الدولة في عهده ، وكان لابن هبيرة كما يظهر منزلة عندها ، فلم تزل تعمل له حتى ولي العراق . .

- ١٠ -

هشام بن عبد الملك وسياسته

الترك والدولة الاموية

١١٥ - ١٢٥ هجرية - ٧٢٤ - ٧٤٣ ميلادية

الخليفة الجديد :

لما مات يزيد بن عبد الملك كان هشام مقيماً في حمص، واليها جاءه البريد بالعصا والخاتم ، وسلم عليه بالخلافة ، فاقبل حتى اتى دمشق ، وتمت له البيعة ، فاقام خليفة تسع عشرة سنة وستة اشهر ، وهو معدود عند بعض المؤرخين من خيرة خلفاء امية، وفيه من الحلم والاناة والعفة ماظهرت اثاره في ادارة الملك ، وعُدّ احد السواس الثلاثة من بني امية ، وهم معاوية وعبد الملك وهشام ، ولكن سياسته الداخلية في نظرنا لا تبرر هذا الحكم الذي يجريه عليه المؤرخون .

يقول المسعودي : كان هشام احول خشناً فظاً غليظاً يجمع الاموال ويعمر الارض ، ويستجيد الخيول ، واقام الحلبة - سباق الخيل - فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره ، اربعة الاف فرس ، ولم يعرف ذلك في جاهلية

ولا اسلام لاحد من الناس ..

وكان يحب جمع المال ، وعمارة الارض ،واصطناع الرجال ، وتقوية الثغور واقامة البرك والقنى في طريق مكة ، وغيرها ، ويسير بموكب كسائر الخلفاء من اهل بيته ، ولم يكن مثل ذلك لغير اخيه مسلمة بن عبد الملك ..

ويضيف الى ذلك انه كان كثير البخل ، يستمع لأقاويل السوء كما يظهر ، وكان لبخله وتدقيقه اثر فادح في سياسة الدولة .

اول عهده :

وافتتح عهده بعزل عمر بن هبيرة ، عن العراق ، وتولية خالد بن عبد الله القسري اليمني ، اي ان هشام ابدل سياسة الدولة الداخلية التي كانت متبعة في عهد اخيه يزيد ، وسبب ذلك ما رآه من اشتداد امر القيسية وازدياد قوتها ، فخاف من تضخم هذا النفوذ على الدولة ، وعمل على التخلص منهم بالانحياز الى اليمنية كي يعيد التوازن بين العنصرين اليمني والقيسي ، فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنيين ..

ويقال في سبب تعيين خالد على العراق انه هو الذي نصح يزيد الخليفة السابق ان لا يبايع بولاية العهد لابنه الوليد مخافة ان تقع العداوة والشر بين العائلة المالكة ، ويجد الناس سبيلا الى الطعن فيهم والاختلاف عليهم ، وان يترك الولاية لهشام ثم للوليد من بعده .

واختار خالد لولاية خراسان اخاه اسد بن عبد الله ، واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن على السند .

وخراسان في هذه الفترة كانت اوسع من المقاطعة التي يطلق عليها اسم خراسان اليوم ، فقد كانت في عهد الامويين تضم كل البلاد الواقعة حول هرات والتابعة اليوم للدولة الافغانية ..

وكان اسد من المتعصبين لقومه – اليمنية – فافسد عليه النـاس ، ضرب نصر بن سيار ونفراً معه من المضرية بالسيـاط ، وحلق رؤوسهم وسيّرهم الى اخيه خالد ، وهؤلاء قروم مضر وعظماؤها ، فقال الفرزدق الشاعر في ذلك :

أخـالد لولا الله لم تعط طـاعة
ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا
اذاً للقيتم عند شدّ وثـاقه
بني الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا

وكان من اعمال خالد بن عبدالله القسري لما ولي العراق ان انتقم من عمر بن هبيرة المضري ، فـاغضب بذلك المضرية الذين انضموا الى خصوم الحكومة القـائمة ..

وكذلك فعل خليفة خالد على العراق بخالد بعد سنوات ، فقد انتقم من خالد ، وسجنه وقتله ، بعد ان اشتراه من الخليفة كما تشرى النعاج ..

موقف القبائل وسياسة الدولة :

ومما يجري بحثه في هذه المنـاسبة ويدل على اضطراب الامر في سياسة الدولة الاموية ، هذا الاختلاف الواقع بين القبائل العربية ، والذي كان لا يرى الخلفـاء كبير امر في اقراره والرضى به ، بدلاً من محوه وازالته ، فقد حدّث عمر بن يزيد بن عمير قال :

« دخلت على هشام وخـالد عنده وهو يذكر طاعة اهل اليمن ، فقلت :

– والله ما رأيت هكذا خطاءً وخطلاً ، والله ما فُتحت فتنة في الاسلام إلا بأهل اليمن ، هم قتلوا عثمان ، وهم خلعوا عبد الملك ، وان سيوفنا لتقطر من دماء اهل المهلب » .

ولما قام عمر بن يزيد من المجلس لحقه رجل من آل مروان فقال :

– يا اخا تميم لقد احسنت ، وامير المؤمنين قد ولى خالداً العراق وليست لك بدار .

وقائل هذا الكلام من المضريين ، وهم طبعاً اعداء اليمنية ، وهذا ما يدعونا الى بحث موقف القبائل في الدولة الاموية لما لهذا الموقف من الاثر البارز في مصايرها وسقوطها ..

لما تولى الامويون الحكم حفظوا من احوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم (قريش) ، وايثار اهلها على سواهم من القبائل الاخرى ، فجاشت عوامل الحسد والبغضاء في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية ، وضاع فضلها في الاسلام ، خصوصاً اهل البصرة والكوفة والشام ، لان اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار ، كانوا جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ولا هذّبتهم سيرته ، ولا ارتاضوا بخلقه ، مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها ، فلما استفحلت الدولة وجدوا انفسهم وموارد الدولة وسلطانها في قبضة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل واهل الحجاز ، فاستنكفوا من ذلك ، وغصّوا به ، لما يرون لانفسهم من التقدم بانسابهم وكثرتهم ومصادماتهم للفرس والرومان ، في ماضيات الايام ، وانتصاراتهم عليهم ، وكانت هذه القبائل الغاضبة مؤلفة من قبائل بكر بن وائل ، وعبد القيس ، وربيعة وكنده والازد من اليمن ، وتميم وقيس من مضر .

ولم يكن التفاهم بين قريش تاماً ، فلما ولي الامويون الخلافة عادت العصبية الى ما كانت عليه في الجاهلية ، وكان بينهم وبين بني هاشم في الاسلام كالذي كان بينهم في الجاهلية ، من التباغض والاختلاف والحرب ، فخر الامويون بالدهاء والحلم وكثرة الخطباء والقراء ، فردّ عليهم بنو هاشم يكاثرونهم في ذلك ، ويفاخرونهم ان النبوة فيهم ، وكان جدالهم ومفاخراتهم صورة صادقة للمفاخرة في الجاهلية ..

وعاد النزاع في الاسلام بين القحطانية – وهم اهل اليمن – والعدنانية وهو

عرب الشمال الى ما كان عليه في الجاهلية ، فكان في كل قطرعداء وخصومات بين البطون المتفرقة ، واتخذا في كل موطن اسماء مختلفة ، ففي خراسان كانت الحرب بين الازد وتميم ، والاولون يمنيون ، والاخرون عدنانيون مضريون ، وفي الشام كانت الحرب بين كلب وقيس ، وكلب من اليمن ، وقيس من مضر وعدنان ، ومثل ذلك كان الحال في الاندلس ، وفي كل بلد نزل به العرب .

ولقد حكى ابن ابي الحديد : ان اهل الكوفة في اخر عهد (علي) كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته ، فيمر بمنازل قبيلة اخرى ، فينادي باسم قبيلته « يا لكندة » مثلا ، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مرّ بها فينادون ، يا لتميم او يا لربيعة ، ويقبلون على ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضي الى قبيلته فيستصرخها ، فتسل السيوف وتثور الفتنة » ..

وما ذكره ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة كان صورة مصغرة لما كان يقع في كل قطر وموطن من ارض الدولة العربية الاموية .

واذا نظرنا الى الشعراء في عهد بني امية ، وجدنا فيهم العصبية ظاهرة قوية ، فالشعراء انحازوا الى القبائل ، ثم اخذوا يشيدون بذكر قبائلهم ومحاسنها ومفاخرها ، ويهجون غيرهم من ابناء القبائل الاخرى ، يعدون لهم مفاخرهم ويقللون من مفاخر سواهم ، وليس شعر الفرزذق وجرير والاخطل الا صورة لما ذكرنا .

واذن فقد كان في كل بلد نزله عربي حزبان على الاقل مضري ويمني ، تختلف قوة احدهما عن الاخر باختلاف سياسة الخلفاء والامراء والعمال ، فالعامل المضري يقدّم المضرية ، والعامل اليمني يقدّم اليمنية ، وكان لاختلاف هذين الحزبين اثر كبير في مصاير الدولة وسياستها ، حتى في تولية الخلفاء والامراء وعزلهم وكثيراً ما كانت الولاية والعزل معلقين على تأييد احد هذين الحزبين للامير او العامل .

وكانت قبيلة قيس قد وقفت موقف العداء لعبد الملك بن مروان ، فقرّبها يزيد بن عبد الملك ، فلما كان عهد هشام تحول عنها قليلاً ، وابعد بعض ولاتها وامرائها عن الوظائف الكبرى خوفاً من ازدياد شأنها ، ثم عاد فناصرها وايدها وقرّبها والحقها بالديوان ، وفرض لاهلها الرواتب والعطاء فارتفع شأن القيسية وصاروا من انصار بني امية ، ولما ضرب اسد حاكم خراسان زعماء القيسيه من المضريين وحلق رؤوسهم غضب عليه هشام ، وطلب من شقيقه عزله فعزله ، وولى خراسان اشرس بن عبدالله السلمي ، مما يدل على ان هشاماً كان لا يسير على سياسة مستقرة في اموره الداخلية ، وانما كان يعمل على حفظ التوازن بين الحزبين احياناً ويشتد احياناً ، مما يدل على عـــدم الاستقرار مع المضي في العصبية الجاهلية التي كانت سيفاً ماضياً يمزق الدولة ويمزق وحدتها .

الحالة في خراسان :

وكان حاكم خراسان الجديد اشرس بن عبدالله كاملاً فاضلاً ، رضي بـــه الخراسانيون واحسنوا الظن بسياسته وادارته ، ولاول عهده ارسل الى اهـل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام على ان توضع عنهم الجزية ، فسارع الناس الى الاسلام ، فاعترض صاحب الخراج وقال :

— ان الخراج قد انكسر .

فكتب اشرس امير خراسان الى عامل سمرقند ان ينظر الى من اسلم واقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن ، واختتن فليرفع عنه الخراج ، فعصى اهـل الصغد ، وكفروا ، واستجاشوا الترك فاعانوهم ، فذهب اشرس اليهم في جنده فكانت معارك كثيرة بينه وبينهم ، ومـع (خاقان) ملك الترك .

وفي سنة ١١١ عزل هشام ابن عبد الملك اشرس بن عبدالله عن خراسان ، واستعمل مكانه الجنيد بن عبد الرحمن المروي ، فلما جاء خراسان فرّق عمـاله

في الامصار ولم يستعمل إلا مضرياً .

وفي سنة ١١٢ خرج غازياً يريد صخارستان ، فوقعت بينه وبين خاقان ملك الترك عدة معارك ، كانت سجالاً حتى تمكن الجنيد من هزم الترك .

وفي سنة ١١٦ عزل هشام الجنيد عن خراسان وولى مكانه عاصم بن عبدالله الهلالي ، فخرج اليه الحارث بن سريج لابساً السواد ، وداعياً الى كتاب الله وسنة نبيه ، والبيعة للرضاء من آل البيت ، وتبعه خلق كثير ، فاستولى على بلخ والجوزجان ثم قصد مرو العاصمة وبها عاصم امير خراسان ، فقابله هذا على ابوابها ، وكسر جنده وهرب الحارث .

ويقال ان السبب في قيام الحارث ان هشاماً فاجأ الموالي بضريبة خراجية لا قبل لهم بها ، وكان عمر بن عبد العزيز قد اعفاهم منها . وكان الحارث من الموالي . . .

ولما رأى عاصم حال خراسان كتب الى هشام يقول :

« اما بعد فان الرائد لا يكذب اهله ، وان خراسان لا تصلح إلا ان تضم الى العراق ، وتكون موادها ومعونتها في الاحداث والنوائب من قريب ، لتباعد امير المؤمنين عنها ، وتباطؤ غياثه لها » .

وفي هذا الكتاب ما يدل على رغبة عاصم امير خراسان بشيء من الاستقلال الاداري ، بحيث يترك له الامر في ادارة خراسان ومحاربة المخالفين فيها على ان تضم العراق لها ، فيكون العراق بجنوده واموالهمادة قوية تمكّن امير خراسان من توطيد الامر ، ووضع حد للفتن والقلاقل .

فلما وصل الكتاب الى هشام ، عزل عاصماً عن خراسان ، وولاها اسد بن عبدالله القسري ـ وهو من اهل اليمن ـ وكان حاكمها السابق وجعلها من ضمن ولاية خالد امير العراق .

فلما بلغ عاصماً اقبال اسد ، صالح الحارث بن سريج الذي ثار عليه قبلاً

على ان ينزل الحارث اي مكان شاء من خراسان ، وان يكتبا جميعاً الى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، فان ابى اجتمعا عليه .

وايّد هذا الرأي بعض الرؤساء ، وابى اخرون ، وقالوا: «هذا خلع لامير المؤمنين» ،فلم يتم امرالصلح بين عاصم والحارث وتحاربا مرة ثانية فانهزم الحارث ولما قدم أسد حبس عاصماً ، وحاسبه وطالبه بمائة الف درهم .

وتمّ تأمين البلاد على يد (اسد) بعد معركةعظيمة بينهوبين الترك انهزم فيها خاقان وجنده ، واستولى المسلمون على معسكرهم ، وقتل خاقان ، بعد هذه الموقعة ، فاشتغلت الترك بعضها ببعض بعد هلاكه ، وارسل اسد بالبشرى الى هشام فسجد شاكراً .

الترك والدولة الاموية :

وما دمنا في صدد هذه المعارك التي كانت تقع بين الترك والعرب ، فيحسن بنا ان نبحث عن اصل الترك وعلاقاتهم بالدولة الاموية حتى عهد هشام الذي نؤرخ له الآن .

جاء في دائرة المعارف الاسلامية : ان لفظة (ترك) محرفة عن لفظه (توكو) عند الصينيين ، وهو شعب ظهر في القرن السادس بعد المسيح واسس ملكاً طويلاً عريضاً امتد من بلاد المغول وشمالي اليمن الى البحر المتوسط ، وكان اصحاب هذا الملك من الجماعات الرحالة،وكان مؤسس هذا الملك الكبير رجلا يقال له (تومان) عند الصينيين ، و (ترك لوبين) عند الاترك ، وقد مات سنة (٥٥٢) للمسيح ، وكانت اكثر الفتوحات على يد (خاقان) الذي مات سنة ٥٧٦ ، والصينيون يقولون لهؤلاء : ترك الشمال والغرب ، وكانوا قد انفصلوا عن ترك الشرق، وفي القرن السابع للمسيح خضع الترك جميعاً الشرقيون والغربيون لسلالة (تانغ) الصينية ، ولكن ترك الشمال عادوا فاستقلوا سنة ٦٨٢ للمسيح ، وفي مدة هذه الدولة التركية ، ظهرت الكتابة المسماة بكتابة

(اورخون) نسبة الى نهر في بلاد المغول يقال له (اورخون) ، وهي اقدم كتابة تركية ، واشتهر في قبائل الترك الغربية قبيلة (ترغش) ، وحاز امراؤها لقب (خان) في اواخر القرن السابع المسيحي . وفي ذلك الوقت جاء العرب فقضوا على مُلك الترغش هؤلاء في زمن نصر بن سيار سنة ١٢١ هجرية .

اتصال العرب بالترك :

واول ما كان من اتصال العرب بالترك في زمن معاوية بن ابي سفيان لما استولى العرب على خراسان ، وكان الوالي عبيدالله بن زياد ، وهو لا يزال ابن خمس وعشرين سنة ، فقطع النهر في ٢٤،٠٠٠ مقاتل ، فأتى (بيكند) وقصد الى بخارى ، فارسلت (خاتون) ملكة بخارى الى الترك تستنجدهم ، فزحفوا الى العرب فهزمهم العرب ، واستولوا على (بخارى ورامدين وبيكند) .

ثم ولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان فقطع النهر بجنده ، وكان معه رجل يقال له (رفيع ابو العالية الرياحي) فتفاءل بهذا الاسم خيراً وقال :

— رفيع ابو العاليه ، رفعة وعلو .

وبلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر فحملت اليه الصلح وأدّت الاتاوة ، وبينا هي داخلة في الطاعة اقبل الترك من (السغد وكش وخسف) في مائة وعشرين الف مقاتل والتقوا ببخاري ، وندمت خاتون على طاعتها للعرب ، ونكثت العهد ، إلا ان العرب هزموا الترك ، فرجعت خاتون الى الصلح .

ودخل سعيد بن عثمان بن عفان مدينة بخارى ، ثم زحف على سمرقند ، وحلف ان لا يبرح او يفتحها ، وما زال يضيّق عليها الحصار ، حتى صالحوه واعطوه رهائن من ابناء ملوكهم ؛ ثم اقام على (الترمذ)، وما زال يضيق عليها حتى فتحها ، ولما انتقض اهل الترمذ بعد ذلك فتحها قتيبة بن مسلم .

وفي فتح بلاد الترك استشهد قثم بن العباس بن عبد المطلب ، وكان مع سعيد بن عثمان ، فلما بلغ خبر شهادته اخاه عبدالله بن عباس قال :

– شتان ما بين مولده ومدفنه .

وبعد موت معاوية وقيام يزيد ولى يزيد(سلم بن زياد) ما وراءالنهر،فصالحه اهل خارزم على اربعمائة الف وحملوها اليه ، وقطع النهر ومعه امرأته ام محمد بنت عبدالله بن عثمان بن ابي العاصي الثقفي ، وكانت اول عربية قطعت النهر .

واقام سلم بن زياد بالسغد او (الصغد) ، وسرّح جيشاً الى (خنجدة) وفيهم اعشى همدان الشاعر ، فانهزم هذا الجيش فقال الاعشى :

ليت خيلي يوم الخجندة لم تهزم   وغودرت في المكـّر سليبـــا
تحضر الطير مصرعي وتروّحت   الى الله في الدمـاء خضيبـــا

ثم رجع سلم بن زياد الى مرو ، وحشد هنـاك جيشاً وغزا بلاد الترك ، فجمع له اهل (الصغد) فقاتلهم ودوّخهم ، ثم انه انصرف عن ما وراء النهر ، وتولاها عبدالله بن خازم السلمي ، بعهد من سلم بن زياد ، فعصاه سليمان بن مرشد من بني سعد بن مالك من المراشد بن ربيعة ، واقتتلا .. وكان ذلك في اثنـاء فتنة ابن الزبير مع بني امية .

قتال بين العرب :

وطال القتال بين العرب ، فانتهز الترك الفرصة ، وشنوا الغـارات ، حتى بلغوا قرب نيسابور ، ثم انتهت الفتنـة بين العرب بانتصـار ابن خازم ، وكانت العصبية بين القبائل العامل في هذه الفتن، وكانت السبب الاول في انهيار امية ، وتدهور المجد العربي .

وكان عبدالله بن خـازم لا يتولى غير عبد الله بن الزبير ، ولا يطيع عبد الملك بن مروان ، فكتب عبد الملك الى بكير بن وشاح يوليه خراسان ، فقاتل

ابن خازم وتغلب عليه وقتله ، وارسل برأسه الى عبد الملك بدمشق ، فنصبه على بابها ..

واشتدت الفتنة بين العرب في خراسان الى ان كتب وجوه العرب الى عبد الملك بن مروان ان لا تصلح خراسان بعد هذه الفتنة إلا برجل من قريش ، فولى عبد الملك على خراسان امية بن عبد الله بن خالد ، وغزا امية بلاد الختل فافتتحها ..

ايام الحجاج :

ثم جاءت ايام الحجاج بن يوسف وكانت خراسان من جملة ولايته ، فولاها المهلب بن ابي صفرة من الازد ، وذلك سنة ٩٩ هجرية، فغزا مغازي كثيرة ، وانتقضت الختل في ايامه فدوّخها ، وفتح خجندة ، واطاعت له (السغد) ، و(كش) و(نسف) ومات المهلب فقام بعده ابنه يزيد بن المهلب ، فغزا مغازي كثيرة في بلاد الترك ، وفتح (البتم) ثم غزا (خارزم) ..

ثم ولى الحجاج المفضل بن المهلب بن ابي صفرة ، ففتح بلداناً منها (بادغيش وشومان) .

وكان موسى بن عبدالله بن خازم السلمي بعد قتل ابيه قد امتنع بالترمذ ، فاستنجد اهل الترمذ الترك على موسي فهزمهم موسى ، وحدثت له وقائع كثيرة وحروب ذات بال تغلب فيها كلها .

وكان اهل خراسان يقولون عن موسى بن عبدالله بن خازم السلمى هذا : « ما رأينا مثل موسى ، قاتل مع ابيه سنتين فلم يغلب ، ثم اتى الترمذ فغلب عليها ، وهو في عدة يسيرة واخرج ملكها عنها ، ثم قاتل الترك والعجم فاوقع بهم ، إلا انه لما تولى المفضل بن المهلب خراسان ارسل له جيشاً يقاتله ، فانهزم موسى وقتل وتولى (الترمذ) مدرك بن المهلب .

قتيبة وفتوحاته ونهايته :

ثم ولى الحجاج ابن يوسف قتيبة بن مسلم ، وهو اشهر فاتح لبلاد الترك . وقد عرضنا لفتوحاته في مكان من هذا الكتاب ...

ولما تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك كان قتيبة بن مسلم الباهلي مستوحشاً منه ، كارهاً لخلافته ، وكان سليمان مثل ذلك معه ، فكتب سليمان الى قتيبة يأمره بأطلاق سراح كل من في حبسه ، وان يعطي الناس اعطياتهم ، ويأذن لمن اراد القفول في العودة الى وطنه ، وكان الناس من المقاتلة العرب يتطلعون الى ذلك ويريدونه ، وكان من اهل البصرة في جيش قتيبة اربعون الفاً ، ومن اهل الكوفة سبعة الاف ، ومن الموالي سبعة الاف ، فلم يأذن قتيبة لهم بالعودة ، فثاروا به ، فانتصر له العجم على العرب ، وكانت حرب بين الفريقين فظفر العرب بقتيبة وقتلوه ..

ويقال انه خلع بيعة سليمان ودعا الناس الى ذلك فلم يؤيدوه ، وكان ما كان من قتله .

وقتل مع قتيبة جماعة من اخوته ، وقتلت زوجته ، ونجا اخوه ضرار بمساعدة بني تميم ، واخذت الازد برأس قتيبة وخاتمه ، وبعثوا بهما الى الخليفة في دمشق ، وكان قتيبة يوم قتل ابن ٥٥ سنة ..

وبعد ان قتل قتيبة رحمه الله تولى خراسان وكيع بن حسان بن قيس التميمي ، واراد سليمان ان يثبته في الولاية فقيل له :

— ان وكيعاً ترفعه الفتنة ، وتضعه الجماعة ، وفيه جفاء واعرابية .

وكان وكيع يدعو لطست فيبول والناس ينظرون اليه . فلم يكن يصلح للولاية ، فعين سليمان يزيد بن المهلب على خراسان مع العراق ، فقدم يزيد ابنه مخلداً ، فغزا مخلد (البتم) ففتحها ، ثم نقض اهلها العهد ، فكرّ عليهم وفتحها ثانية ، واصاب بها مالاً واصناماً ..

عهد عمر بن عبد العزيز :

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب الى ملوك ما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام ، فاسلم بعضهم ، ورفع الخليفة الخراج عمن اسلم بخراسان ، وفرض العطاء للمسلمين منهم ، وبنى الخانات .

وكان الجراح بن عبدالله الحكمي عامل عمر على خراسان فكتب اليه يوماً يقول :

— انه لا يصلح خراسان إلا السيف .

فاغتاظ عمر من كلامه ، وعلم انه وال يستخف بالدماء فعزله ..

ثم ولى عبد الرحمن بن نعيم الغامدي حرب خراسان ، وعبد الرحمن بن عبدالله القشيري خراجها ..

وفي خلافة يزيد بن عبدالملك تولى خراسان سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث ابن الحكم بن ابي العاص بن امية ، فنزل خراسان ، وبعث ابنه الى ما وراء النهر ، فنزل (اشتيخن) فزحف اليه الترك فقاتلهم وهزمهم ..

ثم لقي الترك مرة ثانية فانهزم اصحاب سعيد ، فولى سعيد عندئذ نصر بن سيار على الجيش ، وشخص قوم من وجوه خراسان الى مسلمة بن عبد الملك والي العراق، وشكوا سعيداً ، فعزله مسلمة،وولى سعيد بن عمر الجرش مكانه ، فافتتح هذا عامة حصون (السغد) ..

وقال البلاذري : انه نال من العدو نيلاً شديداً ..

اواخر ايام امية :

وفي خلافة هشام بن عبد الملك تولى العراق عمر بن هبيرة فعزل الجرشي واستعمل على خراسان مسلم بن سعيد ، فغزا (الاخشين) فصالحه على ستة الاف رأس ، ودفع اليه قلعته .

وتولى طخارستان نصر بن سيار كما تقدم الكلام عليـه ، فخالفه قوم من العرب فاوقع بهم ثم سعى بالصلح ساع فاصطلحوا . ثم تولى العراق خالد بن عبدالله القسري من قبل الخليفة هشام ، فولى اخاه عبـدالله على خراسان ، ثم خلفه اشرس بن عبدالله السلمي ، قدعا اهل مـا وراء النهر الى الاسلام وامر بطرح الجزيه عمن اسلم . فسارعوا الى الاسلام وانكسر الخراج .

ثم استعمل هشام سنة ١١٢ الجنيد بن عبد الرحمن على خراسان فحارب الترك وهزمهم ، وظفر بابن خاقان ملك الترك ، فبعث به الى الخليفة هشام ، ولم يزل يقاتل الترك حتى دوّخهم .

وامدّه هشام بعمرو بن مسلم في عشرة الاف رجل من اهـل البصرة ، وبعبد الرحمن بن نعيم في عشرة الاف من اهل الكوفة ، وحمل اليه ثلاثين الف قناة ، وثلاثين الف ترس ، واطلق يده في الفريضة ، ففرض لخمسة عشر الف رجل — عطاء — وكان للجنيد مغاز كثيرة .

ولما توفي الجنيد (بمرو) ولى هشام على خراسان عاصم بن عبدالله بن يزيـد الهلالي .

وتقول دائرة المعارف الاسلامية : ان الخليفة هشام دعا ملـك الترك الى الاسلام ، وان مؤلفي العرب لم يبدأوا بالكتابة عن الترك الا في القرن الثالث للهجرة .

ثم ولى هشام (اسداً) كما قدمنا،فكان انتصاره على الترك عظيماً، وفي سنة ١٢٠ توفي اسد ببلخ ،وكان من احسن ولاة خراسان وابعدهم همـة واشدهم شكيمة .

وفي سنة ١٢٠ عزل هشام خالداً العشري عن العراق لوشاية اثرت في نفسه، من انه قد اصبح له من الاموال شيئاً كثيراً،وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وكان عاملاً على اليمن ، فسار حتى اتي الكوفة ، وكان من اول اعماله انـه

قبض على خالد الامير السابق وحبسه وقبض على عماله وحاسبه على امواله .

واما خراسان فقد تولاها نصر بن سيان بامر من هشام ، ولنصر غزوات الى ما وراء النهر كان له فيها النصر دائماً ، ووضع الجزية عمن اسلم من العجم، وانتهت حياة هشام ، ويوسف بن عمر على العراق ، ونصر على خراسان .

الحالة في ارمينيا وازربيجان :

واما في ارمينيا واذربيجان فقد تولاهما الجراح بن‌عبدالله الحكمي اول‌الامر وكانت له غزوات ، وفي سنة ١٠٧ عزله هشام وولى مكانه مسلمة بن عبد الملك شقيقه فارسل مسلمة نائباً عنه الحـــارث بن عمر ، فغزا الترك غزوات كثيرة موفقة ، وفي سنة ١١٠ سار مسلمة بنفسه الى الترك فلقى ملكهم في جموعـــه فاقتتلوا قريباً من شهر... وكان النصر آخر الامر لسيوف العرب ..

وفي سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ، وردّ الجراح ، فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس فلم يوفق ، وكان الترك يساعدون الخزر على حربه ، وطمع الخزر في البلاد واوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل ، فارسل اليهم هشام سعيداً الجرشي واتبعه بالجنود ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قهرهم وردهم واستنفذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه ..

وعـــاد مسلمة بعد ذلك اميراً على ارمينية واذربيجان حتى سنة ١١٤ ، حين ارسل هشام اليها مروان بن محمد ، فأذل الخزر وكسرهم غير مرة ،وخافه الترك ودانت له جميع البلاد ..

وكانت الحرب الى ذلك لا تكاد تنقطع بين المسلمين والروم ، وكانت حماية الثغور مما يهتم لها الخلفاء كل الاهتمام ، ويولون عليها كبار القواد ، وممن اشتهر بقيـــادة الجيوش في تلك الاصقاع مروان بن محمد - قبل ان يلي ارمينية - ومسلمة بن عبدالملك، ومعاوية بن هشام، وسعيد بن هشام ، وسليمان بن هشام،

وقد افتتحوا في غزواتهم بلداناً رومية كثيرة منها (قونية) و (قيسارية) وكثيراً من الحصون والقلاع في اسيا الصغرى .

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير على الروم من البحر ، وكان امير البحر في عهد هشام ،عبد الرحمن بن معاويه بن خديجة ، وكان من اكبر القواد ، اما ولاية الحجاز فكان هادئاً كل مدة هشام ..

خروج زيد بن علي :

ومما يؤخذ على هشام امعانه بالانتقام من العلويين والتنكيل بهم ، ما كان الى ذلك سبيل ، ففى ولاية يوسف بن عمر العراق خرج زيد بن علي بن الحسين طالباً الخلافة ، وقد اختلف المؤرخون في سبب ظهوره فمنهم من يقول :

« ظهر لتحقير هشام له في مجلسه» ، ومنهم من يرد ذلك الى ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره ، وكان زيد يرشح نفسه للخلافة ، ويكره الذل ، ويرى انه أحق بها من هشام وغير هشام، قال مرة : «والله لا يحب الدنيا احد إلا ذلّ» .

فبلغ ذلك هشاماً ، فقال له مرة : لقد بلغني يا زيد انك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك ، وانت ابن امة (وكانت امه من اهل السند) .

فقال زيد : لقد كان اسحق بن حرة ،واسماعيل بن امة ، فاختص الله ولد اسماعيل فجعل منهم العرب ، ومنهم رسول الله ..

فلما كان في العراق سنة ١٢١ نفذ خطته بعد ان ألحّ عليه اهل الكوفة ان يخرج ، وقد نصحه كثيرون ان لا يفعل ، نصحه سلمة بن كهيل فقال له :

— نشدتك الله كم بايعك ؟

فقال زيد : اربعون الفاً ..

— فكم بايع جدك الحسن ؟

فقال زيد : ثمانون الفاً .

قال : فكم حصل معه ؟

قال زيد : ثلاثمائة .

قال سلمة : نشدتك الله انت خير أم جدك ؟

قال : جدي ..

قال : أفقرنك الذي خرجت فيهم خير ام القرن الذي خرج فيه جدك ؟

قال زيد : بل القرن الذي فيه جدي ..

قال : أفتطمع ان يفي لك هؤلاء وقد غدر اولئك بجدك ؟

قال : قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي واعناقهم ..

ولم تفده هذه النصائح شيئاً ، وبثّ دعـــاته بين اهل السواد والموصل ، وكانت بيعته التي يبايع عليها الناس :

« إنا ندعوكم الى كتـــاب الله وسنة نبيه ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ، وقسمة هذا الفيء بين اهله بالسواء ، وردّ المظالم وارجاع الجيش يبقى مدة طويلة في ارض العدو ، ونصرنا اهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا ، أتبايعون على ذلك ؟ » .

فاذا قالوا : نعم .. وضع يده على يدهم ..

ولبث على ذلك بضعة عشر شهراً ، ثم لما بلغت اخباره يوسف بن عمر وهو بالحيرة تهيأ له .. فلما علم بذلك اهل الكوفة جاءوا زيداً وقالوا له :

– ما قولك في ابي بكر وعمر ؟

فقال زيد : رحمها الله وغفر لها ، ما سمعت احداً من اهل بيتي يقول فيهما إلا خيراً ، ولا سمعت احداً يتبرأ منهما ، وان اشدّ ما أقول فيما ذكرتم ، إنا كنا أحق بسلطان رسول الله من الذين ذكرتما ومن النـــاس اجمعين ، فدفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً ، وقد ولوا فعدلوا في النـــاس ، وعملوا

بالكتاب والسنة ..

قالوا : فلمَ يظلمك هؤلاء ، اذا كان اولئك لم يظلموك ، ولم تدعو الى قتال قوم ليسوا لك بظالمين ؟

فقال : ان هؤلاء ليسوا كأولئك ، ان هؤلاء ظالمون لي ولكم ولانفسهم ، وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، والى السنن ان تحيا ، والى البدع ان تطفأ ، فان انتم اجبتمونا سعدتم ، وان انتم أبيتم فلست عليكم بوكيل ..

ففارقوه ونكثوا ببعته ، حتى قال لهم : رفضتموني ..

وقالوا : جعفر امامنا اليوم بعد ابيه ، وهو أحق بالامر بعد ابيه ، ولا نتبع زيد بن علي فليس بامام .. والسبب الذي لم يجتمع له حوله الشيعة اعتداله في تشيعه ، وتردد اهل الكوفة دائماً وابداً في الوقت العصيب والامر الحاسم.

وفي الليلة التي كان زيد قد اتفق مع شيعته في الكوفة على الخروج فيها لم يأت اليه اكثر من مائتي شخص ، حارب بهم الجنود الاموية فلم يوفق ، واصابه سهم في جبينه فمات لساعته ، ودفنه اصحابه في ساقية ، واجروا الماء فوق قبره خوفاً من التمثيل به ، فدلّ عليه بعض العبيد ، فنبش القبر يوسف بن عمر واخرج جثة زيد وصلبها ، ثم احرقها وذرّ رمادها في الفرات .

والى زيد تنسب جماعة الزيدية من فرق الشيعة وهم كثيرون في بلاد اليمن.

وقد انقسم الزيديون بعد موت زيد الى طوائف عدة ، وظل فريق منهم على ولائه لزيد ، وبايعوا ابنه يحيى الذي خرج بخراسان سنة ١٢٥ هجرية ، وكانت نهايته كنهاية ابيه اذ اصابه سهم فمات ، وحزّ رأسه فصلب ثم احرق حتى صار رماداً ..

تبدل الايام :

وتتبدل الايام ويقوم العباسيون ، ويملكون ارض امية وامصارها ، ويدخل

عبدالله بن علي الى دمشق فاتحاً ، فما يفكر إلا في نبش قبور بني امية ، وذلك في ايام الخليفة العباسي الاول ابي العباس ..

ويحدثنا احد من كانوا مع عبد الله بن علي اثناء نبش القبور فيقول :

« فلما انتهينا الى قبر هشام بن عبد الملك اشخر جناه صحيحاً ما فقدنا منه إلا حتمة انفه ، فضربه عبدالله بن علي ثمانين سوطاً ، ثم احرقه » .

وفعلوا مثل ذلك في قبور امية كلها ، وانما ذكرنا هذا الخبر في هذا الموضع للتدليل على ان هشاماً لقي بعد موته من خصومه ، مثل ما فعله وهو حي في زيد من الاحراق والصلب ، حتى يقال ان زيداً مكث مصلوباً خمسين شهراً بالكوفة فلما ظهر ابنه يحيى في ايام الوليد بن يزيد بن عبدالملك كتب الوليد الى عامله باحراق جثته وذر رمادها في البحر ...

الشيعة في العصر الاموي :

ومن الحق ان نعرض في هذه المناسبة للتاريخ السياسي للشيعة منذ وفاة رسول الله الى نهاية الدولة الاموية ، ليستقيم معنا البحث ، ويتصل المقال بعضه مع بعض .

فمنذ وفاة رسول الله الى اخر العصر الاموي كانت شيعة علي بن ابي طالب زوج فاطمة بنت رسول الله ، يطلبون الخلافة له ولنسله من بعده ، وكانت حركتهم ايام ابي بكر وعمر والقسم الاول من خلافة عثمان حركة هادئة ناعمة مكتومة لاتكاد تظهر ، فلما ظهرت الفتن عهد عثمان وولى على الخلافة ظهرت كفكرة سياسية تناضل عن حقها بالسيف ...

وفي اثناء الخلاف بين علي ومعاوية ، انقسمت الامصار الاسلامية الى معسكرين : معسكر العراق وهم شيعة علي، ومعسكر الشام وهم شيعة معاوية، واما بقية الامصار فكانت منقسمة الاهواء والمنازع ، ولما قتل علي واستقل معاوية بالخلافة ، ودانت الامصار الاسلامية له ، ولاهله من بعده ، ظل

العراق ، وخاصة الكوفة شيعى النزعة ، ولكن بالقول والكلام لا بالعمل والسيف الا قليلاً ..

وسكت انصار علي بعد مقتله وقيام معاوية على مضض ، فلما تولى يزيد خرج عليه الحسين فقتله يزيد، واساء الادب مع ابناء فاطمة ومن بقي حياً من ابناء الحسين حيث صار نقلهم من كربلاء الى دمشق ، ومنها الى المدينة .

وبعد وفاة يزيد خرج المختار الثقفي يطالب بدم الحسين ، وايده كثيرون من اهل العراق ، وتمكن المختار من قتل كل من حمل السيف ضد الحسين او سعى لقتله .. ثم سكت اهل البيت في ايام عبد الملك بن مروان والوليد ابنه فلم يحركوا ساكناً ..

ولقي سليمان بن عبد الملك – خلف الوليد – ابا هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية – ابن علي بن ابي طالب من غير فاطمة – وكان بعض الشيعة يقول بامامته ، فراءي منه ذكاء ودهاء ، فخافه وبعث اليه من سمه في طريقه ، فلما احس ابو هاشم بالسم .. قيل انه عهد بالامر من بعده الى احد آل البيت العباسي وهو محمد بن علي بن عباس ، فكان هذا مبدأ تحول الامر من بيت علي الى بيت العباس .

وقد رأينا ما فعل هشام بزيد بن علي ، وما فعله الوليد بن يزيد بعده بيحيى بن زيد ..

وكان مقتل يحيى بن زيد آخر نكبة اصابت العلويين في العهد الاموي ..

- ١١ -

اخر ايام هشام

اختلافه مع ولي عهده ــ وشيء عن بخله

هشام وسياسته :

والواقع ان هشاماً اذا استثنينا بعض اخطائه ومـــا تعرض له من الشدة والقسوة في حالات كان من الممكن ان يكون فيها ارحب صدراً ، وموقفه من العصبية القبلية وعمله على تعزيزها باخذه جانب حزب يوماً ، وجانب الحزب الاخر في اليوم التالي ، وهي سياسة اذا صلحت في ايامه وحفظت التوازن السياسي في عهده ، فانها كانت سياسة خطرة إذ جعلت كل حزب من الحزبين يعتقد حقه في السيطرة على شؤون الدولة حتى اذا منعه عنهـا خليفة غضب ، ونقم وسعى في الارض فساداً ..

لولا هذه الهينات من الاخطاء ، لكان هشام من خير خلفاء بني اميـــة ، حفظ البلاد ، واصلح الخزانة ، واشتهر بالتدبير وحسن السياسة وغزارة العقل والفقه ، وكان أكبر همه اصلاح اموال الدولة ، وغلب عليه الاقتصـــاد حتى انقلب بخلاً ..

بخـــله :

ومما يدل على بخل هشام ان رجلا اهدى اليه طائرين فاعجب بهما ، فقال له الرجل :

ـ اين جائزتي يا امير المؤمنين ؟

فقال له هشام : وما جائزة طائرين ؟

فقال : ما شاء امير المؤمنين !

فقال له هشام :

ـ خذ احدهما .

فقصد الرجل لاحسنهما فاخذه ، فقال له هشام :

ـ وتختار ايضاً ؟

قال : نعم والله اختار .

فقال هشام :

ـ دعه . . .

وامر له بدريهمات .

. . .

ودخل هشام بستاناً له ، ومعه ندماؤه فطافوا به ، وبه كل الثمار ، فجعلوا يأكلون ويقولون :

ـ بارك الله لامير المؤمنين . .

فقال هشام : وكيف يبارك الله لي فيه وانتم تأكلونه ؟

ثم نادى حارسه فقال له :

ـ اقلع شجره واغرس فيه زيتوناً . . حتى لا يأكل منه احد شيئاً .

وبينما هو يوصي عقـّال بن ُشبة ، لما وجهه الى خراسان نظر هذا الى قباء الخليفة ملياً فقال له هشام : مالك ؟

قال : رأيت عليك قبل ان تلي الخلافة قبـــاء من الفرو الاخضر فجعلت اتأمل هذا .. اهو ذاك ام غيره ؟

فقال له هشام : هو والله الذي لا اله إلا هو ذاك ، مالي قباء غيره ، واما ما ترون من جمعي هذا المال وصونه فانه لكم .

التدقيق في ديوانه :

وكانت دواوينه مثال التدقيق والعناية في معاملة الرعية ومحـاسبة العمال الذين يتصرفون له ، يتخيرهم من الامناء البعيدين ــ عن الفساد والرشوة ومن الحـكم بالهوى ــ ويعتمد في توسيد عظام الاعمال على اناس من اهل بيته .

قال عبد الرحمن بن علي : جمعت دواوين بني مروان فـلم ار ديواناً اصلح للعامة وللسلطان من ديوان هشام .

وقال غسان بن عبد الحميد : لم يكن احد من بني مروان اشدّ حصراً في امر عمـــاله ودواوينه ، ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام .

وكتب هشام الى والي العراق لما أخذ ابن حسان النبطي فضربه بالسياط وكان اوغر صدر هشام عليه لفرط الدالة واحتجـــان الاموال ، وكفر ما اسداهاليه من توليته اياه العراق :

« ان هشاماً آثرك بولاية العراق ، بلا بيت رفيع ولا شرف قديم ، وهذه البيوتات تعلوك وتغمرك وتسكتك وتتقدمك في المحافل والمجامع عنـد بداءة الامور وابواب الخلفاء ، واتهمه انه استعان بالمجوس والنصارى وولاهم رقاب المسلمين وجبوة خراجهم وسلـّطهم عليهم ، وقـال له : والله لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتمل لك امير المؤمنين ما افسدت من مـال الله ، وضيّعت من امور المسلمين، وسلطت من ولاة السوء على جميع اهل كور عملك

تجمع اليك الدهاقين هدايا النيروز والمهرجـان ، حابساً لأكثره ، رافعاً لأقله ، مع تخابث مساويك » .

وهذا الكتاب من الخليفة الى عامله المرتكب يدل على شدة هشام في المحافظة على بيت المال وتدقيقه على عماله وولاته ..

هشام وطاووس :

ومما يذكر عن هشام اجتماعه بطاووس وهو من كبار التابعين ، وكان ذلك اثناء موسم الحج ، ومكة في مثل هذا اليوم تزخر بالناس ، وهم بعد اجناس مختلفة في الوان متغايرة ، وعادات متباعدة ، وازياء متباينة ، مما يبـاعد بين المرء ورفيقه ، والاخ وشقيقه ، والاب وولده ، ولكن مكة شيء عجيب والاسلام شيء اعجب ، يجمع الناس على بعد الشقة واختلاف الازياء والعادات والطبائع من مشرق الارض الى مغربها ..

ويتوب هشام بن عبد الملك الى نفسه بعد انتهاء المنـاسك فيسأل من عنده عن صحابي من صحابة رسول الله ، فان لم يكن فرجل من التابعين يجتمع اليه ، ويأنس به . وينفض اعوانه الوادي حجراً فوق حجر فلا يعثرون على صحابي ، وانمـا يقعون على احد التابعين .

وكان التـابعون طبقة خلفت الصحابة في علمها وفضلها وفقهها وتقواها ، مثل سعيد بن المسيب وعطاء بن رباح ومكحول الشامي وطاووس بن كيسان وغيرهم ...

وكان طاووس في مكة هذه الفترة ، وكان من غزارة العلم والفضل والتقوى بالمكان الارفع ، أليس يقال انه صلى الصبح على ضوء العتمة اربعين سنة ، وانه جلس اليه يوماً ولد من اولاد عبد الملك بن مروان وهو خليفة ، فلم يحفل به ، ولم يلتفت اليه ، فلما عوتب على ذلك قال :

- أردت ان اعلمه ان لله عبـاداً يزهدون فيه وفي ابيه وفيما بين ايديهم .

فلمـا سألوه زيارة امير المؤمنين مشى معهم اليـه ، ودخل عليه كما يدخل الانسان على اهل بيته، ومشى نحوه كما يمشي الامير في بستانه ، مرفوع الرأس، ظاهر العزة ، بادي العزيمة ، واذا امير المؤمنين على عرشه ، والنـاس وقوف حوله ، فاغضب هذا طاووساً وانكره ، وتذكر رسول الله يدخل الى الجماعة فيأخذ مجلسه في طرف المجلس ، ويمنع احداً من الوقوف له والاحتفاء به .

ورأى طاووس ان يلقي على هشام امـير المؤمنين درساً لا ينساه ، فكان من امره عند دخوله عليه ان خلع نعليه ، في طرف البساط ، ثم اقبل على هشام فلم يكنه بل قال :

- السلام عليك يا هشام ...

ولم يقبل يده ، ثم اخذ مجلسه بازائه دون مادعوة ..

وغضب هشام ان يجـترىء عليه طاووس وهو بين يديه ، وأخذته عزة الملك وهمّ بتأديبه ، ثم عاد الى نفسه فقال لطاووس بصوت شديد قاس :

- يا طاووس..ما الذي حملك على ما صنعت ؟

فاجابه طاووس وهو ساكن النفس هادىء الفؤاد :

- وما الذي صنعت ؟

فازداد هشام غضباً وغيظاً وحنقـاً ، ولكنه كتم ما في نفسه ، وذكر له من امره ما عدّه اجتراء منه على مقامه فقال طاووس :

- اما ما ذكرت من خلع نعلي بحاشية بساطك فاني اخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ، ولا يعاقبني ولا يغضب عليّ ،واما قولك : لم تقبل يدي فاني سمعت امير المؤمنين علي بن ابي طالب يقول : « لا يحـل لرجل ان يقبّـل يد احد ، إلا امرأته من شهوة ، او ولده من رحمة» ، واما قولك : لم تسلم عليّ بامرة المؤمنين فليس كل النـاس راضين بامرتك ، فكرهت ان

اكذب .. واما قولك لم تكنني ، فان الله تعالى سمّى انبياءه واولياءه ، فقال: يا داود ، يا يحيى ، يا عيسى ، وكنى اعداءه فقال : «تبت يدا ابي لهب وتب» واما قولك : جلست بازائي فاني سمعت امير المؤمنين علي بن ابي طالب يقول: « اذا اردت ان تنظر الى رجل من اهل النار ، فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام » .

وكان الناس من حول امير المؤمنين ينتظرون امراً بالعقوبة ، او قراراً بالنفي ، او ما يشبه ذلك ويلابسه ، ولكن شيئاً من هذا لم يقع ، فقد انقلب هشام شخصاً آخر ، وعادت الابتسامة الى وجهه ، وقال لطاووس :

– يا ابا عبد الرحمن عظني ...

هشام والوليد ولي العهد :

ومما يؤخذ عليه ما فعله مع الوليد بن يزيد ولي العهد ، فانه اساء اليه كثيراً حتى ساء خلقه ، ودعا القواد الى خلعه ، فاجابه كثير منهم ، ثم لم يوفق الى ما اراده ، فجعلهم هو واهل بيته عرضة لانتقام الوليد بعد موته .

والوليد في الواقع لم يكن من اهل الفضل ولا الكمال ولكنه كان ولياً للعهد ، وكانت بيعته مؤرخة معقودة في كل الامصار ، وطريقة البيعة عند خلفاء امية كانت مصيبة من اكبر المصائب ، ونكبة من اعظم النكبات التي حلّت بدولتهم واودت بها ، لان الخليفة منهم كان همه تولية ولده دون ما نظر الى صلاحه ومقدرته على الاضطلاع باعباء الملك .

وهذا الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان لا يتورع وهو ولي عهد عن المجون والاشربة ، وكان هشام ينكر ذلك ولا يطيقه ، ولو اراد الاصلاح حقاً لكان من الحق ان يخلعه ويختار غيره على ان يكون افضل واكمل ، فاما ان يختار ولده ، وهو مثل الوليد شراباً وجهلاً ، فهذا كان من الفساد الاشد والانكى.

وقد عيّر الوليد نفسه هشاماً بابنه لما سأله هشام قائلا :

– ما ادري على الاسلام انت يا وليد ، ما تدع شيئاً من المنكر إلا اتيته غير متحاش... فكتب اليه الوليد يقول :

يا ايهـــا السائل عن ديننا نحن على دين ابي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجة بالسخن احياناً وبالفـــاتر

فغضب هشام على ابنه مسلمه ، وكان يكنى بابي شاكر ، وقال له :

– يعيّرني الوليد بك ، وانا ارشحك للخلافة .

والزمه الادب ، واحضره الجماعة ، وولاه موسم الحج سنة ١١٩ .

واشتد الجفاء على الاثر بين الوليد وهشام ، فخرج الوليـــد ومعه ناس من خاصته ومواليه فنزل بالازرق على ماء له بالاردن ، وخلف كاتبه عياض بن مسلم عند هشام ليكاتبه بما عندهم ، وقطع هشام عن الوليد ما كان يجري عليــه ، وكاتبه الوليد فلم يجبه الى رده ، وامره باخراج عبــد الصمد مؤدبه الذي كان هشام يتهمه بانه الذي افسد ولي العهد ، فاخرجه الوليد ، كما اخذ هشام عياض بن مسلم كاتب الوليد فضربه وحبسه ، فغضب الوليد لذلك وكتب الى هشام يعاتبه ، ويسأله ان يرد عليه كاتبه فلم يرده .

ولم يزل الوليد مقيماً في البرية حتى مات هشام ، فلما كان صبيحة اليـــوم الذي جاءته فيه الخلافة قال لاحد اصحابه :

– ما بت على ليلة اطول من هذه الليلة ، عرضت لي هموم ، وحـــدثت نفسي بامور هذا الرجل – يعني هشاماً – الذي اولع بالعبث بي فاركب بنـــا نتنفس .

فركبا وسارا ميلين ، ووقفا على كثيب فشاهدا رجلين على البريـــد ، يتقدمان نحوهما ، وبعد برهه عرفا فيهما مولى لابي محمد السفياني ، فلما قربا نزلا يعدوان ، حتى دنوا من الوليد ، فسلما عليه بالخلافة ، فوجم .. ثم قال :

ـ أمات هشام ؟

فقال احدهما : نعم ، والكتاب معنا من سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل .

فقرأ الوليد الكتاب ، ثم سأل مولى السفياني عن كاتبه عياض، فاخبره انه لم يزل محبوساً حتى مات هشام ، ولما عرف عياض ان هشام في حالة النزاع ارسل الى الخزان يقول :

ـ احتفظوا بما في ايديكم .

فافاق هشام فطلب شيئاً فمنعوه فقال :

ـ انا لله .. لقد كنا خزاناً للوليد .

ومات من ساعته ، وخرج عياض من السجن ، فختم ابواب الخزائن وانزل هشاماً من فرشه ، وما وجدوا له قمقماً يسخن له فيه الماء حتى استعاروه، ولا وجدوا كفناً من الخزائن فكفنه غالب مولاه ..

ولما عرف الوليد بموت هشام ، امر بحجز اموال هشام وولده ، وعياله وصحبته ، إلا سلمة بن هشام ، فانه كان يكلم والده ابداً بالرفق بالوليد، فحفظ له الوليد ذلك وتركه وشأنه .

وضيّق الوليد على اصحاب هشام واعوانه وانصاره ، وانتقم من كل من منعه وقطعه ايام محنته .

وتوفي هشام لست خلون من شهر ربيع الاخر سنة ١٢٥ وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة اشهر .

اعتداله :

ومما يذكر عنه انه لقيه في الحج سنة ١٠٦ سعيد بن عبدالله بن الوليد بن عثمان بن عفان وقال له : يا امير المؤمنين ان الله لم يزل ينعم على بيت امير

المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ، ولم يزالوا يلعنون في هذه المواطن الصالحة أبا تراب (علي بن ابي طالب) فأمير المؤمنين ينبغي له ان يلعنه في هذه المواطن الصالحة . فشق ذلك على هشام وثقل عليه كلامه ثم قال :

ـ ما قدمنا لشتم احد ولا للعنه ، قدمنا حجاجاً ... ثم قطع كلامه .

وذكروا ان هشاماً كان ينزل الرصافة من ارض قنسرين، وكان سبب نزوله اياها ان الخلفاء كانوا ينتبذون ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجاً عن الناس ، فلما اراد هشام ان ينزل الرصافة قيل له : لا تخرج فإن الخلفاء لا يطعنون ولم ير خليفة طعن . فقال : أتريدون ان تجربوا بي ! فنزل الرصافة وهي برية وابتنى بها قصرين . وكان لا يدخل بيت ما له مال حتى يشهد أربعون قدامه انه أخذ من حقه واعطى لكل ذى حق حقه . وهو من احزم بني امية ومن اعقلهم ...

الحالة العسكرية :

وغزا هشام الروم عدة غزوات موفقة ، وكان الاسطول يشترك مع الجيش البري في الغزو ، وذلك بقيادة ابنه معاوية وسليمان ، ولكن الحالة العسكرية بالاجمال لم تكن موفقة في عهده .

ذلك ان الموقف العسكري في المقاطعات الهندية المحتلة لم يكن قوياً ولا ثابتاً ، وبعض الامصار التي احتلها العرب خرجت من ايديهم ، واضطر المسلمون الى تأسيس بلدتين محصنتين ، المحفوظة ، والمنصورة ، للتحصن بهما وجعلها مركزاً للمقاومة .

وكذلك ضعفت همة الجنود العربية للحرب، بسبب الاختلافات الداخلية، ومقتل الابطال من القواد الواحد بعد الآخر .

وقد فشل المسلمون في اذربيجان ، ثم عادوا فانتصروا بقيادة مسلمة بن عبد الملك ، الذي مات سنة ٧٣٢ هجرية ، فقام مقامه في المحافظة على الحدود

العربية في تلك المنطقة مروان بن محمد الذي اصبح حاكماً على ارمينيا واذربيجان وجعل همه توطيد الامر فيها .

واما في اسيا الصغرى فقد انتصر المسلمون قليلاً وثبتوا مراكزهم في المراكز التي احتلوها قبلاً ، ولكنهم عادوا فتراجعوا سنة ٧٣٠ ميلادية .

واما في افريقية فان الحالة كانت حرجة لبعدها عن عاصمة الامبراطورية ووقوعها في الاطراف البعيدة للامبراطورية العربية ، ثار البربر على الحكومة القائمة بحجة انهم كانوا يسامون العذاب مع انهم من المسلمين ، وانضموا الى الخوارج ، ولعل الخوارج أثاروهم ، وقد وجدوا موطناً خصباً لدعاياتهم وثوراتهم بعد ان فلّ جمعهم ، وتمزق امرهم في الشرق ، ولم تستطع القوات الاسلامية في افريقية توطيد الامر ، ولا تهدئة الثورات .

واما في اسبانيا فان فشل الجيش العربي في معركة (تور) من ارض فرنسا – بلاد الغال – او بلاط الشهداء كما يسميها العرب كان بعيد الاثر ، وبسبب هذه المعركة خسر العرب تقريباً كل ما كانوا قد استولوا عليه من الارض الافرنسية ولم يحتفظوا بغير اسبانيا التي كانت حالتها لا تبعث ايضاً على الارتياح ..

الارمن والعرب :

وتقول المصادر الارمنية تصف العلاقات القائمة بين العرب والارمن ، انه لما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك غمر الدولة فساد عظيم بسبب ثورات الزيديين والموالي ، وفساد البلاط ، والعصبية القبلية لولا ان تداركها هشام بن عبدالملك فاصلح الحال ، وقطع الفساد ، واوقف تيار الانهيار ..

وكان لهشام بن عبد الملك علاقات طيبة مع الارمن لم يذكرها مؤرخو العرب والاجانب ، وانما ذكرها المؤرخ الارمني غيفونت في تاريخه فقال :

« ان هشاماً عيّن عمالاً صالحين على ارمينيا ، وانه اكرم (اشوط باكرادوني) بدمشق ، واجرى عليه راتباً سنوياً لمصارفات الجيش ، وتحالف الجيشان

العربي والارمني ضد العدو المشترك وهو الخزر » .

ويخبرنا المؤرخ الارمني غيفونت .. ان هشاماً في اول سنة من خلافته ٧٢٤م عين الحارث بن عمر الطائي عاملاً على ارمينيا فقام هذا باحصاء عـــام فيها ، وذلك بامر من هشام ليخضع جميع الارمن للضرائب المقررة حـتى يزيد مبلغ الوارد من الضرائب .. مدعياً ان سلفه عمر بن عبد العزيز انقص دخل بيت المال فأراد هشام زيادة الضرائب ليملأ ما انقصه عمر بن عبد العزيز .

وبعد ولاية الحارث بن عمر الطائي عين هشام بن عبد الملك الجراح بن عبد الله الحكمي ١١١ ه. ٧٢٩ م. عاملاً على ارمينيـــا . وكان الجراح مقيماً بمدينة مذحج من اعمـــال ارمينيا .. ثم نزل (بردعة) فرفع اليه اختلاف مكاييلها وموازينها فاقامها على العدل والوفاء واتخذ مكيـــالاً يدعى الجراحي ، فصار الاهالي يتعاملون به الى ايام (البلاذري) في خلافة المتوكل وبعده .

وعبر الجراح ومن معه نهر (الكر) بأرمينيـــا ... وسار حتى قطع النهر المعروف بالسمور وسار الى الخزر .. فقتل منهم الكثيرين .. وقاتل اهل بلاد حمزين ثم صالحهم على انه نقلهم الى رستاق خيزان .. وجعل لهم قريتين منه .. واوقع باهل (غوميك) وسبى منهم .. ثم قفل عنهم فنزل مدينة (شكي) من ارمينيا وصرف جنده الشتاء ببردعة والبيلقان بارمينيا .. فجاشت الخزر ١١٢ه ٧٣٠م وعبرت نهر الرس بارمينيا فحاربهم الجراح في صحراء(ورثان)ثم جازوا الى ناحية(اردبيل)فحاربهم على اربعة فراسخ مما يلي ارمينيا،فاقتتلوا ثلاثة ايام واستشهد الجراح ومن معه فسمي ذلك النهر نهر الجراح [1] ..

---

(١) البلاذري ص ٢٠٦ غيفونت ص ١٠٠ - ١٠١ اليعقوبي طبعة ليدن ٢ ص ٣٧٥ ٣٧٦ الطبري طبعة مصر ١٣٣٦ ه ٨ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ابن‌الاثير مطبوعة ليدن ٥ ص ١١٨.

مسلمة بن عبد الملك والي ارمينيا :

ولما بلغ هشاماً مقتل الجراح ولى اخاه مسلمة بن عبدالملك عاملاً على ارمينيا ووجه على مقدمته سعيد بن عمرو بن اسود الحرشي ومعه اسحق بن مسلم العقيلي فحارب سعيد الحرشي الخزر وقد حاصروا «ورثان» بارمينيا فكشفهم عنها وهزمهم .. فأقاموا في(ميمذ)من اعمال اذربيجان .. فلما تهيأ لقتالهم أتاه كتـــاب مسلمة بن عبدالملك يلومه على قتاله الخزر قبل قدومه .. ويعلمه انه قد ولى امر عسكره عبد الملك بن مسلم العقيلي .. فلما سلم العسكر لعبد الملك بن مسلم العقيلي اخذه رسول مسلمة فقيده وحمله الى (بردعة) فحبس في سجنها وانصرف الخزر فاتبعهم مسلمة ،وكتب بذلك الى هشام فرد هشام على كتابه ، وأمره باخراج الحرشي من السجن ..

وقد صالح مسلمة اهل (خيزان) وامر بتحصينها .. واتخذ لنفسه بها ضياعاً وهي التي تعرف بحور خيزان ، وساله ملوك الجبال فسار اليه (شروانشاه) و(ليرانشاه) و (طبرسرانشاه) و(فيلانشاه) و (جرشانشاه) كاسار اليه صاحب مسقط .. وحـاصر مدينة الباب ففتحها وكان في قلعتها الف بيت من الخزر فحاصرهم ورماهم بالحجارة وبالحديد اتخذه على هيئة الحجارة فلم ينتفع بذلك ، فعمد الى العين التي كان.(انو شروان) اجرى منها الماء الى صهريجهم فذبح البقر والقى بها في الماء فلم يمكث ماؤهم إلا ليلة حتى دوّد وأنتن .. فلما جنّ عليهم الليل هربوا وأخلوا القلعة وأسكن مسلمة مدينةالباب والابواب اربعة وعشرين الفاً من اهل الشام على العطاء .. فصار اهل البـــاب لا يدعون عاملاً يدخل مدينتهم إلا ومعه مال يفرقه بينهم ..وبني اهراء للطعام ومثلها للشعير وخزانة للسلاح .. وامر بكبس الصهريج ورمّ المدينة وشرفها .. وكان مروان بن محمد مع مسلمة فحارب معه الخزر فأبلى وقاتل قتالاً شديداً [١] .

---

(١) البلاذري ص ٢٠٦ - ٢٠٧ --اليعقوبي ٢ ص ٣٨١ - ٣٨٢ .--غيفونت ص ١٠١ - ١٠٣ .

ويقول المؤرخ غيغونت الارمني بأنه لما هجم سعيد الحرشي على الخزر ، فكّ الحصار عن قلعة امبريوديك (بجوار اردبيل)،وهزمهم اشنع هزيمة واخذ منهم علمهم الذي كان صورة من نحاس فحفظته فرقة الحرشي تذكاراً لانتصارها[1].

وفي السنة الخامسة لخلافته عين هشام،مروان بن محمد عاملا على ارمينيا بدل اخيه مسلمة،ولما وصل مروان بن محمد مدينة دوين (ديبل) .. قدم عليه زعماء الارمن فكلمهم كلاماً طيباً باسم الخليفة هشام ... وعين (اشوط باكرادوني) (نجل فاساك باكرادوني) بطريقاً على ارمينيا واكرمه وشرّفه ..

ولكن الزعيمين الارمنيين (كريكور) و (داود ماميكونيان) اللذين كانا ينتميان الى اسرة ماميكونيان الكبيرة المنافسة لأسرة باكرادوني ، لما رأيا الشرف الذي حصل عليه (اشوط باكرادوني) وتفاهمه مع العرب ، حسداه عليه وعصيا ، فوصل خبر عصيانهما الى مسامع مروان فأمر باعتقالهما وأوثقهما بالسلاسل وارسلهما الى هشام حيث حكم عليهما بالسجن المؤبد ووضعهما في سجن اليمن[2] ...

وبعد ان استقر (اشوط باكرادوني) في امارته على ارمينيا كبطريق عليها سافر الى دمشق وربما الى الرصافة لأمور تتعلق بارمينيا ، وكان هشام قد اوقف دفع الرواتب للوزراء الارمن ولفرسانهم منذ ثلاث سنوات . فاستقبل هشام اشوط استقبالاً طيباً وابدى اشوط خضوعه واخلاصه لهشام فخلع عليه الخليفة خلعاً ثمينة،ودفع له رواتب ثلاث سنوات عن كل سنة مئة الف درهم ثم صار يدفع له هذا المبلغ كل سنة بدون انقطاع .[3]

---

(١) غيغونت ص ١٠١ .

(٢) غيغونت ص ١١٢ - ١١٣ .

(٣) غيغونت ص ١١٣

الجيش الارمني يقاتل مع العرب ضد الخزر :

وفي سنة ٧٣٨ م قام مروان بن محمد قائد القوات العربية بارمينيا ومعه اشوط باكرادوني والجيش الارمني بشن غارات عنيفة على الخزر واحتلوا (بلنجر) وسحقوا الجيش الخزرجي ... فلما رأى الخزر بان الجيش العربي والارمني احتلا بلدهم ،رموا امتعتهم في بحر الخزر والقوا انفسهم في البحر حيث غرقوا وماتوا .

فرجع العرب والارمن منتصرين الى (بردعة) عاصمة اران ... من اعمال ارمينيا ، وأخذ مروان الغنائم والاسرى وبعث الخمس للخليفة هشام بن عبد الملك ، واخبره بالانتصار الذي احرزه الجيشان العربي والارمني على الخزر .

فاخذ مروان الباقي من الغنائم والاسرى ووزعه على العساكر وخلع خلعاً نفيسة على اشوط ووزرائه وفرسانه ومن بين الخلع غلمان وجواري خزر [1] ..

ولقد عاش الارمن خلال خلافة هشام وامارة مروان بن محمد عيشة هنية سعيدة وازدهرت الصناعة والتجارة في ارمينيا ... وانقذ مروان الارمن من غزوات الخزر الذين كانوا قد اصبحوا عدواً يهدد العرب والارمن على السواء، كما عاقب اللصوص والمشاغبين واصحاب الدسائس فقطع ايديهم وارجلهم وصلبهم ..

رصافة هشام بن عبد الملك :

ورد ذكر الرصافة في النصوص الاشورية ، وفي سفر الملوك الرابع من العهد القديم ،وقد جاء اسمها فيه بصيغة « راصف » . وفيها ان ملك اشور بعث رسلا الى عدوه حزقيا ملك يهوذا يهددونه قائلين : « ... فانك قد سمعت كل ما صنع ملوك اشور بجميع البلدان وكيف دمروها ...افأنت تنجو ؟

(١) غيغونت ص ١١٣ - ١١٤

« ألعل الامم التي اهلكها آبائي انقذتها آلهتها كجوزان ، وحاران ، وراصف ، وابناء عادان الذي في تلأسار ؟ » .

ثم تحول اسمها من راصف الى (راسابه) ، فالى الرصافة او الرصافا . وقد دعيت ، بعد القرن الرابع ، (سرجيوبوليس) اي مدينة سرج او سرجيس نسبة الى القديس سرجيس الذي قتل فيها نحو سنة ٣٠٥، على عهد ديوقلتيانوس ودفن هناك . فأقيم دير على قبره ، وقد فصّل المؤرخون سيرة حياته . ومن اقدم ما ورد في ذلك اقوال السريان ، واقدم هؤلاء يعقوب السروجي ،اسقف سروج المتوفي سنة ٥٢١ ميلادية .

وفي سيرة للقديس الشهيد محفوظة نسختها الراقية الى القرن الثاني عشر في لندن ، « ان الدوق انطيوخس غادر قرية بالس مستصحباً سرجيس الى قرية شورا، حيث حاكمه وعذبه ، ثم طرده الى قرية (مجدل الماء) البعيدة ستة اميال عن شورا ، ومن شورا مضوا به الى الرصافا وهي تبعد عن المجدل تسعة اميال ايضاً . وهناك امر بقطع رأسه بحضور جمهور من المسيحيين . وحاول اهل شورا ان يسرقوا جثمانه فقاومهم الرصافيون . ثم اجتمع خمسة عشر اسقفاً واحتفلوا بتدشين كنيسة في الرصافا وضعوا فيها الجثمان . » (١)

وقد كان للغساسنة ، وللتغلبيين خاصة ،فضل في نشر تكريم القديس وفي دفع القبائل الى زيارة ضريحه حتى اصبحت كنيسة (مار سرجيس) في الرصافة من اشهر المزارات . . . ومن الدلائل على هذا ان قانون الايمان الذي ارسله اساقفة بلاد العرب الى يعقوب البرادعي يحمل تواقيع خمسة عشر منهم يدعون باسم « سرجيوس » ، بل ان احدهم يدعى سرجون (٢)

---

(١) سفر الملوك الرابع ١٩ : ١١ -- ١٢ . واخبار الشهداء القديسين (طبع بيجان) .

(٢) اطلب في ذلك اعمال مؤتمر المستشرقين الحادي عشر : القسم الرابع ، الصفحة ١١٧ .

وهي صيغة سريانية اضيف فيها الى سرج ـ وهذه سريانية الاصل معناها النور ، الضوء ، او السراج ـ علامة التصغير وهي «أون» . فكأننا قلنا سرج الصغير او سرج الاصغر [١]

وتذكر الوثيقة نفسها عدة اديرة تحمل اسم مار سرجيس . ومن ذلك ان المنذر الغساني بعد ان ثار مدة على بيزنطيـة لم يشأ توقيع الصلح ، إلا بالقرب من ضريح القديس المذكور .

ولما ملك النعمان بن الحرث بن الايهم ، وهو من الغساسنة ، اصلح صهاريج الرصافة ، وصنع صهريجها الاعظم ، في قول ياقوت [٢] . وقد ظل النصارى من العرب يكرمون سرجيس مدى القرون العديدة . وهذا الاخطل يشيد بذكره ويصرح بانه شفيع قومه التغلبيين ، وبانهم يحملون رايته الى جنب الصليب في حروبهم حتى في تلك التي نصروا فيها الامويين على اعدائهم. فيقول الشاعر :

لما رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وسماً ناقعا
وابصروا راياتنـا لوامعا خلوا لنا (راذان) والمزارعا

فيرد عليه جرير ، ولا تقل شهادته عن شهادة الاخطل ، في تأييد اتخاذ التغلبيين مار سرجيس شفيعاً لهم :

أفبالصليب ومار سرجيس تتقي شهباء ذات مناكب جمهورا

ويقول ايضاً عن التغلبيين :

يستنصرون بمار سرجيس وابنه بعد الصليب، وما لهم من ناصر !

(١) وقد اشتهر في دمشق ، في اواخر القرن السادس والقرن السابع ، ال « سرجون » وقد نبغ منهم خاصة منصور بن سرجون مدير المالية على عهد معاوية . ومن سلالته ظهر القديس يوحنا الدمشقي ..

(٢) معجم البلدان ٢ : ٧٨٣ .

ذاك ان التغلبيين خاصة ، وسكان الرصافة عـامة ، ظلوا على نصرانيتهم بعد الاسلام ، كما يشهد بذلك مؤرخو العرب المسلمون ، ومؤرخو السريان النصارى ،وكما تدل عليه الاطلال الباقية الى اليوم . وقد كتب (موسى بر كيفا) اسقف الموصل المتوفي سنة ٩٠٣ : «لما بلغوا بسرجيس الى الحصن امر الحـاكم بقطع رأسه . والى اليوم (اي الى عهد الكاتب من القرن التاسع) يكرم دير الرصافة رفات القديس» [١] . ونقل ياقوت عن ابن بطلان في رحلته سنة ٤٤٠ للهجرة (١٠٤٨ م) وصف كنيسة مار سرجيس في الرصافة وزاد ان سكانها « بادية اكثرهم نصارى » [٢] .

وقد اولى اباطرة البيزنطيين الرصافة عناية وافرة منذ اواسط القرن الرابع. وقد زادت مظاهر عنـايتهم عصراً بعد عصر بازدياد الاقبال على مزار مار سرجيس . حتى رقي العرش الامبراطور انسطاس (٤٩١ – ٥١٨) فأقـام فيها الكنيسة الكبرى ، ولعـله هو الذي شيّد اسوارها الضخمة وبنى فيها تلك الصهاريج العميقة ووضع فيها حامية قوية . إلا انه غيّر اسمها فدعـاها باسمه انسطاسيوبوليس .

وفي القرن الخامس هجم عليها كسرى الاول في طريقه الى سورية الشمالية فأخرب قسما منها ولكنه لم يتمكن من الوصول الى بيت المال . وقد رمم ما خرب منها الامبراطور موريقي نحو سنة ٥٩٦ . على ان كسرى الثاني نال ما لم ينله جده فدخلها سنة ٦٢٦ ، ناهباً مدمراً.

وعلى هذه الحالة وجدها العرب على الارجح ،فلم يهتموا بها إلاعهد هشام بن عبد الملك (٧٢٤ – ٧٤٣) فلما وقع الطاعون في دمشق ونواحيها توجه الخليفة الى الرصافة فرمّم اسوارها ، واصلح صهاريجها واقام فيها مدة ،فدعاها العرب

---

(١) اخبار الشهداء القديسين ٣ : ٢٨٣ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٧٨٥ .

«رصافة هشام». وقد ازدهرت على عهده ازدهاراً عجيباً فكثر عدد سكانها ، وراجت اسواقها ، واخذ الناس يقصدونها من انحـاء الشام والعراق بل من اطراف جزيرة العرب نفسها .

اما العباسيون فقد صرفوا عنها انظارهم ، شأنهم مع سائر المدن السورية ، فتضـــاءلت اهميتها حتى دخلها السلطان بيبرس (١٢٦٠–١٢٧٧) فأجلى عنها اهلها ووزعهم بين حماه وسلمية، فخربت وتعرضت لغزوات البدو ، وعوامل الطبيعة . فلم يبق منها إلا تلك الاطلال الفخمة التي لا تزال قائمة الى اليوم .

- ١٣ -

المعركة الفاصلة

معركة (تور) او (بواتييه) ٧٣٢ م

معركة حاسمة :

كانت معركة حاسمة في تاريخ العرب والاسلام ، بل في تاريخ الامم الغربية ومصيرها في وسط اوروبا ، ولو وفق العرب فيها لتبدل وجه التـــاريخ ، ولـكانت اوروبا غير ماهي عليه اليوم .

مضى على هذه المعركة التي يسميها الافرنج بموقعة (تور) او (بواتييه) ويدعوها العرب معركة الشهداء ، لكثرة ما سقط على اديمها من قتلى العرب ، مايزيد عن الف ومائتين من الاعوام ، وقد نشبت هذه المعركة بين العرب وجنود الفرنجة في سهول فرنسا ... وعلى ضفاف نهر اللوار في تشرين الاول من سنة ٧٣٢ م .

ولقد كان من النتائج البعيدة لهذه المعركة ان تغير وجه التاريخ كما قدمنـــا وان محيت اثار الاسلام من غرب اوروبا ومن الاندلس ، ومع ذلك فان حديث هذه المعركة ما يزال يبعث في نفوس العرب ذكرى ساحرة مؤلمـــة ، ساحرة

لان اجدادهم جربوا تخضيد اوروبا كما خضّدوا اسيا، ومؤلمة لانهم مع بطولتهم وثباتهم لم يوفقوا وارتدوا خاسرين .

وكما يذكر هذه المعركة الحاسمة عربي اليوم ، يذكرها كذلك ابن الغرب الاوروبي ، فقد اثار انقضاء الالف والمائتين من الاعوام على حدوثها -لسنوات خلت - ذكرى جديدة نظمت من اجلها الاحتفالات في فرنسا ، وكانت مثابة تأملات وتعلقيات جديدة ، تدور حول النتائج التاريخية ... التي كان من المؤكد ان تصبح امراً واقعاً لولم يرد العرب والاسلام في سهول تور، بل انه لو انتصر العرب ، لما كان ثمة اوروبا الحاضرة ...

ولكان الاسلام يسود اوروبا ، وكانت اوروبا الشمالية .. تموج اليوم بابناء الشعوب السامية ذوي العيون الدعج والشعور السود ، بدلا من ابناء الشعوب الآرية ذوي الشقرة والعيون الزرق .

ولقد عرضنا في فصل سابق لهذه الخطوب التي توالت على الاندلس بعد مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وكيف قطعت البلاد السنوات العديدة من الاضطراب والفوضى ، وكيف خبت ثورة الفتح ، وشغل الولاة بالشؤون والمنازعات الداخلية حتى عيّن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والياً على الاندلس في عهد هشام بن عبد الملك في صفر من سنة ١١٣ للهجرة ، اونيسان سنة ٧٧٣ م . (١)

ولسنا نعرف كثيراً عن سيرة الغافقى الاولى ، ولكنا نعرف انه من التابعين الذين دخلوا الى الاندلس ، ثم نراه بعد ذلك من زعماء اليمانية وكبار الجند ونراه في سنة ١٠٢ هـ ، على اثر موقعة (تولوشة) ومقتل السمح بن مالك يتولى قيادة الجيش وامارة الاندلس ... باختيار الزعماء والقادة مدى أشهر

---

(١) يختلف المؤرخون في تاريخ ولاية عبد الرحمن على الاندلس وما ذكرناه الارجح والاصح . - (مواقف حاسمة) -

ثم لا نسمع عنه شيئاً بعد ذلك، حتى يولى امارة الاندلس للمرة الثانية من قِبل الخليفة سنة ١٠٣ هـ ، على ان الذي لا ريب فيه هو ان عبدالرحمن الغافقي كان جندياً عظيما ظهرت مواهبه الحربية في غزوات غاليا ، وحاكماً قديراً ، بارعاً في شئون الحكم والادارة ، ومصلحاً مستنيراً يضطرم رغبة في الاصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الاندلس واقدرهم جميعاً ، وتجمع الرواية الاسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله ، والاشادة بعدله وحلمه وتقواه ، فرحبت الاندلس قاطبة بتعيينه ، وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيبته كلمة القبائل ، فتراضت مضر واليمن ، وساد الوئام نوعاً في الادارة والجيش ، واستقبلت الاندلس عهداً جديداً .

وبدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الاقاليم المختلفة فنظم شؤونها وعهد بادارتها الى ذوي الكفاءة والعدل ، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، ورد الى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة ، وعدّل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضى صدر ولايته في اصلاح الادارة وتدارك ما سرى اليها في عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل ، وعني باصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وانشأ فرقاً جديدة مختارة من فرسان البربر باشراف نخبة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية وتأهب لاخماد كل نزعة الى الخروج والثورة .

وكانت الثورة توشك ان تنقض في الواقع في الشمال ، وبطلها في تلك المرة زعيم مسلم هو (عثمان بن ابي نسعة الخثعمي) حاكم الولايات الشمالية . وكان ابن ابي نسعة من زعماء البربر الذين دخلوا الاندلس عند الفتح مع طارق . وقد عين والياً للاندلس قبل ذلك بثلاثة اعوام ولم يطل امد ولايته ، ثم عين حاكماً لولاية البرنيه وسبتمانيا. وقد كان الخلاف يضطرم منذالفتح بين العرب والبربر ، وكان البربر يحقدون على العرب إذ يرون انهم قاموا بمعظم أعباء الفتح واستأثر

العرب دونهم بالمغانم الكبيرة ومناصب الرياسة . وكان ابن ابي نسعة كثير الاطماع شديد التعصب لبني جنسه ، وكان يؤمل ان يعود الى ولاية الاندلس، ولكن عبد الرحمن فاز بها دونه فزاد ذلك في حقده وسخطه ، واخذ يترقب الفرص للخروج والثورة .

ويقول الاستاذ عبدالله عنان :

« وكان اثناء غاراته أو رحلاته في (اكوتين) قد اتصل بأميرها الدوق « أودو » وتفاهم معه ، وكان الدوق مذ رأى خطر الفتح الاسلامي يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين ، وقد فاوضهم فعلاً ، فانتهز (كارل مارتل) محافظ القصر وزعيم الفرنج هذه الفرصة لاعلان الحرب على الدوق ، وكان يخشي نفوذه واستقلاله ، وغزا اكوتين مرتين وهزم الدوق فكان (أودو) في الواقع بين نارين .. يخشى الفرنج من الشمال والعرب من الجنوب .

وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث في ارضه (سنة ٧٣١ م) في نفس الوقت الذي سعى فيه (عثمان بن ابي نسعة) لمحالفته والاستعانة به على تنفيذ مشروعه في الخروج على حكومة الاندلس والاستقلال بحكم الولايات الشمالية ، فرحب الدوق بهذا التحالف وقدم ابنته الحسناء (لاميجيا)عروساً لعثمان ..

وفي بعض الروايات ان ابن ابي نسعه اسر ابنة الدوق في بعض غاراته على اكوتين ثم هام بها حباً وتزوج منها . وعلى اي حال فقد وثقت المصاهرة عرى التحالف بين الدوق والزعيم المسلم ، ورأى ابن ابي نسعة كتماناً لمشروعه ان يسبغ على هذا الاتفاق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج ، ولكن عبد الرحمن ارتاب في امر الشائر ونياته ، وأبى اقرار الهدنة التي عقدها ، وارسل الى الشمال جيشاً بقيادة ابن زيان للتحقق والتحوط لسلامة الولايات الشمالية ، ففر ابن ابي نسعة من مقامه بمدينة الباب الواقعة على(البيرينيه) الى شعب الجبال

الداخلية ، فطارده ابن زيان من صخرة الى صخرة، حتى أُخذ وقتل مدافعاً عن نفسه ، وأسرت زوجة (لاميجيـــــا) وارسلت الى بلاط دمشق حيث زوجت هناك من امير مسلم . ولما رأى «اودو» ما حلّ بحليفه واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته ، واخذ الفرنج والقوط في الولايات الشمالية يتحركون لمواجهة المواقع الاسلامية ، وكان عبد الرحمن يتوق الى الانتقام لمقتل (السمح) وهزيمة المسلمين عند اسوار تولوشة ، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتيـــاح مملكة الفرنج كلها ، فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية لم ير بداً من السير الى الشمال قبل ان يستكمل كل أهبته .. على انه استطاع ان يجمع اعظم جيش سيّره المسلمون الى «غاليا» — فرنسا الحاضرة — منذ الفتح ..

استعدادات عبد الرحمن :

وفي أوائل سنة ٧٣٢ م «أوائل سنة ١١٤ هـ.» سار عبد الرحمن الى الشمال مخترقاً أراغون « الثغر الاعـلى » ، ونافـــار ... ودخل فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢ م وزحف تواً على مدينة «آرل» ، الواقعة على نهر الرون لتخلفها عن أداء الجزية واستولى عليها بعد معركة عنيفة نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق اودو ، ثم زحف غرباً وعبر نهرالجارون وانقض المسلمون كالسيل على ولاية أكوتين يثخنون في مدنها وضيـــاعها ، فحاول « أودو » ان يقف زحفهم ، والتقى الفريقان على ضفاف الدوردون فهزم الدوق هزيمة فادحة ، ومزق جيشه شر ممزق ، وطارد عبد الرحمن الدوق حتى عـاصمته بوردو «بردال» واستولى عليها بعد حصار قصير ، وفرّ الدوق في نفر من صحبه الى الشمال ، وسقطت أكوتين كلها في يد المسلمين ..

ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرة اخرى ، واخترق الجيش الاسلامي برغونيا واستولى على ليون وبيزانصون ، ووصلت سرياته حتى « صانص » التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط ، وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى

ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقه ثم يقصد عاصمة الفرنج . وتمّ هذا السير الباهر ، وافتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب ، في بضعة اشهر فقط ..

قال ادوار غيبون: «وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق الى ضفاف اللوار ، وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب الى حدود بولونياوهضاب ايكوسيا ، فليس الرين بامنع من النيل والفرات،ولعل اسطولاً عربياً كان يصل الى مصب نهر التيمس دون معركة بحرية ،بل ربما كانت احكام القرآن تدرس الآن في معاهد اكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة » ..

وكان اللقاء الحاسم بين الاسلام والنصرانية ، او الشرق والغرب ، على وشك الوقوع ، وكان اجتياح الاسلام للعالم القديم سريعاً مدهشاً ، فانه لم يمض على وفاة النبي العربي نصف قرن ، حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة ، واستولوا على معظم اقطار الدولة الرومانية الشرقية من الشام الى اقاصي المغرب ، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، وامتدت شمالاً حتى قلب الاناضول ، وكانت سياسة الفتح الاسلامي مذ توطدت دولة الاسلام ترمي الى غاية ابعد من ضمّ الاقطار وبسطة السلطان والملك . فقد كان الاسلام يواجه في الاقطار التي افتتحها من العالم القديم ، انظمة راسخة مدنية واجتماعية ، تقوم على أصول وثنية وغيرها ، وكانت النصرانية قد سادت اقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع ، فكان على الخلافة ان تحل محلها ، وان تقيم فوق انقاضها في الامم المفتوحة نظماً حديثة ، تستمد روحها من الاسلام سواء بنشر الاسلام بين الشعوب المفتوحة ، او باخضاعها من الوجهة المدنية والاجتماعية لنفوذ الاسلام وسلطانه ..

وكان هذا الصراع بين الاسلام والنصرانية قصير الامد في الشام ومصر

وافريقية ، فلم يمض نصف قرن حتى غيّر الاسلام هذه الامم بسيادته ونفوذه، وقامت فيها مجتمعات اسلامية قوية شاملة ، وغاضت الانظمة والاديان القديمة، ثم دفعت الخلافة فتوحها الى اقصى الاناضول من المشرق وجازت الى اسبانيا من المغرب . فاما في المشرق فقد حـــاول الاسلام ان ينفذ الى الغرب من طريق القسطنطينية ، وبعثت الخلافة جيوشها واساطيلها الزاخرة الى عـاصمة الدولة الشرقية مرتين : الاولى في عهد معاوية بن ابي سفيان سنة ٤٨ هـ. (٦٦٨ م.) والثـانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ. (٧١٧ م.) وكانت قوى الخلافة في كل مرة تبدي في محاصرة القسطنطينية غاية الاصرار والعزم والجلد ، ولكنها فشلت في المرتين وارتدت عن اسوار العـــاصمة منهوكة خائرة .

وكذلك أخفق مشروع الخلافة في فتح الغرب من تلك الناحية، ولقي الاسلام هزيمته الحاسمة في المشرق امام اسورا بيزنطية، وقامت الدولة الشرقية في وجه الاسلام حصناً منيعاً . ولكن جيوش الاسلام جـــازت الى الغرب من طريق اسبانيا ، وأشرفت من هضاب البيرينيه على باقي امم اوروبا ، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء لاستطاع موسى بن نصير ان ينفذ مشروعه في اختراق اوروبا من المشرق الى المغرب ، والوصول الى دار الخلافة بطريق القسطنطينية ، ولكان من المرجح ان يسود الاسلام امم الشمال كما ساد امم الجنوب ، ولكن الفكرة قبرت في مهدها لتوجس الخلافة وترددها .

على ان الفتوح التي قام بها ولاة الاندلس بعد ذلك في جنوب فرنسا كانت طوراً آخر من اطوار ذلك الصراع بين الاسلام واوروبا ، فقـد كانت مملكة الفرنج اعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ ، وكانت تقوم في الغرب بحماية اوروبا على نحو ما كانت الدولة الرومانية في الشرق ، بل كانت مهمتها في هذه الحماية اشق واصعب ، اذ بينما كان الاسلام يهدد اوروبا من الجنوب كانت القبائـــل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق ؛ وكانت الغزوات الاسلامية تقف في المبدأ عند سبتمانيا ومدنها ؛ ولكنها امتدت منذ ولاية (السمح) الى اكوتين

وضفاف الغارون ؛ ثم امتدت الى شمال الرون وولاية بورغونيا وشملت نصف فرنسا الجنوبي كله ، وبهذا بدأ الخطر الاسلامي على مصير الفرنجة قوياً ساطعاً وبدت طوالع الصراع الحاسم الذي يجب ان يتأهب لخوضه الفرنج جميعاً ..

كانت المعركة في سهول فرنسا اذن بين العرب الذين اجتاحوا املاك الدولة الرومانية في المشرق والجنوب ؛ وبين الفرنج الذين حلوا في المانيا وغاليا . والفزنج هم جماعة من اولئك البربر الذين غزوا رومة ، وتقاسموا تراثها من فاندال وقوط وآلان وشوابيين . فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج في سهول فرنسا اكثر من نزاع محلي على غزو مدينة أو ولاية بعينها ، كان هذا في الواقع ابعد ما يكون مدى واثراً . إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع ؛ الذي فاز العرب منه باكبر نصيب ، ثم ارادوا ان ينتزعوا ما بقي منه بايدي منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال ...

وكانت هذه السهول الشمالية التي قدّر لها ان تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية تضم مجتمعاً متنافراً لم تستقر بعد قواعده ونظمه على اسس متينة . ذلك ان القبائل الجرمانية التي عبرت الرين وقضت على سلطا ن رومة في الاراضي المفتوحة كانت مزيجاً مضطرباً من الغزاة الظمأى الى تراث رومه من الثروة والرفاه . وكان القوط قد اجتاحوا شمال ايطاليا منذ القرن الخامس وحلوا في جنوب بلاد الغال وأسبانيا ؛ ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار ، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا وانتزعوا نصفها الشمالي من يد حاكمه الروماني المستقل بامره ، وانتزعوا نصفها الجنوبي من القوط وحلت في بلاد الغال سلطة جديدة ومجتمع جديد .

وكان الغزاة في كل مرة ... يقيمون ملكهم على القوة وحدها ، ويقتسمون السلطة في نوع من الاقطاع ، فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم في القطر المفتوح عدة امارات محلية . ولم يعن الغزاة باقامة مجتمع متماسك ذي نظم سياسية واجتماعية ثابتة ، ولم يعنوا بالاخص ان يندمجوا برعاياهم الجدد ،

فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين الذين لبثوا قروناً يخضعون لسلطان رومه ما تزال تسود فيهم لغه رومه وحضارتها ؛ ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة، وتكوّن وحدها مجتمعاً منعزلاً لبثت تسوده الخشونة والبداوة احقاباً قبل ان يتأثر بمدنية رومه وتراثها الفكري والاجتماعي . وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عصر (كلوفيس) اكبر عامل في تطور هذه القبائل ، وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية . ثم كان استقرارها بعد حين في الارض المفتوحة ؛ وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعماء والثراء بعد طول المغامرة والتجول وشظف العيش، وحرصها على حياة الدعة والرخاء ، عوامل قوية في انحلال عصبيتها الحيوية وفتور شغفها بالغزو، واذكاء رغبتها في الاستعمار والبقاء . وهكذا كانت القبائل الجرمانية التي عبرت الرين تحت لواء الفرنج ، واستقرت في غاليا قد تطورت في اوائل القرن الثامن الى مجتمع مستقر متماسك نوعاً . ولم تكن بلاد الغال قد استحالة عندئذ الى فرنسا ، ولكن جذور فرنسا المستقبلة كانت قد وضعت وهيأت الاسباب والعوامل لنشوء الامة الفرنسية ... بيد ان هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك كان وقت ان نفذ العرب الى فرنسا فريسة الانحلال والتفكك ، وكان الخلاف يمزقه كما بينا ، وكانت « اكوتين » وباقي فرنسا الجنوبية في يد جماعة من الامراء والزعماء المحليين الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية فاستقلوا بما في ايديهم من الاقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية فيما وراء الرين من جهة اخرى تحاول اقتحام النهر من آن لآخر وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ، ويقتحمون النهر بين آونة واخرى لدرء هذا الخطر وارغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية ايضاً عاملا قوياً في هذا النضال الذي يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها ..

كذلك كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجي في اوائل القرن الثامن اعني حينما نفذ تيار الفتح الاسلامي من اسبانيا الى جنوب فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبي العربي الى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الاسلام والغرب « سنة ٧٣٢ م » مائة عام فقط ، ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن قد اقتحموا جميع الامم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، واكتسحوا العالم القديم في وابل مدهش من الظفر الباهر ، واستولوا على جميع اقطار الدولة الرومانية الجنوبية من الشام الى اقاصي المغرب واسبانيا ، وعبروا البرنيه الى اواسط فرنسا . هذا بينما انفقت القبائل الجرمانية الشمالية اكثر من ثـــلاثة قرون في افتتاح اقطار الدولة الشمالية ومحاولة الاستقرار فيها ..

الخطر الداهم :

وكان مجتمع القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ما يزال اذا استثنينا مملكة الفرنج على حالته من البداوة والتجوال والتفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية في هذا الصراع الذي نشب في سهـــول فرنسا وآذن طوره الحاسم بعبور المسلمين الى فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢ ..

وكان سيل الفتح الاسلامي ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاماً اعني مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيـــادة موسى بن نصـير لاول مرة واستولى على سبتمانيا ثم اقتحموا بعد ذلك وادي الرون واكوتين اكثر مــن مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية ، وتقتتـــل حول السلطان والرياسة ، حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وانفق اعواماً اخرى في توطيد سلطانه ، بينما كان خصمه ومنافسه (أودو) أمير اكوتين يتلقى وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الاسلامي وانساب نحو الشمال حتى بورغونيا منذ ولاية « الهيثم) .. فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية في اوستراسيا ونوستريا لتذود عن سلطانها وكيانها .

وكان الخطر داهماً حقيقياً في تلك المرة لان المسلمين عبروا البيرينيه عندئذ في اكبر جيش حشدوه، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح ، وكان على رأس الجيش الاسلامي قائد وافر الهمة والشجاعة والبراعة هو عبد الرحمن الغــــافقي وهو اعظم جندي مسلم عبر البيرينيه .

وكان قد اظهر براعته في القيادة منذ موقعة «تولوشة»، حيث استطاع انقاذ الجيش الاسلامي من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح والارتداد الى سبتمانيا . وتبــالغ الرواية الفرنجية في تقدير جيش عبد الرحمن وأهبته فتقدره باربعمائة الف مقاتل ، غير جموع حــاشدة اخرى ، صحبها لاستعمار الارض المفتوحة ، وهو قول ظاهر المبالغة ، وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين او ثمانين الف مقاتل ، وهو أقرب الى الحقيقة والمعقول . بل لقد أثارت هذه الغزوة الاسلامية الشهيرة وهذا الجيش الضخم خيال الشاعر الاوروبي الحديث ، فنرى الشاعر الانكليزي «سوزي» يقول في منظومته عن رودريك اخر ملوك القوط:

« جمــع لا يحصى ، من شام وبربر وعرب وروم خوارج ، وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة ، يجمعها ايمان هائم راسخ الفتوة . وحمية مضطرمة وأخوّة مروعة . ولم يك الزعماء أقل ثقة بالنصر . وقد شمخوا بطول ظفر ، يهيمون بتلك القوة الجارفة ، التي أيقنوا انها كما اندفعت ، حيثما كانوا بلا منـــازع ، ستندفع ظافرة الى الامام حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق يطأطيء الرأس اجلالا لاسم محمد ، وينهض الحاج من اقاصي المتجمد ليطأ بأقدام الايمان الرمال المحرقة ، المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضي مكة الصلدة » .

ونفذ عبد الرحمن في جيشه الزاخر الى فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢م «اوائل سنة ١١٤ هـ.» واقتحم وادي الرون وولاية اكوتـــين ، وشتت قوى الدوق أودو ، واشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف اللوار . .

وكان ملك الفرنج يومئذ تيودريك الرابع . ولكن مـلوك الفرنج كانوا في

ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط . وكان محافظ القصر « كارل مارتل » هو الملك الحقيقي يستأثر بكل سلطة حقيقية ، وعليه يقع عبء الدفـــاع عن ملكه وأمته ، وكان منذ استفحل خطر الفتح الاسلامي يتخذ أهبته ويحشد قواه ، ولكن عبد الرحمن نفذ الى قلب فرنسا قبل ان يتحرك للقائه .

وكان عبد الرحمن قد اقتحم أكوتين وجنوب فرنسا كله حين تأهب كارل مارتل للمسير الى لقائه . وجاء الدوق «أودو» بعد ضياع ملكه وتمزق قواته يطلب الغوث والنجدة من خصمه القديم كارل مارتل ، وكان كارل قد حشد جيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمـــانية المتوحشة والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، وجله جند غير نظامي يتسحون بجلود الذئاب وتتسدل شعورهم الجعدة فوق اكتافهم العارية.

وسار زعيم الفرنجة في هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقات العرب في حمى الهضاب والربى حتى يفاجيء العدو في مراكزه قبل ان يستكمل الاهبـة لرده . وكان الجيش العربي قد اجتاح عندئذ جميع اراضي اكوتين التي تقابـل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة ، فغويان وبريغور وسانتونغ وبواتو. واشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية حيثما يلتقي بثلاثة من فروعـه هي « الكريز » « والفيين » « والكلين » . .

ومن الصعب ان نعين بالتحقيق مكان ذلـك اللقاء الحاسم في تاريخ الشرق والغرب . ولكن المتفق عليه انه هو السهل الواقع بين مدينتي بواتييـــه وتور حول نهري « كلين » « وفيين » فرعي اللوار على مقربة من مدينة تور ...

انتهى الجيش العربي في زحفه الى السهل الممتد بين مدينتي بواتييه وتور كما قدمنا ، واستولى العرب على بواتييه وساقوا ما فيها واحرقوا كنيستها الشهيرة. ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى واستولوا عليهـــا . وفي ذلك الحين كان جيش الفرنجة قد انتهى الى اللوار دون ان يشعر المسلمون

بقدمه ، وأخطأت الطلائع تقدير عدده وعدته . فلما اراد عبـــد الرحمن ان يقتحم اللوار لملاقاة العدو على ضفته اليمنى ، فاجأه كارل مارتل بمجموعـــه الجرارة ، والفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه في الكثرة ، فارتد من ضفاف النهر ثانية الى السهل الواقع بين تور وبواتييه. وعبر كارل مارتل اللوار غرب تور وعسكر بجيشه الى يسار الجيش العربي بأميال قليلة بين نهري كلين وفيين فرعي اللوار . .

فشل الجيش العربي :

وكان الجيش الاسلامي في حال تدعو الى القلق والتوجس . فان الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش ، والتي كانت تتوق الى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة . .

وكانوا في الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية اثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع ما وجدوه ، وأثقلوا بما لا يقدر وما لا يحصى من الذخائر والغنائم والسبي ، فكانت هذه الاثقـــال النفيسة تحدث الخلل في صفوفهم وتثير بينهم ضروب الخلاف . وقدّر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش واهبته وخشي مما تثيره في نفوس الجند من الحرص والانشغال وحاول عبثاً ان يحملهم على ترك شيء منها ، ولكنه لم يشدد في ذلك خيفة التمرد .

وكان المسلمون من جهة اخرى قد أنهكتهم غزوات اشهر متواصـــلة مذ دخلوا فرنسا ، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم في كثير من القواعد والمدن المفتوحة . ولكن عبدالرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة . . رغم ان خصمه كان يفوقه عدداً وعدة . .

وبدأ القتال في اليوم الثاني عشر او الثـالث عشر من شهر تشرين الاول سنة ٧٣٢ م (اواخر شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك جزئية مدى سبعة ايام او ثمانية احتفظ فيها كل بمراكزه . وفي اليوم التـاسع نشبت

بينهما معركة عامة فاقتتلا ... بشدة وتعادل حتى دخول الليل .

واستأنفا القتال في اليوم التالي ، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد حتى بدا الاعياء على الفرنج ولاح النصر في جانب العرب . ولكن حدث عندئذ ان افتتح الفرنج ثغرة الى معسكر الغنائم العربية ، وخشي عليه من السقوط في ايديهم ، او حدث كما تقول الرواية ، ان ارتفعت صيحة مجهول في المراكز الاسلامية بأن معسكر الغنائم يكاد يقع في ارض العدو . فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة الى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم ، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم . فدبّ الخلل في صفوف المسلمين ، وعبثاً حاول عبد الرحمن ان يعيد النظام ويهدىء روع الجند ، وبينما كان يتنقل امام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها ، اذ اصابه من جانب الاعداء سهم أودى بحياته ، فسقط قتيلاً من فوق جواده ، وعمّ الذعر والاضطراب الجيش الاسلامي ، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين وكثر القتل في صفوفهم ، ولكنهم صمدوا للعدو حتى جنّ الليل ، وافترق الجيشان ... وكان ذلك في اليوم الحادي والعشرين من تشرين الاول ٧٣٢ م (اوائل رمضان سنة ١١٤ هـ)

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الاسلامي ، واختلف الرأي وهاجت الخواطر وسرى التوجس والفزع . ورأى الزعماء ان كل امل في النصر قد غاض فقرروا الانسحاب على الاثر .. وفي الحال غادر المسلمون مراكزهم وارتدوا في جوف الليل ، وتحت جنح الظلام جنوباً ، صوب قواعدهم في سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومعظم اسلابهم غنيمة للعدو . وفي فجر الغد لاحظ كارل وحليفه (اودو) سكون المعسكرات العربية فتقدما منها بحذر ... فالفياها خاوية خالية الا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبحوهم ... وخشي كارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو ولم يجرؤ على مطاردته وآثر العودة بجيشه الى الشمال.

المصادر الاسلامية :

اما المؤرخون المسلمون فيمرون على حوادث هذه الموقعة ، الشهيرة إمـــا بالصمت او الاشارة الموجزة . ويجب ان نعلم مقدماً، ان موقعة (تور) تعرف في التاريخ الاسلامي بواقعة البلاط أو بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيهـا من اكابر المسلمين . وفي هذه التسمية ذاتها ، وفي تحفظ الرواية الاسلاميـة ، وفي لهجة العبارات القليلة التي ذكرت بها الموقعة ، ما يـدل على ان المؤرخين المسلمين يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الاسلام والغرب ، ويقدرون فداحة الخطب الذي نزل بالعرب في سهول تور . ونستطيع ان نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين في هذا المقام ... على انهم لم يروا ان يبسطوا القول في مصاب جلل نزل بالاسلام ولا ان يفيضوا في تفاصيله المؤلمة، فاكتفوا بالأشارة الموجزة اليه ، ولم يكن ثمة مجال للتعليق أيضاً ، ولا في التحدث عن نتائج خطب لا ريب انه كان ضربة للدولة العربية في الاندلس ، واذا استثنينا بعض الروايات الاندلسية التي كتبت عن الموقعة في عصر متأخر ، والتي نقلناها فيما يـلي فان المؤرخين المسلمين يتفقون جميعاً في هذا الصمت والتحفظ . وهذه طائفة مـن اقوالهم واشاراتهم الموجزة :

قال ابن عبد الحكم وهو من اقدم رواة الفتوح الاسلامية واقرب مـــن كتب عن فتوح الاندلس ما يأتي :

« وكان عبيدة (يريد والي افريقية) قد ولى عبد الرحمن بن عبـــد الله العكي على الاندلس ، وكان رجلاً صالحاً فغزا عبد الرحمن الفرنجه وهم اقاصي عدو في الاندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم.. ثم خرج اليهم غازياً فاستشهد وعامة اصحابه ، وكان قتله فيما حدثنـــا يحيى عن الليث في سنة خمسة عشر ومائـة .. » وعبد الرحمن هذا هو عبد الرحمن الغافقي .

ولم يذكر الواقدي والبـلاذري والطبري وهم ايضاً من اقدم رواة الفتوح

شيئاً عن الموقعة وقـــال ابن الاثير في حوادث سنة ثلاثه عشر ومائة مردداً رواية ابن عبد الحكم :

« ثم ان عبيدة استعمل على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله فغزا الفرنجه وتوغل في ارضهم وغنم غنائم كثيرة ، ثم خرج غازياً ببلاد الفرنج في هذهالسنة (اعني ١١٣ هـ) وقتل سنة اربع عشرة ومائة وهو الصحيح ، قتل هو ومن معه شهداء » . .

ونقل (الضبي) في ترجمة عبد الرحمن ما ذكره ابن عبد الحكم عن الموقعة.

وقال ابن عذارى المراكشى : « ثم ولى الاندلس عبد الرحمن بن عبـدالله الغافقي فغزا الروم واستشهد مع جمـاعة من عسكره سنة ١١٥ بموضع يعرف ببلاطالشهداء» ، وقال في موضع آخر « ثم ولى الاندلس عبد الرحمن هذا (اي الغافقي) ثانية وكان جلوسه لها في صفر سنة ١٢٢ ، فاقام والياً سنتين وسبعة أشهر وقيل ثمانية اشهر ، واستشهد في ارض العدو في رمضان سنة ١٢٤.

هذه الفقرات الموجزة التي تـكاد تتفق جميعـــاً في اللفظ والمعنى ... هي ما ارتضت الرواية الاسلامية ان تقدمه الينا في هذا المقام ، وان كان فيتحفظها ما ينم كما قدمنـــا عن تقديرها لرهبة الحـــادث وخطورته ، وبعد آثاره .واذا كان صمت الرواية الاسلامية تمليه فداحة الخطب الذي أصاب الاسلام في سهول (تور).. فان الرواية الغربية تفيض بالعكس في تفاصيلالموقعة افاضة واضحة ، وتشيد بظفر الغرب ونجاته من الخطرالاسلامي ، وترفع بطولة كارل مارتل الى السماكين .

اقوال الغربيين :

ويقول السير ادوارد كريزي :

« إن النصر العظيم الذي ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حداً

حاسماً لفتوح العرب في غرب اوروبا ، وأنقذ النصرانية من الاسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة وبذور الحضارة الحديثة ، وردّ التفوق القديم للامم الهندية الاوروبية على الأمم السامية » .

ويقول (فون شليخل) في كلامه عن الاسلام والامبراطورية العربية :

« ما كاد العرب يتمون فتح اسبانيا حتى تطلعوا الى فتح غاليا وبورغونيا ولكن النصر الساحق الذي غنمه بطل الفرنج (كارل مارتل) بين تور وبواتييه وضع لتقدمهم حداً ، وسقط قائدهم عبد الرحمن في الميدان مع زهرة جنده وبهذا أنقذ كارل مارتل بسيفه امم الغرب من قبضة العرب الفتاكة . »

ويقول رانكه : « ان فاتحة القرن الثامن من اهم عصور التاريخ ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ، فنهض ازاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيبة النظم الغربية المشرفة على الفناء بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم وقوة » .

ويقول زيلر : «كان هذا الانتصار بالأخص انتصاراً للفرنج والنصرانية ، وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه لا في غاليا وحدها ولكن في جرمانيا التي اشركها في نصره »

على ان هنالك فريقاً من مؤرخي الغرب لا يذهب الى هذا الحد في تقدير نتائج الموقعة وآثارها ، ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندي وميشليه فهما لا يعلقان كبير اهمية على ظفر كارل مارتل . ويقول جورج فنلي : (ان اثرة الكتاب الغالين قد عظّمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة غزو من عرب اسبانيا ، وصوّرته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوروبا من نير العرب الى شجاعة الفرنج ، في حين ان حجاباً ألقي على عبقرية ليون الثالث امبراطور (قسطنطينية) وعزمه ، مع انه نشأ جندياً يبحث وراء طالعه ولم يكد يجلس

على العرش حتى احبط خطط الفتح التي انفق الوليد وسليمان طويلاً في تدبيرها.

ونحن مع الفريق الاول نكبر شأن بلاط الشهداء ايما اكبار ، ونرى انها كانت اعظم لقـــاء حاسم بين الاسلام والغرب ، وبين الشرق والغرب ، ففي سهول تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره ...وتغيرت مصائر العـــالم القديم كله ، وارتد تيار الفتح الاسلامي امام الامم الشمالية كما ارتد قبــل ذلك باعوام امام اسوار قسطنطينية ، واخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافـة لغزو امم الغرب واخضاعهـــا لصولة الاسلام ، ولم تتـــح للاسلام المتحـد فرصة اخرى لينفذ الى قلب اوروبا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه يوم مسيره الى بلاط الشهداء . بعد ان أصيب بتفرق الكلمة ، وبينما شغلت اسبانيـا المسلمة بمنازعاتها الداخلية ... قامت فيما وراء البيرينيه امبراطورية فرنجيـة عظيمة موحدة الكلمة تهدد الاسلام في الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ [1] ..

بعد المعركة :

ولقد استتب الامر لبني امية في الاندلس بعد هذه المعركة ، وفي عهد هشام بن عبد الملك ، وخضعت لهم جميع البلاد تقريباً ، ما عدا الجهات الشمالية التي اعتصم بها فلول الاسبان الذين جرفهم الفتح الاسلامي ، وهي جبال (النافار) ومغاور (البيرينيه) و (ليونة) وقشتالة .

ولم تخضع هذه الولايات لحكومة الاندلس المركزية في يوم من الايام خضوعاً تاماً ، بل ظلت تناوشها بلا انقطاع ، فتغزو عصاباتها التخوم والارياف وتنزل بالسكان المسلمين أشد الاضرار ، مما كان يضطر ولاة الاندلس الى مطاردة هذه العصابات ومحاربتها ، حتى أعيا الحكام امرها فامسكوا عنها حينـاً ، فاشتد ساعدها ، واصبح خطرها لا يقتصر على الغارات والغزو ، بل تعداها الى بثّ الدعاية السرية بين النصارى سكان البلاد الاصليين ضد السكان المسلمين .

---

(١) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام .

ولكن دعايتهم هذه لم تتسرب الى جسم الدولة بالسرعة التي كانوا يرتقبونها ولم تظهر اثارها إلا بعد اجيال عديدة ، ولكن هذا لا يمنع المؤرخ من الاعتراف بأن هذه الدعـاية السرية، ووجود هذه الولايات المسيحية الغريبة الصغيرة على اطراف الدولة الاندلسية، كانا من الاسبـاب التي ساعدت على تقويض السلطان العربي في اوروبا .

فشل العرب في اوروبا :

والذي لا شك فيه انه لولا فشل العرب امام حصون القسطنطينية وارتدادهم امام قوات شارل مارتل البربرية في ارض فرنسا ، لتبدل وجه التاريخ ، ولما تأخرت الحضارة العالمية عن الظهور مئات السنوات ، فالعرب كانوا يحملون معهم في غزواتهم وتقدمهم الحضارة الجديدة التي اخذوا شعلتها من اليونان وغير اليونان ، والتي أشعلوها وأضـاؤوها من جديد ، وراحوا يحملونها معهم في حروبهم الى الامم والجماعات التي كانت في اوروبا لا تحسن القراءة والكتابة ، فضلاً عن البحث العلمي المنظم الذي كان العرب قد اخذوا منه بنصيب وفير ، وحظ كبير .

ولو نجح العرب في تقدمهم عبر فرنسا لما كان في التاريخ العالمي الحاضر ، هذه الفصول التي يسميها المؤرخون (العصور المظلمـة) ، وكان من المفروض والحالة هذه ان يتقدم عصر النهضة مئات السنوات ، وان تأخذ اوروبا بالوان من العلوم والمعارف لم تستطع الاخذ بها إلا في سنوات متأخرة من التـاريخ المعـاصر ..

ولو تقدم العرب في فرنسا وغير فرنسا ، لما قرأنا في التاريـخ الاوروبي اخبار هذه المذابح الدينية التي تضطرب لها النفس وترتجف القلوب من هولها وقسوتها ، يوم ثار الكاثوليك على البروتستنت في فرنسا، ويوم ذبح البروتستنت الكاثوليك الارلنديين في بلاد الانكليز ، ولا كنا نقرأ اليوم اخبار شهداء العلم

والمعرفة الذين قضى عليهم ديوان التفتيش في اسبانيا ، وامثاله من الدواوين التي شوهت وجه المدنية والانسان ، بل لما كانت اسبانيـا تنعم بهذا التأخر العجيب الذي شملها بعد نزوح العرب عنها ، والذي جعل منها دولة متواضعة من دول اوروبا بعد ان كانت في عهد العرب دولة تجلس في صدر الوجود .

لقد جعل المسلمون من اسبانيا حديقة نضرة ، ملأى بالجامعات والمدارس ، والمكاتب والمزارع ...

وكان الاسلام وما يزال مؤيداً للحضارة، وعاملاً من اكبر العوامل على نشر العلم والمعرفة وحرية الرأي ، وما جمعه المسلمون من علوم ومعارف واثار فنية رفيعة في اسبانيا صار احراقه وتدميره بعد خروجهم منهـا ، وامـا الذين خرجوا من اسبانيا او الذين استطاعوا الخروج فقد كانوا اقلية ضئيلة ، وامـا الاكثرية من الرجال والنساء والاطفال ، فقد ذهبوا ضحيـة السيف والنـار ، ومن بقي منهم صار استنصاره بعد اخراجه عن دينه .

- ١٣ -

فوضى واختلاف وتمزق

في البيت الاموي المالك

الوليد الثاني :

كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦ ، هجرية) من فتيان بني امية ، وظرفائهم وشجعانهم واجوادهم كا يقول (الفخري) ، وكان صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء ، وهو اول من حمل المغنين من البلدان اليه ، وجالسهم واظهر الشرب والملاهي والعزف ، كما يقول (المسعودي) ، وكان شاعراً محسناً في العتاب والغزل ، فمن شعره ما كتبه الى هشام وقد عزم على خلعه لما رآه في استهتاره وعكوفه على الخلاعة والمجون .

كفرت يداً من مُنعم لو شكرتها ... جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن [١]
رأيتك تبني جاحداً في قطيعتي ... ولو كنت ذا عزم لهدّمت ما تبني
اراك على الباقين تجني ضغينة ... فياويحهم ان مُتّ من شر ما تجني
كأني بهم يوماً واكثر قولهم ... الاليت انا حين ياليت لا يغني

(١) يريد والده يزيد بن عبد الملك الذي عهد لهشام بالخلافة من بعده .

وقد انفذ ما توعد به في شعره لما ولي الخلافة بعد هشام ، فانتقم من كل من يمت الى هشام بنسب او صداقة ، وعذب اناساً كثيرين حتى الموت ، وكان شأنه ان يدفعهم الى يوسف بن عمر امير العراق او غيره من الحكام فيعذبونهم حتى الموت .

واخذ الوليد سليان بن هشام بن عبد الملك فضربه مائة سوط ، وحلق رأسه ولحيته ، وغرّبه الى عمان من ارض الشام ، وحبس يزيد بن هشام ، وفرّق بين روح ابن الوليد وامرأته ، وحبس عدة من ولد الوليد وغيرهم .

وكان خالد بن عبد الملك القسري امير العراق السابق في عهد هشام سيداً من سادات اليمنيه ، فطلب اليه الوليد ان يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده ، فابى فغضب عليه الوليد ، وسلمه الى يوسف بن عمر امير العراق الذي دفع عنه خمسين الف الف درهم بحجة ان هذا المبلغ دخل عليه وهو في امارة العراق ، فعذبه يوسف (المضري) حتى مات ، فغضبت لذلك اليمنية ، وفسدت عليه قضاعة وهم واليمنية اكثر جند الشام . واشتد في الوقت نفسه على الوليد حقد بني امية وامرائهم ، واخذوا يشيعون عنه القبائح بين الناس ، ورموه بالكفر وكان اكثرهم فيه يزيد الوليد بن عبد الملك ، وكان الناس الى قوله اميل لانه كان يظهر النسك والتواضع .

واخيراً اتت اليمانية الى يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فارادوه على البيعة له ، وخلع الوليد ، فاستشار اخاه العباس فنهاه مخافة انقسام البيت المالك وخروج الملك من بني امية ، ولكن يزيداً لم ينثنه ، وبث دعاته سراً ، ولما اجتمع له الامر ، اقبل على دمشق ، وقد بايع له اكثر اهلها سراً ، وكان واليها عبد الملك بن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد عليها ، وجهز جيشاً لمقاتلة الوليد عليه العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، فذهب اليه وهو بالاغدف من ارض عمان ، فقاتله ، ولما احس الوليد بالغلبة ، دخل قصره ، واغلق عليه بابه ، وجلس واخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه وهو يقول :

— يوم كيوم عثمان .

فصعد اليه جماعة ، ودخلوا عليه فقتلوه ، وحزوا رأسه ، وذهبوا به الى يزيد فنصبه على رمح وطيف به في دمشق .

الوليد وعهده :

ولقد اختلف الناس في الوليد ، والاجماع ينعقد على انه كان قصير النظر ضعيف الرأي محباً للاشربة والمرح واللهو والصيد ، وسباق الخيول ، وانه الى ذلك كان مؤمناً ورعاً كريماً ، فانه لمـــا ولي الخلافة اجرى على مرضى اهل الشام وعميهم الاموال والنفقات وكساهم ، وامر لكل انسان منهم بخـادم ، واخرج للناس الطيب والكسوة وزادهم ، وزاد الناس في العطاء عشرة دراهم لتقريبهم اليه ، خصوصاً الجنود فيهم ، وكان المـال وفيراً عنده ، لان هشام كان بخيلاً كما قدمنا ، جمع اموالاً طائلة وثروة عظيمة تركها في بيت المال بعد وفاته ، فلما ولي الوليد اخذ يبذرها يميناً وشمالاً حتى قال يوماً :

ضمنت لكم ان لم يعقني عائق   بأن سماء الضر عنكم ستقلع

مقتل يحيى بن زيد :

وفي أيامه ظهر يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بالجوزجان من بلاد خراسان، منكراً الظلم ، وما عمّ الناس من الجور ، فسيّر اليه الوليد نصر بن سيار وسلم ابن احوز ، فقاتلاه وقتل يحيى في المعركة بقرية يقال لها (ارعونة) ودفن هناك، واصيب يحيى في المعركة بسهم كما أصيب والده زيد قبله ، في ايام هشام ، فاحتز رأسه ، وحمل الى الوليد وصلب جسده بالجوزجان فلم يزل مصلوباً الى ان خرج ابو مسلم الخراساني ، يدعو لآل محمد اولا ثم للعباسيين اخيراً ، فقتل ابو مسلم ، ابن احوز وانزل جثة يحيى فصلى عليها ودفنها ، واظهر اهل خراسان النياحة على يحيى سبعة أيام ، ولم يولد في تلك السنة بخراسان مولود إلا وسمي

بيحيى او بزيد ، لما دخل اهل خراسان من الجزع والحزن عليه ، وكان ظهور يحيى على الارجح اواخر سنة ١٢٥ للهجرة .

لهو وعبث :

وفي ايام الوليد كثر العبث واللهو في البلاط الاموي، وكثر المغنون المشهورون في ايامه ، كابن سريج ومعبد ، والغريض وابن عـائشة ، وابن محرز وطويس وغيرهم ، وغلبت شهوة الغناء في ايامه ليس على البلاط فقط ، وانما على الخاص والعام ايضاً ، والناس على دين ملوكهم ، ومن شعره انه طرب لليلتين خلتـا من ملكه وأرق فأنشأ يقول :

طال ليلي وبت أسقي السلافة   وأتاني نعي من بالرصافة [1]
وأتاني بـبردة وقضيب   وأتاني بخـاتم للخلافة

وقيل للوليد : ما بقي من لذاتك ؟

قال : محادثة الاخوان في الليالي القمر ، على الكثبان العفر .

وقد بلغ به الامر انه كان يجلس الاسبوع في قصره بين المغنين والندمان لا يفطن لامور الدولة ، ولا يستقبـل من يكون ببـابه من وفود العرب وقريش ...

سباق الخيل :

وكان الوليد مغرماً بالخيل وحبها وجمعها واقامة الحلبة ، وكان (السندي) فرسه جواد زمـانه ، وكان يسابق به في ايام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام (الزائد) ، واجرى الوليد الخيل بالرصـافة ، واقـام الحلبة وأمر بالسباق ، ووقف بها ينتظر الزائد ، وكان له فيها جواد يقـال له (المصباح)

(١) يعني هشام بن عبد الملك الخليفة السابق .

فلما طلعت الخيل قال الوليد :

خيلي ورب الكعبة المحرمة   سبقن افراس الرجال اللومة
كما سبقناهم وحزنا المكرمة

فاقبل فرس ابن الوليد ، ويقال له (الوضاح) امام الخيل ، فلما دنا صرع فارسه ، واقبل فرس سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وعليه فارسه ، وهو فيما يعتبر يعد سابقاً ، فخشي الوليد ان تسبق فرس سعيد ، فركض فرسه حتى ساوى الوضاح فقذف بنفسه عليه ودخل سابقاً ، فكان الوليد اول من فعل ذلك وسنّه في الحلبة .

وقتل الوليد لليلتين خلتا من جمادي الاخر سنة ١٢٦ ، وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة اشهر ، وبقتله ضعف امر بني امية ، واخذ سلطانهم ينهار ويتهدم.

اسباب الفاجعة :

يقول المؤرخون ومن تكلف سبيلهم من بعض المستشرقين ان ما حدث في عهد الوليد من فوضى في الاحكام وترف في البلاط وخلاف بين الامراء، من امية — وما نتج عن هذا كله من مقتل الوليد الثاني كان منذراً بقرب الانحلال ، وزوال الحجارة القائمة ، والصدور السليمة ، في الدولة الاموية العربية ، وفي هذا بعض الحق ما في ذلك شك ولا ريب ، ولكن السبب الاول والاكبر في كل هذه المصائب هو هذه السياسة الملتوية التي عرضنا لها في نظام البيعة ، فقد اساء يزيد بن عبد الملك الى ابنه الوليد لما قدّم هشاماً شقيقه قبله، وسواء أأدرك خطأه بعد ذلك ام لم يدركه ، وندم عليه ام لم يندم فان هذا لا يعدل شيئاً من الوقائع التاريخية ، فوجد الوليد بعد موت والده على عمه الذي اخذ مكانه ، وطمع هشام بعزله ومبايعة احد ابنائه ، وكاشفه بالامر والحّ عليه فابى الوليد ان يعتزل ، فطلب اليه هشام ان يستخلف ابنه بعده ،

فابى الوليد ذلك ايضاً، فكان من اثر هذا ان وقعت الخصومة بين الخليفةوولي العهد ، وانه كان من اثر هذه الخصومة ما فصلناه فيما مضى من صفحات ..

حقد هشام على ابن اخيه وتنمر له ، واخذ يملأ الدنيا عليه نقـداً ، مسرفاً في ابعاده ، مكثراً من نقده واقصائه ، قاطعاً العطاء عنه، متدخلاً في شؤونه، مؤيداً بعض الشعراء والامراء في انتقاصه وتشهيره ، فساء الحال بينهما اساءة قوية ، واخذ الوليد ينتظر موت عمـــه هشام ليخلو له الجو ، وينتقم من اعدائه واصدقاء عمه ، فلما آل الامر للوليد ، كان اول همه ما وصفناه مـــن الانتقام لنفسه من ابناء اخيه واهله وانصاره ، انتقاماً احفظ عليه اسرته ، واضغن عليه اهله، فراحوا يمعنون بالتشهير به ونشر الدعاية ضده ، وتكفيره، وعلى رأسهم يزيد بن الوليد الذي كان يظهر النسك والناس لا مثاله اميل وأقرب .

فلما تضافرت شكوى الناس ،وازداد الكره ، وعظمت الوحشة ، حاول الوليد ان يتجلد للناس ، وكان شديد البطش ، طويل اصابع الرجلين ، شديد القول ، فقال لما اندلعت الثورة وبلغه ذلك : اعليّ توثب الرجال ، وانا أثب على الاسد ، واتخصر الافاعي .

ولكن هذا كله لم يدفع عنه شر خصومه الذين حصروه في قصره كما قدمنـا .

ولما ادرك الوليد انه محاصر ، وان لا سبيل الى خروجه من قصره ، دون ان يتعرض له القوم بالسيف ، دنا من الباب فقال :

- اما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه ؟

فقال له احدهم : كلمني .

فقال له : من انت ؟

قال : انا يزيد بن عنبسه السكسكي .

فقال له الوليد : ألم ازد في اعطياتكم ، الم ارفع المؤن عنكم ، ألم اعط فقراءكم الم اخدم العجزة منكم ؟

فقال له : انا ما ننقم عليك امراً يتعلق بانفسنا ، :لكننا ننقم عليك مـا انتهكته من حرمات الله وشرب الخمر ، والاستخفاف بامر الله ..

فلما سمع ذلك الوليد قال :

– لعمري لقد اكثرتم واغرقتم ، اما والله لا يرتق فتقكم ، ولا يُـلم شعثكم ولا تُجمع كلمتكم .

ورجع الوليد الى الدار واخذ مصحفاً وقال :

– يوم كيوم عثمان . .

ويقول من شهد ماوقع بعد ذلك :

– نظرت الى شاب طويل على فرس ، دنا من حائط القصر فعلاه ثم صار الى داخل القصر .

« فدخلت القصر فاذا الوليد قائم في قميص قصب وسراويل وشي ، ومعه سيف في غمد ، والناس يشتمونه » .

ويقول آخر : ومضى الوليد يريد الباب ، فضربه احدهم على رأسه وتعاوره الناس باسيافهم ، فقتل .

وطرح احدهم نفسه عليه يحتز رأسه ، وكان (يزيد) قد جعل في رأس الوليد مائة الف درهم .

يزيد بن الوليد بن عبد الملك : { ١٢٦ – ١٢٧ ميلادية / ٧٤٤ – ٧٤٥ هجرية }

وبويع ليزيد بن الوليد بن عبد الملك بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، في جمـادي الاخرة سنة ١٢٦ هجرية ، وتوفي في ذي الحجة من

السنة نفسها ، بعد ان بقي في الخلافة خمسة اشهر ، وقام بالأمر بعده أخوه ابراهيم بن الوليد فلم يمكث في الخلافة اكثر من شهرين ..

ويكفي ان يكون يزيد قد تولى الخلافة بمساعدة اليمنية ، لتغضب المضرية عليه ، ولذلك كان من المنتظر ان لا يتم الامر له بعد اختلاف البيت المالك على نفسه ...

وكان اول ما بدأ به عمله ان نقص اعطيات الناس ، وكان اشد ضنانة بالمال من هشام ، فسمّوه يزيد الناقص ، وكان الخليفة من بني امية اذا مات وقام آخر ، زاد في ارزاق الناس وعطاياهم عشرة دراهم ، واما يزيد فانه نقص من اعطيات الناس ما زاده الوليد بن يزيد ، وردها الى ما كانت عليه عهد هشام ، فاغضب الناس عليه وكثر القول فيه ، وكان عهده فاتحة اضطراب وانحلال في البيت الاموي المالك ، وكان احول يظهر التنسك ويميل الى تعاليم المعتزلة ، والقدرية .

الاضطراب والفوضى :

واول ما كان من الاضطراب في سورية قيام اهل حمص،واغلاقهم ابوابها ، واقامتهم النوائح والبواكي على الوليد ، واستعدادهم ليأخذوا بثأره ممن قتله ، وتابعهم على ما ارادوا من ذلك مروان بن عبد الملك ، ثم اختلفوا وإياه ، وولوا عليهم ابا محمد السفياني ، وكان يزيد لما بلغه امرهم قد سيّر عليهم الجيوش بقيادة سليمان بن هشام فلحقوا بهم بالسليمانية وهي مزرعة كانت لسليمان بن عبد الملك تبعد اثني عشر ميلا عن دمشق ، فقاتلوهم وغلبوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، حتى دانوا ليزيد بالطاعة وبايعوه ، واستعمل عليهم يزيد بن الوليد معاوية بن يزيد بن الحصين .

واخذ سليمان ابا محمد السفياني اسيراً ، وسيّره الى دمسق ، فصار حبسه في

قصر (الخضرة) مع بعض اهله وانسبائه .

وكما فعل اهل حمص ، فعل اهل فلسطين ، فانهم طردوا عاملهم ، وولوا امرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك ، وفعل اهل الاردن مثـــل ذلك فولوا امرهم محمد بن عبد الملك ، واجتمعوا مع اهل فلسطين على قتـال يزيد ، فسيّر اليهـــم الجيوش فغلبوهم ايضاً ، وانتهى امرهم بالبيعة ليزيد .

ولم تكن الحالة في العراق والمشرق على ما يرام ، فان يزيداً ولى العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر ، فذهب منصور الى الكوفة واخذ البيعة ليزيد ، ثم ارسل العمال الى خراسان ، فامتنع نصر بن سيار عن تسليم عمله الى عمال منصور ،فقام في وجهه رجل من كبار اليمنية يلقب بالكرماني، وقام معه اليمنية يريدون افساد الامر على نصر ، فقامت النزارية (المضرية) مع نصر عصبية له ، وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظيمين من العرب ، وهم اليمانية والنزارية ، فاستحضر نصر (الكرمـــاني) وحبسه ، فاحتال جماعته حتى اخرجوه من محبسه ، وجمع الكرماني الناس لحرب نصر ، وكادت الحرب تقع بينهما لولا ان سعى الناس بالصلح ولكنـــه صلح فاسد ، لان كلاهما كان يخاف الاخر ، ولا يثق به .

وبذلك صارت بلاد خراسان مرتعاً خصباً لدعاة بني العباس ولم يكن عند ولاة الامر من بني امية بالشام ما يمكنهم من سدّ هذه الثلمة التي اثاروها على انفسهم ، بما حدث ووقع بينهم من الانشقاق الذي كان يؤذن بالانحلال .

ونظرة الى حالة الدولة في هذه الفترة تدلنا على ما كانت تنعم به من خلاف في كل امصارها تقريباً ، وسبب ذلك ان العمال الذين وجههم يزيد لم يكونوا من اهل الجرأة والبسالة ، ولا من اصحاب البيوتات المعروفة ، حتى لقد عرض خالد بن يزيد يوماً لذلك فقال :

– يا امير المؤمنين قتلت ابن عمك لاقامة كتاب الله تعالى وعمالك يغشون

ويظلمون ..

فقال : لا اجد اعواناً غيرهم واني لأبغضهم.

فقال خالد : يا امير المؤمنين ولِّ اهل البيوتات ، وضمّ الى كل عامل رجلاً من اهل الخير والفقه يأخذهم بما في عهدك ..

فقال : أفعل .

وما فعل ...

مروان بن محمد :

ومما يجب ان يصار الى ذكره بهذه المناسبة موقف مروان بن محمد بن مروان بن الحكم شيخ بني امية وكبيرهم ، وكان يحكم ارمينيا والجزيرة او (اذربيجان) منذ سنة ٧٣٢ عهد هشام بن عبد الملك ، من هذه الانقلابات الجديدة التي كانت تقع في الشام وهو بعيد عنها ، والتي عمّت العالم العربي كله كما يظهر ، فانه عدا الاختلافات التي ذكرناها واشرنا اليها كانت الحالة في الاندلس تدعو الىاليأس ، وكان كثير من أمرائها يعملون للاستقلال الذاتي ، واما في افريقية فان عبد الرحمن بن حبيب كان مستقلاً تقريباً في ادارته وسياسته .

والظاهر ان مروان بن محمد فكر في الافادة بدوره ، وانتزاع الخلافة من نسيبه ، والعمل على توطيد المملكة ، فمشى الى العراق على رأس جيش كبير ، فحار يزيد في امره لما بلغه ذلك ، وعرض على مروان ان يترك له ادارةالعراق ايضاً فوق ارمينيا والجزيرة ، فرضي مروان بذلك وانفذ الى دمشق وفداً من قبله ، فلما كان هذا الوفد في منبج بلغه نعي يزيد فعاد أدراجه .

مروان بن محمد والارمن :

ولقد تولى مروان بن محمد على ارمينيا في السنة الثامنة من خلافة هشام بن عبدالملك ، من سنة ٧٣٢ — الى ٧٤٣ ميلادية ، وظل والياً عليها طوال خلافة

الوليد بن يزيد ٧٤٣ — ٧٤٤ .

وقد عامل الارمن اثناء ولايته معاملة حسنة ، وسعى جـاهداً لاسعادهم وتحسين حالهم ، ولما تولى الخلافة ٧٤٥ — ٧٥٠ ميلادية ، ظل يعاملهم احسن معاملة ، ولو طال عمره ، ولم تقم الثورات في عهده لأعطاهم المزيد من الامتيازات جزاء اخلاصهم للدولة العربية .

فلما تولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة هشام ، كما قدمنا ، وانصرف الى ألوان من اللهو والعبث لم يقرهـا اهل بيته ثاروا عليه وقتلوه ، ونصبوا مكانه يزيد بن الوليد بن عبد الملك الملقب بيزيد الثاني ، فلم تدم خلافته غير اشهر معدودات فتولى الخلافة بعده شقيقه ابراهيم بن الوليد ، فانقسم الناس في امره ، وهبت الثورات في خراسان ، وانتقض الملـك ، وضعف شأن الامويين ..

ولما بلغ مروان بن محمد في سنة ١٢٦ هجرية ، ٧٤٤ ميـلادية ، وهو على ارمينيا ان يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، يؤلب الناس ويدعو الى خلع الوليد بن يزيد ، كتب الى سعيد بن عبد الملك بن مروان ان ينهى الناس عن ذلك ويكفهم .. لأنهم ان فعلوا ذلك استفتحوا باباً لن يغلقه الله عنهم ، حتى تسفك دماء كثيرة .. وقال له :

« ولتعلم اني مشتغل بأعظم ثغور الدولة (ارمينيا) ، ولو جمعتني وإياهم لرمحت فساد امرهم بيدي ولساني ، ولخفت الله في ترك ذلك .. لعلمي مـا في عواقب الفرقة من فساد الدين .. وانه لن ينقتل سلطان قوم قط إلا في تشتيت كلمتهم ، وان كلمتهم اذا تشوشت طمع فيهم عدوهم .. وانت اقرب اليهم مني .. فاحتل لعلم ذلك باظهار المتابعة لهم .. فاذا صرت الى علم ذلك فتهددهم باظهار اسرارهم ، وخذهم بلسانك وخوفهم العراقب لعل الله ان يرد اليهم ما قد عزب عنهم من دينهم وعقولهم .. فان فيما سعوا فيه تغيير النعم وذهـاب الدولة ...

مروان قبل الخلافة :

وكان عبدالملك بن مروان بن محمد ، مع عمر بن يزيد (شقيق الوليد بن يزيد) بحران .. فأتاه مقتل الوليد ١٢٦ هـ. ٧٤٤ م. وهو بها وعلى الجزيرة عبدة بن رياح الغساني عامل الوليد عليها .. فشخص منها حين بلغه قتل الوليد الى الشام .. ووثب عبد الملك بن مروان بن محمد على حران ومدائن الجزيرة فضبطها وولاها سليمان بن عبد الله بن علاثة .. وكتب الى ابيه مروان بن محمد بارمينيا يعلمه بذلك ويشير عليه بتعجيل السير والقدوم .. فتهيأ مروان للمسير واظهر انه يطلب بدم الوليد وكره ان يدع الثغر (ارمينيا) معطلاً حتى يُحكم امره ، فوجه الى اهل الباب اسحاق بن مسلم العقيلي وهو رأس قيس .. وثابت ابن نعيم الجذامي من اهل فلسطين وهو رأس اليمن .. وكان سبب صحبة ثابت له ان مروان قد انقذه من حبس هشام بالرصافة .. وكان مروان يقدم على هشام المرة في السنتين فيرفع اليه امر الثغر وحاله ، ومصلحة من به من جنوده وما ينبغي ان يعمل به في عدده .. فلم يزل (ثابت بن نعيم) في حبسه حتى قدم مروان بن محمد على هشام في بعض زياراته.. فأتاه رؤوس اهل اليمنية ممن كان مع هشام فطلبوا اليه انقاذه..فاستوهبه مروان منه فوهبه له فشخص الى ارمينيا فولاه وحباه .. فلما وجه مروان ثابتاً مع اسحاق الى اهل الباب (ارمينيا الشمالية الشرقية) .. كتب اليهم معهما كتاباً يعلمهم فيه حال ثغرهم وما لهم من الاجر في لزوم امرهم ومراكزهم ، وما في ثبوتهم فيه من دفع مكروه العدو عن ذراري المسلمين ، وحمل اليهم معهما اعطياتهم ، وولى عليهم رجلاً من اهل فلسطين يقال له حميد بن عبد الله اللخمي وكان رضياً فيهم .. وكان وليهم قبل ذلك فحمدوا ولايته ... فقاما فيهم بأمره وابلغاهم رسالته وقرءا عليهم كتابه فاجابوا الى الثبوت في ثغرهم ولزوم مراكزهم .. ثم بلغه ان ثابتاً (ثابت بن نعيم الجزامي) يدّس الى قوادهم بالانصراف من ثغرهم واللحاق باجنادهم، فلما انصرفا اليه، تهيأ المسير وعرض جنده ،ودس ثابت بن نعيم الى من معه من

اهل الشام بالانخزال عن مروان والانضمام اليــه ليسير بهم الى اجنادهم ويتولى امرهم ... فانخزلوا عن عسكرهم مع من فر ليلاً وعسكروا على حدة .

وبلغ مروان امرهم فبات ليلة ومن معه في السلاح يتحارسون حتى اصبح ، ثم خرج اليهم بمن معه ومن مع ثابت يضعفون على من مع مروان فصافوهم ليقاتلوهم فامر مروان منادين فنادوا بين الصفين من الميمنة والميسرة والقلب فنادوهم :

«ياأهل الشام ما دعاكم الى الانعزال وما الذي نقمتم عليّ فيه من سيري؟ ألم آلـكم ما تحبون وأحسن السيرة فيكم والولاية عليكم ، مـا الذي دعاكم الى سفك دمائكم ؟

فاجابوه : انا كنا نطيعك اطاعة خليفتنا (الوليد بن يزيد).. وقد قتل خليفتنا وبايع اهل الشام يزيد بن الوليد فرضينا بولاية ثابت ورأسنـاه ليسير بنا على الويتنا حتى نرد الى اجنادنا .

فأمر مناديه فنادى : ان قد كذبتم وليس تريدون الذي قلتم وانما أردتم ان تركبوا رؤوسكم فتغصبوا من مررتم به من اهل الذمـة اموالهم واطعمتهم واعلافهم وما بيني وبينكم الا السيف حتى تنقادوا اليّ فاسير بكم حتى اوردكم بالفرات ثم أخلي عن كل قائد وجنده فتلحقون باجنادكم .

فلما رأى الجند منه ذلك انقادوا اليه ومالوا اليـه وامكنوه من ثابت بن نعيم واولاده وهم اربعة رجال ... فأمر بهم فأنزلوا عن خيولهـم وسلبوا سلاحهم ووضع في ارجلهم السلاسل ووكل بهم عدة من حرسه يحتفظون بهم.. وشخص بجماعة من الجند من اهل الشام والجزيرة وضمهم الى عسكره ، وضبطهم في مسيره فلم يقدر احد منهم على ان يشذ ... ولا يظلم احداً من اهل القرى ولا يرزأه شيئاً إلا بثمن ، حتى ورد «حران» ثم امرهم باللحاق باجنادهم وحبس

ثابتاً (ثابت بن نعيم الجذامي) معه .. ودعى اهل الجزيرة الى الفرض ففرض لنيف وعشرين الفاً من اهل الجلد منهم . . وتهيأ للمسير الى يزيد «يزيد بن الوليد بن عبد الملك» وكاتبه يزيد على ان يبايعه ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان ولى اباه محمد بن مروان من الجزيرة وارمينيا والموصل واذربيجيان. فبايع له مروان في سنة ٧٤٤ م ووجه اليه محمد بن عبدالله بن علاثة ونفراً من وجوه الجزيرة .

ويقول اليعقوبي خلافاً عن الطبري : وثب ثابت بن نعيم الجـــذامي على مروان وهو بارمينيا فظفر به مروان فمنّ عليه ، وانصرف مروان من ارمينيا واستخلف عليها عاصم بن عبدالله بن يزيد الهلالي، واستخلف على الباب والابواب اسحاق بن مسلم العقيلي ثم جمع ارمينيا لاسحق بن مسلم العقيلي ...

العراق عهد الامويين :

وهنا لا بد من الاشارة الى ان العراق في عهد الامويين كان يطلق على القسم الجنوبي من العراق الحاضر ، وكانوا يسمونه (السواد) او الارض السوداء لخصب ارضه وسوادها، وكان هذا القسم يضم كل الاراضي التي كانت تابعة للامبراطورية البابلونية القديمة .

والواقع ان الارض العراقية التي يمر فيها النهران العظيمان دجلة والفرات ، تقسم الى قسمين عظيمين بفعل الطبيعـة نفسها ، فالقسم الشمالي — وهو الذي قامت فيـه دولة اشور — يؤلف ارضاً جبلية صخرية تصلح للكلأ ، وهو اقل غناء وخصباً من القسم الجنوبي ، الذي قامت عليه دولة بابل، فان هذا اخصب واغنى ، يكثر فيه النخيل وتسقى ارضه بواسطة الاقنية الكبيرة .

وكان العرب يسمون القسم الشمالي الجزيرة ، والقسم الجنوبي العراق ، امـا الحدود بين الجزيرة والعراق فكانت في ايام الدولة الاموية محددة على حدود الانبار على الفرات الى تكريت على دجلة ، وكانت الانبـار وتكريت ضمن الحدود العراقية .

واذاً فان الاتفاق الذي تمّ بين يزيد بن الوليد وبين مروان بن محمد كان يترك لهذا الجزيرة وارمينيا والعراق ، وفاقاً للتقسيم الماضي ، او العراق الحاضر والجزيرة وفاقاً للتقسيم الحاضر .

ويقول الدينوري في الاخبار الطوال : ان المضرية تلاومت فيما كان من غلبة اليمانية عليها ، وقتلهم الخليفة الوليد بن يزيد ، فدّب بعضهم الى بعض واجتمعوا من اقطار الارض وساروا حتى وافوا مدينة حمص ، وبها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وكان يومئذ شيخ بني امية وكبيرهم ، وكان ذا ادب كامل ورأي فاضل فاستخرجوه منداره وبايعوه وقالوا له :

ـ انت شيخ قومك وسيدهم ، فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد .

فاستعد مروان بجنوده، وسار نحو مدينة دمشق ، فاقتتل جيشه مـع جيش يزيد بن الوليد في ثنية هنـاك وانهزم الحمصيون ، واستولوا جنـود دمشق على حمص » .

وهذا الخبر الذي نقله صاحب (كتاب الاسلام والحضارة العربيـة) عن الدينوري فيه شيء من الخطأ ، لان مروان بن محمـد بن مروان بن الحكم كان في ارمينيا وكان يحكمها منذ عهد هشام ، وقد اوفده هشام اليها منذ سنة ٧٣٢ كما قدمنا ، والذي صار اختياره لقيادة الحملة الحمصية هو مروان بن عبد الملك،

وقد صار قتله وقتل ابنه لاختلاف وقع بينه وبين الحمصيين ، كما روي ابن الاثير ، وصار انتخاب ابي محمد السفياني مكانه (١) .

ولم تطل مدة يزيد في الخلافة ، فانه توفي لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦ هجرية بعد خمسة اشهر واثنين وعشرين يوماً من استخلافه .

ابراهيم بن الوليد :

وكان يزيد قد عهد بالخلافة بعده لاخيه ابراهيم بن الوليد ، ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، فلما توفي يزيد بويع اخوه ابراهيم بيعة لم تأت بطائل ، فكان قوم يسلمون عليه بالخلافة ، وقوم بالامارة ، وآخرون ربما لا يسلمون عليه بواحد منهما .

وفي هذه الاثناء قرر مروان بن محمد ان يعمل فاقبل من ارمينية في جيش كبير لا يقل عن ثمانين الف مقاتل قاصداً دمشق ، بعد ان ترك ابنه عبد الملك في الرقة على رأس جيش اخر قوامه ٤٠ الف مقاتل ، فاستولى على قنسرين وحمص ، وهزم الجيش الذي ارسل لحربه بقيادة سليمان بن هشام في المعركة التي جرت بين دمشق وبعلبك ، وعامل الاسرى معاملة حسنة ، واخذ عليهم البيعة على ما يقول المؤرخون لابني (الوليد الثاني)وكانا في السجن في دمشق.

ثم سار حتى اتى دمشق فاستولى عليها وبايعه اهلها ، ولكنه قبل وصوله اليها ، كان هشام بن يزيد ، ويزيد بن خالد القسرى حاكم العراق السابق ، وبعض انصارهم واعوانهم قد اسرعوا الى قصر (الخضرة) حيث كان بعض المعتقلين امثال ابني الوليد الثاني ، ويوسف بن عمر حاكم العراق ، يقيمون فيه فقتلوا ابني الوليد الحكم وعثمان ويوسف بن عمر

(١) ابن الاثير جزء / ٥ / ص ١٠٨

واستبقوا ابا محمد السفياني فقط ، وقد قتل ابني الوليد من كان السبب في قتل والدهما خوفاً منهما فيما لو وليا الخلافة ، خصوصاً وقد كان مروان بن محمد يبايع لهما اول الامر ، ولا يبايع نفسه ، فلما قتلا بايع لنفسه ، بعد ان قال له السفياني انه سمع احد الاخوين يعهد له بالخلافة من بعده .

واما هشام بن يزيد فقد حمل ما وصلت اليه يده من الاموال العامة في دمشق وهرب بها الى تدمر مع بعض انصاره .

وبناء على شهادة السفياني كما قدمنا بويع لمروان بن محمد بالخلافة في السابع من شهر كانون الاول سنة ٧٤٤ م .

- ١٤ -

انهيار امية

مروان الثاني بن محمد :

اشتهر مروان بالشجاعة والدهاء والمكر ، والصبر على المكاره والملمات ، حتى كان يلقب بالحمار لصبره وجلده ، وبويع بالخلافة في شهر صفر سنة ١٢٧هـ وبقي في الخلافة الى ان قتل في المحرم سنة ١٣٢ ، بعد ان مكث فيها خمس سنوات وثلاثة اشهر .

وليس يختلف المؤرخون في انه كان شيخ بني امية في عهده وكبيرهم ، كاملا فاضلا ، بصيراً ، ذكياً ، وهو احزم بني امية وانجدهم وابلغهم ، ولكنه ولي الخلافة والامر مدبر عنه وعنهم ، فلم يوفق في اظهار مواهبه وذكائه وسعة حيلته.

وما كاد مروان يتسلم الخلافة حتى اشتعلت الفتن والقلاقل في طول البلاد وعرضها ..

ولقد جرب مروان بعد ان بويع بالخلافة تهدئة الحالة في سورية ، فاغمد

سيفه ، وبسط حلمه ومعروفه ، وترك للمدن السورية الاربع ان تختار أمراءها حتى ولو اختارت من سحب سيفه في وجهه ، وحمل الناس على محاربته كثابت ابن نعيم مثلاً ، الذي صار اختياره لفلسطين ، والذي كان من الذين حملوا السيف في وجهه وحاربوه وآذوه .

ولما انتهى مروان من ذلك ذهب الى (حران) في العراق مفضلاً الاقامة فيها على الاقامة في دمشق حيث النفاق والخديعة والخلاف ، وقد ظن انه وفق في سياسته وانه تمكن من تهدئة الناس .

ولكن شيئاً من هذا لم يكن ، وما كان هدوء الناس في سورية وغير سورية إلا شيئاً ظاهــراً ، وما كانت بيــعة سليمان بن هشام ومن والاه له إلا ظاهرة مؤقتة اقتضتها مصلحة سليمان بن هشام الخاصة ، لان كثيراً من امراء امية كانوا يعتقدون ان مروان بن محمد لا يليق بالخلافة – لان امه لم تكن عربية قرشية – وكان اهل دمشق كذلك ينقمون عليه نقله عاصمة الخلافة الى (حرّان) ومغادرته دمشق ، وما يجره ذلك من اضعاف العاصمة ، وافقار الكثيرين من اهلها الذين كانوا يعيشون على ابواب الخلفــاء ، والذين كانوا يجدون كثيراً من الخير والتجارة في اقبــال الناس من الاطراف على العاصمة ، كما ان الكلبيين من عرب الجنوب نقموا على مروان تقديمه القيسيين من عرب الشمال .

اضطرابات وثورات :

وما هي إلا اسابيع قليـــلة حتى أحس مروان ان سياسته اللينة لم تجده نفعاً ، فثــار ثابت بن نعيم في فلسطين ، وظهر الاضطراب في تدمر وحمص ، وكان مروان يفكر في السفر الى العراق لوقوع اضطرابات فيها ، فلما رأى انتقاض الناس عليه في سورية مشى اليها ، فاما ثورة فلسطين فقد دفع ثابت بن نعيم ثمنها غالياً اذ هلك فيها ، واما انتقاضة حمص فقد وقعت بينهم وبين جيوش مروان واقعة هــائلة انتصر مروان فيها ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكذلك ثـــار

عليه اهل الغوطة وحاصروا دمشق بقيادة يزيد بن خالد القسري ، فكان له معهم وقائع انتصر فيها ايضاً .

وبعد هذه الانتصـــارات التي نالها مروان بن محمد على السوريين اخذ منهم البيعة لابنه من بعده، وعقد لهما على ابنتين لهشام بن عبدالملك توطيداً لمركزهما واكثاراً لعصبيتها ، معتقداً ان الامل بتسوية سلمية مع السوريين وامراء امية لا يزال شيئاً ممكناً ، ليس من الحكمة اغفاله ، والاخذ بسياسة جديدة شديدة.

ولما انتهى مروان من امر سورية جنّـد من السوريين عشرة الاف مقاتل ضمّهم الى عشرين الفاً من اهل قنسرين والعراق ليسيروا الى العراق ، بقيـادة يزيد بن عمر بن هبيرة حيث الحالة لم تكن على ما يرام ..

فلما كان هذا الجيش في طريقه الى العراق ، ووصل الى (الرصافة) حيث كان يقيم سليمان بن هشام كما يظهر ، راح هذا يقنع الجنود السوريين للانضمام اليه والحرب معه .. ففعلوا ، وتمكن سليمان بمساعدتهم ومساعدة مواليه وانصاره من الاستيلاء على قنسرين ..

وقد بسطنا امر سليمان بن هشام قبلاً ، وهو سليمان بن هشام بن عبـــد الملك ، وكيف خرج من سجن الوليد في عمان وثار ، واخذ ما كان من الاموال واتي دمشق فلحق اولا بيزيد بن الوليد فولاه بعض حروبه الى ان كسره مروان بن محمد بعين الجرّ ، فهرب ثم استأمن الى مروان وبايعه ، ثم نرى اعوانـــه وانصاره يحسنون له بعد ذلك خلع مروان والمطالبة بالخلافـة ، فيجيبهم الى ذلك ، ويسير بهم وباخوته ومواليه فيعسكر في قنسرين حيث ينضم اليه بعض الجنود السوريين في طريقهم الى العراق ، وحيث يقبل عليه كثير غيرهم ،حتى ليقال انه اجتمع لديه نحواً من سبعين الفاً من الجنود .

فلما بلغ امره مروان وكان بقرقيسيا اقبل عليه ، بعد ان اصدر امره الى يزيد بن عمر بن هبيرة بالوقوف مكانه ، ووقعت المعركة في ارض قنسرين ،

فانهزم فيها سليمان وجنده ، وأسر مروان منهم عدداً عظيماً فقتلهم ، ويقال انه أحصيت القتلى في جند سليمان يومئذ فبلغت ثلاثين الفاً ، وهرب سليمان الى حمص ومنها الى تدمر ومنها الى الكوفة تاركاً اخاه سعيداً في حمص .

ولما بلغ سليمان في هزيمته الى حمص اجتمعت عليه الفلول ، فقصده مروان فقابله في الطريق بعض جنود سليمان فهزمهم ، فلما علم سليمان بالفشل ترك حمص وسار الى تدمر فاقام بها ، واما مروان فاتى حمص ، واقام على حصارها خمسة اشهر حتى استولى عليها .

وقام مروان بعد انتصاره على حمص بهدم اسوارها ، وفعل مثل ذلك في اسوار بعلبك ودمشق والقدس ، وغيرها من المدن وبذلك ضعفت سوريا كل الضعف ، وكانت مركز القوة الاموية ، منها جندها ، ومنها رجالها وانصارها. ولم يتمكن مروان من التفرغ للعراق بعد حملاته في سورية الا في صيف سنة ١٢٨ للهجرة — ٧٤٦ — .

الحـــالة في العراق :

وكان العراق مثل سورية اضطراباً وفوضى ، خرج فيه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب ، وظهر بالكوفة داعياً الى نفسه ، وكان معه من الشيعة والموالي عدد عظيم جداً ، وكان والي العراق عبدالله بن عمر بن عبد العزيز ، فجدّ في حربه ، وكانت العامة تميل اليه لمكانة ابيه وورعه ، فساعد ذلك على انتصاره ، وهرب عبدالله بن معاوية من العراق ، وسلمت الكوفة في شهر تشرين الاول ٧٤٤ على شروط منها العفو عن الثوار وعن عبدالله بن معاوية ايضاً ، الذي ذهب الى المدائن ، ثم أتاه قوم من اهل الكوفة ، وكان معه ايضاً بعض العباسيين ومنهم المنصور الخليفة العباسي الثاني ، فغلب بهم على حلوان والجبال وهمذان ، واصبهان والري ، وظل امره فاشياً ما يقرب من ثلاث سنوات ..

وكان عبدالله هذا ابن عمر بن عبدالعزيز كما قدمنا ، وكان مقره في الحيرة ، التي اصبحت مركز الحاكم ومقره منذ عهد يوسف بن عمر على العراق ،فكتب مروان بن محمد الى النضر بن سعيد الحرشي ، وهو احد قواد ابن عمر ، بولاية العراق، فلم يسلم ابن عمر اليه العمل ، فشخص النضر الىالكوفة ،وبقي ابن عمر بالحيرة فتحاربا اربعة اشهر ، وامدّ مروان النضر بقوة من عنده واجتمعت المضرية مع النضر عصبية لمروان – لطلبه بدم الوليد . وكانت امالوليد قيسية من مضر — .

وكان اهل اليمن مع ابن عمر عصبية له ، حيث كانوا مع يزيد في قتل الوليد لما اسلم خالدالقسري الى يوسف بن عمر فقتله ، فلما سمع الضحاك الخارجي باختلاف الاميرين تقدم نحو العراق وكان قد صار في اربعة الاف مقاتل – والخوارج كما أشرنا قبلاً يظهرون دائماً وابداً حين يقع اختلاف داخلي ، او تكون هناك اسباب مواتية لظهورهم – فلما عرف ابن عمر بقدوم الضحاك والخوارج ، اتفق والنضر على محاربتهم ، وتمّ الاتفاق فعلاً ، وحاربا الضحاك فغلبهما واستولى على الكوفة ، وانهزم ابن عمر والنضر الى واسط حيث عادا الى قتال بعضهما بعضاً ، ثم لما تقدم نحوهما الضحاك ثانية اتفقا على قتاله ، وحارباه مدة ثلاثة اشهر ، ثم ان منصور بن جمهور قال لابن عمر :

– ما رأيت مثل هؤلاء فلمَ تحاربهم وتشغلهم عن مروان ، اعطهم الرضا ، واجعلهم بينك وبين مروان ، فانهم يرجعون عنا اليه ، ويوسعونه شراً ، فان ظفروا به كان ما اردت ، وكنت عندهم آمناً ، وان ظفر بهم ، واردت خلافه وقتاله قاتلته وانت مستريح .

فقال ابن عمر : لا تعجل حتى ننظر ..

فلحق بهم — اي الخوارج — منصور وناداهم : «اني اريد ان أسلم واسمع كلام الله» .. ودخل عليهم وبايعهم، ثم ان عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز خرج اليهم في

شوال فصالحهم ، وبايع الضحاك ، ومعه سليمان بن هشام بن عبدالملك ، وذلك في شهر شوال من سنة سبع وعشرين ومائة للهجرة ، اما النضر فهرب الى مروان .

كان هذا التاريخ فذاً في تاريخ الخوارج ، لانها المرة الاولى التي يتفق فيها الخوارج مع الامراء الامويين ، ويأخذون البيعة منهم ، ومن المؤكد ان الخوارج قد سروا سروراً عظيماً بانضمام ابن عمر اليهم - لمكانة والده عندهم - وقد ظهر سرورهم هذا ، وفرحهم به ، بأن ولوه حكم شرقي العراق وكوزستان وفارس ..

وبينما كان مروان لا يزال يحاصر حمص - كما قدمنا سابقاً - عاد الضحاك الى العراق واستولى على الموصل ، واخذ يهدد نصيبين ، فكتب عندئذ مروان الى ابنه عبدالله ان يسير اليها فيمن معه ، ليمنع الضحاك من توسط الجزيرة ، فسار اليها في سبعة الاف ، وسار اليه الضحاك وحصره في نصيبين ، وكان معه ما يزيد على مائه الف مقاتل .

ولما انتهى مروان من امر حمص ، سار الى الضحاك فالتقى به قرب (ماردين) فقاتله يومه اجمع واحدقت بالضحاك ورجاله خيول مروان ، وألحوا عليهم في القتال حتى قتلوهم عند العتمة ، وانصرف من بقي من انصار الضحاك الى معسكرهم لا يعلمون بمقتل الضحاك ، حتى استخرجه بعض جنود مروان من بين القتلى بعد ان طافوا في المعركة وبأيديهم النيران والشمع ، وقد وجدوا في رأسه ووجهه اكثر من عشرين ضربة ، وعندئذ كبّر عسكر مروان ، فعلم عسكر الضحاك انهم قد علموا بقتل قائدهم .

وعندئذ بايع الخوارج (الخيبري) وكان سليمان بن هشام مع الخيبري كما كان قبلا مع الضحاك ، فحارب هذا مروان في فئة من انصاره ، ومزق القلب الذي فيه مروان فارتد وهرب ، وثبت ابنه عبدالله في الميمنة كما ثبتت الميسرة ،

ثم تمكن رجال مروان وجنوده من قتل الخيبري لما وصل الى خيمة مروان ، وعندئذ ولى الخوارج عليهم شيبان ، فقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وابطل الصف بعد ان رأى فساد القتال بالصفوف ، مع تقدم الفن العسكري.

ودخلت سنة تسع وعشرين ومائة ومروان لا يزال يحارب الخوارج وعليهم شيبان الحروري الذي كان في اربعين الف فقط ، والذي نزل الموصل بعدها .

وقد تبعه مروان فانهزم امامه بعد ان وقف الواحد منهما ازاء الاخر عدة اسابيع ، فارسل مروان في اثر (شيبان) احدرجاله فلم يزل يتبعه ويتأثرخطواته حتى وصل الى سجستان وفيها هلك على قول بعضهم ، ويقال من جهة اخرى انه هرب الى عمان فقتل فيها ، وهرب سليمان بن هشام ومن معه من اهله ومواليه وركبوا السفن الى السند ، ولما ولى السفاح اقبل عليه فامّنه اياماً ثم صار قتله.

واما عبدالله بن معاوية بن جعفر الدي غلب على الجبال وحلوان وهمذان فقد حاربه قائد مروان الذي كان يطارد شيبان وهو (عامر بن خبارة) لما وصل اليه وهزمه فهرب الى هراة .

وفي الوقت نفسه كان يزيد بن عمر بن هبيرة قد سار الى العراق بامر مروان فاستولى على العراق من عمال الضحاك او الخوارج فيها ، وهرب منصور بن جمهور الى الهند ، واما ابن عمر فقد قبض عليه في (واسط) ، وبذلك اصبح غربي الامبراطورية وجنوبي شرقها تحت سلطان مروان اخيراً .

ابو حمزة :

وفيما كان مروان وقوادة يتبعون الخوارج واحداً بعد الآخر ظهر زعيم خارجي جديد هو ابو حمزة ، وكان يفد الى مكة كل سنة لتأليب الناس على مروان وحثّهم على قتاله ، فتبعه كثير منهم ، وبلغ من اشتداد امره ، انه جاء الى عبدالله بن يحيي المعروف بطالب الحق سنة ١٢٨ ، وقال له :

ـ اسمع كلاماً حسناً اني اراك تدعو الى الحق ، فانطلق معي فاني رجل مطاع في قومي .

فخرج معه حتى اتيا حضرموت فبايعه ابو حمزة بالخلافة ، ودعا الى قتال مروان وآله .

وفي سنة ١٢٩ خرج ابو حمزة الى مكة في سبعمائة رجل من قبل عبدالله بن يحيى ، ففزع الناس حين رأوهم ، وكان على مكة والمدينة ، عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فراسلهم وطلب منهم الهدنة ، حتى ينتهي موسم الحج ، فاجابوه ، وقالوا : نحن بحجنا اضنّ ، وعليه اشحّ .

فلم يقع شيء في موسم الحج .

ولما انتهى موسم الحج مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة ، فضرب على اهلها البعث ، وزادهم في العطاء عشرة ، واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبدالله بن عمرو بن عثمان ، فمضوا حتى اذا كانوا بعيدين لقيتهم جنود ابي حمزة فاوقعت بهم ، وقتلت منهم مقتلة عظيمة ، وذلك لسبع بقين من صفر سنة ١٣٠ ، ثم سار ابو حمزة حتي دخل المدينة من غير ان يلقي حرباً ، وهرب عبد الواحد الى الشام ، واحسن ابو حمزه السيرة في اهل المدينة ، واقام فيها ثلاثة اشهر ، ثم سار الى الشام فارسل اليه مروان اربعة الاف مقاتل بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي ، فالتقوا مع الخوارج في وادي القرى ، فقتل ابو حمزه وكثير من اصحابه ، ثم سار عبد الملك الى المدينة فالى اليمن وهزم عبدالله بن يحيي المعروف بطالب الحق الذي نصبه ابو حمزه خليفة وقتله مع كثير من اتباعه اواخر سنة ١٣٠ .

الحالة في خرسان :

واذا كان مروان بن محمد قد تمكن من القضاء على الفتن والقلاقل في العراق

والحجاز واليمن وسورية وغيرها ، فان الحالة في خراسان كانت اشد واخطر خصوصاً وقد شغلت مروان الفتن في الاقطار التي ذكرناها ، فلم يفطن لخراسان ولم يتفرغ لها ، ولعل سبب ذلك بعدها ، ووقوعها في اقصى الامبراطورية ، فظل ابو مسلم الخراساني داعية العباسيين وحده فيها يعمل على تأليف الناس ، وتقوية الانصار ، وتعزيز السلاح ، والايقاع بين العرب بعضهم مع بعض ، والدعوة للعباسيين ، حتى تمكن من خراسان كلها ، ثم مدّ سلطانه الى العراق فاستولى عليه من عمال بني اميه ...

وفي شهر ربيع الاول سنة ١٣٢ ، بويع بالكوفة لابي العباس السفاح اول الدولة العباسية ، فلما تمّ له الامر ، فكر في ارسال الجنود لمروان حتى يقضي عليه ، فاختار عمه عبدالله بن علي قائداً لذلك الجند ،فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب (احد فروع دجله) ، فاوقع به هو وجنده في اوائل جمادي الاخرة ، وصار مروان ينتقل من بلد الى اخر ، وعبد الله بن علي يتبعه ولما جاز مروان ارض الشام قاصداً مصر ، ارسل عبدالله في اثره اخاه صالح بن علي ، فلم يزل وراءه حتى عثر به في (بوصير) بالفيوم فقتله في اواخر ذي الحجة سنة ١٣٢ هجرية ، وبموته انهارت الدولة الاموية في الشرق ...

وكذلك ذهبت هذه الدولة التي امتد حكمها مسافة مائتي يوم من المشرق الى المغرب ، تقرأ آي القرآن في سمرقند كما تتلى في قرطبة. ويتلاقى الهندي مع السوداني في مكة للحج ، وكلاهما يدين لبني امية ، وفي ايامهم ظهرت على الممالك قدرة وغنى ، وكانت كلمة الدولة نافذة في ثلاثة اقسام من الارض : آسيا وافريقية وأوروبا .

ملكوا من براري جبل الطور الى قفار ما وراء النهر ، ومن وادي كشمير الى منحدر جبل طوروس على البحر المتوسط واطراف الاناضول وسائر مملكة الاكاسرة وما عجز عنه الاكاسرة .

وأخذت الجزية التي قرّرها عمر بن الخطاب من النوبة كما أخذت من الهند والصين على ما قدّرها مسلم بن قتيبة الباهلي . وكان ذلك على قواعـــد العدل وسنن الحق ، حتى صـــارت دمشق في نظر المسلمين كأنما هي روميــه في نظر المسيحيين .. وانتشرت حضارة الاسلام في نصف قرن تقريباً من سواحل البحر الاطلسي الى بلاد الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءهـــا الى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت في حوزة الاسلام امم كثيرة وسلالات عديدة.. وارض لا تغيب عنها الشمس ...

- ١٥ -

الخلفاء الامويون

وعمالهم وكتابهم

عهد الخلفاء الراشدين :

كتب لرسول الله في عهده غير واحد من الصحابة ، فكان علي بن ابي‌طالب وعثمان بن عفان يكتبان الوحي ، فان غابا كتبـــه ابيّ بن كعب ، وزيـــد بن ثابت .

وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه ، وكان زيد بن ثابت يكتب الى الملوك مع ما كان يكتبه من‌الوحي وكان يكلف رسول الله غيره بالكتابة له ، فيما تدعو الحاجة اليه ..

وكتب لابي بكر عثمان بن عقان وزيد بن ثابت .

وكتب لعمر بن الخطاب زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الارقم ، وكتب له على ديوان الكوفة ابو جبيرة بن الضحاك الانصاري . وظل في مركزه هذا حتى عهد عبيد الله ابن زياد .

نصيحة عمر :

وكان عمر يقول لكتابه ويكتب الى عماله :

« ان القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لغد ، فانكم ان فعلتم ذلك تراكمت عليكم الاعمال ، فلا تدرون بايها تبتدون وايها تأخذون » .

وعمر اول من دوّن الدواوين العربيــــة في الاسلام ، وذلك لما كثرت الفتوحات ، وزادت الغنــــائم ، فاصبحت الحاجة ماسة الى قيد اسمــــاء المسلمين ، وتعيين ما يستحقه كل منهم من الواردات التي تصل لبيت المال .

كاتب عثمان :

وكان يكتب لعثمان بن عفان مروان بن الحكم ، وكان عبد الملك ابنــــه يكتب له على ديوان المدينة — وبعض المؤرخين ينكر ذلك ويقول ان عبــــد الملك كان صغيراً جداً — ومما يذكر من امر عثمان وكاتبه ان المصريين لما صاروا بايلة راجعين عن عثمان ، مرّ بهم راكب انكروا شأنه فاخذوه ، فاذا هو غلام لعثمان على جمل له معروف ، وكان عثمان يحج عليه ، ففتشوه فوجدوا معــه قصبة من رصاص ، فيها صحيفة عليها خاتم عثمان ، ففتحوا الصحيفة فاذا فيها كتاب من عثمان الى عامله على مصر فيه : « اذ اقدم عليك فلان وفلان وفلان فاضرب اعناقهم ، وفلان وفلان وفلان فاقطع ايديهم وارجلهم » وكلهم من المصريين العائدين الى بلادهم بعد اتفاقهم مع عثمان ، فكروا راجعــــين حين وقفوا على ذلك ، فاقرأوا الكتاب اصحاب رسول الله ، فعاتب قوم عثمان على ذلك فقال :

— اما الخط فخط كاتبي ، واما الخاتم فخاتمي ، ولا والله ما امرت بذلك — وكان الكتاب بخط مروان بن الحكم — ..

فقال القوم : ان كنت كاذباً فلا امامة لك ، وان كنت صادقاً فلا يجوز

ان يكون اماماً من كان بهذه المنزلة من الغفلة ، حين يقدم عليه كاتبه بهـذا الامر العظيم ...

والواقع ان مروان بن الحكم كاتب عثمان ، كان سبب الفتنة التي وقعت ولولا تمسك عثمان به وهو من اهله ، لما اقدم الثوار على قتله .

وليس بين كتاب علي بن ابي طالب من يستلفت النظر ..

المسيحيون في الدولة الاموية :

وكان المسيحيون في السنوات الاولى من الفتوح الاسلامية ، وفي عهدالخلفاء الامويين خاصة ، يسيطرون على الدوائر المالية في الدولة، وكان ذلك فيالوقت الذي كان فيه الاسلام في اول نشأته ، والفتوح ما تبرح شديدة قويـة ، ومن المفروض ان يكون كل دين جديد في اوله شديداً على معتنقي الديانات الاخرى ولكن الاسلام كان على غير ذلك ، فقد ظهر اول مـــا ظهر معتدلاً رحب الصدر ليناً ..

ففي عهد معاوية اول خلفاء امية كان يكتب له على ديوان الخراج سرجون بن منصور الرومي ، وكان عمرو بن سعيد بن العاص يكتب له على ديوان الجند ، ويكتب لمعاوية على ديوان الرسائل عبيدالله بن اوس الغساني .

ديوان الخاتم :

وكان معاوية اول من اتخذ ديوان الخاتم وكان سبب ذلك : انه كتب لعمرو بن الزبير بمئة الف درهم الى زياد ، وهو عامله على العراق ، ففض عمرو الكتاب وجعلها مئتيالف درهم ، فلما رفع زياد حسابه قال معاوية : ما كتبت له إلا بمائةالف ، وكتب الى زياد بذلك، وأمره ان يأخذ المئة الف منه،فحبسه بها ، وعلى الاثر اتخذ معاوية ديوان الخاتم ، يختم به رسائله ويسجلها ..

وكان العرب قبل عهد معاوية يبدأون بانفسهم في رسائلهم فيقولون من فلان الى فلان ، وفي ايام معاوية، اخذ العمال حين يكتبون الى معاوية يقدمون اسمه على اسمائهم .

ابن اوثال :

وكان يكتب لمعاوية على ديوان خراج حمص ابن اوثال النصراني .

وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عاملاً على حمص ، فطالت امرته ، فخشي معاوية ان يبايع له اهل الشام بالخلافة ، لما كان عندهم من آثار ابيه وعظيم شرفه بينهم ، فدسّ اليه ابن اوثال من سقاه سماً فمات.. فجلس المهاجر بن خالد بن الوليد مع عروة بن الزبير بالمدينة فقال عروة للمهاجر : هذا ابن اوثال يفخر بقتل عبد الرحمن .

فخرج المهاجر من فوره حتى اتى دمشق ، فسأل عن ابن اوثال ، فأخبر انه من كتاب معاوية ، فوقف ناحيته حتى خرج من ديوانه ، فلما رآه المهاجر قال له : ان لي اليك حاجة ، فاعدل معي .

فعدل معه الى زقاق ، وكان معه سيفه ، فعلاه به فقتله ، فاخذه معاوية فحبسه سنة ثم خلاه ..

ويستفاد من هذه القصة انه كان لكتاب معاوية ديوان خاص بهم يأتونه صباحاً ويفارقونه مساءً ...

وكتب ليزيد بن معاوية كتاب ابيه ، وبينهم سرجون بن منصور وكذلك كتب سرجون لمعاوية بن يزيد ، ولمروان بن الحكم .

عبد الملك بن مروان :

كتب لعبد الملك قبيصة بن ذُويّب وكان خاصاً به ، وبلغ من لطافة محله

منه انه كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل ان يقرأها الخليفة نفسه ، وكان يكتب لعبد الملك غيره ايضاً ، وتوفي قبيصة في عهد عبد الملك ..

وكان يتقلد ديوان الشام بالرومية لعبدالملك ولمن تقدمه سرجون بن منصور النصراني فامره عبد الملك يوماً لشيء فتثاقل عنه ، وتوانى فيه ، فعاد لطلبه وحثّه فيه ، فرأى منه تفريطاً وتقصيراً ، فقال عبدالملك لصاحب ديوان الرسائل :

ــ اما ترى ادلال سرجون علينا ، واحسبه قد رأى ضرورتنا اليه والى صناعته ، افما عندك حيلة ؟

قال : لو شئت لحوّلت الحساب الى العربية .

قال عبد الملك : فافعل .

فحوّله ، فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام ، وهو ابو ثابت سليمان بن سعد الخُشني.

الحجاج ورئيس ديوانه

وكان يزيد بن ابي مسلم ــ وكان اخا الحجاج من الرضاعة ــ يتقلد للحجاج ديوان الرسائل ، وكان الحجاج يجري له في كل شهر ثلاثمائة درهم ، يعطي امرأته منها خمسة واربعين درهماً ، وينفق باقيها في ثمن الفحم والدقيق وباقي نفقته ، فان فضل منها شيء ابتاع به ماء وسقاه المساكين ، وربما ابتاع اكسية فرّقها عليهم ، وكان مع ذلك شديداً على الناس في سبيل الحجاج .

وكان الوليد اول من كتب من الخلفاء في الصحف ، وامر بان تعظّم كتبه ، ويجلّل الخط الذي يكاتب به ، وكان يقول :

ــ تكون كتبي ، والكتب اليّ .. خلاف كتب الناس بعضهم الى بعض .

سليمان وعماله وكتابه :

ويقـــال ان رجلاً من اهل فلسطين كان يكتب لسليمان اشار عليه ببناء الرملة فيها .

ولما تولى سليمان الخلافة صرف يزيد بن ابي مسلم كاتب الحجاج عن العراق حربه وخراجه ، وقلدّ الحرب يزيد بن المهلب صديقه ، وكان قد قلده الحرب والصلاة والخراج – اي جمع كل هذه الوظائف فيه – فكره يزيد تقلد الخراج – اي وظيفة جبايةالاموال والضرائب – لان الحجاج خرب العراق ، وخاف ان اشتد على اهل العراق ان يذموه ، وان خفـّف الوطأ عنهم ان يقل الوارد فلا يرضى سليمان بذلك فاستعفى من الخراج ، وسلمه الى غيره .

يزيد بن المهلب :

وكان يكتب ليزيد بن المهلب ، المغـــيرة بن ابي قرّة ، فكتب يزيد الى سليمان يخبره بفتح جرجان ، ويعظّم امرها وحالها ، ويذكر له انه قد حصل في يده من المال ، بعد ما صار الى كل ذي حق حقه ستة الاف الف درهم .

فقال له المغيرة كاتبه : لا تكتب بتسمية مال ، ودعه مجملاً ، ولعل امير المؤمنين اذا لم يعرف مبلغه ان يسمح لك به ، واذا عرفه استكبره وامر بحمله ، وان امسك عنك فيه بقي ذكر المـال مخلداً في الديوان ، وان ولي وال بعدك اخذك به ، وان كان ممن يتحامل عليك لم يرض منك باضعافه .

فابى يزيد قبول ذلك ، وامضى الكتـاب به ، فورد على سليمان في اول سنة ٩٩ هجرية ، وتوفي في صفر منها قبل ان يأمر في المال بشيء .

فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز صرف يزيداً عن عمله ، ولما صار اليه سأله عن الاموال التي كتب بها الى سليمان ، وامر بحبسه ، فلم يزل بحبسه حتى حضرت عمر الوفاة ، فهرب يزيد من محبسه ، وذهب الى العراق حيث ثار على يزيد بن

عبد الملك الذي كان يبغضة ويكرهه ، بقدر ما كان يحبه شقيقه سليمان .

وكان ليزيد بن المهلب حظوة خاصة عند سليمان ، يجلس على سريره ، فاذا جاء سليمان تنحى يزيد بن المهلب عنه ، وان جـــاء يزيد وسليمان على السرير جلس معه .

سليمان ورعيته :

وكان سليمان ولى رجلاً يقال له اسامة بن زيد ، وكان كاتباً نبيلاً ، الخراج بمصر ، فبلغه ان عمر بن عبد العزيز يعيب عليه سيرته وشدته ، فقدم اســامة على سليمان بمال اجتمع عنده ، وتوخى وقتاً يكون فيه عمر عند سليمان ، فلما بلغه حضور مجلسه ، استأذن عليه ، وطلب من سليمان ان يخفـف من خراج الرعية بمصر بما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها ، فرفض سليمان ، وأمره باخذ الناس على النحو الذي يأخذهم به حتى الان .

وخرج اسامة بن زيد ووقف لعمر بن عبد العزيز حتى خرج ، فركب ثم سار معه وقال له : انه بلغني يا ابا حفص ، انك تلومني وتذمني ، وقد سمعت اليوم ما كان من مقالتي لابن عمك وما ردّ عليّ وعرفت عذري .

فقال عمر : سمعت والله كلام رجل لا يغني عنك شيئاً ..

عمر بن عبد العزيز :

وكان عمر بن عبد العزيز يأمر كتـابه بجمع الخط اقتصاداً منه بالصحف ، ـ الورق ـ فكانت كتبه انما هي شبر او نحوه ، وذلك توفيراً على الخزانة العامة ..

ولما سأله احد عمـاله بعض الصحف كتب اليه : ان دقّق القلم ، وأوجز الكتاب ، فانه اسرع للفهم .

ومن النوادر التي حصلت في عهد عمر بسبب تدقيق القـلم ، وجمع الاسطر

بعضها الى بعض ، انه لما كتب عمر الى عـامله في المدينة ان احصى المخنثين ، صحف الكاتب الكتاب فقال اخص مكان احص ، فجمع العامل كل من قدر عليه منهم فخصاهم جميعاً .

وكان عمر الى هذا من الخلفاء الذين أنذروا عمـالهم بان لا يؤخروا العدل عن احد من الناس ، وان ينصفوا الناس حالاً ، ولا يردوا طالباً ، ولا صاحب مظلمة ووجاهة .

وفي عهد عمر طلب من كاتبه ان يبحث في دفاتره ، حتى اذا وجد مسلماً او مسيحياً قد ظلم في عهده او قبل عهده انصفه ورفع الظلم عنه .

وليس في عهد يزيد بن عبد الملك ما يستلفت النظر ..

ايام هشام بن عبد الملك :

وكان يكتب لهشام سعيد بن الوليد الكلبي .. وكان غالباً متسلطاً عليه .

ولما توفي يزيد وافضى الامر الى هشام ، أتاه الخبر وهو في ضيعة له ومعه جماعة من اصحابه فيهم سعيد كاتبه ، فلما قرأ الكتاب سجد ، وسجد من كان معه من اصحابه خلا سعيد ، فانه لم يسجد ، فقال له هشام :

– يا سعيد ، لمَ لم تسجد كما سجد اصحابك ؟

فقال : علام اسجد ، أعلى ان كنت معي فطِرت ، فصرتَ في السماء .

قال هشام : فان طيّرناك معنا ؟ .

قال : الآن طاب السجود ..

وكان هشام يعتم يوماً ، فقام سعيد ليسوي عمامته ، فقال له هشام :

– مه .. فانا لا نتخذ الاخوان خولاً .

سعيد وابن هبيرة :

وكان سعيد كاتب هشام يكره عمر بن هبيرة ويحاول الإيقاع به عند هشام، فمن ذلك هذه القصة عنهما :

كان ابن هبيرة يسير اذا ركب هشام بعيداً عنه قليلاً ، اي لا يتقدمه ولا يحازيه، وكان هشام معجباً بالخيل، فاتخذ سعيد كاتبه عدة خيل جياد وأضمرها وأمر المجرين لها ان يعارضوا هشاماً اذا ركب ، فان سألهم قالوا : انها لابن هبيرة ..

فركب هشام يوماً ، فعورض بالخيل ، فنظر الى قطعة من خيل حسنة ، فقال : لمن هذه ؟

فقالوا : لابن هبيرة ..

فاستشاط غضباً وقال : والله ما رضيت عنه بعد ، ثم هو يباريني بالخيل . عليّ بابن هبيرة ..

فدُعي من جانب الموكب ، فجاء مسرعاً فقال هشام :

— ما هذه يا عمر ، ولمن هي ؟

ورأى عمر الغضب في وجه هشام فعلم انه قد كيد له فقال :

— خيل لك يا اميرالمؤمنين ، علمت عجبك بها ، وانا عالم بجيادها فاخترتها وطلبتها من مظانها ، فمر بقبضها ..

وكان ذلك سبب اقبال هشام عليه ، وفشلت خطة سعيد ضد ابن هبيرة ، فانقلبت لمصلحته لا عليه .

هشام وكاتب :

وحكي ان هشاماً أقطع قبل ان يلي الخلافة ارضاً يقال لها (دورين) فارسل

في قبضها ـ قبض أجارها ـ فاذا هي خراب فقال لذويد ، كاتب كان بالشام :

ـ ويحك كيف الحيلة ؟

فقال الكاتب : ما تجعل لي ؟

فقال : اربعمائة دينار .

فكتب الكاتب (دورين وقراها) ثم امضاها في الدواوين ، فأخذ هشام شيئاً كثيراً .

فلما ولي هشام دخل عليه ذويد فقال له هشام :

– دورين وقراها ، والله لا تلي لي ولاية ابداً .. واخرجه الى الشام .

وكذلك نرى ان هشاماً رضي عن هذا الكاتب يوم لم يكن خليفة ، واتفق معه على تلك الحيلة التي جعلت لهشام ارضاً واسعة عظيمة بعد ان كانت محدودة صغيرة ، ولكنه لما ولي الخلافة ، اخرجه من وظيفته لانه كان يعرف ارتكابه وقد جربه بنفسه .

خالد بن عبد الله القسري :

وكان هشام يعتمد على خالد القسري فولاه العراق وخراسان او المشرق كله ، وبعد مضي سنوات عديدة على ولايته ، ابلغوا امير المؤمنين عنه ان غلته بلغت ثلاثة عشر الف درهم ، وكان هشام رجلاً بخيلاً فوقر هذا الخبر في نفسه ، وراح يفكر في عزل خالد عن العراق قبل ان يتأكد من صحة الخبر .

ثم عزله عن العراق وعيّن مكانه يوسف بن عمر المضري ، وخالد من اليمنية ، ولما وصل يوسف بن عمر الى العراق اخذ كتّاب خالد جميعهم وحبسهم وعذبهم ، واستخرج منهم تسعين الف الف درهم .

وعمت الدولة على الاثر عادة قبيحة مفجعة هي ان يشتري العمال مناصبهم بالمال ، ثم يستردون هذا المال من الحاكم الذي سبقهم ، فيأخذونه هو واعوانه وكتابه الى السجن ، ولا يزالون بهم حتى يأخذوا منهم كل ما عندهم، وما عند اصدقائهم وانصارهم واهلهم ممن يرغب في مساعدتهم .

وكذلك يقص علينا المؤرخون ان بعض انصار خالد واعوانه لما علموا بان هشاماً يريد عزله ، طلبوا من خالد ان يذهبوا الى هشام فيضمنوا له اموال العراق كله ، على الوجه الذي يريده هشام ، وعلى القدر الذي يصار تحصيله من العراق .

في خراسان :

وكان اكثر كتاب خراسان اذ ذاك مجوس ، وكانت الحسابات بالفارسية فكتب يوسف بن عمر ، وكان يتقلد العراق في سنة مائة واربعة وعشرين ، الى نصر بن سيار حاكم خراسان كتاباً انفذه مع رجل يعرف بسليمان الطيار، يأمره ألا يستعين بأحد من اهل الترك في اعماله وكتابته .

وكان اول من نقل الكتابة من الفارسية الى العربية بخراسان اسحاق بن طليق الكاتب .

ولم يكن في ايام الوليد بن يزيد بن عبد الملك ما يذكر .

عهد يزيد بن الوليد الناقص :

كان برد بن سنان قد اشار على يزيد بن الوليد ان يعهد فقال :

ـ اني لا اعرف من يصلح ، فهل تعرف احداً ؟

فقال برد : امير المؤمنين اعلم باهل بيته ، اما ان اهل العراق يحبون هذا حباً شديداً لمكان ابيه ـ يعنى عبدالله بن عمر بن عبد العزيز ـ

وان اهل الشام ليذكرونه ويفضلونه ..

فقال يزيد : فادع دواة وقرطاساً .

فقال برد : فدعوت بها فقال يزيد : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، وأغمي عليه ودخل في هذه الاثناء (قطن) مولاه وكان يتقلد مع ديوان الخاتم حجابته فسأل عن الدواة والقرطاس فقلت : ان امير المؤمنين اراد ان يعهد .

فولي ثم رجع ، وقد افاق يزيد فقال :

– اصلح الله امير المؤمنين ، انا رسول من وراء هذا الباب ، يناشدونك الله في دمائهم ، ويسألونك بالله لما ولّيت امرهم ابراهيم بن الوليد .

فقطّب يزيد ، ثم نظر اليه غاضباً وضرب بيده على جبينه وقال :

– انا أوليّ امرهم ابراهيم !

قالها مرات.. ثم أغمي عليه ، فخرج (قطن) فقعد في البيت الذي كان فيه ، فكتب كتاباً على لسان يزيد بتولية ابراهيم ، ثم خرج بالكتاب ، وقرأه على الناس ، فبايع بعض الناس ابراهيم ، ولم يبايعه البعض الآخر ..

وكتب اهل حمص الى مروان بن محمد يسألونه الحضور اليهم ، ووقعت الفتنة ..

ايام مروان بن محمد

وكان يكتب لمروان بن محمد عبد الحميد بن يحيى الكاتب الاديب المشهور وقد نصحه لما احسّ بعلو امر بني العباس ان يزوجهم من اهله ، ويتزوج منهم توثيقاً لامره ، فقال له مروان :

– والله اني لا أعلم ان الرأي فيما تقول ، ولكني اكره ان اطلب النصر

من النساء .

. . .

ولما قوي امر بني العباس وظهر ، قال مروان لعبد الحميد :

ـ سيضطر اليك هؤلاء القوم – يعني بنو العباس – فعد اليهم فقد تنفعني في نفسي وفي اهل بيتي ...

فقال له عبد الحميد : وكيف لي بان يعلم الناس جميعاً ان هذا عن رأيك ، وكلهم يقول : اني غدرت وصرت الى عدوك .

فلما سمع ذلك مروان علم انه لا يفعل ، ثم قال له عبد الحميد :

« الذي امرتني به انفعُ الامرين لك ، واقبحهما لي ولك عليّ الصبر معك الى ان يفتح الله عليك ، او أقتل معك » .. وقد قتل عبدالحميد فعلاً بعد مقتل مروان بن محمد .

دقة مروان :

وذكر مخلد بن محمد بن الحارث ، وكان من كتاب مروان الى ان قتل ، فاتصل بعبدالله بن علي المنصور .. انه حضر مجلس المنصور يوماً فسأله عن مروان وقال له : حدثني عنه .

فقال : انه قال لي يوم الوقعة : احزر لي القوم .

فقلت : اني صاحب قلم ولست بصاحب حرب .

فاخذ يمنة ويسرة ونظر ثم قال لي :

ـ هم اثنا عشر الفاً ...

فجلس المنصور وكان متكئاً ثم قال :

ـ لله دره .. ما احصى الديوان يومئذ اكثر من اثني عشر الفاً ..

واهدى عامل لمروان غلاماً اسود ، فقال لعبد الحميد :

ـ اكتب اليه فاذمم فعله ..

فكتب اليه عبد الحميد :

«لو وجدت لوناً شراً من السواد ، وعدداً اقل من الواحد لا هديته» .

- ١٦ -

اسباب الانحلال : - ١ -

نظام البيعة في عهد الامويين

معاوية ونظام البيعة :

عرضنا لمسألة الخلافة في الاسلام ، وكيف ظهر الاختلاف بشأنها بعد وفاة رسول الله مباشرة ، وسبب ذلك ان رسول الله توفي دون ان يعين خليفة ، او يوصي لاحد من رجاله وصحابته ، فأخذ الصحابة عندئذ يجتهـــدون فيمن يكون خليفة رسول الله من بعده ، وكيف نشأ الاختلاف بين الصحـــابة من الانصار والمهاجرين في اول الامر ، ثم بين المهاجرين الذين استقرت فيهم الخلافة ، وآل البيت من انصار علي الذين كانوا يرون ان عليـاً احق بالخلافة من غيره لقرابته من رسول الله ، ثم كيف تطور هذا المبدأ عند انصار علي حتى اصبح في نظرهم جزءاً من الايمان ، وكيف كانت الخلافة في عهـــد الخلفاء الراشدين شيئاً هيناً رقيقاً من نظم الحكم ، يكلف بها احد المسلمين ممن اشتهر اخلاصهم وحمد فعلهم ، وعرف فيهم الجلد والحزم على الاضطلاع باعباء الحكم ، والعمل

على اقرار العدل والانصاف بين الجماعة الاسلامية .

وقد رأينا كيف صار اختيار الخليفة في هذا العهد ، وكيف ان احداً من الخلفاء الراشدين لم يعيّن احد ابنائه ليكون خلفه من بعده ، فاجتهد ابو بكر للمسلمين واختار لهم عمر بن الخطاب ، ولما طُعن عمر اختار الستة من الشورى بقية العشرة من صحابة رسول الله ليصار الى اختيار احد منهم ، فاختاروا عثمان بن عفان ، فلما قتل عثمان بن عفان ، اختار الصحابة الذين كانوا في المدينة وايّدهم بعض اهل الامصار علياً بن ابي طالب ، وقد مات علي دون ان يعين خلفه من بعده ، فاختار جماعته ابنه الحسن بن علي ، فلما احسّ هذا بعظم المسؤولية ، ووجد ان الامر لن يستقر معه إلا بعد حرب جديدة مع معاوية وانصاره من اهل الشام ، فضل التنازل عن حقه في الخلافة لمعاوية حقناً للدماء ، وقضاء على الفتن الداخلية في الاسلام .

البيعة في عهد الامويين :

فلما كان الامر لمعاوية بعد مقتل علي رضي الله عنه ، اتبع في نظام البيعة سبيلاً جديداً لم يؤيده احد ولم يقبله الا شيعته وانصاره ، بايع لابنه يزيد بن معاوية ، واخذ له البيعة في حياته قسراً ولو كان يزيد اهلاً للخلافة لكان الشر هيناً ، ولكن يزيداً لم يكن للخلافة اهلا ، ولا للحكم صالحاً ، وكان الناس يعرفون ذلك ولا ينكرونه فلما ولي الخلافة ثار الحجاز على خلافته ، وخرج الحسين بن علي الى العراق مطالباً بالخلافه ، فكثرت الثورات ، وزاد الاضطراب ، وعمت الفوضى ، وليس ادل على انكار العرب لولاية يزيد من قول الاحنف بن قيس لمعاوية ، يوم طلب منه البيعة فقال :

— نخافكم ان صدقنا ، ونخاف الله ان كذبنا ، وانت يا امير المؤمنين اعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فان كنت تعلمه للامة رضا ، فلا تشاور فيه ، وان كنت تعلم فيه غير ذلك ، فلا تزوده الدنيا ،

وانت صائر الى الآخرة ، وانما علينا ان نقول سمعنا واطعنا».

ولقد كان من اثر تولية معاوية ليزيد ان اتبع يزيد خطة ازهدت الناس في ولايته ، واكرهت المسلمين على بغضه ، فقد اباح المدينة لجنده ، بعد اقتحامها واكثر السفك والدم فيها ، ولو كان عاقلا بعيد النظر ، لأخذ اهل المدينة بالتي هي احسن لا بالتي هي اقبح ، ثم لعاملهم بما يجب ان يعاملهم به خليفة يريد المحافظة على ملكه وعرشه ، وزاد في كره الناس له مقتل الامام الحسين في عهده ، وكان من حسن السياسة اسره لا قتله ، فلم تدم ولايته كثيراً ، وقام بالامر ابنه معاوية من بعده ، فلم يتمتع بالملك لمرضه وزهده ، قيل لم يزد عهده عن اربعين يوماً ، وقيل اكثر ثم ترك الخلافة لشأنها ، فلم ينتخب احداً ، ولم يبايع لاحد ، فانتقلت الخلافة من آل ابي سفيان الى بني مروان ، وكذلك نرى ان الطريقة التي اتبعها معاوية في نظام البيعة لم تعش بعده اكثر من اربع سنوات وأشهر وايام ، ثم انتقلت الخلافة الى عائلة ثانية لم يكن يفطن معاوية انها ستكون لها ، وان سعيه سيكون لغير اولاده من بعده .

طريقة جديدة :

فلما ولي مروان بن الحكم الخلافة بعد معاوية بن يزيد ، خرج في نظام البيعة بنظام جديد لم يسبق له مثيل ، ذهب يولي عهده اثنين من اولاده من بعده ، يلي احدهما الآخر ، وكانت هذه الطريقة من اكبر المصائب التي نزلت بالبيت الاموي المالك ، بذرت بذور الشقاق والبغضاء بين افراد البيت ، واورثت بينهم الحقد والكراهية ، وسبب ذلك انه لم يكد يتم الامر لاولهما حتى يعمل لاقصاء الثاني من ولاية العهد ، واحلال احد بنيه مكانه ، ولم يقتصر هذا النزاع بين افراد البيت المالك ، بل تعداهم الى القواد والعمال ، فانه لم يكن يتم الامر لثانيهما بعد وفاة شقيقه الاكبر حتى نراه ينتقم ممن ظاهر شقيقه وايده

على عزله من ولاية العهد ، من القواد والعمال ..

ولي مروان بن الحكم عهده لابنيه من بعده ، عبد الملك ثم عبد العزيز ، فلما تسنّم عبد الملك بن مروان الخلافة طلب من عبد العزيز شقيقه ان يتنازل عن البيعة لابنيه الوليد وسليمان ، فرفض عبد العزيز ذلك فاراد عبد الملك ان يعزله ، فاستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه عن ذلك ، فاستشار روح بن زنباع فقال له : لو خلعته ما انتطح فيه عنزان، فبينا هو على ذلك اذ جاء الخبر بوفاة عبد العزيز فقال عبد الملك لروح :

ــ كفانا الله يا ابا زرعة ما كنا فيه ، وما اجمعنا عليه .

وعهد الى ابنيه الوليد ثم من بعده لسليمان ، وكتب ببيعته لهما الى البلدان ، فبايع الناس خوفاً وفزعاً ، وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب احد التابعين فضربه امير المدينة وطاف به وحبسه .

ولو لم يمت عبد العزيز ، لوقع الاختلاف طبعاً ، ولاستقل عبدالعزيز بمصر ، وحارب شقيقه ومن والاه في سبيل الخلافة .

الوليد وشقيقه :

فلمـا كان عهد الوليد بن عبد الملك عمل على خلع اخيه سليمان من ولاية العهد ، وجعلها لابنه عبد العزيز ، وكتب الى العمال بذلك ، فاجابه الحجاج ابن يوسف والي العراق ، وقتيبة بن مسلم عامل خراسان ، ومحمد بن القاسم والي السند ، واجزل الوليد العطاء للشعراء للاشادة بفضل ابنه عبد العزيز ، ثم اشار عليه بعض خـاصته ان يستقدم سليمان اليه ، ويريده على خلع نفسه وبيعة عبدالعزيز ، فكتب الوليد اليه ، فاعتل سليمان وتظاهر بالمرض ، فاراد الوليد ان يسير اليه ، فامر النـاس بالتأهب ــ وكان سليمان بالرملة من ارض

فلسطين — ولكن منيته حالت دون ذلك ، ولم يجن الوليد من وراء ذلك سوى بث روح الكراهية والبغضاء بينه وبين اخيه ، وجعل عماله تحت رحمة الخليفة المقبل ، الذي كان اول عمله الانتقــام من العمال والقواد الذين أيدوا شقيقه الخليفة السابق عليه .

وهكذا بدأ سليمان عهده بالانتقام من كبار القواد وخيرة العمال والتشفي منهم ، وكان من حسن حظ الحجاج ان مات في عهد الوليد ، على ان ذلك لم يصرف سليمان عن الانتقام من اهل بيته ، فقد أمر يزيد بن المهلب — وهو عدو الحجاج الالد — وصالح بن عبد الرحمن ان يذيقا آل الحجــاج أشد صنوف العذاب ، وذهب محمد بن القاسم البطل العربي العظيم الذي بسط نفوذ الدولة على الهند والسند ضحية هذه السياسة البغيضة ، كما راح قتيبة بن مسلم واضع الجزية على ملوك الصين في سبيلها .

سليمان ومن بعده :

ولقد عهد سليمان في حياته لابنه ايوب بالخلافة من بعده ، ولكن هذا مات في حياة والده ، فعهد سليمان في اثنــاء مرضه لعمر بن عبد العزيز ، ولشقيقه يزيد بن عبد الملك من بعده ، وعمر بن عبد العزيز شخصية خرجت على مثال عمر بن الخطاب ، إلا انه كان ينقصه شدة عمر وحزمه ، وامــا يزيد بن عبد الملك فقد افتتح عهده بأن عمد الى كل عمل صالح فعله عمر فازاله ، ثم اثار في عهده العصبية الجاهلية فانحاز الى بطن من بطون العرب دون غيره ، ومثل هذا لا يجب ان يصدر عن مثله وفي مثل منصبه ، لان المفروض في الخليفة ان يكون للناس جميعاً ، لا ان يؤيد حزباً دون حزب اخر .. وسيصــار الى بحث هذه الظاهرة الخطرة في مكان اخر .

وكان يزيد الى ذلك يريد تولية عهده لابنه من بعده ، فلما قيل له : « انه صغير » ، ولى اخاه هشاماً ومن بعده ابنه الوليد .

فلما كان عهد هشام كان الاختلاف بين هشام وولي عهده – ابن شقيقه – اشدّ واقصى ، وقد ذكرنا خبر ذلك في مكان اخر من هذا الكتاب ، فخرج الوليد الى البرية مغاضباً لهشام ، فلما مات هذا ، كان اول ما استفتح به الوليد ابن يزيد ابن عبد الملك من شؤون الملك تنكيله بكل من اعان هشاماً عليه ، وهم كثير من سادة الامة وافراد البيت المالك ، واخذ سليمان بن هشام ، اي ابن الخليفة السابق ، فضربه مــائة سوط ، وحلق رأسه ولحيته وغرّبه الى عمان ، وحبس يزيد بن هشام وارسل غيرهم الى بعض عماله فقتلوهم بعد ان عذبوهم كخالد بن عبدالله القسري ، فزاد الشقاق في البيت المـالك ، وظهرت العصبية ، ولم يطل الامر حتى ظهرت الثورة على الوليد ، وقادها يزيد بن الوليد ابن عبد الملك نفسه ، وكان من نتائجها قتل الوليد وقيام يزيد الثالث مكانه ، وفي عهده كثرت الثورات واشتد الشقاق في الشام ومختلف اطراف الدولة ، ولم تطل مدة يزيد فمات بعد اشهر قليلة ، وقــام بالامر بعده شقيقه ابراهيم ابن الوليد فلم يتم الامر له ، وثار مروان بن محمد بن مروان والي الجزيرة وارمينية عليه فهرب من دمشق حتى أمّنه مروان .

وكان مروان آخر خلفاء بني امية ، وفي عهده عظم امر الدعوة العباسية ، واشتد خطرها حتى غمرت البلاد كلها ، وحتى غُلب مروان على امره آخر الامر ، وانتقل الملك من بني امية الى العباسيين .

نتائج هذه السياسة :

ومن هذا يظهر لنا ان خلفاء بني امية ساروا جميعاً على اختيار اولياء العهد

في حياتهم ، فكلهم كان مختاراً من سلفه ما عدا رأس هذه الدولة معاوية بن ابي سفيان ومروان بن الحكم ، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد ، فان هؤلاء الاربعة قد اخذوا الخلافة بالقوة ، فمعاوية اختاره اهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الامر ، ومروان اختاره بعض اهل الشام بعد موت معاوية الثاني ، ويزيد الثالث خرج على ابن عمه الوليد بن يزيد الثاني، حتى قتله وحلّ محله ، ومروان بن محمد دعا الى نفسه بعد وفاة يزيد الثالث ، فبايعه قوم وكرهه اخرون ، فضرب من والاه بمن عارضه وخاصمه حتى زالت دولته ودولة الامويين في عهده .

اما من عدا هؤلاء الاربعه فقد صار اختيارهم من قبل اسلافهم ، ولم يحصل في عهد بني امية ان اختار احدهم شخصاً واحداً لولاية عهده ، بل كانوا دائماً يختارون شخصين لولاية العهد مما كان سبباً في الشقاق الذي بسطناه قبلاً ، وكانوا يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهودهم ، فاذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيداً للعهد والميثاق ، واول من كان يبايع امراء البيت الاموي ، ثم يليهم القواد ثم امراء الامصار ، وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت امرتهم ، وكانت البيعة على السمع والطاعة ، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وقد شذوا احياناً عن نص البيعة ، اذا كانت بعد ثورة ، فقد اخذ مسلم بن عقبة البيعة على اهل المدينة بعد موقعة (الحرة) على انهم خَول ليزيد بن معاوية ، يحكم في انفسهم واموالهم وابنائهم ، واخذ الحجاج البيعة على الثوار الذين ايدوا عبد الرحمن بن الاشعث على ان يقروا على انفسهم بالكفر بخروجهم وثورتهم .

وكذلك يرى القارىء كيف فسد الامر على الامويين بسبب نظام البيعة الذي اجروه قانوناً فيما بينهم ، وكيف ان هذا النظام كان سبب الاختلاف

والشقاق بين الامويين انفسهم ، ومتى اختلف الحزب الحاكم على بعضه ، فان ذلك يكون ابداً نذيراً باختلاف الاطراف ، وظهور الشقاق وقرب الانهيار والانحلال .

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير انت على كل شيء قدير » .

- ١٧ -

اسباب الانحلال - ٢ - :

الثورات الداخلية

الخوارج ، الشيعة ، مسألة المهدي ، واختلاف البيت المالك

الزحوف العربية وأثرها :

يقول نولدكه المستشرق الالماني في تعليقه على الثورات الداخلية التي وقعت في الاسلام :

« ان الثورات الداخلية التي وقعت اواخر عهد الخلفاء الراشدين ، ثم بعد وفاة معاوية بن ابي سفيان ، كانت نعمة عظيمة لاوروبا ، اذ شغلت العرب عن الفتوح في آسيا الصغرى ، والامتداد الى اسبانيا ومنها الى قلب اوروبا » .

وسبب هذه النعمة التي لحقت اوروبا ، ان العرب كانوا في هذه الاثناء ، على جانب عظيم من القوة والجرأة ، والبسالة والحماسة الدينية ، بحيث ان احداً لم يكن يطوقه ان يقف في وجههم او يؤخر زحفهم ، وكانت الحالة في آسيا الصغرى وأواسط اوروبا مواتية للزحف العربي ، ولكن الثورات الداخلية منعت

العرب عن التقدم ، فذهبت منهم الفرصة السانحة ، ولولا هذه الثورات لتبدل وجه التاريخ .

وهنا لا بد من التبسط قليلاً في وصف الزحوف العربية الاولى ، وقوتها ، ليقع القاريء على الاسباب التي جعلت من الفتن العربية الداخلية نعمة عظيمة لاوروبا ، تنفست معها الصعداء ، وراحت تعزز حالها وتجمع اطرافها ، حتى اذا عاد العرب الى زحوفهم وانتهت ثوراتهم وجدوا الرومان في آسيا الصغرى امضى سلاحاً ، ووجدوا الفرنجة في فرنسا ، اثبت قدماً ، واشد حرباً ..

لقد كان العرب جيراناً مزعجين للروم والفرس ، ولكن احداً لم يكن يفطن الى ان هؤلاء الجيران سيشكلون في المستقبل خطراً على سلامة الدولتين .

ومع ان العرب لما زحفوا على الروم والفرس في عهد ابي بكر ، كانت الحالة العسكرية والمالية والاجتماعية في الدولتين لا تبعث على الرضى والارتياح ، بسبب الحروب الاخيرة التي جرت بينهما والتي دامت من سنة ٦٠٧ — ٦٢٨ ، وكانت امصار كثيرة في الامبراطورية الرومانية خصوصاً في فلسطين وسورية ومصر في حالة مؤسفة من الخراب والدمار ، فان الامبراطور هراقليوس تمكن من قلب دولاب الدهر ، وانتصر على الفرس اخر الامر ، وفرض شروطه عليهم وفي ارضهم .

ومع فشل الفرس في حروبهم مع الروم اخر الامر ، وتكاثر الثورات الداخلية بينهم ... وذلك قبيل الفتح العربي ، فان القوم عادوا فاصلحوا حالهم ولموا شعثهم ، وثبّت رستم القائد الفارسي الملك يزدجرد على العرش ..

بقيت هناك ظاهرة لم يفطن لها بعض المؤرخين ، وهو ان الفرس في حروبهم ضد الروم قد اضعفوا الغساسنة ومزقوهم ، كما فعل الروم بامراء الحيرة لما حالفهم النصر وردوا الفرس عن بلادهم ، والغساسنة كانوا انصار الروم ، والمناذرة انصار الفرس ، وكانوا يقومون بحراسة الحدود الرومية والفارسية ويقفون سداً منيعاً في وجه غزاة العرب ، فاضعافهم كان اضعافاً لهذه الحدود

المنيعة ، بحيث لما تقدم العرب لم يجدو امامهم سداً قوياً ، ولا حصوناً قوية.

وهناك ظاهرة اخرى ، وهي معركة ذي قار ، الذي كسر فيهـا بنو شيبان — وهى قبيلة عربية — جموع الفرس وردوهم على اعقابهم ، فان هـذه المعركة وان لم تكن خطيرة على مصائر الامبراطورية الفـارسية ، إلا انهـا فتحت عيون العرب ، الى ان بمقدورهم مقاومة جنود الامبراطورية الفارسية ، وهذا امر يجب ان يحسب له حسابه في دراسة تاريخ الزحوف الاولى ، لاننا نجد بعد فترة من الزمن بني شيبان في الصف الاول من الجيش العربي الزاحف على بلاد فارس .

اسرار الزحوف :

ومع ذلك فان الزحوف العربية الاولى — على فارس والروم — كما يقول (نولدكه) لا تزال محوطة بالاسرار ، فما هو سبب الانتصارات العربية الاولى؟؟

ان الجيوش العربية الزاحفة لم تكن كثيرة العدد ، وهراقليوس كان بارعاً بعيد النظر ، ولم تكن جيوش الروم يغلبها الوهن والضعف ووراءهـا كل هـذه الانتصارات الاخيرة على الفرس ...

ولما بدأت المعارك بين الفرس والعرب كانت الحروب الداخلية في بـلاد فارس قد انتهت ، وكان رستم قائد الجيش الفارسي باسلاً جريئاً ، واذا كانت المعارك بين الروم والفرس قد اضعفت جيوش الدولتين ، فان هذه الجيوش كانت لا تزال تصلح للحرب والكفاح ، وكانت ما في ذلك شك ولا ريب امضى من العرب سلاحاً ، واكثر عدداً ، ثم ان الروم كانوا يحاربون العرب في جبهة واحدة ، وكان الفرس مثلهم ، واما العرب فكانوا يحاربون في جبهتين ، كانوا يحاربون الفرس على حـدود العراق ، ويحاربون الروم في سوريـة ومشارف الشام وهذا مما يضعف الجيش العربي ، ومع ذلك فقـد حصلت الاعجوبة ، الاعجوبة التي غيّرت وجه التاريخ ، والتي تمكن فيها العرب من

تمزيق الجيش الفارسي في معركة القادسية [1] ومن تمزيق الجيش الرومي في معركة اليرموك [2] .

وشيء آخر ايضاً ، حفلت به كتب مؤرخي الفرنجة عن الاعمال الحربية في هذا العهد ؛ وخلاصة ما يدور عليه بحثهم وتعليقاتهم ، انه لو فرضنا ان كان في الجيشين الرومي والفارسي بعض الجنود المستأجرة ، فان الاكثرية في الجيشين كانت من الجنود الرومية والفارسية ، وكان لدى الجيشين من الضباط والقادة عدد كاف لادارة الاعمال الحربية على الوجه الاكمل والاحسن .

وقد جلب الفرس معهم الفيلة وهذه اشبه بالدبابة في الحروب الحاضرة ، ولم يكن للعرب بها عهد ، فاجفلوا منها ، ثم تعودوا عليها، فامعنوا في خراطيمها تقطيعاً بالسيوف ، فارتدت على اعقابها ، وداست من في طريقها من الجند الفارسي ، ولم يكن للعرب نظام خاص للجيش ، كما كان الحال عند الروم والفرس ، وانما كانوا يحاربون وفاقاً لقبائلهم ومنازلهم ، كل قبيلة وحدها ،ومع تعزيز هذه الطريقة لفكرة الالفة والعصبية القبلية ، الا انها لم تكن لتفعل شيئاً امام الجنود المدربة ، ويرى (فون كرمر) في الصلاة نوعاً من التدريب العسكري الذي كان ينقص الجيش العربي،والذي كان ينعم به الجيشان الفارسي والرومي ،والخلاصة اننا وقد جمعنا كل ما قيل في هذا الباب ، نخرج من بحثنا هذا بالنتيجة المنطقية المقررة ، وهو ان الجيش العربي لم يكن ينعم بشيء من وسائل القتال التي كان ينعم بها خصومه ، ومع ذلك فقد كان نجاحه عظيماً وانتصاره باهراً ، وهنا يعود المؤرخون الفرنج الى ذكر القوة الروحية التي كان ينعم بها العرب ، فالقوة الروحية والايمان المطلق بالله ، واعتقاد المسلمين ان من يسقط منهم في ساحة الوغى يسقط شهيداً ، كل هذا جعل من العربي

---

(١) اواخر سنة ٦٣٦ او اوائل سنة ٦٣٧ .
(٢) اب ٦٣٦ ..

شخصاً جديداً ، وخلقه خلقاً ثانياً ، اصبح معهما قوة لا تقهر .

اما القادة من قريش فقد برهنوا في المعارك التي دارت رحاها في مختلف الامصار ، انهم من القواد الممتازين ، وانهم يفوقون زملاءهم الفرس والرومان، مع انه لم يسبق لقواد العرب ان قادوا زحفاً ، او درّبوا جيشاً ، او درسوا نظاماً عسكرياً ، او انصرفوا لاي عمل من الاعمال الحربية المنظمة في عهدهم .

واما عمر بن الخطاب فهو في الواقع فلتة من فلتات الزمن ، وشخصية خرجت على غير مثال ولا قانون ، ومؤرخو الفرنجة يجمعون على انه كان شخصاً ممتازاً لا مثيل له بين الخلفاء والملوك على السواء ، ويزيدون ان هذا الرجل البارع الحازم الجريء ، الذي راح من مقره في المدينة يدير حركات الجيوش العربية الغازية ، والذي عاش وهو خليفة تلك الحياة البسيطة المتواضعة بينما كانت الزحوف العربية تدرّ على بيت المال الغنائم الوفيرة ، والمغانم الغزيرة ، وثروات الامم المغلوبة ، شخص يثير الاعجاب حقاً ، كما تدل حياته على انه من اكبر قادة الرجال في العالم قديماً وحديثاً ما في ذلك شك ولا ريب .

واذن فنحن امام ظاهرة تاريخية لا سبيل الى انكارها ، او التخفيف من خطورتها ، وهو ان العرب كانوا في هذه الفترة التي سبقت الثورات الداخلية قوة لا سبيل الى صدها ، وانهم لو ساروا سيرتهم الاولى في الزحوف السابقة ، واكملوا ما بدأوا به بدلاً من محاربة بعضهم بعضاً ، لكان التاريخ الذي نكتبه يختلف في كثير من ظواهره ونتائجه عن التاريخ الذي نكتبه اليوم ، وحجتنا على ذلك ما حدث في واقعة صفين التي وقعت بين الامام علي ومعاوية بن ابي سفيان، والتي قتل فيها من شجعان المسلمين وانجادهم العدد الاكبر ، والتي انجلت عن آلاف من قتلى الفريقين ، وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الاسلامية الماضية ، ولولا ان عضّت الفريقين الحرب ، ولفحتهم

نيران السلامة لاستؤصلت البقية الباقيـة من المسلمين وضاعت النفوس ، وليس ادلّ على ذلك من اضطرار معاوية بن ابي سفيان – بسبب هذه الحرب الاهلية – الى مهادنة الروم ، ودفع الجزية للقسطنطينية كي تتركه وشأنه ريثما يتفرغ الى محاربة اخوانه المسلمين ، وكسر شوكة علي وجنده ، ومما يزيد الاسف ان هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول الى تقرير مبدأ وطني او اعلاء شأن الله ، والدعاية لدين محمد ، وان كانت لنصرة شخص على شخص ، فشيعة علي تنصره لانه ابن عم رسول الله ، واحق الناس بولاية الامر من بعده ، وشيعة معاوية تنصره لانه ولي عثمان ، ولأن جنـد الشام لا يعرفون غيره ، ولا يأتمرون لسواه ..

الثورات :

ولما انتهى علي من معركة صفين ، راح يحـارب الخوارج الذين خرجوا عليه ، واخـذوا يقطعون الطرق ، ويتربصون بالمسلمـين الذين لم يكونوا يشاطرونهم رأيهم الدوائر ، وفي هذه المعارك قتل من المسلمين خلق كثير ، ثم توفي علي ، فقام معاوية ، وفي ايامه هدأت الحالة الداخلية قليلا ، ثم عادت الى الاستعارة ايام يزيد ومن بعده ، فثورة في المدينـة واخرى في مكة ، وثالثة في العراق ، ورابعة في البوادي بين الخوارج والمسلمين ، وخامسة في دمشق نفسها يوم ثار بعض اهلها على عبد الملك بن مروان ، ثم كانت الحروب بين مروان بن الحكم وعبدالله بن الزبير ، حتى هلك ابن الزبير ايام عبدالملك ، فثورات متتابعة ايام الحجاج . وقد وصفنا حوادث الثورات واخبـارها بعـد الحجاج في كتابنا هذا ، ومن ذلك يدرك القـارىء مـدى الاخطار التي تعرضت لها الدولة الاسلامية الناشئة من هذه الفتن الداخلية ، وعدد القـتلى الذين ذهبوا ضحيتها ، ولو لم تقع هذه الثورات ، ودامت الزحوف ، لمـا قتل من قتل ، ولكانت الدولة الاسلامية قد عمّت رقعة العالم شرقاً وغرباً ...

اما الثورات الداخلية التي كان مردها الشيعة عهد بني أمية فقدطالت حتى اواخر الدولة الاموية ، وسبب هذه الثورات كما اسلفنا في مؤلفاتنا السابقة ، ايمان الشيعة بان آل البيت احق بالخلافة من بني امية ، ومن المؤسف له حقاً ان خلفاء بني امية في عدم تحرّيهم العدل والانصاف ، والسير على كتاب الله وسنة نبيه ، كانوا ابداً يساعدون الشيعة في ثوراتهم ، ويجعلون من سياستهم المشبعه بالمصالح الشخصية حجة للشيعة عليهم ، وفي التاريخ امثلة كثيرة تؤيد قولنا ، فان عمر بن عبد العزيز لما سار في الناس تلك السيرة الصالحة ، لم ينقم عليه احد في حياته ، حتى الخوارج اخلدوا الى السكينة في عهده ، ولما انتقل الى رحمة ربه ، رثاه الشريف الرضي فقال :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين فتى من امية لبكيتك
انت نزّهتنا عن السبّ والشتم فلو امكن الفداء فديتك

زد على ذلك انقسام البيت المالك الاموي بعضه على بعض بسبب نظام البيعة كما اسلفنا، فكان هذا الاختلاف اداة سريعة لانحلال الدولة وانقسامها ، وانتقلت الثورات من الشعب الى البيت المالك نفسه ، فبعد ان كانوا حزباً واحداً ضد كل منتقص لسيادتهم وخلافتهم ، اصبحوا احزاباً يعمل بعضهم لتدمير الآخر ، ومتى فسد الرأس فسدت الاطراف .

البلاط الاموي :

واذا اضفنا الى ذلك انصراف الخلفاء من بني امية الى حياة البذخ والترف، وملابستهم في ذلك البلاط البيزنطي مما شغلهم عن تدبير امور الدولة ، ومما كان سبباً في اضعاف النسل ، وقتل الرجولة ، وجدنا في هذا ايضاً سبباً من الاسباب التي عجلت بانقراضهم وانهيارهم .

ومن اهم الاسباب التي عجلت في القضاء على ملك بني امية ، تحكم اهواء المتأخرين من الخلفاء في قوادهم العظام وقتلهم وتشريدهم ، مما ابعد العارفين

الصادقين عن الخدمة ، وقرّب الاغرار ومن لا شأن لهم ، ومنها القاء بذور التفرقة بين اليمنية والنزارية او المضرية ، او بين قيس ويمن ، واعتصام خليفة بهؤلاء ، واخر باولئك ، وكذلك لم يفطن ملوك امية للعراق ، ولا لخراسان الالتفات اللازم ، فكان لهذين المصرين الكبيرين من الخلفاء الاهمال الاكبر ، فظاهر اهل هذين المصرين غيرهم ، وانحرفوا عنهم ، وكان كذلك تنازع رؤساء العرب في خراسان على الولاية ، وانقسام الجيش الى مضري ويماني ، من العوامل في الانهيار والتمزيق ، ثم ان الامويين توسعوا في الفتوح توسعاً لم يعقبه احكام لهذه الفتوح ، وضبط لامرها ، وحكم بكل ما في الكلمة من معنى لها ، فكان من اثر ذلك ان تزعم خارجي اسمه ميسرة جماعات البربر في شمالي افريقيا سنة ١٢٢ ، وبايع لنفسه بالخلافة ، وخوطب في طنجة وما اليها بامير المؤمنين ، هذا والامويون في اوج سلطانهم ، وهذا دليل على ما قدمناه من عدم إحكامهم لسلطانهم ، في المدن البعيدة عنهم ، كأن الدولة الاموية كانت عبارة عن دمشق وما حول دمشق ، وهذا كان شأنهم في خراسان ايضاً ، فان بعدها عن مقر الخلافة جعلها في كثير من الاحايين مليئة بالاختلافات والثورات ، لا تستطيع دمشق لها حداً ولا رتقاً ..

ومن المؤكد ان معارضة العراق الشديدة لدمشق وخلفاء دمشق يجب ان تردّ الى عاملين : اولهما انتقال الخلافة الى دمشق بعد ان كانت في الكوفة عهد علي بن ابي طالب ..

وثانيهما : ان انتصار دمشق على العراق وقيام امية ، كان انتصاراً للشام على العراق . .

ولذلك رأينا ان اقوى الثورات وأشدها خطراً على الامويين كانت تقع وتظهر في العراق ، حيث كانت تذكي نارها جمهرة من المسلمين العرب ، اغضبها تحول السلطان عن بلادها الى بلاد الشام .

دولة عربية :

وكانت الدولة الاموية عربية صرفة برجالها ، وبكثير من اوضاعهـا لم يتولى القيادات والنيابات فيها إلا جماعة من العرب ومن اهل البيوتات العربية المعتمد عليها ، وجيوشها كانت من اصول عربية ، لم يمازجها غير قليل من البربر في شمالي افريقية والاندلس .

وابن خلدون مصيب في قوله حين يقول : وكان امر بني امية نافذاً في جميع العرب بعصبية بني عبد مناف ، حتى لقد امر سليمان بن عبدالملك من دمشق ، بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ، ولم يرد امره ، مع مقـام والده موسى في الفتوح والقيادة ، ثم اضمحلت عصبية بني امية بمـا أصابهم من الترف فانقرضوا » .

وكان الامويون الى ذلك اصحاب ثقافة عربية راقية ، فيهم المرونة السياسية والادارية ، وتمرنوا على قيادة الجيوش وحكم الناس منذ نشأة الاسلام ، وكان اكثر العمال عهد ابي بكر وعمر منهم ، واثبتوا كفاءتهم الحربية والسياسية في حروبهم ضد الروم ، فكان نساؤهم وبناتهم في اليرموك يقاتلن مع الرجـال ، ويشجعن الناس ، وما فتحت من كور دمشق مدينة إلا وجد عندها رجل منهم ميتاً ، فكان من الطبيعي ان يحبهم الشـاميون وان يستميتوا في نصرتهم ، وكان من المفروض ان ينظر بنو امية الى الشام دون غيرها من الامصار والاقطار ، واذا كانت الشام واهل الشام سبب نجاحهم وانتصارهم وبلوغهم اهدافهم في الخلافة والسلطان ، فان دمشق نفسها عادت لما شغلوا بها دون غيرها من الامصـار العربية الاخرى ، عادت فاصبحت سبب انخذالهم وانهيارهم .

ملك بني امية :

ولقد امتد ملك بني امية من سواحل الاطلنطيك الى بـلاد الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها الى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت بالاسلام في

عهدهم امم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريان والكلدان) ، ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ، ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والاسبان وغيرهم) ، ومن السلالة التورانية (الترك والتتار) ، وأمست تتلى آي القرآن في سمرقند كما تتلى في قرطبة ، ويتلاقى الهندي مع السوداني في مكة للحج ، وكلاهما يدين لبني امية .

الشيعة والمهدي :

بقي الخلاف بين الامويين والشيعة حول الخلافة ، وهذا من اكبر المصائب التي نزلت بالاسلام ، به تمزق شمل العرب والاسلام او كاد ، ولسببه كما يقول ابن خلدون :

« جرت حروب أبيحت بسببها الاموال والدماء ، وتشعبت منها آراء ومذاهب ، وسرى الاعتقاد بالمهدي المنتظر عند الشيعة الى اهل السنة ، وباسمه قامت او حاولت ان تقوم دول في المغرب في القرون اللاحقة » .

اما الاعتقاد بظهور المهدي - والمهدي شخص يظهر في اخر الزمان يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً - فقد كان من جملة الاسباب التي استعملها الشيعه ضد الامويين في ثوراتهم المختلفة عليهم ، ويقول فان فلوتن المستشرق : ان الاعتقاد بظهور المهدي وانتظاره لم يقتصر بادىء الامر على آل البيت وحدهم ، بل اخذ هذا الاعتقاد يذاع وينتشر بين المسلمين وفاقاً لازدياد نفوذ الشيعة وانتشاره ، وقد انتشرت فكرة المهدي المنتظر لدى اهل السنة حتى محت ذكر غيره من المهديين كان بعض الناس بانتظارهم ، كالسفياني والقحطاني وغيرهما ، ولا شك ان التنبؤ بهؤلاء وانتظارهم لم يتلاش تماماً من نفوس المسلمين وانما صار هؤلاء بالنسبة الى المهدي المنتظر كالدجال بالنسبة الى المسيح ، لذلك كان من المعقول ان يظهر عليهم ذلك المهدي ويهزمهم هزيمة حاسمة وينتصر عليهم انتصاراً مبيناً » .

والروايات التي نشرت عن المهدي المنتظر – والذي لم يظهر حتى الآن ، والذي يشك ابن خلدون وغيره في الاحاديث التي اخرجها الائمة في شأنه ، ويرى انه لم يخلص منها من النقد إلا القليل والاقل – والتي يعينون فيها الوقت والزمان والمكان والرجل الذي سيظهر ، ثم يأتي ذلك الوقت ، ويمر ذلك الزمان ، ولا يظهر احد ، تستدعي كثيراً من الشك ، وتدعو الى مثله من الالتباس خصوصاً وهنـــاك بعد مضي الوقت المعين الذي كان سيظهر فيه المهدي ، يقوم غيرهم فيحددون وقتاً جديداً وزماناً جديداً .

هذه الفترة :

على ان النـــاس في هذه الفترة من الزمن – اواخر عهد بني امية – كانوا في حالة عصبية محزنة ، لان البون كان شاسعاً بين تلك السعادة التي ينشدونها على يد المهدي المنتظر ، وتلك الآلام التي يعـــانونها في ذلك الحين بسبب الحروب الاهلية ، وازدياد الاحقاد بين المسلمين بعضهم مع بعض ، فكانت هذه الروايات عن ظهور المهدي الذي سيملأ الدنيا عدلاً ، تلاقي قلوباً صائمة ، وانفساً تواقة ، تؤيد نظرية المهدي ، وتحارب في سبيله املا بهذه السعادة المنشودة .

وعرض لهذه الفترة المضطربة بعض الشعراء ، واخذ النـــاس يصرّحون بضرورة قيام العدل والانصاف بين الناس ، مما كان يجعل فكرة قيـــام مهدي قريب امراً مقبولاً محبباً كما قدمنا .

وفي هذا الحين ظهرت نبوءة جديدة شغلت الاذهان في ذلك الحين ، وهي: « نبوءة الرجل ذي الاعـلام السوداء الذي يخرج من المشرق ويزيل عرش بني امية » ، فظهر الحارث بن سريج بمساعدة اليمنية في خراسان ، ولكنه لم يوفق وما عتم ان قتل ، ومع ذلك نرى ان الحديث المشهور الذي رواه ابو داود : « يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث ، على مقدمته رجل يقال له منصور ، يوطيء او يمكّن لآل محمد ، كما مكنت قريش لرسول الله ، وجب

على كل نصره»، موضوع حتماً وما كان لحديث صادق عن رسول الله ان لايكون امراً واقعاً منظوراً ..

ومن هذا نرى ان الاحاديث التي رويت عهد المهدي وغيره ، اصابت في هذه الفترة المضطربة هوى في نفوس الناس ، فلما قامت الثورات ساعدوها ، وكان في مساعدتهم لهذه الثورات اضعاف بني امية ، حتى كان ما كان من سقوطهم وانهيارهم .

وقد وصف (المسعودي) سبب سقوط الدولة الاموية فقال :

« سئل بعض شيوخ بني امية عقب زوال الملك عنهم الى بني العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ فقال :

« إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من انصافنا ، وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على اهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت اموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وامضوا اموراً دوننا اخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم على حربنا ، وطلبنا اعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة انصارنا ، وكان استتار الاخبار عنا من اوكد اسباب زوال ملكنا » ..

الجناح الشرقي
من
الامبراطورية الاسلامية

بحر آرال

جرجان

خراسان

كرمان

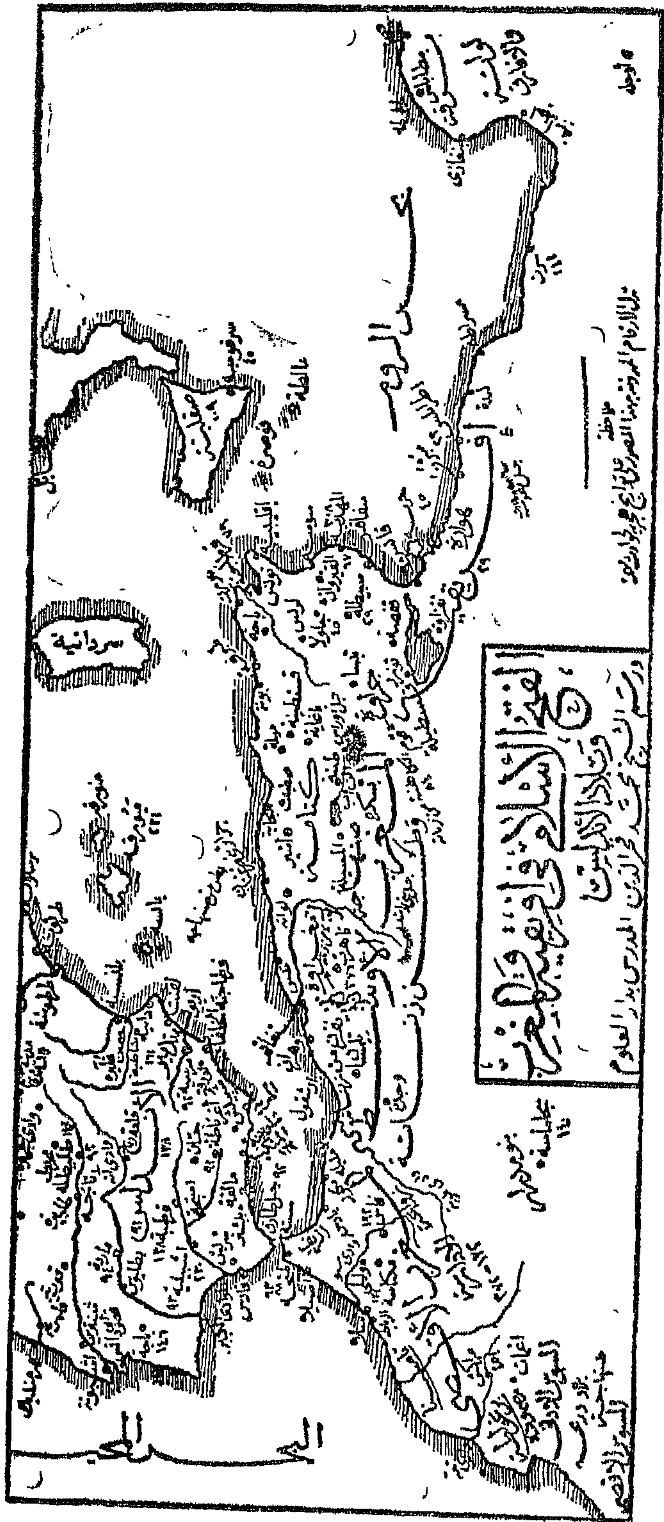
فارس

مكران

الخليج الفارسي

بلاد العرب

الهند


الفتح الإسلامي في إفريقية والمغرب
وبلاد الأندلس
ورسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
ملاحظة
تدل الأرقام المرقومة بهذا المصور على تواريخ هجرية لحوادث مهمة
بحر الروم
سردانية
صقلية
الأندلس
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قرطبة
القيروان
تونس
طرابلس
برقة
بنغازى
سجلماسة
أوجلة

- ١٨ -

اسباب الانحلال (٣)

ظهور روح العصبية الجاهلية

وتعصب الامويين للعرب

خطر العصبية :

ظهرت روح العصبية الجاهلية ، اي تأييد القبيلة لفرد من افرادها ضد القبيلة الاخرى ، ظالماً كان ام مظلوماً ، كما هي عادة العرب في الجاهلية ، منذ اول الفتن والثورات الداخلية ، وظهرت هذه الروح ظهوراً واضحاً بعد وفاة يزيد بن معاوية ، في الفتن الداخلية ، التي جرت بعد عهده حتى قيام عبد الملك بن مروان ...

والواقع ان محمد بن عبد الله قد رأى بثاقب نظره وعبقريته ، ان الامة العربية لا تستطيع ان تمكّن لنفسها في الارض ، وان تنال العظمة التي يريدها لها ، والنفوذ الذي يبتغيه لسلطانها ، إلا اذ تناست عصبياتها الجاهلية ووقفت صفاً واحداً وحزباً واحداً تجاه الشعوب المجاورة التي تريد اخضاعها .

وقد همدت هذه العصبية في عهد محمد والخلفاء من بعده ، ولكننا نراها تظهر في عهد مروان بن الحكم ، فان(وقعة مرج راهط) التي وصفناها في كتابينا الحجاج وعبد الملك بن مروان كانت بين بطنين عربيين متناظرين ، وهما قيس التي تشايع الضحاك ، وكلب التي كانت تناصر مروان ،وكان من نتيجة هذه المعركة التي غُلبت فيها قيس وانتصرت فيها كلب ، ان اشتدت روح العصبية واخذت قيس تفكر بالثأر لقتلاها وانكسارها .

فلما مشى عبيد الله بن زياد لحرب المختار ، كان عمر بن الحباب السلمي على ميسرة جيشه ، وكان عمر من قيس ، فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان اول من نكس لواءه ،ونادى« يالثارات قتلى المرج»،فتمت بذلك هزيمة اهل الشام وقتل عبيد الله ومن معه ، فانتقمت بذلك قيس لنفسها .

غير ان هذه الحوادث الفردية لم تؤثر في انحلال الحزب الاموي ، فقد ظل حافظاً لكيانه كحزب سياسي يناضل خصومه من الاحزاب الاخرى ، الى ان كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التي تعتبر فترة انتقال بين حال القوة والتماسك وحال الضعف والتفكك الذي وقع بعد ذلك ، ولما كان عمر صالحاً عادلاً، قضى مدة خلافته في اصلاح ما افسده من سبقه من خلفاء امية ولم يتعصب لقبيلة دون اخرى ، ولم يولّ والياً إلا لكفاءته وعدالته سواء اكان من كلب او من قيس، فقد سكنت في عهده العواطف ، وهدأ الناس .

وفي الوقت الذي نبض به عرق العصبية الجاهلية بين قيس واليمن في الشام حصل ما هو اشد منه في خراسان ، فان سلم بن زياد اميرها لما علم بموت يزيد بن معاوية سار عنها ، واستخلف المهلب بن ابي صفرة ،وهو ازدي والازد من اليمن ، فلما كان بسبرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال :

– ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من اهل اليمن.. فولاه مرو الروذ والفاريات والطالقان والجوزجان ، وولى اوس بن ثعلبة هراة

فلما وصل نيسابور لقيه عبيد الله بن خازم ، فقال له :

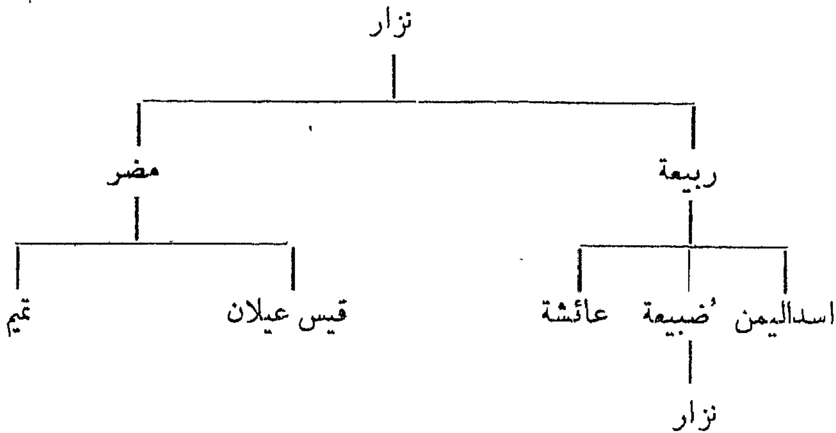
— من وليت خراسان ؟ ... فاخبره ...

فقال : اما وجدت في المصر من تستعمله حتى مزقت خراسان بين ربيعة واليمن اكتب لي عهداً على خراسان .

فكتب له فسار ابن خازم الى مرو وملكها ، واخرج من بها من ربيعة فتوجهوا الى اوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له : نبايعك على ان تسير الى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان ، فبايعهم على ذلك ، وسار اليهم ابن خازم واقتتل الفريقان بهراة ، وكانت الهزيمة على ربيعة ، وعاد ابن خازم الى مرو .

وكان بنو تميم قد اعانوا ابن خازم لانهم من مضر فلما خضعت له خراسان جفاهم فتنكروا له وكانت بينهم مواقع ..

وكذلك كان العرب بخراسان ينقسمون اقساماً اربعة ، اليمن وربيعة ويجمعهم نزار ، وقيس عيلان وتميم ويجمعهم مضر .



فلما توفي عمر بن عبد العزيز وخلفه يزيد بن عبد الملك استقبل يزيد في اول خلافته فتنة كان لها اسواء الاثر على سلطان امية ، وتعتبر في الحقيقة نضالا بين

عرب الشمال وعرب الجنوب ، اي بين مضر واليمن ، ولما كان الخليفة من عرب الشمال فانه لم يتورع عن خوض غمار هذه الفتنة ، وتعرف هـذه المأساة بفتنة يزيد بن المهلب الذي فرّ من سجن عمر بن عبد العزيز ، وخرج يريـد البصرة خوفاً من يزيد بن عبد الملك .

وقد اختلف المؤرخون في سبب العداوة بين الرجلين ، فبعضهم يذكر من الاسباب تعذيب يزيد بن المهلب لآل الحجاج وهم اصهار يزيد بن عبد الملك ، فقال يزيد لابن المهلب : اما والله لئن وليت من الامر شيئـاً لاقطعن منك عضواً .

فقال له ابن المهلب : وانا والله لئن كان ذلك لارمينك بمائة الف سيف .

وهناك سبب اخر وهو ان ابن المهلب خرج يوماً من الحمام ايام سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغالية ، فمرّ بيزيد وهو الى جانب عمر بن عبـد العزيز فقال يزيد :

— قبّح الله الدنيا لوددت ان مثقال (الغالية) بالف دينار فـلا ينالهـا إلا كل شريف .

فقال ابن المهلب : بل وددت لو كانت في جبهة الاساد لا ينالها إلا مثلي.. فهدده يزيد بالقتل ان اصبح خليفة . فقال ابن ألمهلب : والله لئن وليت هـذا الامر وانا حي لاضربن وجهـك بخمسين الف سيف .

فلما مرض عمر بن عبد العزيز ، وعرف ابن المهلب بمرضه ، ادرك ان يزيداً بن عبد الملك قاتله ان بقي في سجنه ، ففر من الحبس ولحـق بالبصرة حيث انضم اليه اهل بيته ، وكثير من يمنية العراق فغلب على البصرة وما جاورها، واشتد خطره على سلامة الدولة ، وبلغ عدد جيشه مائة الف مقاتل ، فارسل اليه يزيد جيشاً عظيماً بقيادة اخيه مسلمة فتقابـل الجيشان بجوار البصرة ، واستمر القتال بين الفريقين ثمانية ايام ، قتل في خلالهـا يزيد بن المهلب والوف من المقاتلين ، وفر انصار ابن المهلب وتفرقوا في كل بلد وموطن .

ولقد كانت هذه الفتنة سبباً في القضاء على افراد بيت المهلب بن ابي صفرة، فقد قتل بعضهم في الحرب ، على حين حمل البعض الاخر بالاغلال الى يزيد بن عبد الملك ، فلم تأخذه الشفقة ، ولم تنفع فيهم الشفـــاعة ، فامر بهم فقتلوا جميعاً ..

وآل المهلب جماعة بذلوا نفوسهم في خدمة امية ، وحـــاربوا على رأس جيوشها في المعارك ضد الازارقة، وفي الحروب المختلفة التي دارت في خراسان ، وضد الخزر والترك ، وكان لهم مقــام رفيع ، ومركز محمود ، تغنى الشعراء بمدحهم ، وقصدهم اصحاب الحاجات لمقامهم، وكانوا الى ذلك اسياد اليمنيين، وقد أيدوهم في فتنتهم هذه فكان القضاء عليهم والحــالة هذه سبباً في اشعال نار العصبية في قلوب ذلك النفــر ، وحقده على اصحاب الدولة وانحيازه الى خصومهم واعدائهم وانتهازه الفرص السانحة للانتقام والثأر .

وكان طبيعياً بعد هذه الحادثة ، وحقد اهل اليمن عليه وعلى دولته ، ان يأخذ يزيد بناصر القيسيين المضريين ، فولى اخاه مسلمة الذي قضى على الثورة، المشرق ، ثم ولى عمر بن هبيرة وهو قيسي بعده مكانه ، وقد اصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية ، واصبح العنصر اليمني ضعيفـاً لا يملك من الامر شيئـاً ..

فلما كان عهد هشام خشي هذا اشتداد امر القيسية ، وازدياد نفوذها على الدولة ، فعمل على التخلص منهم ، والانحياز الى اليمنية كي يعيد التوازن بين العنصرين ، فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنيين ، فولى خــالد بن عبد الله القسري على العراق ، وولى أخــاه أسداً على خراسان ، وبذلك اخذ العنصر اليمني يعلو شأنه ، ويستعيد قوته ، بعد ان ضعف امره ، بيـنما اخذ العنصر الاخر بالاضمحلال ، وقد تعصب خالد واخوه اسد لعنصرهم ، فاخذوا ينتقمون من المضريين شر انتقام .

على ان هشاماً لم يتبع سياسة ثابتة ازاء القبائل المختلفة ، فما عتم ان انحاز الى المضريين وولى منهم العمال ، فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ، ونصر بن سيار خراسان ، وفعل مثل ذلك بالاندلس ، كما اطلق يد عامله في العراق بتأديب خالد بن عبدالله القسري زعيم اليمنية .

وكان مقتل خالد القسري صدمة جديدة على اليمنيين بعد مقتل آل المهلب ، — وقد قتل عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك — ولزم الوليد على الاثر جانب المضريين ، واقصى العنصر اليمني ، فاثار هذا العمل عوامل السخط والغضب في نفوس اليمنية على الوليد ، واخذوا يعملون للتخلص منه ، لما ارتكبه ضدهم ، واملاً في ان تعود لهم السيطرة في الدولة ، فاخذوا يجمعون شملهم ويدبرون المكائد لقتله ، كما اخذ شعراؤهم ينتقدون الوليد وسياسته واخلاقه ، وكان من حسن حظهم ان عامة الناس كرهوا الوليد ، وانكروا اعماله ، فانتهز اليمنيون الفرصة وثاروا ضده ، وانضم اليهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فوثبوا على الوليد وقتلوه ، وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك من بعده ، وكان قتله نتيجة للمنافسة التي اشتدت بين افراد البيت الاموي ، والعصبية التي اشعل نارها خلفاء بني امية ، بسؤ تصرفهم وانحيازهم لفريق دون آخر .

فاذا كان عهد يزيد بن الوليد نرى النزاع بين العنصرين اليمني والمضري يشتد ويقوى ، لان الخليفة الجديد اخذ بسيرة خلفائه من قبله ، فانضم الى اليمنيين ولزم جانبهم ، واخذ يولي العمال منهم لانهم هم الذين ساعدوه على نيل الخلافة ..

وكان من المفروض ان يغضب المضرية ، خصوصاً بعد ان اخذ اليمنيون بالانتقام منهم ، فثارت حمص ، وثارت فلسطين وانضم الى الثوار بعض افراد البيت المالك الاموي ، فايد يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية ثوار حمص ، كما ايد يزيد بن سليمان بن عبد الملك ثوار فلسطين ، وحذا اهل الاردن حذوهم

بزعامة محمد بن عبد الملك ، ولكن يزيداً استطاع بتأييد اليمنيين انيخضّد كل هذهالثورات ، وعمد الى زعمائهم من اهل بيته فزجهم في اعماق السجون .

ومن هـــذا يتبين مبلغ الاختلاف في البيت الاموي ، اذ اصبح كل منهم يكيد للآخر ، وهذا اول الانهيار والانحلال ..

ولم يلبث يزيد ان عاجلته المنية سنة ١٢٦ هجرية ، بعد ان حـــكم ستة اشهر او اقل،فولى الخلافة بعده اخوه ابراهيم ، وكان يزيد قد عهد له بالخلافة من بعده ، فلم يلق ابراهيم من كل الناس تأييداً ، وظل على حاله هذا شهرين حتى مشى مروان بن محمد الى الشام فهرب ابراهيم منها ..

ولقد سار مروان بجنوده من الجزيرة ، واقبل يريد الشام مطالبـــاً بدم الوليد بن يزيد ، كما تظاهر بعزمه على ارجاع الخلافة الى ابنيه ، وسرعان ما انضمت اليه المضريه ليكيدوا لليمنية التي تولت قتل الوليد ..

وكان مروان يريد ان تكون الخلافة في ولدالوليد ، ولكن اليمنيين ، قتلوا ابني الوليد وهما في السجن مخافة ان يليا الخلافة فيقتصان منهم ، فبايع عندئذ مروان لنفسه بالخلافة ، وتعصب للقيسية وولى منهم العمال ، فثارت اليمنيـة واحدثوا القلاقل والاضطرابات في كل انحاء المملكة ، لان مروان كان يطالبهم بدم الوليد الذي قتلوه انتقاماً لخالد بن عبد الله القسري ، فثـار اهل حمص ، وثار اهل تدمر ، كما ثار يزيد بنخالد بنالقسري بدمشق،وانضمت اليهاليمنية وثارت فلسطين ومن فيها من اليمنية ، فانتصر مروان على الجميع وتمكن من القضاء على كل الثورات والفتن ..

ولم يكد الامر يستتب لمروان في الشام حتى خرج عليه بها سليمان بن هشام بن عبد الملك ودعا اهلها الى خلع مروان ، فانضمت اليه اليمنية ، فسار اليه مروان بنفسه ، وهزمه بعد حروب طويلة ، وفر سليمان الى العراق والتحق

بالخوارج كما انضم اليهم عبدالله بن عمر بن عبد العزيز خوفاً على حياته ..

ولما كان اكثر سكان دمشق من اليمنية ، وكان مروان لا يثق بهم ، فان مروان لم يتخذ دمشق مقر ملكه ، بل انتقل الى الجزيرة اذ كان اكثر من فيها من القيسية الذين كانوا عماد دولته .

وقد اشرنا فيما سبق من فصول الى الحالة في العراق وثورة الخوارج فيه خصوصاً الضحاك بن قيس ، ثم قيام ابي حمزة بعده في الحجاز ، ومع ان مروان تمكن من كسر شوكة جميع القواد فان البلاد في عهده كانت مرتعاً للفتن والاضطرابات ، وقد شغله تعدد الثورات عن الانتباه الى ما كان يجري في خراسان من انتشار دعاة العباسيين فيها ، وقيام ابي مسلم الخراساني بالامر وحشده الجيوش ، والقائه التفرقة بين القبائل العربية يضرب بعضها ببعض ، فلم يلبث مروان ان اقبلت عليه الرايات السوداء شعار العباسيين من خراسان ، فطاردته وقضت على جيشه ، ثم قتل بدوره ، وبموته انهارت الدولة الاموية وبويع للعباسيين بالامر .

تعصب الامويين للعرب :

كانت الدولة الاموية دولة عربية بكل ما في الكلمة من معنى ، فادى ذلك الى تعصبها للعرب والى كل من هو عربي ، والنظر الى الموالي — اي الشعوب التي دخلت الاسلام من غير العرب — نظرة الاحتقار والازدراء ، مما ايقظ الفتنة بين المسلمين ، وبعث روح الشعوبية في الاسلام ، وكان منشأ هذه الحركة اعتقاد العرب انهم افضل الامم ، وان لغتهم ارقى اللغات .

واذا نظرنا الى حركة الشعوبية هذه ألفيناها حرباً سلمية اشتبكت فيها الالسنة والاقلام اشتباكاً لا يقل أثراً عن اشتباك الاسنة والرماح ، واول ما ظهرت آثارها بعد دخول العرب الى بلاد فارس والترك ، فقد ابى العرب ان

ينظروا الى المسلمين من غير العرب نظرهم الى العرب ، واقرّ الامويون في سياستهم العامة هذه الفكرة ؛ وابوا ان يساووا بين المسلمين عرباً كانوا ام عجما . فانكر الموالي هذا الحيف ، وقرروا انه مخــالف للدين الاسلامي الذي لا يجعل لاحد فضلاً على الاخر إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وثاروا على الامويين في عهد عبد الملك بن مروان بقيادة عبد الرحمن بن الاشعث فارسل اليهم الحجاج حـــاكم العراقين الجنود للتنكيل بهم حتى ظفر بهم .

ثم انضم الموالي الى المختــار في فتنته ، وأيــدوا الخوارج في ثوراتهم ، كما ثاروا مع يزيد بن المهلب ، واخيراً انضموا الى دعـــاة العباسيين ، واعتنقوا مذهب التشيع ، وجدّوا في نشر الدعــاية لبني العباس ، وكانوا من الاسباب التي عملت على انتصارهم وانهيار امية .

- ١٩ -

الحضارة العربية حتى نهاية العصر الاموي :

الحضاره العربية قبل الاسلام

بحث جديد :

لست ادري ايعنيني حقاً ،ويعني شباب العرب ، هذا اللون الجديد من البحث التاريخي في ماضيات الوثنية العربية وتبسطها في الارض قبل الاسلام ، وهو عمل احاول فيه الجري على النحو الذي اجراه المؤرخون الغربيون في بحوثهم ودراساتهم ، ام ان هذا النحو من البحث يجب ان يظل خاصاً بهم دون غيرهم ، فهم وحدهم يستطيعون بحث تاريخ الاسلام ، على انه تاريخ امة ...لا تاريخ جماعة مقدسة وخلفاء صالحين ...

ولعل سبب هذا الاحجام من مؤرخي العرب عن بحث تاريخهم وفاقاً لاصول النقد الحديث ، ان هذا الجيل الجديد الذي يقرأ مؤلفاتنا ، لا يزال الى حد بعيد ، شديد التأثر بالاوضاع السابقه والتقاليد الماضية ، وانه يشق عليه جداً ، ان يصور لنفسه او نصور نحن له ، رأياً صحيحاً مستقيماً بريئاً

من العواطف الحادة الجامحة في تاريخ الاسلام ورجالات العرب والاسلام ، والمؤرخ المخلص الصادق ليس يهمه ان ينقسم الناس الى ساخط او معجب في عمله ، وليس يعنيه رأي الناس في كتبه ومؤلفاته، فهو إما ان يكتب للتاريخ، واما ان يكتب للناس والاهواء ... وهو إما ان يكتب لمحمد بن عبدالله ﷺ ويؤرخ لهذه الوحدة التي خلقها ، وهذه القومية التي سيّرها دستوراً بين الناس، واما ان يكتب لغير محمد ، ويعمل على تصوير التاريخ وفاقاً لبعض الشيع والاحزاب ، وما دام المؤرخ يعتقد في نفسه الاخلاص،وفي عمله الصدق والخدمة العامة ، وما دام يؤرخ لأمة ، امرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، واعلنت كلمة الله ، وبلّغت رسالة محمد ، وحملت امانة العلم ، فليمض في رسالته ، وليؤرخ لهذه الامة على النحو الذي يرضاه ويختاره ، غير متحيز الى فئة ولا متحير الى مذهب ، وهو مؤمن الايمان كله انه واجد في عمله هذا انصاراً واعواناً ، يقدرونه ويسبغون على عمله ما يستحقه من الوان الثناء والتقدير ...

الحاجة والاختراع اساس الحضارة :

وليس من ينكر ان الحاجة تدعو الى الاختراع والاختراع اساس الحضارة، وكلما زادت حاجات الامة ، وتمكنت من بلوغها والحصول عليها ، ظهرت فيها حاجات اخرى دعتها الى العمل وطلب المزيد ، وكلما كانت الامة قوية الرغبة عظيمة الشعور في الوصول الى امالها ، والحصول على اغراضها ، كان ذلك اوكد للمؤرخ في استعدادها للحضارة ومقدرتها على الحصول على ما تريده منها ، واذاً فان تاريخ حضارة امة من الامم ليس يعدو ان يكون تاريخاً او تصويراً لهذه الرغبات التي تصدر عن هذه الامة ، وهذه الامال التي تجيش في صدرها فتعمل على تحقيقها ...

وعلى هذا النحو سيصار الى بحث تاريخ السياسة والحضارة عند العرب في هذا الكتاب ، واذا كان هناك من يقول ان تاريخ الحضارة العربية كان قصير

الامد ، لم يتجاوز عهد بني امية ، وان هذه الحضـــارة التي ظهرت بعد امية ليست عربية صرفة ، وانما هي اسلامية شاملة ؛ لعب فيها العرب دوراً كغيرهم من الامم الاسلامية الاخرى ، كان جوابنـــا على ذلك ان العرب هم اصحاب فكرة التوحيد في الدين والسلطان والحضـارة ، وان هذه الوحدة التي عمّت العـالم كله سياسياً واداريا ودينياً ولغة ، كانت عربية في فكرتها ومزاجها ، وان من حقنا والحالة هذه ان ننظر الى الحضارة التي قامت في الدول العربية الاسلامية كحضارة عربية لعب فيها العرب دوراً كبيراً ، سيصـار الى بحثه ووصفه في الفصول التي تلي ، ثم ان هذه الحضارة الاسلامية التي قامت في العهد العباسي ، انما قامت على اساس مكين من النظم العربية ، والدين العربي واللغة العربية والسياسة العربية والادب العربي الذي نشأ قبـــل هذا العهد ، والذي بشرّ العالم بحضـارة قوية ناضجة مختلفة الالوان والازهار .. والذين كتبوا من الاعاجم كانوا قوماً تعرّبوا ، واسلموا وتعلموا العربية وكتبوا في العربيـــة .. وكانوا من رعاياالدولة العربية وولدوا في عهد هذه الدولة العربية ..

عرب اليوم وعرب الامس :

ومن غريب امر المؤرخ المعاصر ما يتولاه من الذهول حين يقلب نظره في عرب اليوم ، خصوصاً عرب الصحراء ، فيحاور نفسه قائلاً :

« أحقاً هؤلاء هم العرب الذين دوّخوا العالم وملكوا الارض وفرضوا دينهم ولغتهم على مختلف الامم والشعوب التي اكتسحوا امصارها ، والتي كانت اعظم منهم حضارة وعمراناً وثقافة ؟؟؟ ام ان هنـاك مواطن اخرى للعرب غير هذه المواطن ، وان هناك امماً عربية اخرى غير هؤلاء الذين يسكنون الجزيرة العربية ؛ وينزلون على هذه الشواطيء المترامية الاطراف حول البحر الابيض المتوسط ؟؟ .

واذا نظرنا الى العرب الذين يسكنون الجزيرة العربية اليوم ، فقد لا نخطيء اذا ذهبنا نقول انهم لا يكادون يختلفون في اخلاقهم وعاداتهم وطراز حياتهم

عن العرب السابقين الذين سكنوا هذه الجزيرة قبل محمد وبعده ، ـ هذا مع اغفال الناحية الادبية طبعاً ـ فالقبائل العربية البدوية الحاضرة تعيش عيشة القبائل الرحّل الماضية ، فلا تتصل بالارض اتصال المزارع المقيم ، وانما هي تتربص مواسم الغيث فتمشي اليه رجالاً ونساء وشباباً وغلماناً وابلا ، وهذه الحياة على ما فيها من جهد ومشقة ، قلّ ان تسمح بقيام الجماعات المتحضرة ، وقلّ ان تمكن اصحابها من تأسيس حضارة وثقافة مستفيضة قوية ، بل قلّ ان تخلق في نفس اصحابها رغبة في تبديل ما هم عليه من حياة بدوية واختلافات دائمة وانقسامات بغيضة ..

ومع ذلك فهؤلاء العرب هم العرب الذين ادهشوا العالم بفتوحاتهم السريعة ، وحضارتهم الجميلة البارعة لمئات خلت من السنين ..

تقسيمات الجزيرة :

ويكاد يجمع المؤرخون اليوم على ان الجزيرة العربية هي مهد الامم السامية وان كان هناك من يقول بأن افريقيا هي موطن السامية ، وانهم جاءوا ـ اي الجماعات السامية ـ منها الى جزيرة العرب ، ومن الجزيرة تفرقوا في العالم بواسطة الموجات التي وقعت قبل الاسلام والتي كان الاسلام آخرها ، وكان مرد هذه الموجات السامية اضطرار بعض القبائل العربية في اوقات مختلفة قبل الاسلام ، بسبب القحط والجدب والجوع الى المهاجرة من الجزيرة الى الارض الخصبة القائمة حولها في العراق وسوريا ، وهذا الرأي تؤيده المصادر الكثيرة لانه يفسر هذا الطابع السامي الذي يظهر على الامم المتحضرة في العراق وما بين النهرين وسورية ومصر ، مما يدل على ان هذه الامم من اصل سامي ، او ان شعباً سامياً نزل ارضها وفرض عنصريته عليها ، وليس هناك من شعب سامي في غير الجزيرة العربية ، والجزيرة العربية جدباء قاحلة لا تستطيع ان تكفي اهلها إلا بالاقل من الطعام والاشربة ، وكلما زاد عدد سكانها ، كلما قلّ

الطعام والشراب فيها مما يدفع حتماً بعض قبائلها الى مغادرتها ، والنزول على الامم المجاورة في الارض الزراعية الخصبة ..

ومن المؤكد اليوم ان البابليين في العراق والاشوريين في الجزيرة – ما بين النهرين – هم من اصل سامي ، وان شعباً غير سامي كان يسكن هذه البلاد قبل المسيح بثلاثة الاف سنة ، ثم جاء الساميون من الجزيرة العربية فتغلبوا عليه ، واذابوا مع الايام عنصريته فاستحال سامياً مثلهم لانهم كانوا اكثر عدداً ، وانشط واقوى ، ومن هؤلاء الساميين ، وعلى اكتافهم نشأت الحضارة البابلية المعروفة ، وقامت الحضارة الاشورية بعدها ..

ومثل هذا يقال في الامم التي كانت تسكن سورية ، والتي تمكن الساميون العرب من فرض ساميتهم عليها بعد ان نزلوا ارضها وحكموها ، وقد حدث كل هذا لاجيال خلت قبل المسيح ..

الجـــزيرة :

اما في الجزيرة العربية نفسها فان هناك امراً يستلفت النظر اذا اخذنا بعين الاعتبار جغرافية هذا القطر وتأثير تقسيماته الجغرافية على تاريخه ..

فالجزيرة ليست عبارة عن صحراء فحسب وانما هي صحراء وارض خصبة تصلح لانشاء المدن ومختلف الوان العمران ، وهذه الارض الخصبة قامت فيها منذ الوف الاعوام وقبل المسيح زراعة حسنة ، وحضارة رائعة ، وتجارة بارعة وممالك عظيمة ومدن وقرى جميلة نشأت حولها الاشجار والاقنية والينابيع المتفجرة .

وهذه الارض الخصبة كانت تقوم في جنوبي الجزيرة وعلى شواطىء البحر . فهناك اليمن التي كانت تسمى في الماضي «العربية السعيدة» لكثرة خيراتها وعظيم ثروتها ، وهناك حضرموت المشهورة ببخورها الذي كان الطلب عليه كثيراً في العصور الماضية قبل المسيح ، وفي شرقي الجزيرة وقرب الخليج العجمي

كانت تقوم ارض زراعية رائعة تمتد الى مسافات بعيـــدة على طول البحر ، وتدعى هذه الارض اليوم -الحساء- ، اما الارض الواقعة في غرب الجزيرة فكانت جبلية وعرة كثيرة التلال ولكنها كانت صالحة لرعي الغنم والجمـال ، واما وسط بلاد العرب كنجـد واليمامة فقد كانا على الاجمال ينعمان بزراعة متوسطة كغيرهما من البلاد المعاصرة اليوم ..

ومن الغريب في جغرافية بلاد العرب ان الصحراء تقع بين بعض هـــذه الاراضي الخصبة والبعض الآخـر ، بحيث كانت تفصل بين المنطقتين انفصالا يكاد يكون تاماً ، وتجعل سكان المنطقة الواحدة بمعزل عن سكان المنطقـــة الاخرى، فالربع الخالي، هذه الصحراء الواسعة الاطراف ، حيث لا شجر ولا ماء،هذه الصحراء المخيفة العابسة كانت وما تزال تفصل بين سكان جنوبي الجزيرة، وبين شمالها وما حول شمالها ، بحيث كانت الجماعات العربية التي تعيش مثلا في عمان لا تعرف شيئاً عما يجري في وسط الجزيرة ، فلا يتأثر سكانها بمـا يحدث في الحجاز ونجد مثلا ، ولا يفطنون الى التطورات الخطيرة التي كانت تتوالى قبل الاسلام على الحياة العقلية في قلب الحزيرة ..

ومما لا شك فيه ان قيام هذه الصحروات المخيفة في وسط الجزيرة خصوصاً الربـع الخالي كان له ابعد الاثر في حياة سكان جنوبي جزيرة العرب ،فانصرفوا الى حياة خاصة بهم وتجارة مستقلة عن غيرهم بعض الاستقلال وحضارة محدودة المسالك ، محبوكة الحـــدود ، لا تتصل بسكان وسط الجزيرة في كثير ولا قليـــل ...

تطور الاقليم في الجزيرة :

وقد حلت الحالة الزراعية الرائعة التي كانت تنعم بها اليمن وبعض مناطق الحجاز كما يظهر ايضاً ، والتي تؤكدها الاثار الحميرية القديمة والمصادر العديدة

في التوراة ، والاخبار العربية المنقولة من جيل الى جيل ، بعض المستشرقين على القول بحدوث تبدل خطير في الاقليم وقع في الجزيرة العربية منذ عهد بعيد من الزمن فجعل من الخصب جدباً ، ومن المياه الجارية صحراء قاحلة ..

واول من توسع في هذه النظرية من المستشرقين توسعاً عظيماً واعتمدها اعتماداً قوياً « البرنس ليون كايتاني » المؤرخ الايطالي المشهور ، الذي قال بان هذا الامحال الذي ألمّ بالجزيرة كان من الاسباب التي دعت العرب الى الخروج من ارضهم واكتساح الامصار الخصبة القريبة منهم ..

و(كايتاني) يذهب الى ان الجزيرة مهد السامية وان الموجات السامية التي وقعت فيها، والتي تبسطت على البلاد القائمة حولها ، وكانت ذات الاثر الاكبر في تطور هذه الامم وحضارتها ، وأنشأت هذه الممالك السامية من اشورية وبابلونية ويهودية ، سببها هذا الامحال الذي ألمّ بالجزيزة وحمل بعض اهلها قسراً على النزوح عنها الى الارض الخصبة المجاورة . . .

وحدثت اول هذه الموجات العربية في الالف الخامسة قبل الميلاد لما زحفت بعض القبائل العربية من الجزيرة الى العراق حيث كانت تقيم بعض العناصر البابلونية القديمة ، وفي الوقت نفسه شقت جماعات سامية اخرى طريقها من الجزيرة الى سورية وفلسطين والى مصر ايضاً بطريق السويس ...

ووقعت الموجة الثانية في نهاية الالف الثالثة قبل المسيح بين سنة ٢٣٠٠ — ١٥٠٠ وكان من نتائجها ظهور الدولة البابلونية التي ظهر منها حمورابي المشترع السامي المشهور ...

وحصلت بعد ذلك موجات سامية اخرى ليس هنا مكان التبسط في وصفها كان آخرها خروج عرب الجزيرة في عهد خلفاء محمد لاكتساح العالم .

ومن المفروض طبعاً كما يقول (دوسو)في كتابه « العرب في سورية قبل الاسلام» وغيره من الكتّاب : ان العرب قد نزلوا سورية او اطرافها في فترات

مختلفة من الزمن ، وذلك قبل ظهور الاسلام طبعاً ، وان هـذا التسلل الى سورية كان سببه التطور العظيم الذي طرأ على الاقليم العربي فبدّله من حال الى حال ...

ويقول « بوركهاردت » : ان القبائل العربية كانت تصرف الشتاء في الجزيرة خصوصاً في المناطق اليمنية منها ، فاذا كان الربيع غادرتها شمالاً تطلب الكلأ والماء ، حتى تصل الى الاراضي الخصبة الواقعة حول المزارع القائمة على اطراف سورية والعراق ، فاذا انتهى موسم الحبوب استأذنت هذه القبائل اصحاب الارض لترعى قطعانها ارضهم وتشرب من مائها ، فاذا كان اصحاب الارض ضعافاً فرض عليهم البدو ضريبة ايضاً يأخذونها من المحصول ، واما اذا كان اصحاب الارض ينعمون بالقوة والمنعة ، فقد كانوا يردون البدو عنهم أو يفرضون سلطانهم على بعضهم للعمل في الارض فيقيمون القرى الصغيرة على الاثر ،وينصرفون للزراعة والاعمال المتحضرة ولا يعودون الى الجزيرة بعـــد ذلـــك ...

يؤكد هذا ان كثيراً من القرى المتهدمة التي لا تزال آثارها قائمة في صحراء سورية تؤكد هذه النظرية ، وتدل على ان جماعة من العرب كانوا يسكنون هذه القرى ، ويزرعون الارض التي حولها منذ آلاف الاعوام او على الاقل منذ قبل الاسلام ، فكيف اصبحت هذه الارض صحراء قاحلة ولمَ غادرها اهلها ؟ وانتقلوا الى مكان آخر ؟ ..

واذاً فالنظرية التي تقوم بحصول تطور عظيم في طبيعة الاقليم العربي صادقة لا مجـــال الى الشك فيها ، وهذا التطور هو السبب الاول والاكبر في تبعثر القبائل العربية وتوزعها ، وما حصل في جنوبي الجزيرة حصل في جهات حوران ايضاً كما يظهر ، وحصل على اطراف هذه الصحراء التي تفصل اليوم بين سورية والعراق ، وبعض المؤرخين وان كانوا لا ينكرون اثر التطور الاقليمي من الخصب

الى الجفاف في هذا التحول الخطير، إلا انهم في الوقت نفسه يجمعون اليه بعض العناصر السياسية والبسيكولوجية التي لا مجال الى بحثها الان ..

ومما يدل على وجود العرب في مصر في العصور القديمة ان « هيرودتس » المؤرخ المشهور ، يطلق على بعض الجبال التي توجد في مصر شرقي النيل، وبين هذا النهر والبحر الاحمر ، « الجبال العربية » ، كما ان المؤرخ (سافارى) يؤكد ان العرب بعد القبط كانوا اقدم الشعوب التي سكنت مصر ، وقد حكموا مصر مرتين مرة قبل دخول يوسف الى مصر — وكان منهم ملوك الرعاة — ،والمرة الثانية في عهد الفتوحات العربية الاسلامية ..

حضارة جنوبي الجزيرة :

والذي عليه اجماع المؤرخين اليوم ، ان سكان جنوبي الجزيرة العربية من سكان اليمن وحضرموت كانوا ينعمون بحضارة ممتازة منذ الالف الثانية قبل المسيح ، وكانت اليمن عندئذ تحت حكم «ملوك معين» ، وعاشت هذه المملكة كما يظهر مدة الف سنة ، والمصادر التي بين ايدينا تصف ما كان من حضارة هذه المملكة وعمرانها وتجارتها الواسعة وثروتها العريقة ، وقد اشتهر اهلها بتجارة البخور والمر في جملة ما اشتهروا به من انواع التجارة وكان سوقها — سوق البخور — والمر نافقة في مصر لقربها منها ، وسيطروا في الوقت نفسه على تجارة البحر الاحمر ، وامتد نفوذهم التجاري الى غزة من اعمال فلسطين الحاضرة ، وكانت لهم محطات تجارية وعنابر خاصة على طول السواحل التي كانت بواخرهم تمر بها ، وقد انهار ملك معين حوالي سنة ٦٥٠ قبل المسيح على الارجح،وقام ملوك سبأ مكانهم، ومن غريب امر هذه المملكة ان اول اثارها مرتبطة بآخر اثار مملكة معين . . واشتهرت بمثل ما اشتهرت به (معين) من الثروة والغنى والتجارة والعمران ، ولم توفق سفن البطالسة في مصر لمزاحمتها في البحر الاحمر ، لان الاثار التي بين ايدينا تدل على انها ظلت تقدم لمصر البخور المطلوب لمعابدها كما ان هذه الاثار تدل على ان مملكة سبأ

فاقت في ثروتها وتجارتها مملكة معين ، ووقفت في وجه الرومان الذين ارسلوا جيشاً لمحاربتها ، والاستيلاء على ثروتها العظيمة التي كان يضرب بها المثل في العالم القديم ، حتى اضطر القائد الروماني الذي ارسله الامبراطور اغسطس الى الرجوع فاشلاً الى بلاده بعد ان حاصر (مأرب) العاصمة مدة من الزمن لم يوفق فيها لاخضاعها ..

ويتحدث لنا (نولدكه) المستشرق الالماني عن الحضارة العربية الرائعة التي قامت في اليمن منذ الالف الثانية قبل المسيح فيقول: انه اذا كان يصعب علينا وصف هذه الحضارة بالتدقيق ، فان بقايا المباني الفخمة والنقوش الكثيرة التي لا تزال قائمة الى يومنا هذا ، تشهد بانها حضارة رائعة عجيبة ، ويقول ايضاً : ان سبب حضارة هاتين المملكتين معين وسبأ ثم المملكة الثالثة التي ورثتهما وهي مملكة «حمير» ، ان اليمن كانت بلاداً زراعية تصلح للزراعة والاعمار والانتاج ، وكان اليونان والرومان على علم بهذه الحضارة ، وقد وصفوها في كتبهم وشهدوا لها بالثراء والتمدن والحضارة ، ولكن معلوماتهم كما يظهر كانت قليلة محدودة ، واما التوراة فقد تبسطت اكثر من الكتّاب اليونانيين والرومانيين عند زيارة ملكة سبأ ـ بلقيس ـ لسليمان النبي ، فان ما ظهرت به هذه الملكة العربية من فاخر الثياب وثمين الحلى ، وما اهدته الى سليمان من الهدايا الثمينة يدل على حضارة مملكة بلغت درجة عظيمة من الترف والرخاء ...

ويظهر ان اهل سبأ قد جمعوا ثروتهم هذه من احتكارهم الطرق التجارية والبحرية والبرية ، والاتجار بالسلع الغالية خصوصاً المواد العطرية من البخور والمر وغيرهما ، وكان الطلب عظيماً على البخور في الهياكل والمعابد المصرية والحبشية ، وقد ذكرت التوراة هذه العطور والذهب والحجارة الثمينة ، وكأنها من الاشياء التي اشتهر بها اهل سبأ ..

وفي الآثار التي وجدت في الحجاز ما يدل على انه كان لسبأ محطات تجارية – ولمملكة معين قبلها – خارج بلادها ، ومن المؤكد انهم اثّروا كثيراً بحضارتهم على البلاد القريبة منهم ، والبلاد التي كانت تمر بها قوافلهم ..

ولكن الامر الثابت هو ان هذه الحضارة اليمنية العربية لم تخرج من بلاد العرب ، ولم ينعم بها غير العرب من سكان الجنوب .

انهيار الحضارة :

واما ما يقال عن سبب انهيار الحضارة اليمنية وان مرد ذلك سقوط سد مأرب العجيب الذي كان يحفظ الماء للارض الخصبة حوله ، فرأى فيه كثير من الغلو ، لانه يصعب علينا الايمان بأن انهيار السد كان كافياً لانحلال هذه المملكة المتحضرة ..

والرأي عندنا ان اهل اليمن أصيبوا بالانحطاط قبل انهيار السد بزمن طويل ، وكان سبب هذا الانحطاط مزاحمة الرومان لهم في تجارتهم ، فلما ضعفت تجارتهم ، وقلّ موردهم اخذ عدد كبير منهم بالمهاجرة الى الجهات الاخرى من جزيرة العرب خصوصاً الى شمال الجزيرة كما هو معلوم ومشهور ، وكان من اثر ذلك ان خفت العناية بالسد واهمله الموكلون بشأنه ، فتصدعت جوانبه ولم يعد يحتمل هجمات السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه ، فهوى وتدفقت المياه على الارض حوله فاتلفتها ، وزادت في تصدع اهل اليمن التجاري والمالي ، ولكن السبب الاكبر في انهيار الحضارة اليمنية هو مزاحمة الرومان التجارية لسكان اليمن ، واستيلائهم على الطرق التجارية الواسعة النطاق التي كانت محصورة بايدي اليمنيين ، والتي كانت تربط اهل اليمن بسورية ومصر وبابل وبلاد الحبشة والهند ، والتي كان لها الاثر الاكبر في تدفق الثروة عليهم التي تؤيدها اواني الذهب والفضة عندهم ، واعمدة الرخام والهياكل العديدة في بلادهم ، والقناطر العجيبة التي اقاموها على الاعمدة لتوصل مياه الشرب الى المدن المختلفة

مما يدل على براعة ومتانة في البناء ، ومهارة في فن العمارة ومعرفة تامة في تنظيم الري والهندسة ..

المؤرخون والحضارة العربية اليمنية :

ولقد جاء في دائرة المعارف الاسلامية :

« انه لم يوجد بين كتاب العرب من جاء بتـــاريخ حقيقي عن اليمن ، وبمعلومات مؤسسة على قواعد متينة مثل (الهمداني)، فقد كان هذا الرجل يمانياً ولد في صنعاء، فحمله حب وطنه والاعجاب بقومه على تأليف كتابه «الا كليل» الذي ذكر فيه تاريخ اليمن ، ووصف العادات والاثار التي فيها .

وقد نشر الجزء الثامن من الا كليل مع ترجمة المانية للدكتور مولر ، وقد اخذ من الجزء العاشر معلومات تكمل ما ورد في كتاب الهمداني الاخر المسمى « صفة جزيرة العرب »، وفي كتاب الهمداني قصص اقرب الى الاساطير ، نقلها صاحبنا على علاتها ، إلا انه على الرغم من كل هذا النقص فهو الكتاب الوحيد عن اليمن واهل اليمن ، وفيه تفاصيل عن انساب اليمن وطبائع اهلها ، وعن مواقع مدنهـــا وقصورها وحصونها لا توجـــد في كتب الافرنج برغم تدقيقاتهم ...

وفي اكليل الهمداني عن سبأ وعن سيل العرم ما لا يتم تاريخ اليمن إلا به، وقد ذهب (مولر) الى ان الكتابة الحجرية لا تكفي لجلاء تاريخ سبأ ومعين وبلاد اليمن ، واما باني سد مأرب فهو «اشيعر» وليس كما يقول الهمـــداني لقمان الحكيم ، واما وصف اثار السد بعد خرابه فانهـا صادقة كل الصدق ، ويقسم علماء الفرنجة تاريخ اليمن الى ثلاثة اقسام :

١ — الدور المعيني السبئي .

٢ — الدور الحميري .

٣ ـ الدور الحبشي الفارسي ،

ومؤرخو الفرنجة يقولون بان في كتب مؤرخي الاسلام روايات عن مدنية سبأ القديمة والادوار التي تلتها تنطبق اشد الانطباق على الكتابات المنقوشة في الحجر ، وعلى المصادر اليونانية والرومانية ، وكلها تفيد ان مدنية سبأ كانت راقية جداً ، وانها ارقى من المدنيات العربية الاخرى ، فالمباني القديمة الداثرة من اثار سبأ ، والنقوش والتماثيل وبقايا الاعمدة والهياكل والقصور والاسوار والابراج وسدود المياه مما شاهده سياح الافرنج باعينهم ، يطابق اشد المطابقة الاوصاف التي وصف بها اليونان والرومان تلك الاثار المدهشة ولا يجدون فيها مبالغة ابداً ...

خزانات ماء وزراعة :

وكان العرب في جنوبي الجزيرة بحاجة الى خزن مياه الامطار لاجل زراعتهم ، فبلغوا من الاعتناء ببناء السدود والاحياض اقصى درجة يتصورها العقل ، وترقت الزراعة في اليمن في ذلك العهد السحيق رقياً عظيماً مدهشاً ...

ويقول الهمداني : انه كان يقال لليمن (اليمن الخضراء) لكثرة اشجارها وفواكهها ومحصولاتها ، ولم تكن الزراعة وحدها راقيه في اليمن بل ضارعتها التجارة ، والصناعة ايضاً ، وكانت ارض اليمن بالنسبة الى اليوم اكثر خصوبة لكثرة ما كان فيها من الاشجار والغابات ...

وذكر (الهمداني) اعتدال الاقليم في جهات صنعاء ، وهذا يطابق ما قاله «غلازر» وغيره من السياح الاوروبيين وهو: ان اعالي اليمن معتدلة الهواء، وان هذا الاعتدال هو السبب في كثرة محصولاتها ...

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية : انه لا مبالغة فيما نقل الينا من ابواب

منازل سبأ وجدرانها وسقوفها واعمدتها ، وكيف كان اكثرها مموّها بالذهب والفضة ، مرصعاً بالحجارة الكريمة ، وان آنيتهم كانت مصوغـــة من نفس المعادن ...وهذا ما ذكره الهمذاني وغيره ، وما ايدته الاثار الاخيرة ..

ومن الابحاث الدقيقة التي قام بها بعض المؤرخين عن الحياة الاقتصادية في اليمن ما يدل على رقي اجتماعي رائع .

فقد كان يوجد عند العرب الاولين قانون صارم يقضي باستثمار الارض بدون اهمال شيء منها ، وكانت توجد ادارة خاصة لتقسيم المياه وتوزيع الاعمـــال الزراعية ، وهذه القوانين المتعلقة باستثمار الارض واستيفاء اسباب القيام بها ، كانت متشابهة في جميع بلاد العرب الجنوبية ..

والواقع ان خلاصة تحقيقات المستشرقين تتلخص فيما يلي :

١ ـ ان المدنية العربية التي قامت في جنوبي الجزيرة هي من اقدم مدنيات العالم وارقاها ، وان البلاد العربية هي اصل الساميين ..

٢ ـ ان اهم امة في الجزيرة العربيـــة في الثروة والعظمة والآثار في الارض هي امة سبأ التي خلفت بني معين ، وان هاتين الامتين « سبأ ومعين » بقيتـــا سائدتين الى الزمن الذي ظهرت فيه الدولة الحميرية ، وان هذه الدولة تغلبت على اليمن ، وبقيت فيه الى ان جـــاء الاحباش ، فخضعت اليمن للحبشة حتى جاء الفرس فازالوهم عنها ، وظلوا فيها حتى ظهر الاسلام ..

٣ ـ لقد هاجرت جماعات الى جزيرة العرب كما خرجت جمـــاعات منها ، وانه بسبب استيلاء الحبشة على اليمن ، ثم استيلاء الفرس عليها ، حصل اختلاط في الدم في جنوبي الجزيرة ، كما حصل اختلاط في شماليها بسبب تقدم الآراميين من مدائن صالح وتيماء ، كما هاجر النبطيون او الانباط الى شمالي الحجاز .

٤ ـ يعتقد مؤرخوا الفرنجة ان الكنعـــانيين من الامم السامية ، وانهم نزحوا من الجنوب وسكنوا فلسطين ، وان الفينيقيين جـــاءوا من شواطيء

الخليج العربي الغربيـة ، واقاموا على شواطيء الشام ، واستدلوا على ان اصل الفينيقيين من شواطىء خليج العرب بوجود النواويس – اي القبور المنحوتة في الصخور – في وطن الفينيقيين الاصلي ، وهي مماثلة لما وجد منها على شواطىء لبنان ، وكذلك الامر في (الرعاة) فانهم كانوا عرباً فتحوا قسماً من وادي النيل وحكموه مدة من الزمن ..

٥ – انه يوجد عرب بائدة ، وعرب عـاربة مستعربة ، وان من العرب البائدة عاد وثمود وطسم وجديس وكلهم نزحوا من اليمن الى الشمال ،وبعضهم يذكر منهم العمالقة ، وقد ورد ذكرهم في التوراة ...

اما اصل اشتقاق كلمه العرب فلم يبحثها المستشرقون ولكن العرب يقولون ان هذه اللفظة جاءت من قولهم « اعرب عن الشيء » اي ابان عنـه ، سمي العرب بذلك لفصاحتهم وحسن اعرابهم عن الشيء ...

الانقسام بعد الحضارة :

والظاهر بعد انحطاط مملكة سبأ وظهور الضعف في ملوكها .. ان تشعبت قبائل اليمن – كما هي عادة العرب – الى جماعات مختلفة وتبسطوا في انحاء البلاد وكان لهم رؤساء من قومهم ، الواحد منهم مستقل عن الاخر ، وكان ينبغ فيهم في بعض الاحيان رئيس قوي وزعيم شديد البأس يضم الى سلطانه غيره من الرؤساء ..

وكانت قبيلتا حمير وكهلان من ولد قحطان يتنازعان الرئاسة ويتنافسان في الملك ، وقد قسموا بلادهم الى مخاليف – مناطق – لكل منطقة او مخلاف رئيس يتوقف سلطانه على ما لديه من المناطق ، وكان مخـلاف صنعاء اضخم هذه المخاليف واخصبها ، فكان رؤساؤه يسمون بالملوك وهم ملوك حمـير (١)

(١) وقد ظهروا سنة ١١٥ ق.م. ، وعاشوا حتى سنة ٣٠٠ بعده ، ومملكة حمير ورثت مملكتي معين وسبأ وهي فرع منها على الاكثر والاصح ، لان اللغة تكاد تكون واحدة .

ومنهم (ذو نواس) وكان يحكم بلاد نجران التي تدين بالمسيحية، وقد دخلت المسيحية الى اليمن من الحبشة على الارجح، غير انه اعتنق اليهودية بعد ذلك واضطهد المسيحيين، واحرقهم بالنار سنة ٥٣٤ بعد المسيح، فطلب الامبراطور الروماني في القسطنطينية من نجاشي الحبشة غزوه ففعل وغلب ارباط الحبشي قائد النجاشي على اليمن سنة «٥٢٥»، ثم خلفه ابرهة في حكم البلاد ثم ولداه من بعده وقد اذلا اهل اليمن، فلجأ سيف بن ذي يزن الحميري الى كسرى الفرس يطلب مساعدته على اخراج الاحباش من بلاده فرضي بمساعدته وجهزه بمن كان في سجنه من المساجين، فذهب بهم ووفق الى اخراج الاحباش من اليمن، وملك على اليمن وارضها، وفرض كسرى على سيف بن ذي يزن جزية وخراجاً يؤديها اليه كل سنة، وانتهى امر سيف باليمن بان قتله حبشي، فبعث عندئذ كسرى احد رجاله الى اليمن يحكمها باسمه، وجاء الاسلام وعلى اليمن حاكم فارسي فلما دعا رسول الله اليمن الى الاسلام اسلموا جميعاً بما فيهم الفرس الذين كانوا بينهم ...

ويبدو لنا حين يظهر العرب في التاريخ انهم في بعض مناطق الجزيرة كانوا جماعات متحضرة، وفي البعض الاخر لم يكونوا من الجماعات الذين يستطاع وصفهم بالبعد عن المدنية، فقد كان البدو ينعمون بحياة روحية ممتازة، وكان لهم شعر وادب ضاع اكثره، ولكن ما حفظه لنا التاريخ منه يدل على ذكاء عظيم، وعقلية ممتازة، وحياة روحية خصبة، وكان العربي الى ذلك لا يعيش وحده وانما ضمن قبيلته، اي ضمن نظام سياسي اجتماعي، مهما قيل في بساطته فانه نظام على كل حال، لان هذا النظام الذي قام على القبيلة، هو الذي خلق المملكة العربية بعد ذلك، والمملكة العربية ليست في الواقع إلا عبارة عن اجتماع عدة قبائل تضافروا بعضهم مع بعض على ان يكونوا يداً واحدة وصفاً واحداً يسمعون لكبيرهم او من يصار الى اختياره من بينهم ليكون زعيمهم ..

على ان هذا الاجتماع او التحالف الذي خلق الملكية ، لم يقض على روح القبيلة التي ظل افرادها ينظرون اليها كغايتهم الاجتماعية والتعاونية فيما يتعلق بعلاقاتهم بعضهم مع بعض ، ثم ان هناك ما يدعو الى الاعتقاد ان فكرة الملكية عند العرب كانت مرتبطة بالروح الوثنية الدينية ايضاً ، بمعنى ان الملك عندهم كان زعيماً سياسياً ودينياً معاً ، ولقد ظل هذا شائعاً في مملكة معين واول مملكة سبأ ، وفي اواخر ايام هذه المملكة نرى الملك عندهم يظهر لنا بلون جديد هو اللون الذي نراه عند الاوروبيين في القرون الوسطى ، فيصبح الملك العربي ملكاً اقطاعياً يملك الاراضي والمزارع الواسعة ، ويعمل في الوقت نفسه على تلزيم ارضه ومقاطعاته لغيره من الامراء ، كما نراه يسك النقود الذهبية والفضية باسمه فيضع صورته على الوجه الاول ، وصورة حيوان على الوجه الثاني ، مما يدل دلالة قاطعة على استقلال هذه الجماعات العربية في جنوبي الجزيرة استقلالا تاماً في ضرب النقود ، كما ان كثرة اسماء الالهة في الاثار العربية القديمة يدل على اهتمام القوم بالدين في ذلك العهد ، وليس لدينا من المعلومات ما يلقي بعض النور على اهمية هذه الاثار الدينية وشأن آلهتها في حياة عرب الجنوب ، كل ما نعلمه ان الجماعة كانوا كثيري التأثر بالدين ، لكثرة الاثار التي وصلت الينا ، عن آلهتهم ، حتى كانوا يحفرون صورها على الحجارة واذا كان هذا لا يدل على ان القوم كانوا ينعمون بروح دينية قوية فانه يدل على ان تأثير الكهنة كان عظيماً عندهم ، وان المعابد كانت عديدة في ربوعهم ...

ونظراً لوجود كثير من العرب البدو حولهم ، ولانتقال هؤلاء البدو من مكان الى اخر ، وتعرضهم لما يجدونه في طريقهم من العمارة والزراعة ، فقد دعا ذلك عرب الجنوب الى انشاء المدن المحصنة والحصون القائمة وتطويقها بالاسوار الكبيرة العظيمة ، حتى لا ينال العرب البدو منهم ومن مزارعهم غرضاً ، وليس ادل على ذلك من قصر غمدان في صنعاء ، وهو يتألف من نحو

عشرين طابقاً ، ومن معبد (مأرب) الذي كان يعلو جداره حوله عشرة امتار عن سطح الارض ، ومن سد مأرب العظيم الذي كان يمنع البـــدو عن العبث بالماء ، وهي حياة القوم ومادتهم ، وهذه الانصاب والعمارة القائمة ، والسدود المنيعة والقصور الفخمة تدل جميعها على سعة وبراعة وضخامة في فن العمارة ، وعلى رغبة عرب الجنوب في التزويق والتصوير ..

- ٣٠ -

العرب في عمرانهم قبل النبوة

جنوب الجزيرة :

عاش في جنوبي الجزيرة – كما قدمنا – جماعات متحضرة اشتغلوا بالتجارة والصناعة والزراعة ، ثم تداول عليهم الزمن فاصبحوا حديثاً سالفاً ، إلا ما تركوا من آثار ، وما خلفوا من اخبار حضارتهم وعمرانهم ، وذلك بعد ان توقفت تجارتهم وانهارت زراعتهم ، وتمزقت السدود التي اقاموها لحفظ الماء ، وقد غادر هؤلاء مقر الحضارة وتركوها وشأنها ، فنزل عمان قسم منهم ، وهبط نجدا قسم آخر ، ومشى الى البحرين والمرافىء المجاورة قسم ثالث ، ثم صعّد قسم رابع الى الحجاز ، فاقام بيثرب ، ووادي فاطمة ، والطائف وعلى حدود العراق وسورية ...

وكانت هذه المنطقة الجنوبية من الجزيرة اكثر المناطق استكمالاً للحياة المستقرة ، فقد كان ينزل عليها ماء متتابع متناسق ، يغرى قسماً عظيماً من العرب على السكنى فيها ، ولكنها لم تكن من الثراء والثروة الطبيعية بحيث

تطيق عدداً كبيراً من الناس ، ولعل هذا سبب هذه الهجرة المستمرة من بعض اهلها نحو مختلف انحاء الجزيرة ، بعد ان ضاقت بهم ارضهم ، ويمكن التأكد من هذه الظاهرة من دراسة تاريخ الجماعات التي كانت تتعاقب على الارض الواقعة وسط الجزيرة ، فبينما نرى مثلاً بعض القبائل قد استقرت في الاماكن القريبة من البحر كالحجاز مثلاً ، كثقيف وجهينة وهذيل وغيرها ، منذ ظهور الاسلام حتى يومنا هذا ، فاننا لا نجد حول نجد اليوم مثلا قبيلة واحدة من القبائل المعاصرة لظهور الاسلام ...

ومن المؤكد عند بعض المؤرخين اليوم ان سقوط الحضارة اليمنية يرجع الى ماقبل التاريخ المسيحي ، لان هناك ما يؤكد ان القوة التي ارسلها الرومان لغزو جنوبي الجزيرة سنة ٢٦ مسيحية لم تجد امامها الا ارضاً قاحلة ، ومزارع بائرة ، ومدناً مهدمة ، بينما كانت تنتظر ان تجد زراعة قائمة ومدناً غنية ، وعمراناً واسعاً فاضطرت للعودة على اعقابها ولم تظفر بنجاح ولا فلاح ...

واما القول بأن سد مأرب كان سبب هذا الانهيار الذي اصاب الحضارة اليمنية ، فقول لا يرتكز على اساس علمي ، لان الاثار التي وجدت على السد تدل على انه لم يتوقف عن العمل ، وان بعض اجزائه على الاقل ظلت صالحة للعمل حتى القرن السادس المسيحي ...

ومن المرجح ان مجموعة الاسباب التي ساعدت على الانهيار قد ضمت بعضها الى بعض ، وحفظ الناس منها اهمها وهو الذي لفت الانظار ، وكان سبباً في ندرة الماء في بلد تعتمد في حياتها على الماء ، ومن المفروض في مثل هذه الحالة ان اقل نقص في الماء الذي تعتمَد عليه بلد من البلاد في زراعتها وعمرانها يقلب الحالة الراهنة رأساً على عقب ، ويصبح من الصعب على اهل البلد ان يحيوا حياتهم السالفة ، وينعموا بما كانوا ينعمون به قبلاً من خصب وعمران .

فاذا كان القرن السادس الميلادي .. فانا نرى العرب لا يحفظون عن هذه

الحضـــارة التي قامت في اليمن إلا الحديث عنها ، واذا هي قد اصبحت من حوادث التاريخ الماضي ، وقد ظل هذا الحديث عالقاً في الاذهان بسبب هذه القبـائل التي هاجرت من اليمن الى اطراف الجزيرة ، والتي كان اجدادها ممن عملوا في اقامة الحضارة اليمنية السابقة ، فنرى الجراهمة في مكة يتحدثون عنها وهم من اصل يمني ، ونرى الاوس والخزرج في يثرب يرددون قصتها وهم مـن اصل يمني ، ونرى غيرهم يفعلون مثل ذلك في اماكن اخرى من الجزيرة ، كما نجد ان هذه القبائل التي هاجرت من اليمن بعد انهيار الحضارة وقبل انهيـار هذه الحضارة ، كانت تعتبر نفسها ارقى من سواها ، واشرف من هذه القبائل البدوية التي تضرب خيامها حولها ..

اليهـــود :

ولم يكن اهل الجنوب وحدهم الاغراب في الحجاز ، فقد كان هنـــاك في الاراضي الصالحة للزراعة ، والتي تدعو الى الاستقرار لما فيهـا من الماء والكلأ والخصب كبلدة يثرب وتيماء وخيبر ومكة والطائف ، مستعمرات يهودية تعرّب اليهود فيها ، ونسوا لغتهم ، بحيث اصبحوا عرباً في لغتهم واسمائهم وعاداتهم ، غير محتفظين بغير دينهم ، وكانوا باكثريتهم من الاراميين المشهورين كزملائهم النبط في بترا ، واليهود الذين كانوا يسكنون العراق وما بين النهرين .

اما كيف نزل هؤلاء اليهود الجزيرة العربية ،وابتعدوا عن مواطنهم الاصلية فامر لايزال مجهولا على وجه الدقــه والتحقيق ، وفي اواسط القرن الخامس الميلادي نرى اليهود من القوة في اليمن بحيث استطاعوا فرض سلطانهم عليها ، وليس بعيداً ان يكون بعض يهود اليمن قد هاجروا منها كما هاجر غيرهم من العرب ونزلوا الحجاز ، ولا يبعد ان يكون بعضهم من اصل عراقي ، ولكن الثابت عندنا هو انهم كانوا قد تعربوا قبل ان نزلوا الحجاز .

ولا يبعد ان تكون قريش نفسها من هذه القبائل العربية التي نزلت الحجاز

من العراق ، وهذا يفسر بعض التفسير ذكاء قريش المظيم ومقدرتها التجارية وشخصيتها القوية بحيث استطاعت ان تنزعم غيرها من القبائل العربية ..

ونرى قبل ظهور الاسلام هدوءاً عظيماً يغمر الجزيرة العربية ، فليس هناك فيها حضارة قائمة ولا مملكة مستقلة ، ولا سياسة قومية واضحة محـــدودة الحدود ، وانما هناك قبائل متفرقة ، يحـــارب بعضها بعضاً ، ووثنية شاملة ، ومدن صغيرة هنا وهناك مستقل بعضها عن بعض ،لا تتصل الواحدة بالاخرى إلا بمقدار ، وإلا اذا دعت الى ذلك مصلحة تجـــارية او قومية في بعض الاحايين ...

دول اخرى :

واذا اردنا التعرف على احسن الاثار العمرانية التي صدرت عن اهل اليمن فلن نجدها في اليمن ولا في حضرموت وانمــا على اطراف الصحراء السورية ، وبين سلسلة جبال حوران التي نزلتها بعض القبائل اليمنية لاسباب اقتصادية ..

والظاهر انه بعد انهيار الحضارة اليمنية قبل ظهور المسيح او بعده بقليل، اخذت شمالي الجزيرة تنفض عنها غبـــار الخمول ، فظهرت فيها عدة ممالك صغيرة ، لا نعرف عنها غير اسمائها ، كما انها لم تعش طويلاً ، وقـــام مكانها مملكتان اشتهرتا في التاريخ القديم واتصلتا بالامبراطورية الرومانية وكان بينها وبينها مواقع وحروب ..

والاولى مملكة النبط ، وعاصمتها بترا في وادي موسى ، وقد ظهرت في القرن الرابع قبل الميلاد وتمكنت من الوصول الى قلب البلاد العربية بين سنة ٢٠٠ — ١٠٠ حتى قضى عليها الرومان سنة ١٠٦ قبل الميلاد ، ثم مملكة تدمر التي كانت عاصمتها تدمر ، والتي سيطرت في فترة من الزمن على سوق التجارة العالمية ، والتي قضى عليها الرومان سنة ٢٧١ مسيحية ، ومما يجب ان يصار الى ذكره بهذه المناسبة هو اننا حين نقرأ في الآثار القديمة اسماء ملوك عربية ، او

نقع مثلا على اثر يرجع الى سنة ٣٢٨ مسيحية ، وفيه ان امرؤ القيس كان يحمل التاج ، ويحكم قبـائل الازد ونزار ،لايجب ان يدعونا هذا الى الظن بان الجزيرة كانت تنعم بنظـــام حكومي يساوق هذه الانظمة التي كانت عند البيزنطيين والرومان والفرس مثلا ، وانما يجب علينا ان ندرك ان جماعة من العرب الذين اتصلوا بالشعوب المتحضرة المجـاورة لهم ، قد عملوا على تقليدهم واطلقوا اسم « الملك »على احد شيوخهم ..

ولننتقل بعد هذا الى مملكتين قامتا على اطراف الجزيرة وفي شمالها ووقفتا وجهاً لوجه امام الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ...

ويبدو لنا ان الجزيرة العربية لم تكن متصلة اتصالاً وثيقاً بالخارج ، وانمـا كانت هناك تجارة تصل بين الحجاز خصوصاً مكـة وبين سورية ، وقد قامت على الحدود السورية العربية حكومة عربية غسانية،واصل الغساسنة من اليمن، وعلى حدود العراق والجزيرة قامت مملكة عربية عـــاصمتها الحيرة ، واصل مـــلوك الحيرة من اليمن ، وكان الغساسنة يعتمدون على الروم في سلطانهم ، كما كان يعتمد ملوك الحيرة على الفرس في توطيد عرشهم ، وكان أباطرة الروم وأكاسرة الفرس يعتبرون الجزيرة العربية في بعض اقسامها خاضعة لسلطانهم ، الاولون بواسطة الغساسنة ، والفرس بواسطة ملوك الحيرة ..

واما الحبشة فكانت تعمل لمصلحة اباطرة القسطنطينية ، ولما غزت الحبشة اليمن في القرن السادس ، كانت ما في ذلك شك ولا ريب تعمل لمصلحة الروم الذين اغضبهم ان تقوم في اليمن حكومة يهودية تضطهد المسيحية ، فطلبوا من النجاشي اقتحام اليمن واقامة حكومة مسيحية فيها ، فلمـا وفق الى ذلك ، اغضب عمله الفرس ، وتحينوا الفرصة الملائمة ، فلما وقعت ارسلوا بدورهم قوة لطرد الاحباش من اليمن ، فلما ظفروا ، اصبحت الحبشة تابعة للامبراطورية الفارسية ، وظل الفرس في اليمن حتى ظهور الاسلام ...

واما ما حاوله الاحباش من غزو مكة ، فقد يكون مردّه رغبة الروم في ذلك ، وقد يكون الباعث عليه رغبة الاحباش في توسيع سلطانهم والقضاء على الوثنية القائمة في الحجاز ، ومكة كانت معقل هذه الوثنية ، وكان للغساسنة مملكة عربية قامت على انقاض تدمر المملكة العربية السابقة ، وقد تأثر الغساسنة بالحضارة البيزنطية كما تأثر التدمريون قبلهم ، ولكنهم لم يقلدوا الرومان تقليداً تاماً ، فاحتفظوا بكثير من عاداتهم العربية ، واعترف بهم الروم كمملكة عربية ، واسموا ملوك غسان ملوكاً على العرب ، ونعم الغساسنة ما يقرب من مائة سنة بحضارة فيها بعض آثار البداوة ، كانوا كالقبائل العربيه لا يستقرون بعاصمتهم في مكان واحد ، فكانوا يقضون شتاءهم في «الجولان» —من اعمال شرقي الاردن—وصيفهم في «الازرق» او (قصير عمرا) ، واحياناً في غيرهما ...

امـا مملكة الحيرة فقد اشتهرت وفشا امرها اكثر من الغساسنة ، وسبب ذلك ان ايامها طالت اكثر من ايامهم ، وكان للملوك الحيرة عاصمة مستقرة هي الحيرة ، الواقعة الى جنوب الكوفة الحاضرة ، ولما كان اصل ملوك الحيرة من عرب اليمن ، فان بعض المؤرخين يقولون ان حضارتهم ليست في الواقع إلا تتمة متواضعة لحضارة اليمن السالفة ...

ولقد اشتركت مملكة الحيرة كما اشترك الغساسنة ، في حروب الدولتين الفارسية والرومانية ، وعرف رجالها ضعف الدولتين وقوتها ...

وفي اواسط القرن الخامس الميلادي ، نرى دولة جديدة تظهر من وسط الجزيرة العربية على مسرح التاريخ ، وهذه الدولة كانت تقوم على سيوف قبيلة « كنده » المشهورة ، التي استطاعت ان تخضع لسلطانها بعض القبائل التي كانت تعيش حولها ، ومن المؤكد ان هذه الدولة الجديدة كانت اقرب الى البداوة في نظمها الحكومية ، وكانت من النشاط والقوة بحيث ان احد

ملوكها وهو «حجر» هاجم سنه ٤٨٠ الحيرة فلم يوفق ، ولكن خلفه الحارث غزا فلسطين سنة ٤٩٦ ، حتى اضطر الرومان الى ارضائه بمبلغ عظيم من المال للخلاص من غاراته ...

ولما احس (الحارث) من نفسه القوة عاد يحاول الاستيلاء على الحيرة كرة ثانية فلم يوفق ايضاً ، وانصرف عنه رجاله من كنده ، وقتله بعض خصومه من القبائل الاخرى سنة ٥٢٩ ، وبمقتله سقطت (كندة) كدولة جديدة ناشئة ...

واما الغساسنة فقد ظهروا بعد سقوط تدمر ، وهم قبيلة من اليمن كما قدمنا قدمو الى حوران في اواخر القرن الثالث المسيحي ، وفي القرن الخامس دخلوا ضمن النفوذ الروماني ، وراحوا يقفون سداً منيعاً بين الامصار الرومانية والقبائل العربية ، التي كانت تغزوها من حين لآخر ...

ويظهر ان ملوك الحيرة نزلوا ارض العراق حوالي القرن الثالث المسيحي ايضاً ، وهم من قبيلة تنوخ اليمنية ، وعاش التنوخيون اول امرهم في الخيام ثم استقروا في مدينة اسموها الحيرة ، وكان سكان الحيرة باكثريتهم من المسيحيين النسطوريين ، واذا كان ملوك الغساسنة قد تبدّلوا دينهم الوثني القديم بدين الروم المسيحي ، فان ملوك الحيرة ظلوا على دينهم — كما كان اهل اليمن اجدادهم — ولكن الحيرة لم تكن تخلو من المسيحيين كما قدمنا ، وكان فيها اسقف في اوائل القرن الخامس ، ويظهر ان تأثير المسيحية فيها كان يضعف ويقوى وفاقاً لملوكها ومنازعهم السياسية ، فبعضهم كان يدافع عن الوثنية ، وبعضهم كان يعتنق المسيحية ويتعصب لها ، كما فعل النعمان الثالث ، مما اغضب كسرى عليه فحبسه ومات في حبسه (٥٨٠ — ٦٠٢) وعين كسرى على الحيرة عاملاً من انصاره ظل فيها حتى ظهور الاسلام ..

وكذلك نرى انه حين يطلع علينا القرن السابع الميلادي لانجد في جزيرة العرب كلها حكومة قومية ثابتة الاركان ، حتى ولا شبح حكومة قوية تستطيع

ان تفرض سلطانها على القبائل التي حولها ..

اما سكان الجزيرة فكانوا ينقسمون الى قسمين: بدو رحل، وعرب يقيمون في بعض البلاد والقرى الصغيرة ولم يكن هناك فروق كبيرة بين هذه الجماعات المستقرة في الجزيرة وبين البدو، لان هذه الجماعات المستقرة كانت من البدو قبل استقرارها، واذا نظرنا الى البدو نرى ان اواصر الرابطة القبلية كانت عظيمة بينهم، فكانت القبيلة تعني كل شيء عند البدوي، كانت قوميته وحكومته وعائلته، معاً وفي آن واحد .. والبدوي الذي يطرد من القبيلة كان رجلاً اقرب الى الاموات منه الى الاحياء ... ولما كان همّ البدوي في الصحراء الحصول على الماء والكلأ، فقد ضعفت فيه مع الايام روح القومية، وعظم عنده شأن الرابطة التي تربطه مع قبيلته التي تساعده في الحصول على الماء والكلأ، وكانا مادة الحياة عنده، فكان رجال القبيلة الواحدة والحالةهذه يحاربون رجال القبيلة الاخرى في سبيل الماء والكلأ، ولايرون كبير امر في غزوهم، ونهبهم وسلبهم واستعباد نسائهم واولادهم وقتل رجالهم، واذا كان الماء والكلأ قد مزّق القبائل العربية بعضها مع بعض، فان الطبيعة القاسية التي كانت تغمرهم جعلتهم يؤكدون بين بعضهم عاطفة جديدة هي حب الضيف واكرامه، لان كل واحد منهم معرض للضياع في هذه الصحراء المترامية الاطراف، فاذا لم تكن هناك بين القبائل هذه العاطفة فان العربي الضاليصبح رجلاً لا امل له في الحياة، ويكون عرضة للموت في اي وقت من الاوقات..

وكذلك كانت الجزيرة مضطربة دامية تمج بالغزوات والحروب المختلفة، ومع ذلك فقد قامت فيها تجارة ربطت بين مكة والشام، وبين اليمن والشمال والعراق، فكيف كان بالامكان والحالة هذه قيام هذه التجارة في هذه الارض التي لا تعرف السلام، ولا تقره ... ؟ لقد وجدت القبائل العربية الى ذلك حلاً فاقرّت فيما بينها اربعة اشهر لا يحق فيها لشخص ان يعرض لاخر ولو كان قد قتل اباه، وسلب ماله، ولا يحق لقبيلة ان تحارب قبيلة اخرى، ولو كان

بينها من الدماء ما لا تصل مياه البحر الى ازالته ، فكان العرب في هذه الاشهر الأربعة يقيمون مواسمهم في سوق عكاظ وغيره ويحجون الى الكعبة ،ويتصلون تجارياً بمن جاورهم من الجماعات والشعوب ، وكانت المواسم تقام على مقربة من الحجاز ، فاذا انفضوا منها ذهبوا الى مكة للحج وزياره الكعبة واصنامها ...

اختيار مكة :

وكانت الوثنية هي الغالبة على سكان الجزيرة ، واما اليهودية والمسيحية فلم يكن لهما شأن يذكر ،وكانت مكة معقل الوثنية وعليها كانت تسيطر قبيلة قريش ، ولكن هذه الوثنية لم تكن قوية ولا شديدة ،فقد كانت عند المكيين تصطبغ بكثير من المصلحة التجارية ، وكانت عند العرب البدو عبارة عن تقليد الفوه وتعودوه ، وكان اهل مكة من رحابة الصدر بحيث كانوا لا يرون بأساً في استقبال كل صنم ينتمي الى احدى القبائل يقيمونه في الكعبة ويتقبلونه بقبول حسن ، وكان لوجود الكعبة في مكة وقيام هذه المواسم العربية بالقرب منها فائدة عظيمة لاهلها وللقبائل العربية التي كانت بحاجة الى مكان معين تجتمع فيه مختلف القبائل ليصار الى التبادل التجاري والاخذ والعطاء . . .

والذى يستلفت النظر في مكة هو قيامها في بلد غير ذي زرع ، ولا ماء، مع ان المفروض في المدن ان تقوم على الانهار الجارية والينابيع الكثيرة ، فكيف قامت مكة والحالة هذه على غير ماء ... ؟

واذا فقد كان في مكة شيء غير الماء يدعو الناس الى اختيارها وهذا الشيء هو الكعبة ، ولولا الكعبة ما قامت مكة ...

واذا قيل انه صار اختيارها لتكون محطة تجارية بين تجارة جنوبي الجزيرة وشمالها ، نقول ان هذا الاختيار لا يدل على بعد النظر ، لانه كان على مقربة منها في الطائف ووادي فاطمة وغيرهما، اماكن تصلح لان تكون

مركزاً تجارياً افضل من مركز مكة ، كما انه كان فيها الماء الجاري والزراعه الخصبة ...

ويؤكد هذا ما أيدته المصادر من انه لم يكن في مكة بناء قائم قبل نزول قريش فيها ، وان بئر زمزم نفسه كان مطموراً ولم يظهر ماءه إلا قبل ظهور الاسلام بسنوات ، ونزول قريش في بلد لا مـاء فيه امر لا يقبله العقل ، إلا اذا رحنا نقول ان مكة كانت بلداً مقدساً ، وان هذه القداسة هي التي دعت قريشاً الى نزولها والاستقرار فيها ..

وفي هذه الاسواق العربية التي كانت تُقام على مقربة من مكة خصوصاً سوق عكاظ ، كانت الحياةالعربية تصل الى اقصى غاياتها ، فيتاجرون فيها ويتحدثون بالشعر ويتفاخرون بالانساب ، ويستمعون الى الوعاظ من الحنفـاء الذين كانوا يدعون الى شيء من الوحدانية في الدين ، فيقوم بينهم مثــل قس بن ساعدة يعظهم ويخطبهم ، ويبيعون ويشترون ويشربون الخمرة التي كانوا يصنعونها من القمح والشعير ، كما كانوا يشترون من اليهود والمسيحيين الخمرة المصنوعة منالعنب ويقضون ليلهم بعد عناء النهار فيالمسامرة وانواع المنادرة ، ويظلون على حالهم هذا اياماً حتى ينقضي اجل السوق فينزلون الى مكة لزيارة الاوثان القـائمة في كعبتها ..

قس بن ساعدة :

وكان قس بن ساعدة شخصية قوية في الجزيرة في عهده ، ويقول المؤرخون في نسبه انه قس بن ساعدة ابن حذافه بن زافر او زهر بن اياد بن نزار بن معد بن عدنان ، وروى صاحب الاغاني نسبه في شيء من الاختلاف عمـا اوردناه نقلا عن ابي حاتم السجستاني ، ويقال انه كان من المعمرين ، ويقال ايضاً انه من (ربيعة) لا من (اياد) ، على انه روى ان الجارود ابن عبد الله لمـا وفد في وفد عبد القيس على رسول الله سأله : ياجارود هل في جماعة عبد القيس من

يعرف لنا قساً ؟ فقالوا نعرفه ... وفي رواية اخرى انه لما قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله قال لهم : ما فعل قس بن ساعدة الايادي ؟

قالوا : مات يارسول الله .

وفي رواية ثالثة ان وفد بكر بن وائل قدموا على النبي ﷺ فقال :

– هل فيكم احد من اياد ..؟

قالوا: نعم ... قال :ألكم علم بقس بن ساعدة ؟ قالوا : مات يارسول الله. فكل هذه الروايات تفيد اتصال نسب قس بعبد القيس وبكر وهما من قبائل ربيعة ، وكانت قبيلة اياد تنزل في قديم امرها بين اخواتها من قبائل معد في تهامة والحجاز ونجد ، ثم نزحت من تهامة في حرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر فغُلبت فيها ، وخرجت الى العراق فنزلت في سواده قرب مكان الكوفة ..

وراحت تغزو اهل العراق من العجم وغيرهم ، فلما كان عهد كسرى انو شروان اغارت على نساء من الفرس فاخذتهن ، فارسل اليها انو شروان جيشاً اجلاها عن العراق ، وشتتها في الارض ، فنزل بعضها «تكريت» ونزل بعضها الجزيرة ونزل بعضها ارض الموصل ، ثم سلط عليها انوشروان قوماً من بكر ففتكوا بها وفرقوها في ارض الروم وبلاد الشام ...

واشتهرت هذه القبيلة بخطبائها وكانوا مضرب المثل في الفصاحة وقوة البيان ...

ويذهب بعض المؤرخين ان قساً كان اسقف نجران ، ولكن اين اياد من نجران ،ونجران في اليمن ، واياد مستقرة في العراق ؟؟

ورووا انه كان يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه ، وقد سأله مرة ما افضل العلم؟ قال: معرفة الرجل بنفسه، فقال له ما افضل العقل ؟ قال:وقوف المرء عند علمه ، فقال له : ما افضل الادب ؟قال: استبقاء الرجل ماء وجهه،

فقال له : ما افضل المروءة ؟ قال: قلة رغبة المرء في اخلاف وعده ، فقال له: فما افضل المال ؟

قال : ما قضى به الحق ...

واخبار قس يحيط بها الغموض والابهام ، ويقولون انه توفي في قرية قريبة من حلب ، وانه مات سنة ٦٠٠ ميلادية اي قبل الهجرة باثنين وعشرين سنة .

وذكر الجـارود بن عبد الله فيما وصفه لرسول الله انه كان يلبس المسوح ، وانه كان مقراً بالوحدانية وكانت تضرب بحكمته الامثال ، والارجح ان قساً كان من الحنفاء الذين ظهروا في الجـاهلية عهد الوثنية ، وانه كان من هؤلاء الذين يقولون بالوحدانية وملة ابراهيم ..

وكان قس خطيب العرب وحكيمها وحكمها في عصره ، وكان على شهرته بالخطابة يقول الشعر ، فاذا خطب أتى في خطابه بشيء من شعره ، يناسب موضوع الخطاب ، وقد جدّد في الخطابة العربية بعض امور تنسب اليه ، منها انه اول من قـال فيها « اما بعد » وبعضهم ينسبها لغيره ، ولكن اسلوب الكلمة عربي خالص ، وانما عظم شأن هذه الكلمه في الخطابة وغيرها ، لانهـا تساعد على الانتقال من غرض الى غرض ..

ومما ينسب الى (قس) ايضاً انه اول من خطب على شرف،واول من اتكأ في خطابه على سيف او عصا ، واول من كتب من فلان الى فلان ..

ولم يبلغنا من خطب قس إلا النزر القليل ، وهي لا تمكننا والحالة هذه من التعرف على المميزات التي تمتاز بها عن غيرها ، ولا الدرجة التي يستحق بهـا (قس)ان يوضع فيها بين خطباء العرب،وان كان قس في الخطابة مضرب المثل، وان كان الناس قد اجمعوا قديماً وحديثاً على تقديمه فيها .

وقد يمكننا ان نحكم من القدر الذي وصل الينا من خطابة قس حكماً تقريبياً بأنه كان يعنى بالخطابة الدينية اكثر من غيرها ، فكانت اكثر خطبه في الدعوة

الى التوحيد ، والايمان بالبعث والحساب ، وما الى ذلك مما كان يدعو العرب اليه ، كما يمكننا ان نحكم ايضاً بأنه كان يؤثر الالفاظ السهلة على غيرها ، والسجع القصير المتواصل لما له من الاثر في النفوس ، يخاطب الناس بسهولة كما لو كان يكلمهم ولا يخطبهم ..

وكان على العربي الذي يريد الظهور في الجزيرة ان يحضر سوق عكاظ فينشد شعره ان كان شاعراً ، ويفاخر بنسبه ان كان شريفاً ، ويعتز بسيفه اذا كان بطلاً مغواراً ..

واما مكة فقد اصبحت مع الايام بلداً عظيما له شأنه وخطره في الجزيرة العربية ، كما اصبحت بعد سقوط سلطان حمير في جنوبي الجزيرة اعظم بلد متحضر في طول الجزيرة وعرضها ..

وهذا النفوذ الذي نالته مكة ، ليس مرده قيام الكعبة والاوثان فيها فحسب ، فان كثيراً من البلاد العربية كانت تنعم ببعض الاوثان ايضاً ، وليس لقربها من سوق عكاظ ، فان غيرها من البلاد كان قريباً من هذا السوق ، وليس السبب موقعها الجغرافي الذي ذكرنا انه كان جافاً قاحلاً لا ماء فيه ولا زراعة ، وانما يعود سببه لذكاء القرشيين انفسهم ولشخصيتهم القوية التي فرضت سلطانها على القبائل العربية الاخرى ..

وقد ساعدتهم تجارتهم التي اتصلت بالشام ، وامتدت الى الحيرة بالعراق ، ومشت الى جنوبي الجزيرة ، على توسيع معارفهم ، وانماء ذكائهم وعقولهم ، ومن المؤكد انه مع ندرة القراءة والكتابة في الجزيرة العربية ذلك العهد ، فان بعض سكان مكة كانوا يقرأون ويكتبون ويحسبون ، ومن الادلة الواضحة على نشاط اهلها وذكائهم ان نساءها كانوا يتكلفون التجارة ايضاً لا رجالها فحسب وهذه ظاهرة أيدتها السيدة خديجة التي كانت تقوم بالاتجار لحسابها بين مكة والشام قبل زواجها بمحمد بن عبد الله ، واذا كان نساء مكة في ذلك العهد

يعملون بالتجارة ، وينصرفون الى الاعمال الحرة فما بالك بالرجال فيها ؟؟ وهذه ظاهرة خطيرة كما قدمنا ، لا نرى لها مثيلاً في غير مكة من مدن الجزيرة ، ثم ان مكة في هذا العهد كانت تنعم بحكومة بلدية مستقلة ، ومع ان اهلها كانوا كغيرهم من العرب ينظرون الى العائلة والقبيلة كأساس حياتهم الاجتماعية، إلا انهم كانوا في الوقت نفسه يقدمون مصلحة البلد على مصالحهم الخاصة ، وهذا اول مظاهر الحكم والسلطان في كل بلد من بلاد العالم ، ثم انه مقدمة في الوقت نفسه لنشوء الحكومة المستقلة ، التي يعمل فيها الفرد للمجموع والمجموع للفرد ...

وكان في مكة مجلس بلدي ينظر في شؤون البلدة في دار « الندوة » ، وكان لا يسمح لاحد بحضور هذا المجلس إلا بعد ان يتجاوز الاربعين من عمره، وكان من اعمال هذا المجلس سقاية الحاج ، ونصرة المظلوم ، والمحافظة على المصالح التجارية المتشابكة التي كان يشترك اهلها جميعهم في اقرارها وتغذيتها والعمل على تعزيزها وتقويتها ، ومعاقبة المعتدي ومنتهكي التقاليد والحرمات ، بحرمانهم من الحماية او طردهم من المجتمع العربي في مكة ..

وكان العربي يعتبر ان الحرية حق مكتسب من حقوقه ، وكان يرى في قبيلته نظامه الاجتماعي وحكومته القائمة ، فلا يعرف غير القبيلة ، ولا يفطن لغير اواصر القبيلة ، واما الوحدة الوطنية فكانت كلمات لا معنى لها عنده .
لقد كان لدى العربي شيوخ يحترمهم في قبيلته واليهم الامر والنهي في شؤون هذه القبيلة ، ولكن هؤلاء الشيوخ كانوا ابعد من ان يفرضوا سلطانهم عليه ، وكان هو في الوقت نفسه ابعد من ان يقبل سلطانهم دائما وابداً ..

- ٣١ -

الحياة في الحجاز ومكة قبل الاسلام

تاريخ مكة :

في تاريخ مكة شيء كثير من الغموض ، واغلب الظن انها ترجع في تاريخها الى مئات تقطعت من الاعوام قبل الاسلام ..

وهي الى ذلك تقع على طريق القوافل التي كانت تضرب الارض في الجزيرة قبل الاسلام وبعده بقليل ...

وكان العمالقة اول من سكن مكة ، ثم خلفتهم عليها قبيلة جرهم اليمنيه وفي عهدهم نزلها اسماعيل بن ابراهيم وصاهر الجرهميين ، وسكن بينهم ، فلما زاره ابراهيم فيها اقاما معاً البيت الحرام ... ليتوجه الناس فيه الى الله وحده .

ولما مات اسماعيل تولى البيت بعده ابنه نابت ، وهو اكبر اولاده ، ثم تولاه ولاة من جرهم ، واستمرت ولايتهم عليه الى سنة ٢٠٧ بعد المسيح ...

وظل امر مكة لجرهم بعد ان غلبوا العماليق عليها الى عهد مضاض بن عمرو ابن الحارث ، وراجت تجارتها في عهدهم ، كما نضب ماء زمزم واخذ عرب

خزاعة يفكرون في الوثوب الى مناصب الامر في البلد الحرام ، فاحزن ذلك مضاض بن عمرو وادرك ان الامر زائل عن جرهم لما تنصرف اليه من ترف ولهو، فاعمق حفر زمزم وعمد الى غزالتين من ذهب كانتـــا مع طائفة من الاموال بالكعبة ، فدفنهما بقاع البئر واهال الرمال عليها ، وخرج ومعه بنو اسماعيل عن البلد الحرام ، ووليت خزاعة الامر فيه ، وظلت تتوارثه حـــتى آل الى قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي ...

ولما رجع قصي «١» الى مكة بعد اعوام في سنة ٤٠٠ م كانت سدانة البيت في خزاعة لحليل بن حبشية ، فتزوج قصي ابنته ، ووفقه الله في تجارته فزادت امواله وفشا شأنه ، وعظم شرفه ، حتى آلت اليه سدانة البيت ومفتـــاح الكعبة ، وحتى تمكن من اجلاء خزاعة عن البيت الحرام بمعونة قريش وبعض القبائل الاخرى ..

ويختلف المؤرخون فيما اذا كان في مكة بناء في هذا العهد إلا البيت الحرام ، ويقولون انه لما تمّ الامر لقصي في مكة جمع قريشاً وامرهم ان يبنوا بها، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبراء اهل مكة تحت امرتـــه ليتشاوروا في امورهم ، ولم يكن يتم امر إلا بموافقتهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا يتزوج رجل إلا في هذه الدار ، وبنت قريش بامر قصي حول الكعبة دورها وتركوا مكاناً كافياً للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه الى المطاف.

وكان عبد الدار اكبر ابناء قصي ، ولكن اخـاه عبد منـاف ، كان قد تقدم عليه امام الناس وشرف فيهم ، فلـما كبر قصي وضعف بدنه ولم يبـق قادراً على تولي امور مكة ، جعل الحجابة لعبد الدار ، وسلم اليه مفتاح البيت

---

(١) اجمع المؤرخون على ان قريشاً الذين منهم قصي بن كلاب الجد الخامس للرسول هم من ولد كنانة الذي يرجع نسبه الى عدنان . وينتهي الى اسماعيل ..

كما اعطاه السقاية واللواء والرفادة ، وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من اموالها فتدفعه الى قصي يصنع منه في موسم الحج طعاماً ينال منه من لم يكن ذا سعة ولا زاد ...

وتولى عبد الدار مناصب الكعبة كأمر ابيه وتولاها ابناؤه من بعده ، ولكن ابناء عبد مناف كانوا اشرف في قومهم واعظم مكانة ، فاتفق هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف ، على ان يأخذوا ما بأيدي ابناء عمومتهم ، وتفرق رأي قريش تنصر طائفة هؤلاء ، واخرى اولئك ، ثم تداعوا للصلح على ان يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة ، وان تبقى الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار ، ورضي الفريقان بذلك ، وظل الامر على هذا الحال الى ان جاء الاسلام ..

وكان هاشم كبير قومه ، وكان ذا يسار فولي السقاية والرفادة ، ودعا قومه الى مثل ما دعاهم اليه قصي جده ، دعاهم الى ان يخرج كل منهم من ماله ما ينفقه هو في اطعام الحاج اثناء الموسم ، كما اتصل بره وكرمه باهل مكة انفسهم فثرد لهم الثريد ، واطعمهم ، وهو الى هذا الذي سنّ رحلتي الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام ، فازهرت مكة وسمت مكانتها في انحاء الجزيرة واعتبرت العاصمة المعترف بها ، وسهل هذا الازدهار لابناء عبد مناف ان يعقدوا معاهدات امن وسلام ، وقد عقد هاشم بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع امير غسان معاهدة حسن جوار ومودة ، وحصل من الامبراطورية على الاذن لقريش بان تجوب الشام في امن وطمأنينة ، وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع النجاشي ، كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن ، وكذلك ازدادت مكة منعة وازدادت يساراً ، وبلغ اهلها من المهارة في التجارة حتى اصبحوا لا يدانيهم فيها مدان من اهل عصرهم ، كانت القوافل تجيء اليها من كل صوب وتصدر عنها في رحلتي الشتاء والصيف ، وكانت الاسواق تنصب فيما حولها لتصريف هذه التجارة

فيها ، ولذلك مهر اهلها في الربا ، وفي كل مـا يتصل بالتجارة من اسباب المعاملات . .

وظل هاشم يتقدم به السن وهو في مكانته على رئاسة مكة لا يفكر احد في منافسته حتى خيل لابن اخيه امية بن عبد شمس انه قد بلغ مكاناً يسوّل له هذه المنافسه ، ففعل فلم يوفق ، وغلب على نفسه ، وبقي الامر لهاشم وترك امية مكة الى الشام عشر سنوات كاملات . .

ولما مـات هاشم خلفه اخوه المطلب في مناصبه ، وكان المطلب اصغر من اخيه عبد شمس ، ولكنه كان ذا شرف وفضل ، ففكر يوماً بابن اخيه هاشم ، فذهب الى المدينة وطلب الى امه ان تدفعه اليه وقد بلغ اشده ، فدفعته اليه ، فاردفه على بعيرة ودخل مكة ، فظننته قريش عبداً له جـاء به فتصايحت :

— عبد المطلب ...

فقال المطلب : ويحكم انما هو ابن اخي قدمت به من المدينة ...

على ان هذا اللقب غلب على الفتى فدعي به ، ونسي الناس اسم شيبة الذي تسمى به منذ ولد ...

واراد المطلب ان يرد على ابن اخيه اموال هاشم ، لكن نوفل ابى ووضع يده عليها ، فلما اشتد ساعد عبد المطلب استعدى اخواله بالمدينة على عمه كي يردوا عليه حقه ، واقبل ثمانون فارساً من خزرج يثرب لنصرته ، فاضطرنوفل الى رد ماله اليه ، وقام عبد المطلب في مناصب هاشم ، له السقاية والرفادة من بعد عمه المطلب ، وقد لقي في القيام بهذين المنصبين وبالسقاية بنوع خاص ، شيئاً غير قليل من المشقة ، فقد كان الى يومئذ وليس له من الابنـاء الا ولده الحارث ، وكانت سقاية الحجاج ، يؤتى بها منذ نضبت زمزم ، من ابار عديدة مبعثرة حول مكة ، فتوضع في احواض الى جوار الكعبة ، وقد كانت كثرة الولد عوناً على تسيير هذا العمل والاشراف عليه ، فاما ولم يكن لعبد المطلب

من ولد حين ولي السقاية والرفادة الا الحارث فقد عناه الامر وطال فيه تفكيره ....

وكانت العرب ما تزال تذكر زمزم منذ طمرها مضاض بن عمرو لثلاثمائة خلت من السنين ، وتتمنى لو انها كانت باقية ما تزال ، وكان عبد المطلب بطبيعة مركزه اكثرهم تفكيراً في هذا الامر واشدهم تمنياً ان يكون ، والحّ هو باحثاً عن زمزم حتى اهتدى اليها بين الوثنيين اطاف ونائلة ، وجعل يحفر مستعيناً بأبنه الحارث حتى نبع الماء وظهرت غزالتا الذهب واسياف مضاض الجرهمي ، وارادت قريش ان تشارك عبد المطلب في البئر وفي ما وجد بها فقال لهم :

— لا ... ولكن هلموا الى امر نصف بيني وبينكم ،تضرب عليها بالقداح ، فنجعل للكعبة قدحين ، ولي قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له ...

فارتأوا رأيه ثم اعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند (هبل) في جوف الكعبة ، فتخلف قدحا قريش وخرجت الاسياف لعبد المطلب ، والغزالتان للكعبة ، فضرب عبد المطلب الاسياف بابا للكعبة ، وضرب في الباب غزالتي الذهب حلية للبيت الحرام ، واقام عبد المطلب على سقاية الحاج بعد ان يسرتها زمزم له ...

واحس عبد المطلب قلة حوله في قومه لقلة اولاده ، فنذر ان يولد له عشرة بنين ثم بلغوا معه حتى يمنعوه من مثل ما لقي حين حفر زمزم لينحرن احدهم لله عند الكعبة ، وتوافى بنوه عشرة احسّ فيهم المقدرة ان يمنعوه ، فدعاهم الى الوفاء بنذره فاطاعوه ...

ثم فتقت لقومه الحيلة ففدى نذره بمائة من الابل ، فنحرت كلها وتركت مكانها لا يصدّ عنها انسان ولا حيوان ولا يمنع ...

والكعبة بيت صغير مربع الشكل يحيط به بنـــاء مكشوف ، وهي الى ذلك رمز لمجد القبائل العربية ، فقد كان لكل قبيلة فيها صنمها ، وتمثـــال « هبل » صنم قريش وهو من العقيق ، كانوا له اكثر احتراماً وتقديساً مـــن جميع الاصنام الاخرى ..

وقد اسست قريش في مكة وحول الكعبة حكومة جمهورية ولكن بصورة مصغرة ، ولما كانت قريش قبيلة تجارية فقد رأت من السياسة ولباقة الحيلة ان تتخذ جزءاً من الارض المجاورة توليه احترامها وتعتبره مقدساً وتجعله حراماً لا يحلّ فيه القتال ، واخذوا على عاتقهم حمايته فاطمأنوا عندئذ الى انهم في أمن وسلام من اعتداء القبائل عليهم ونشوب المعارك في جوارهم ، وقد زاد في مجد قريش انها في مكة ، وان الكعبة في مكة .

واما نظام الحكم في قريش فلا يذكر التاريخ عنه شيئاً مذكوراً ، قبل عهد قصي الذي أنشأ دار الندوة بمكة وكان لهمن مظاهر الرياسة اربعة امور :

١ » رئاسة الندوة حيث تتشاور قريش في مهام الامور ، ويصار فيها الى الزواج وكان لا يسمح بدخولها إلا لمن بلغ الاربعين من عمره ..

٢ » كان امير اللواء فلا تعقد راية الحرب إلا بامره ..

٣ » حماية الكعبة وسدانتها ، فلا يفتح باب الكعبة الا هو ، وهو الذي يتولى خدمتها ايضاً ...

٤ » سقاية الحاج ورفادته ، وكانوا يملأون للحجاج احواضاً من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب ، واما الرفادة فهي طعام كان يصنع للحجـــاج على سبيل الضيافة ، وقد قام بهذه الضيافة بعد قصي ابنه عبد مناف ، فابنـــه هاشم ، فابنه عبد المطلب ، ثم ابنه ابو طالب ، ثم اخوه العباس ..

وكانت اشهر الحج عندهم اشهراً حرمـــاً يعقدون فيها اسواقهم التجـــارية حول الحرم فلا يجروء احداً على الاخلال بحرمة البيت واثارة الشقاق والخلاف

والحرب حوله ...

واما حلف الفضول فقد كان عاملاً كبيراًمن عوامل الامن والسلاموالعدل فيالجزيرة، وخبره ان قريشاً أخذت على نفسها ان ترد كل مظلمة لاهلها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره ..

والواقع ان كل هذه العوامل التجارية والدينية والاجتماعيـة ساعدت على اعلاء منزلة قريش ، بحيث تزعمت العرب في عهدهـا ، وزاد خطرهـا شأناً ، وامرها عزة ، لما مشى ابرهة الحبشي الى الكعبة يريد هدمها فلم يوفق ..

ابرهة والكعبة :

وكان من امر ابرهة انه لما نزل بالطائف كلمه اهلها بان بيتهم ليس البيت الذي يريد ، انما هو بيت اللات ، وبعثوا معه من يدله على مكة ، فلما اقترب من مكة ، بعث رجلاً من الحبشة على فرسان له فساق اليه اموال تهـامة من قريش وغيرهم وبينها مائتا بعير لعبد المطلب بن هـاشم ، وهمت قريش ومن معهم من اهل مكة بقتاله فرأوا ان لا طاقة لهم به ، وبعث ابرهة رجلاً من رجاله يدعى حناطة فسأل عن سيد مكة.. فذهبوا به الى عبدالمطلب بن هاشم فابلغه رسالة ابرهة اليه ، وانه لم يأت لحرب وانما جاء لهدم البيت، فان لم تحاربه مكة فلا حاجة له بدماء اهلها ..

فلما ذكر عبد المطلب انهم لا يريدون حرباً ، سار به حنـاطة ومع عبد المطلب بعض ابنائه وبعض كبار مكة حتى بلغوا معسكر الجيش ، فاكرم ابرهة وفادة عبد المطلب واجابه الى رد ابله اليه ، ولكنه رفض رفضاً باتاً كل حديث في امر الكعبة ورجوعه عن هدمها رغم ما عرض عليه اهل مكة من النزول عن ثلث ثروة تهامة ، وعاد عبد المطلب وقومه الى مكة ، فنصح اهلها ان يخرجوا منها الى شعاب الجبل خيفة من ابرهة وجيشه ، حين يدخلون

البلد الحرام لهدم البيت العتيق ..

وذهب عبد المطلب ومعه نفر من قريش ، فاخذ حلقة باب الكعبة واخذ يدعو ويدعون ، يستنصرون آلهتهم على هذا المعتدي على بيت الله ، فلما انصرفوا وخلت مكة منهم،وآن لأبرهة ان يوجه جيشه ليتم له ما اعتزم فيهدم البيت ويعود ادراجه الى اليمن ، كان وباء الجدري قد تفشى في الجيش واخذ يفتك به ، وكان فتكاً ذريعاً لم يعهد من قبل قط ، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر واصابت العدوى ابرهة نفسه فاخذه الروع وامر قومه بالعودة الى اليمن ، وبلغ ابرهة صنعاء وقد تأثر جسمه من المرض فلم يقم إلا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشه .

واما أثر هذا الحادث العظيم في إكبار مقام مكة الدينية والتجارية فقد كان عظيما حقاً ، زاد مكة رفعة وزاد الكعبة امجاداً وتقديساً ، وزاد اهل مكة مرحاً وفخراً ، واغراقاً في الرخاء والترف ، واستمتاعاً بالاشربة خصوصاً النبيذ ، واطلاقاً لعنان شهواتهم ، كما زادهم حرصاً على حريتهم وحرية مدينتهم والذود عن هذه الحرية ما كان الى ذلك سبيل ..

وعادت الحياة الهانئة الوادعة الى مكة بعد هذه الحوادث ، فاخذ اهلها يجلسون في كل صباح ومساء الى جانب نيف وثلاثمائة صنم ، يقص بعضهم على بعض اخبار البادية واطراف البادية ، وما يقع في الحيرة وعند الغساسنة مما ترد به القوافل او يتناقله اهل البادية ..

وكانت منازل اهل مكة تحيط بدار الكعبة وتقترب منها او تبتعد عنها تبعاً لما لكل اسرة وفخذ من عظيم الخطر وجليل المقام ، فكان القرشيون اقربهم اليها داراً واكثرهم بها اتصالا ، كما كانت لهم سدانتها وسقاية زمزم وكل ألقاب التشريف الدينية الوثنية ، التي قامت من اجلها حروب وعقدت من اجلها احلاف ، ووضعت من اجلها بين القبائل معاهدات صلح ، تحفظ في

الكعبة تسجيلاً لها واشهاداً للآلهة والاصنام على ما فيها ، حتى ينزل غضبهم بمن يخل بتعهداتها ، وفيا وراء منازل قريش كانت تجيء منازل القبائل التي تليها في الخطر ، ثم تلي هذه المنازل من دونهم حتى تكون منازل العبيد ، والخلعاء المستهترين ، ولم يكن اليهود والنصارى في مكة بذي خطر ، وكان عددهم قليلاً جداً وكان مقامهم في هذه المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء .

الحياة الاجتماعية :

العرب من حيث حالتهم الاجتماعية ينقسمون الى قسمين : البدو وهم أغلب سكان الجزيرة ، والحضر وهم سكان المدن ومـــا يقوم على اطرافها من مزارع وغيرها ، وهؤلاء كانوا يكثرون في اليمن ويقلون في الحجاز ، اذا استثنينا مكة والمدينة والطائف ..

وقد وصفنا في فصول سابقة كيف كان البدو يعيشون ، وكيف كان سكان المدن يقيمون في مدنهم ، وينعمون بهذه الحضارة والرفاهية التي كانت تسوقها المدنية اليهم .

ونحن حين ندرس الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية لا بد لنا ان نعرض لخيام البدو التي هام في وصفها الشعراء ، كما كثر بكاؤهم على اطلالها والآثار الباقية بعد رحيل اصحابها عنها .. والابل التي كانت عماد الحياة في الجزيرة يأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها ، ويكتسون من أوبارها ، ويحملون عليهـــا اثقالهم ويقايضون عليها في المقايضات ، كما يقوّمون بها ثروتهم ، ويفتدون بها اسراهم ، ويؤدون منها دية القتلى ، ويمهرون بها في الزواج ، فكل هذه الاسباب دعتهم الى العناية بتربيتها ، ودعتهم الى ان يكيفوا حياتهم وفاقاً لحيـــاتها ، يرحلون من مكان الى آخر لاجلها ، ويتطلبون اماكن الدفء لتوليدها ، كما بنوا كثيراً من لغتهم عليها ، وضربوا فيها الامثـال الكثيرة ، وتغنى الشعراء في وصفها ، وتفننوا باشعارهم في حدائها ..

وكانت لديهم الخيل يعنون بها ،ولكنها كانت متاع المترفين ، واما الابل فهي متاع العرب جميعهم ..

واما العلاقات بين القبائل العربية فكانت علاقات عداء غالباً ، ومن اجل هذا شغلت حياة القبائل والافراد الحروب والغزوات ، يتغنى بها الشعراء في قصيدهم ، ويتحدث بها الاعراب في منادرهم ، وكانت ظاهرة الاخذ بالثأر والانتقام شديدة عندهم ، طغت على كل ما عداها في حياتهم الاجتماعية ، بحيث مليء الشعر الجاهلي بوصف الوقائع والحروب والتمدح بالاخذ بالثأر ، والفخر بالانتصار ، والانفة من المذلة ، والاعتزاز بالقوة ، والحرص على الشرف دون الحياة والمال ، كما مليء بوصف آلات الحرب من رماح وأسنة وسهام ومجان ودررع وسيوف ، فسادت الاخلاق الحربية حياتهم ، وغمرتهم الوان الشجاعة والكرم والوفاء ، فاطنبوا في مدحها وعدوّها غاية الغايات ..

وكما كان الصيد من متع الحياة عندهم ، كانت الخمرة فاشية بينهم . فلا ترى شاعراً جاهلياً يتحدث عن حياته من غير ان يتحدث عن الخمر وكرمه اذا شرب ..

اما الحضريون وهم اهل الامصار والمدن فقد كانوا أقل شجاعة واكثر حباً للمال ، واكثر توفراً علىاسباب الترف والنعيم ، وقد نبغوا فيالتجارة ، وجابت قوافل القرشيين البلاد طولا وعرضاً كما فعل اهل اليمن قبلهم ، فوصلوا الى غزة وبيت المقدس ودمشق وعبروا البحر الاحمر الى الحبشة ، وكانت ميناء جدة وتبعد عن مكة اربعين ميلا واسطة عقد التجارة بين الحجاز والحبشة ، فكانت تحمل كنوزها الى القطيف في اقليم البحرين حيث تنقل في القوارب مع اللؤلؤ الذي كان يستخرج من سواحل الخليج العربي الى مصب الفرات .

ومن المؤكد ان هذه الصلات بين قريش والامم المتحضرة حولها ، قد افضى اليها بكثير من الفوائد الاجتماعية ، وزادها معرفة بالجماعات التي تعيش

حولها والسياسات التي تحاك على اطرافها ، فارتقت مداركهم ، وحسنت ادارتهم لشؤون الكعبة وشؤونهم الخاصة واثرى بعضهم اثراء عظيماً ..

الحياة الدينية :

اما حياة العرب الدينية فقد كانت خليطاً عجيباً ، فمنهم من عبدالكواكب كبعض اهل اليمن ، ومنهم من عبد القمر ككنانه ، وعبد قوم من لخم وخزاعة وقريش نجم الشعرى ، وقوم منهم انكروا الاديان الاخرى ، وآخرون عبدوا الاصنام ..

وكانت الوثنية اكثر الاديان انتشاراً عند العرب ، وهي عبارة عن عبادة الاصنام والاوثان ومن أشهرها اللات والعزّى ، ومناة ، واقدمها مناة كان منصوباً على ساحل البحرين بين مكة والمدينة ، وكانت العرب جميعها تعظمه وتذبح له الذبائح ، وكان صنم اللات في الطائف ، وكانت العزى اعظم الاصنام عند قريش ..

وكان لقريش اصنام في جوف الكعبة وحولها اعظمها هبل ، وكانت حياة العرب الى هذا كله متأثرة بهذه الاصنام فهم يتولونها بالهدايا الكثيرة ويذبحون عندها الذبائح ، وكان لاهل كل دار من مكة صنم يعبدونه ويتمسحون به عند السفر والاياب .

ولقد انتشرت بين العرب اليهودية والنصرانية ايضاً وكان لكل منهامناطق نفوذ ، فانتشرت اليهودية في المدينة « يثرب » ، وحول المدينة في فدك وخيبر وكان يهود يثرب ثلاث قبائل : بني النضير ، وبني قينقاع ، وبني قريظه ، وكانوا يقيمون في المدينة بين قبيلتي الاوس والخزرج ، وكانت العلاقة بين الطائفتين هائئة احياناً مضطربة احياناً اخرى .

وانتشرت اليهودية ايضاً في بلاد اليمن ، وتهود بعض الناس من كنده وكنانة ، واشتهر من شعراء اليهود السموأل بن عاديا .

واما المسيحية فانتشرت في قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال ، وفي اليمن في الجنوب ، وكان القسوس والرهبان يرودون اسواق العرب ويعظون ويدعون الى دينهم ، ولكن النصرانية لم توطد في بلاد الغرب .

وكان في العرب طائفة لم تأخذ بدين من هذه الاديان ، فنزعت الى عبادة الله وحده وكانوا يسمون بالحنفاء ، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل وقس بن ساعدة الايادي وكان من فصحاء العرب وخطبائهم .

اسواق العرب :

ومن ابعد الاماكن اثراً في الحياة العربية هذه الاسواق التجارية والادبية التي كان يقيمها العرب في طول الجزيره وعرضها كسوق صنعاء وسوق حضرموت وسوق محار ، وسوق الشحر ، وهذه كان يجتمع فيها غالباً اهلها واقرب الناس اليها ، واما اسواق عكاظ والمربد فقد كانت عامة لقبائل العرب جميعها ، ومن ذلك كانت شهرتها واثارها الثقافية والاجتماعية والادبية .

وعكاظ تقع في الجنوب الشرقي من مكة وعلى بعد عشرة اميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلاً من مكة ، في مكان منبسط وواد فسيح فية نخل وماء .

وقد وصفها ابو ذؤيب فقال :

اذا بني القباب على عكاظ   وقام البيع واجتمع الالوف

وسبب اهمية سوق عكاظ كما يقول المؤرخون :

١ – ان موعد انعقادها كان قبيل الحج ، وهي قريبة من مكة وبها الكعبة فمن اراد الحج من جميع قبائل العرب ، سهل عليه ان يجمع بين الغرض التجاري والاجتماعي بغشيانه سوق عكاظ قبل تأدية الحج ، وبين الغرض الديني بالحج .

٢ – ان موسم السوق كان في شهر من الاشهر الحرم على قول اكثر المؤرخين والعرب كانت في «الشهر الحرام» لا تقرع الاسنة ، فيلقى الرجل قاتل ابيه او اخيه فيه فلا يهيجه تعظيما له ، وفي انعقاد السوق في الشهر الحرام مزية

واضحة ، وهى ان يأمن التجار فيه على ارواحهم ، وان كانوا احيـــاناً قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام فاقتتلوا كالذي روي في الاخبـــار عن حروت الفجار ، ولكن هـــذا كان نادراً والقتل في هذا الشهر كان عملاً قبيحاً مستهجناً ..

«وكأن يأتي عـكاظ ، قريش وهوازن وغطفان والاحابيش وطوائف من افناء العرب ، وكانت كل قبيلة تنزل في مكان خاص من السوق ، وفي التاريخ ان رسول الله ذهب مع عمه العباس الى عكاظ ليريه العباس منازل الاحياء فيها ويروى كذلك ان رسول الله جاء كنده في منازلهم بعكاظ .

بل كان يشترك في سوق عكاظ اليمنيون واهل الحيره ، ويقول المرزوقي :
« كان في عكاظ اشياء ليست في اسواق العرب ، كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلة الحسنة والمركوب الفاره ، فيقف بها وينادي عليه ليأخذه اعز العرب ، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته ، ويروي ابن الاثير عن ابي عبيدة : «ان النعمان بن المنذر لما ملكه كسرى ابرويز على الحيرة كان النعمان يجهز كل عام لطيمة - وهي التجاره - لتباع بعكاظ » .

فترى من هذا ان بلاد العرب من اقصاها الى اقصاها كانت تشترك في هذه السوق .

واختلفت الاقوال في موعد انعقادها ، واكثرها على انه كان في ذي القعدة من اوله الى عشرين منه ، او من نصفه الى آخره ، وقال الازرقي في تاريخ مكة :

«فاذا كان الحج .. خرج الناس الى مواسمهم فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تقوم فيها اسواقهم بعكاظ ، والنـاس على مداعيهم وراياتهم منحازين في المنازل تضبط كل قبيلة اشرافها وقادتها ، ويدخل

بعضهم في بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون في بطن السوق ، فـاذا مضت العشرون انصرفوا الى (مجنة) فاقاموا بها عشراً ، اسواقهم قائمة ، فاذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا الى ذي المجاز ثم الى عرفة ، وكانت قريش وغيرها من العرب تقول : لا تحضروا سوق عكاظ والمجنة وذا المجاز إلا محرمين بالحج ، وكانوا يعظمون ان يأتوا شيئاً من المحارم ، او يعدو بعضهم على بعض في الاشهر الحرم وفي الحرم » .

وكانت سوق عكاظ تقوم بوظائف شتى فهي : متجر تعرض فيه السلع على اختلاف انواعها ، يعرض فيها الادم والحرير والوكاء والحذاء والبرود من العصب والوشي وغيرها ، ويباع به الرقيق ويعرض فيه كل سلعة عزيزة وغير عزيزة ، فما تهديه الملوك يباع في سوق عكاظ ، ويتقاتل ابن الخمس مع الحارث بن ظالم فيقتله ابن الخمس ويأخذ سيف الحارث يعرضه للبيع في عكاظ ، وعبلة بنت عبيد بن خالد يبعثها زوجها بسمن تبيعها له بعكاظ ..

ولم تكن العروض التي تعرض في سوق عكاظ قاصرة على منتجات جزيرة العرب ، فالنعمان يبعث الى سوق عكاظ بتجارة من حاصلات الحيرة وفارس لتباع بها ، ويشتري بثمنها حاصلات اخرى ، بل كان يباع في عكاظ سلع من مصر والشام والعراق ، فيروي المرزوقي : انه قبل البعث بخمس سنين حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا انه حضر مثله في سائر السنين ، فباع الناس ما كان معهم من ابل وبقر ونقد وابتاعوا امتعة مصر والشام والعراق ..

وكانت السوق تقوم باعمال مختلفة اجتماعية ، فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ ، وكانوا اذا غدر الرجل او جنى جنـاية عظيمة انطلق احدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر ويقول : « إلا ان فلان ابن فلان غدر فاعرفوا وجهه ، ولا تصاهروه ولا تجالسوه ، ولا تسمعوا منه قولاً ، فان أعتب ، وإلا جُعل له مثل مثـاله في رمح فنصب بعكاظ فلعن ورجم .. »

ومن كان له دين على آخر انظره الى عكاظ .

ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ كالذي حكى الاصفهاني : ان رجلاً من هوازن اسر فاستغاث اخوه بقوم فلم يغيثوه ، فركب الى موسم عكاظ وأتى منازل مذحج يستصرخهم .

وكثيراً ما تتخذ السوق وسيلة للخطبة والزواج فيروي (الاغاني) انه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ ، وقدم امية بن الاسكر الكناني وتبعته ابنة له من اجمل اهل زمانها فخطبها يزيد وعامر .. فتردد ابو الفتاة ، ففخر كل منهما بقومه وعدّد فعالها في قصائد ذكرها ..

ومن كان صعلوكاً فاجراً خلعته قبيلته — ان شاءت — بسوق عكاظ ، وتبرأت منه ومن فعاله ، كالذي فعلت خزاعة :

« فقد خلعت قيس بن منقذ بسوق عكاظ ، واشهدت على نفسها بخلعها إياه ، وانها لا تحتمل له جريرة ، ولا تطالب بجريرة يجرّها احد عليه » .

ومن كان داعياً الى اصلاح اجتماعي او انقلاب ديني كان يرى ان خير فرصة له هي سوق عكاظ ، والقبائل من انحاء الجزيرة مجتمعة ، وكثيراً ما كانوا يرون قس بن ساعدة يقف بسوق عكاظ يدعو دعوته ، ويخطب فيها خطبته المشهورة على جمل له ، فيرغب ويرهب ويحذر وينذر .

محمد في عكاظ :

ولما قام محمد بن عبدالله بدعوته اتجه الى عكاظ لدعوة الناس لانها مجمع القبائل ، وروى الواقدي : ان رسول الله اقام ثلاث سنين من نبوته مستخفياً ، ثم اعلن في الرابعة فدعا عشر سنين ، يوافي الموسم ، ويتبع الحاج في منازلهم بعكاظ والمجنة وذي المجاز ، يدعوهم الى ان يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلا يجد احداً ينصره ، حتى انتهى الى بني عامر بن صعصعة فلم يلق من احد من الاذى ما لقي منهم ، وفي خبر آخر انه أتى كندة في منازلهم

بعكاظ فلم يأت حياً من العرب كان ألين منهم ، وعن علي بن ابي طالب: ان رسول الله كان يخرج في الموسم فيدعو القبائل فما احد من النـاس يستجيب له نداءه ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتي القبـــائل بمجنة وعكاظ ومنى حتى يستقبل القبائل ، يعود اليهم سنة بعد سنة ، حتى كان من القبائل من قال له:

— أما آن لك ان تيأس منا ؟ ... من طول ما يعرض نفسه عليهم .

وروى اليعقوبي : ان رسول الله قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء فقال :

— « يا ايها الناس قولوا لا اله إلا الله ، تفلحوا وتنجحوا » ...

وكان يتبعه من يكذبه وهو عمه ابو لهب بن عبد المطلب ..

وكان لعكاظ اثر كبير لغوي وادبي ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجـارته اليها ، ويأتي التجار من مصر والشام والعراق ، فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل وتقارب اللهجات ، واختيار القبـــائل بعضها من بعض ما ترى انه أليق بها وانسب لها ، كما ان التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شيء ممـا رأوا من احوال تلك الامم الاجتماعية ، وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبـلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذّب ، قال ابو المنذر : « كانت بعكاظ منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله ويعدّد مآثر وايام قومه من عام الى عام ».

نظام سوق عكاظ :

وكانت القبائل — كما اسلفنا — تنزل كل قبيلة منها في مكان خـاص بها ، ثم تتلاقى افراد القبائل عند البيع والشراء او في الحلقـات المختلفة ، ويختلط الرجـــال بالنساء في الجوامع ، وقد يكون ذلك سبباً في خطبة او زواج او تنادر ، وكانت تحضر الاسواق — وخاصة سوق عكاظ — اشرف القبـائل ، وكان اشراف القبائل يتوافون بتلك الاسواق مع التجار لأن الملوك كانت

ترضخ للاشراف ، لكل شريف بسهم من الارباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ فانهم يتوافون بها من كل أوب » .

والظاهر ان المراد بالملوك هم الامراء ورؤساء القبائل الذين يرسلون بضائعهم لبيعها في اسواق العرب كملك الحيرة والغساسنة وامراء اليمن ونحوهم ، وكانت القبائل تدفع لرؤسائها اتاوة في نظير اقامتهم بالسوق ، فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه اخبار اسواق كثيرة كان يعشرها اشرافها – اي يأخذون العشر – وفي عكاظ كانت القبائل تدفع لاشرافها هذه الاتاوة « فهوازن كانت تدفع الاتاوة لزهير بن جذيمة كل سنة بعكاظ ، وهو يسومها الخسف وفي انفسها منه غيظ وحقد » وكانت الاتاوة سمناً وغنماً وغيرهما ، وكان عبدالله ابن جعدة سيداً مطاعاً وكانت له اتاوة بعكاظ يأخذها ، ويدفعها له هذا الحي من الازد وغيرهم ، ومن هذه الاتاوة ثياب .

وكان الاشراف يمشون في هذه الاسواق ملثمين ، ولا يوافيها (عكاظ) شريف إلا على وجهه برقع مخافة ان يؤسر يوماً فيكبر فداؤه ..

ومن العسير جداً ان نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد في ذلك خبراً يصح التعويل عليه ، ولكنها على كل حال ليست قديمة جداً وقد لا تمتد الى اكثر من مائة سنة قبل الاسلام .

واستمرت عكاظ في الاسلام ، وكان يعين فيها من يقضي بين الناس ، فعين محمد بن سفيان بن مشاجع قاضياً لعكاظ ، وكان ابوه يقضي بينهم في الجاهلية ، وصار ذلك ميراثاً لهم ..

وضعف شأن هذه الاسواق بعد الفتوح فاصبحت البلاد المفتوحة اسواقاً للعرب خيراً من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء اغراضهم ، فضعفت اسواق العرب ومنها عكاظ ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الاموية .

وبذلك ختمت حياة هذه السوق التي كانت ذات أثر كبير في تطور الأدب العربي ...

اما (المربد) فضاحية من ضواحي البصرة في الجهة الغربية منها مما يلي البادية ، وكان سوقاً للابل ، وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة اليها ، ويظهر انه نشأ سوقاً للابل ، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل ان يدخلوا الحضر او يخرجوا منه .

وكان هذا السوق أقل خطورة من عكاظ ، وكان سوقاً للتجارة ، وسوقاً للدعوات السياسية ، وعاشت هذه السوق الى العصر العباسي ، فكانت اطول عمراً من عكاظ ، وان كانت أقل منها شأناً واهمية ..

اما حالتهم الادبية فليس من شك انها كانت تساوق حياتهم التجارية تقدماً وتبسطاً وازدهاراً ، واذا كان التعليم في الجاهلية لم يكن منتشراً بين العرب كل الانتشار ، فان مغامراتهم التجارية ،وتجوالهم من منطقة الى اخرى قد افادهم كثيراً ، وجعلهم يتصلون بالامم المجاورة لهم والتي كانت اكثر منهم علماً ومعرفة وثقافة ، فخرج من هذا الاختلاط هذه الحركة الادبية التي فشت قبل الاسلام في الشعر خصوصاً ، والتي بلغت درجة سامية من الرقي ، تدل على انها ليست وليدة هذه السنوات القليلة التي سبقت الاسلام ، وانما هي قديمة تضرب في الجاهلية لا اقل من مائتي سنة .. على الارجح .

وسبب ذلك ان ما وصلنا من الشعر الجاهلي كامل في تعبيره ، راق في معانيه ، وهذا يستحيل ان يحصل ارتجالا وعفواً ، فلا بد ان يكون قد سبقه شعر اقل منه اتزاناً ، وادنى تعبيراً .

وكان الشاعر الى ذلك ضروري لكل قبيلة عربية ، فهو الذي يردّ بشعره كيد اعدائها ، ويحمسها في الحرب ، ويصف مناقبها ، ويتبسط في تاريخها ومفاخرها ، فالشاعر اذن كان داعية سيارة لقبيلته ، وصحيفة تدافع عنها ،

وترد جور الخصوم وتبني لها المجد الذي تستحقه والذكرى التي هي خليقة بها ، وكان الشعراء الجاهليون من ارقى الطبقات عقلا ، وارقهـم شعوراً ، سبقوا قومهم الى ادراك كثير من حقائق الحياة فصاغوها في شعرهم ، كما وصفوا الحياة في زمنهم وصفاً نعتقد بحق انه اصدق وصف للحياة في العصر الجاهلي ، واذا كانت غاية الادب ان يصف الكاتب الحياة في عصره ، فشعراء الجاهلية قد وفقوا في ذلك توفيقاً يدعو الى الاعجاب والاكبار [1]...

(١) افدنا في هذا الفصل من مؤلفات الدكتور محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وبعض الدراسات الادبية الاخرى ..

- ٣٢ -

بين عهدين

النزاع بين الاسلام والعرب ، ثم بين الاسلام والفرس والروم

الجاهليـــة :

ليست الجاهلية من الجهل الذي هو من العلم ، ولكنها من الجهل الذي هو من السفه ، والغضب والانفة ، وفي الحديث ان رسول الله قال لابي ذر ، وقـــد عيّر رجلاً بامه :

« انك امرؤ فيك جاهلية »

اي فيك روح الجاهلية واخلاقها ...

وفي معلقة ابن كلثوم :

الا لا يجهلنْ احـــد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا نرى ان كلمة الجاهلية تدل على الخفة والانفة ، والحمية والمفاخرة وهي امور كانت من قوام الحياة العربية قبـــل الاسلام ، فسمي العصر العربي في ذلك العهد بها ، وجاء الاسلام يحاربها ويقاتلها ..

وجاء الاسلام في الوقت نفسه يحـــارب العقائد الدينية التي كانت قوام الجاهليين ، وكانوا كما هو معلوم ومشهور على وثنيــة منكرة ، وفساد اخلاقي فظيـع ، فجاء الاسلام بنوعين جديدين من الاخلاق ، بعد ان انكر عبـــادة الاوثان كل الانكار ، وبعد ان هدم كل ما وجده في طريقه من اثار هـــذه العبـادة ...

كان من اخلاق القرآن والاسلام : ان دعـا انصاره واتباعه الى ان يحيوا بعضهم ، باحسن من التحية التي سمعوها من الذي وقف يسلم عليهم ، او ان يردوها له ... كما حظر عليهم ان يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم إلا ان يستأذنوا اصحابها في الدخول .. واذا كانت هذه التعاليم الجديدة من نوع اللياقة ، فان هناك غيرها ، وهو من اسمى ما تدعو اليه الاخلاق والمثل العليا في الحياة ،فقد امر الاسلام بالوفاء بالعهد ، والصبر على الشدائد ، والعـدل مع من احببت .. او كرهت ، والعفو عند المقدرة ، والعفة من غير غلو ، والاحسان والرحمة مع الناس ، كما هدم في الوقت نفسه الوحدة القبلية والوحده الجنسية ، وكره التفاضل بشرف القبيلة او شرف الجنس ، وقرر ان المسلمين كلهم كتلة واحدة لا تفاضل بين افرادها إلا بطاعة الله وتنفيذ اوامره ،وحتم الطاعة لله والرسول والطاعة لاولي الامر في الامة من امراء وخلفـاء وملوك ، ما اطاع ولي الامر اوامر الله ، وقد جاء في الحديث : «لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق ..!»

وليس هنا مجال التبسط في عقائد الاسلام واصوله ، وفي نظمه الاخلاقيسة والاجتماعية والانسانية فان هذا مما يجب ان يصار الى بحثـه في مكان آخر ، وانما يهمنا ان نقول في صدد ما قدمناه ، ان الاسلام جاء العرب بنظم جديدة في كل نوع من انواع الحياة التي كانوا يحيونها ، وانه كان له اثر كبير في تغيير قيمة الاشياء والاخلاق في نظر العرب ، فارتفعت قيمة اشياء ،وانخفضت قيمة اشياء اخرى ، ولكن هذا اللون من الاصلاح الديني والاجتماعي لم يكن مما يرضي كل العرب ، ولا كان مما يصل الى قرارة نفوسهم في يسر وهوادة ، فما

كاد رسول الله ينادي به ، حتى ثاروا في وجهه وحاربوه ، واهانوه ، وضربوا انصاره ، واهانوهم ، وعذبوهم ، حتى اضطر كثير منهم بعد خمس سنوات من الدعوة للهجرة الى الحبشة وهو قطر نصراني غريب عن الجزيرة ، بعيد عن تقاليدها واخلاقها ...

نزاع :

وكذلك بدأ النزاع حول هذه المذاهب الاخلاقية الجديدة التي راح يدعو لها رسول الله ، بينه وبين اهل مكة اولاً ، فلما هاجر الى المدينة ، وانضم له اهلها ، اصبح النزاع بين مدينتين مكة والمدينة ، ثم توسع هـذا النزاع حتى اصبح بين من دخلوا من العرب في الاسلام ، وبين من لم يدخلوا ، وكان هـذا النزاع في الواقع بين عقليتين ، عقلية وثنية تباح فيها اللذائذ ، وتمنح فيها الحرية الى حد بعيد ، وتقدر فيها الاخلاق تقديراً خاصاً ، وعقليـة اخرى موحّدة ، تداس فيها الاصنام دوساً وتمتهن بكل انواع الامتهان ، وتكسر من غير هوادة ، ولا تباح فيها اللذائذ إلا على قدر ، وتتقيد فيها الحرية بقيود من عبادات في اوقات خاصة ، واحترام الملكية ، واحترام النفس الانسانية ، كما تقلب فيها الاخلاق قلباً ، فالانتقام والاخذ بالثأر لم يعـد خير الخصال وافضلها ، وانما اصبح العدل والصفح والاحسان يفضلها ويقوم مقامها ..

وقد عبّر جعفر بن ابي طالب – وكان احد الذين هـاجروا الى الحبشة – عن الفرق بين الحالتين في حديثه الى النجاشي فقال :

« كنا قوماً اهل جاهلية نعبد الاصنام ، ونأكل الميتـة ، ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا نعرف نسبه ، وصدقه وامانته وعفـافه ، فدعانا الى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن واباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار

والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وامرنا ان نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله تعالى ، وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادكم » [1] .

وقد ذهب احد المؤرخين يقول : انه وان كان يغلب على الظن ان هذه القصة موضوعة ، بدليل ان الصيام ورد فيها ، وهو لم يشرع الا بعد الهجرة الى الحبشة ، فانها على كل حال تمثل النزاع بين عقليتين اصدق تمثيل ...

وقد يكون الصيام قد دسّ من احد النساخ ، او انه صار ادخال هذه الكلمات فيما بعد وعند وضع الكتاب ، لان القصة يجب ان تكون صحيحة ، لانها تمثل صورة حقيقية صادقة لما يجب ان يقع بين النجاشي والمسلمين ، ولانه من المنتظر ان يصف المسلمون الحالة بمثل ما وصفها به جعفر بن ابي طالب دون مبالغة ولا تحوير ..

اشتد النزاع بين محسن واهل مكة ، ثم تطور هذا النزاع الى حرب وقتال بين مكة والمدينة لما هاجر محمد الى الاخيرة ، وانضم سكانها الى دعوته ، وآمنوا بالله الواحد ورسوله ، ثم تطور هذا النزاع تطوراً جديداً بانضمام بعض القبائل العربية من غير سكان المدينة الى الاسلام ، ثم انتهى هذا النزاع في عهد رسول الله بما يجب ان ينتهي اليه من نجاح الدعوة ، وظفر المثل العليا في الحياة ...
فلما مات رسول الله ، حاولت جماعات من العرب العودة الى الحديث السالف والتقاليد السابقة ، فثار بعضهم ، ورفض الزكاة البعض الآخر ، وادعى النبوة جماعة آخرون ، ذلك ان الاسلام كان لا يزال رقيقاً طرياً في الجزيرة وبين

---

(١) سيرة ابن هشام باختصار ...

القبائل ، ولم يكن قد تمكن في عهد رسول الله القصير من القضاء على كل التقاليد الجاهلية قضاء تاماً ، وخير من تأثر به السابقون الاولون من المهاجرين والانصار ، هؤلاء وصل الدين الى اعماق نفوسهم ، فاخلصوا له كل الاخلاص ، واما البدو من العرب فكانت معرفتهم بالاسلام سطحية ، وكان اثره فيهم ضعيفاً رقيقاً كما قدمنا ، فكانت الثورة بعد وفاة رسول الله ، ثم محاربة الخليفة الاول لهم حتى عادوا الى الاسلام ، وحتى عادوا الى احمد الاخلاق وافضلها .

وكذلك انتهى النزاع في الجزيرة العربية وبين العرب انفسهم على الشكل الذي وصفناه ، واذا كان النزاع قد انتهى في الجزيرة ، فان انتهاءه فيها كان مقدمة لابتدائه في غيرها ، وعلى اطرافها ..

العرب والفرس والروم :

لم يكن بدّ من وقوع الاصطدام ، ولم يكن هناك مفر من النزاع ، فكما حارب الاسلام العرب في الجزيرة ، حتى حملهم على التخلي عن تقاليدهم السابقة ، واخلاقهم البعيدة عن المثل العليا ، وثنيتهم الفاسدة ، كان من الواجب عليه ان يصطدم مع الفرس والروم بعد ان اصبح يقف على حدود الدولتين ، ويواجه قواتها العسكرية وجهاً لوجه ، لانه كان يحمل روحاً جديدة تختلف كل الاختلاف عن الروح التي ينعم بها الفرس وينعم بها الرومان .. وتختلف في الوقت نفسه عن الروح التي كان ينعم بها العرب الوثنيون قبلاً ، والتي كانت لا تتطاول في حال من الاحوال الى مجابهة القوات الفارسية ، او الاسلحة الرومانية في حرب او نزال ..

وهناك سبب جديد جعل الاصطدام امراً لا مفر منه ، وهو موقف الدولة العربية الناشئة الجغرافي بعد حروب الردة ..

وقد وصف هذه الظاهرة السيد امير علي في كتابه (مختصر تاريخ العرب) فقال :

« يحدثنا المؤرخون ان حروب الردة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة قد أدت الى تصادم المسلمين مع القبائل الرحل الخاضعة لسلطان الحيرة التي كانت تدين وقتئذ بالطاعة والولاء لدولة الفرس . ولو القينا نظرة عجلى على خريطة آسيا لاستطعنا ان ندرك تمـــاماً كيف نشأ في باديء الامر ذلك النزاع الذي تطور بمضي الزمن واصبح نضالاً مضطرماً في سبيل تأسيس امبراطورية واسعة الاطراف . فمن « حجر » في الركن الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة على تخوم (كلدة) التي كانت عندئذ في قبضة الفرس الى غربي القسم الاسفل من الفرات يمتد صقع مجدب هو احد اجزاء صحراء العرب متجهـاً الى البحر الميت والى ارض حوران المرتفعة ، ثم يصعد شمالاً الى تدمر ، وفي هذا الصقع كانت تهيم كما لا تزال تهيم حتى الان قبائل رحل ، وهي وان كانت قد بدلت اسماؤها ، إلا ان اخلاقها وعـاداتها لم يطرأ عليها اي تغيير . ومن المعروف ان معظم تلك القبائل كان يدين بالمسيحية ، فكان من يسكن منها في الشام « كالغساسنة » ، خاضعاً للدولة البيزنطية ، ومن يقطن في الجهة الشرقية «كبني تغلب» ، يدين بالطاعة للفرس ، ولكنهم جميعاً كانوا مرتبطين بلحمة النسب وروابط الصداقة مع القبائل العربية المجاورة ، كما كان يسكن « دلتا الفرات » عرب مستوطنون نبذوا حياة البداوة جانباً ، وضربوا بسهم وافر في الحيـــاة الزراعية ، ولهذا كانت المعارك التي تنشب بين المسلمين وبين القبائل المرتدة الساكنة على الساحل الغربي للخليج العربي تترك أثراً عظيما في القبائل العربية الخـــاضعة للفرس . كذلك كانت كلما دارت معارك في الشمال قامت القبـائل الاخرى بأخذ الثأر لاخوانهم العرب ، شأنهم في ذلك شأن القبـائل الهندية عندما توغلت الجيوش الانكليزية في الهند ..

اما المنطقة التي يرويها النهران العظيمان دجلة والفرات منذ اقدم العصور ، فقد كانت هدفاً للملوك الذين يتطلعون الى تشييد امبراطورية مترامية الاطراف ، ولو ألقينا نظرة على خارطة تلك المنطقة لألفينا « دجلة » ينبع من جبـال

ارمينيا كما ينبع « الفرات » من اعالي طوروس ، وكلاهما ينحدران جنوباً صوب خليج فارس حتى يتقابلا على بضع مئـات من الاميال من البحر ، ثم يفقدان اسميهما ومعـالمها ، ويتخذان لهما اسماً جديداً هو « شط العرب » .

كذلك كان الجزء الاعظم من المنطقة المحصورة بين هذين النهرين يعرف في العصور القديمة باسم الجزيرة (ميزوبوتاميا) ، امـا القسم الاسفل وهو ارض غرينية مسطحة ، فكان يطلق عليه اسم بابل وكلدة ، ويسميه العرب (العراق العربي) . وعلى ضفاف هذين النهرين ازدهرت مدن كثيرة منها(نينوى)عاصمة ملوك آشور (الواقعة على نهر دجلة بالقرب من الموصل) و « المدائن » عاصمة ملوك الفرس،و « بغداد » مقر الخلافة في القرون الوسطى وعـاصمة العراق الحديث ..

اما نهر الفرات فتقع عليه مدينة « بابل القديمة » و «الحيرة» و «الكوفة» التي شيدها العرب ، وقرقيسيا والرقة ، كما يقع في شرقي جبـال زاغروس فيما وراء دجلة « عراق العجم » الذي يتوسط بلاد فارس الحديثة ..

رسول الله والفرس والروم :

لم يكن قيام الدولة الجديدة في الجزيرة العربية ، ولا هذه الاصطدامـات الدامية التي جرت بينها وبين القبـائل العربية في حروب الردة ، وبعض هذه القبـائل قريب من الحدود البيزنطية والفارسية ، وبعضها واقع تحت النفوذ الفارسي او البيزنطي ، وحده الذي سبب الاصطدام ، وان كانت هذه من جملة الاسباب ما في ذلك شك ..

ولكن السبب الاول في نظرنا هو ان رسول الله كما دعا العرب الى التوحيد والاسلام ، دعا الفرس بشخص كسرى ، ودعـا الرومان بشخص هرقل ، وبعث الى كل واحد منهما كتاباً يجد القارىء صورته في كتب السيرة ، فامـا كسرى الفرس فقد اغضبه ان يكتب له محمد ، وانكر ان يبعث له رجـل

عربي مهما سما شأنه وعلا مقامه ، بهذا الكتاب يدعوه الى دينه ، وهو الذي كان يؤمن به رعاياه ويؤلهونه .. واما هرقل امبراطور البيزنطيين فقد كان أهدأ نفساً ، واكثر عقلاً ..

والواقع ان المصادر التاريخية تجمع على ان الفرس كانوا ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، وخصّهم بالسيادة ، وأيدهم بروح منه .. فهم ظل الله في ارضه اقامهم على مصالح عباده ، وليس للناس قِبلهم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة ، وهو يشبه ما عرف في اوروبا بنظرية (الحق الالهي) ، ويقول الاستاذ برون : « لم تعتنق نظرية الحق الالهي بقوة كما اعتنقت في فارس في عهد الملوك الساسانيين .

والغريب ان هؤلاء الملوك ترفعوا عن الشعب ورفعهم الشعب ، حتى لم يكن من الادب ان يجري على لسان الناس اسم الملك حتى ولا في الشعر .

فاذا كان هذا ايمان ملوك الفرس بأنفسهم ، فقد كان من المنتظر ان يكون نصيب كتاب رسول الله منهم الرد والانكار ، ويقول بعض المؤرخين ان كسرى الفرس بعث الى احد عماله ليأتيه بمحمد من مقره في المدينة ..

واذن فقد كان جواب كسرى الرفض ، وكان من أثر هذا الرفض ان وقع الاصطدام ..

وكذلك كان الحال في كتاب رسول الله الى قيصر الروم ، ولكن القيصر هرقل كان في كتابه او جوابه لرسول الله اكثر ادباً ، وألين عريكة من كسرى ، فقد بعث اليه بالهدايا كما يقولون .. ولكن الجواب كان رفضاً رقيقاً مهذباً ، وكذلك كان لا بد من الاصطدام مع الروم ايضاً ..

ثم ان الدولة العربية الجديدة الناشئة في الحجاز ، لم تكن تستطيع ان تبقى بالحجاز والجزيرة اذا رامت انشاء ملك ، واقامة دولة ، فلم يكن بالجزيرة من ادوات الحضارة والملك ما يساعد اهلها على الاستقرار فيها والاقتصار

عليها ، ثم انهـــا لم تكن تأمن شر جارتيها — الفرس والروم — واذا كانت الامبراطوريتان في الماضي قد تركتا الجزيرة وشأنها ، فلأن احداً منهما لم يكن يخطر له ببال ان العرب امة تخشى وتهاب ، او ان لهذه القبـائل التي تعيش فيها من القوة ما يمكنها من مصادمة الجحافل الفـارسية والرومانية في معركة او شبه معركة .. واما اليوم فقد تبدل الحال ، واصبحت الجزيرة امة جديدة، وقامت فيها دولة ناهضة ، كان من المفروض عليها ان تكون لها سـياسة خارجية، وكان من اهم بوادر هذه السياسة الاطمئنان الى حدودها، والاطمئنان الى الحدود كان مفروضاً فيه الاستيلاء عليها ، وابعـاد الخطر الاجنبي عن الجزيرة واطرافها ..وعن العرب والاسلام ...

طريق الاسلام :

كان من أمثل الطرق التي يجدر بقادة الفكر العربي أن يسلكوها طريق الاسلام : فقد وضع للجماعة والفرد من المبادىء ما يضمن السعادة البشرية في احسن صورها ، وما يوطد اسباب الامن والطمأنينة والسلام . (١)

لقد برهنت الحوادث الزمنية ماضيها وحاضرها على فشل الاوضاع البشرية في تحقيق السعادة والسلام للافراد والشعوب ، ولم يبق إلا ان يعود الناس إلى الاستظلال بلواء القرآن « إن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » ..فاذا كان قادة الفكر العربي تعز عليهم عربيتهم ، ويذكرون سالف مجدهم ، فليركزوا قواهم في توجيه شعوبهم إلى الاسس الصالحة القوية المستمدة من تاريخهم وعزتهم ومبادىء كتابهم ، وليس من هذه الاسس — فيما اعتقد — ما تعـارفوه اليوم وفتنوا بمظاهره من الاستجداء والمساومات والمفاوضات !

يقرر الاسلام ان العدل بين الافراد والافراد ، والجمـاعات والجماعات — تباينت الجنسيات او اتحدت ، اختلفت الاديان أو اتفقت — اساس من اسس

(١) الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الازهر .

الخير والفلاح « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولايجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » .

ويقف الاسلام وسطاً بين طرفين لاقت البشرية من كليهما عنـاء ورهقاً : فلا يرضى عن «الرأسمالية» الخانقة ، ولكنه يقر الملكية الفردية ويحترمهـا ويرتب عليها اثارها وحقوقها ، ثم يضع الحواجز المنيعة التي تحول بين الملكية الفردية والطغيان ، فيوجب بذل الاموال في موضع الحـاجات فردية كانت او اجتماعية ، ويجعله اصلاً من اصول البر والخير : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »،« وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب » ، وينذر اهل الغنى واليسار بأن الضن بالاموال عند الحاجة من موجبـات الغضب الالهي،« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم »،« وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بايديكم الى تهلكة » ، ويجعل الاموال التي بأيديهم اموال الله قد استخلفهم فيها « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم »،« وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه».

ولقد بلغ من شأن الاسلام ، صوناً للجماعة من هذا الجانب ان جعل حق الفقير والبذل في المصالح العامة ركناً من اركان الدين ، وفرضه على الناس باسم « الزكاة » فيما يملكون، وهذا غير ما تدعو اليه الطوارىء من الانفاق في موضع الحاجات ، ويرشد إلى هذا ان القرآن جمع بين الزكاة وبين هذا الاتفاق في آية واحدة فقال : وآتى المال على حبه » وقال « وآتى الزكاة » .

والاسلام الذي يقرر هذه المبادىء وأمثالها لايعتمد في تنفيذها على سلطان الارهاب بالقانون،ولكن على الوازع الديني الذي يجعل من المرء رقيباً على نفسه ويقيم منه حسيباً في ماله لا يغيب عنه ولا يفارقه .

والاسلام يتخذ من رقابة الشعوب على الحـكام سوراً قوياً للاحتفاظ بهـذه

المباديء القويمة ، ويوحي بذلك توجيه خطاباته كلها الى جماعة المؤمنين ، مما يجعلهم متضامنين في المسؤولية ،« كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »..« يا أيها الذين امنوا اوفوا بالعقود » ..

لا عصبية ولا عنصرية ولا همجية في الاسلام :

ولقد حطم الاسلام الاصنام ، وحارب الشرك والمشركين ، ودعا الى التوحيد وعبادة الله وحده ، وكانت دعوته صريحة واضحة ، كما أيد دعوة الانبياء والرسل ، ودعا الى الايمان بهم وبكتبهم .

فرسالة محمد خاتم الانبياء والمرسلين ، التي بشّرت بها الكتب السماوية ، متفقة مع الاديان السماويه في عقيدة التوحيد ، وفي الايمان باليوم الاخر ، وفي الاصول والمقاصد ، قال الله تعالى : ولا تجادلوا اهل الكتاب إلا بالتي هي احسن . الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون .

وقال تعالى : قولوا امنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتى موسى وعيسى ، وما اوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون : وقال تعالى : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين احد من رسله ».

وعقيدة التوحيد التي دعا الاسلام الناس كافة الى الايمان بها هي العقيدة التي تؤيدها الدلائل والشواهد الكثيرة من خلقه وبديع صنعه .

« افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت ، فذكر انما انت مذكّر ، لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، ان الينا ايابهم ، ثم ان علينا حسابهم » وهي العقيدة التي انزلها الله على سائر

انبيائه من لدن ادم الى بعثة محمد ﷺ ، لما دعا الناس الى الإيمان باليوم الآخر وهو اليوم الذي يحشر فيه الناس اجمعون ، ليلقوا من الله سبحانه وتعالى جزاء ما قدّمت يداهم في الدنيا بعد ان تعرض عليهم اعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، قال الله تعالى : يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها،وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . وقال تعالى : فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ألم تكن اياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين . ربنا اخرجنا منها ، فان عدنا فانا ظالمون ، قال اخسئوا فيها ولا تكلمون .

ولا شفاعة في هذا اليوم ولا ضراعة الا لمن اذنله الرحمن تكريماً لهوتقديراً لإخلاصه في عبادته قال الله تعالى : من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه .

هذا ما يجب على الناس ان يؤمنوا به فهم مكلفون بالإيمان بالله وبرسلهوكتبه واليوم الآخر ومكلفون بان يعملوا باحكام الشريعة الإسلامية ، وبان لا يعملوا بما يخالف احكام الإسلام .

والشريعة الإسلامية التي حطّمت الشرك والمشركين وآمنت برسالة جميع الأنبياء والمرسلين تعامل اهل الكتاب معاملة تخالف معاملة المشركين وكل من يدين بعقيدة تخالف عقيدة التوحيد. واهل الكتاب في نظر الشريعة الإسلامية لهم ما لنا وعليهم ما علينا نتركهم وما يدينون ، لا نتعرض لأبطال عقائدهم واذا جاؤنا لنحكم بينهم حكمنا بما انزل الله .

قال الله تعالى : وانزلنا اليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا

منكم شرعة ومنهاجا،ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما اتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم فيما كنتم تختلفون، وقال تعالى: «فان جاؤك فاحكم بينهم او اعرض عنهم . وان تعرض عنهم فــلا يضروك شيئاً . وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين .

واهل الكتاب فريقان فريق مسالمون وفريق محــاربون ، وقد فرّقت الشريعة بين الفريقين في المعاملة ، قال الله تعالى : لا ينهـاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهـاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون .

عاش اهل الديانات السماوية بين المسلمين لهم للمسلمين من الحقوق وعليهم ما على المسلمين ، ارواحهم واموالهم واعراضهم مصونة اذا اعتدى عليهم اي معتد اقتص منه فلا عنصرية ولا عصبية ولا همجية بل الجميع مسلمين وغير مسلمين متساوون في الحقوق والواجبات ، وكان ذلك سبباً في اتصال المودة والالفة والمحبة بين الجميع .

لايكره احد على الاسلام ، قال الله تعالى : لا اكراه في الدين قد تبــين الرشد من الغى،وقال تعالى : ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .

وذلك لان الله قد رأى لحكمة بالغة أن يترك الناس احراراً يعتقدون مــا يشاءون،ويعملون ما يشاءون بعد ان اوضح الامر وهدى النــاس الى طريق الخير ، فمن آمن طائعاً مختاراً واهتدى بهديه قبله الله ورضي عنـــه ومن ابى ترك وشأنه ليتولى الله حسابه .

ولقد آمن فريق ايماناً يتقون به غضب المسلمين وهم في الواقع يبطنون الكفر، فنعى الاسلام عليهم ايمانهم المزيف وكشف امرهم ووصمهم باخس الصفــات

وأحقرها وهي صفة النفاق ، وتوعدهم باشد العقـــاب ، وانزل فيهم سورة المنافقين ، قال الله تعالى : اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون اتخذوا ايمانهم جنـــة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون،ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبـع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، واذا رأيتهم تعجبـــك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحـذرهم قاتلهم الله انى يؤفكون .

واذا كانت الشريعة تبني احكامها على الظاهر ... وتعامل من اسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه معاملة المسلمين تاركة امر هذا الفريق لله سبحانه وتعالى الذي يعلم ما تنطوي عليه نفوسهم ... فان ذلك هو ما تقضي به العدالة اي المعاملة لانه لو بنيت الاحكام على ما لا نعلمه مما تنطوي عليه الافئده لكان ذلك حكماً بغير دليل وهو الظلم بعينه ... (١)

---

(١) الشيخ حسن المأمون مفتي الجمهورية العربية المتحدة السابق .

- ٢٣ -

الفتوح العربية ونتائجها

الفتوحات الصاعقة :

ليس هناك مجال التبسط في الانتصارات العربية عهـــد عمر بن الخطاب ١٣—٢٣ هجرية وهي الانتصارات التي وضعت اساس الحضارة العربيـــة ، والدولة العربية ، فان تفصيل هذا يجب ان يرجع اليه في الكتب الخاصة بذلك، واما نحن فنحاول ان نعرض في هذا الفصل لشيء من اخبار الفتوح ، وشيء من اخبار الاستقرار بعد الفتوح ،ومثلها من اخبار النظم الادارية والاجتماعية التي كونت الدولة الجديدة الناشئة ..

وعهد عمـــر ، وكان من السهر على الرعية ، والعزوف عن زينة الدنيا ، والخلو الى اعمال الناس ، والعمل لما فيه صلاحهم وخيرهم شيء يعرفه كل عربي فكان عهده من اجمل العهود العربية واجلها ،فيه صار فتح سورية وفلسطين ومصر ، وفيه صار الاستيلاء على العراق وفارس ، وشواطىء البحر المتوسط ، وفيـه تقدم العرب الى افريقيا ، وفيه صار القضاء على الامبراطورية الفارسية وفيـه

صار الاستيلاء على كثير من امصار الامبراطورية البيزنطية ، واضعافها بحيث لم تقم لها قائمة بعد ذلك ..

ولقد بدأ العرب هجومهم اول ما بدأوا ، لما تقدموا الى العراق ، الذي كانت تقطنه او تقطن بعض ارضه قبائل عربية هاجرت اليها في ماضيات الايام ومنذ القرن الثالث الميلادي ، وكان المثنى بن حارثة الشيباني زعيم بني بكر اول من بدأ بالاغارة على العراق ، وكتب الى ابي بكر بذلك فامده الخليفة الاول بخالد ابن الوليد فكان الجيش العربي بقيادة خالد لايزيد كثيراً على خمسة عشر الف مقاتل ، مشى على رأسه خالد في اواخر السنة الحادية عشر للهجرة في الارض التي كان سلطان فارس لا يزال فيها وعليها قوياً متيناً .

فقدم خالد اولاً الى الفرات ، وبعد ثلاثة أشهر نراه في (كاظمة) يمزق جيشاً فارسياً ، ثم تتابع انتصاراته ، وتزدحم اخبار بطولته وتسقط الحيرة ، فاذا كانت سنة ١٢ للهجرة نرى خالداً يسيطر على ضفتي الفرات ، وليس يبعد الا ثلاثة ايام عن عاصمة الفرس الا كاسرة .

وكان ابو بكر حين وجه خالداً الى العراق قد وجه الى الشام اربعة من قواده كل منهم على رأس فرقة صغيرة من الجند ، لم تكن تزيد في اول الأمر عن ثلاثة الاف مقاتل ، ثم تتابعت الامدادات على القواد الاربعة حتى يصبح واحدهم ومعه من الجند سبعة الاف ، واذا هذه الجنود تواجه امامها قوى رومانية ضخمة وسلاحاً قوياً ، وآلة حربية لا عهد لها بها ، فيكتب القواد الى ابي بكر يستمدونه ، فيمدهم بخالد بن الوليد ، ويبعث اليه بالنزول الى سورية ، وان يترك القيادة في العراق للمثنى بن حارثة ، وان يأخذ معه نصف الجند .

ومسير خالد من العراق الى سورية في تلك الصحراء السورية الملتهبة القاسية آية من ايات البطولة ، وحديث رائع من احاديث الصبر على المكاره والثقة بالنصر ، وما هي الا ايام خمسة حتى يطلع خالد من الصحراء ، ويسقط على

سكان بصرى في يوم عيدهم ، فيستولي عليها ، ثم يهبط الى سورية حيث جرت معركة اليرموك الفاصلة بقيادة خالد بن الوليد ، فيمزق الجيش العربي فيها الروم ، وهم لا يقلون عن مائة الف مقاتل ، وبمعركة اليرموك تصبح سورية وفلسطين تحت اقدام الفاتحين العرب ، وينجلي الغبار عن تراجع الامبراطور هرقل الى بلاده تاركاً سورية وفلسطين وشأنها ، فيستولي العرب على البلاد والحصون المختلفة فيها الواحد بعد الآخر ، فاذا كانت سنة ١٧ للهجرة سقطت القدس ، وجاء عمر بن الخطاب بنفسه من المدينة يتسلم مفاتيحها ويعمل على تنظيم الإدارة في البلاد التي صار احتلالها ..

وكان عمر بن الخطاب ... قد خلف ابا بكر على كرسي الخلافة في الوقت الذي كانت فيه مصاير اليرموك لاتزال معلقة في يد القدر ، وكان من أمر عمر ان أرسل قوة جديدة الى العراق ، وقائداً جديداً هو سعد بن ابي وقاص ، وكما كانت معركة اليرموك فاصلة في سورية ، كانت معركة القادسية التي وقعت بين العرب والفرس بالقرب من الحيرة ، ودامت ثلاثة ايام بلياليهن (سنة ١٦ هجرية ٦٣٧ م) فاصلة ايضاً في مصير الأمبراطورية الفارسية ، ولكن الفرس لم يتخلوا عن بلادهم بالسرعة التي تخلى بها الروم عن سورية وفلسطين ، فعادوا يجمعون جوعهم ، وينظمون قواتهم لمعركة اخرى ..

وبعد ان استولى العرب على المدائن عاصمة فارس تقدموا نحو الجيش الجديد الذي جمعه كسرى فمزقوه في معركة (نهاوند) سنة ٢١ هجرية ، ثم مشوا بعد ذلك الى الري او (طهران الحديثة) ثم همذان واصفهان ، وبعد سقوط اصطخر اصبحت كرمان وخراسان فريسة هينة حتى نهر الاكسوس .

وفي الوقت نفسه كان عمرو بن العاص بعد انتهاء أمر فلسطين يمشي الى مصر على رأس اربعة الآف مقاتل ، وفي يوم السابع عشر من شهر ايلول سنة ٦٤٢ نراه يستولي على الإسكندرية اخر معقل للروم في وادي النيل ، وبانهزام الروم

من مصر اصبحت افريقيا لا تستطيع للجنود العرب دفعاً ولا رداً ، فتسقط برقه وطرابلس الغرب سنة ٢١ للهجرة ..

والواقع انه بعد ثلاثين سنة من وفاة رسول الله ، كان سلطان المسلمين يمتد من نهر الاكسوس الى نصف افريقيا ، واصبحت رقعة الدولة الاسلامية توازي بمساحتها نصف اوروبا الحاضرة ، وقد تمكن المسلمون من الحصول على هذه الانتصارات العظيمة وجيوشهم اقل من جيوش عدوهم عدداً ، وسلاحهم اقل واضعف ، اما سبب هذه الانتصارات مع هذا النقص في الجند والسلاح فيستطاع رده الى شيء واحد ، هذه الوحدة القومية التي خلقها محمد بن عبدالله في قلب الجزيرة ، وهذه الروح السامية الثائرة القوية التي كانت من آثار هذه الوحدة ، والتي كانت تملأ النفس العربية في ذلك الحين .

السلاح العربي :

اما السلاح العربي فكان عادياً ، بل كان اضعف من السلاحين الفارسي والروماني ، ما في ذلك شك ولا ريب ، وعلى هذا يجمع المؤرخون ، وكانت القوات العربية تتألف من المشاة والفرسان ، وكان سلاح الفرسان الرمح والسيف ، وسلاح المشاة السيف والرمح والقوس ، وبعض الدروع اذا وجد العرب اليها سبيلاً ، اما ترتيب الجيش فكان حتى في عهد الرسول لا يزيد عن قلب وجناحين وساقة ، او مؤخرة ، وكانت القبائل تحارب تحت راياتها الخاصة ، وبهذا الجيش وهذا السلاح غلب العرب اكبر دولتين عرفها تاريخ العصور الماضية ، واما قواد العرب فكانوا اعظم كفاءة من قواد الفرس والروم ، وهذا في الواقع يبعث على العجب ، لان قواد العرب لم يكن لهم عهد بالقيادات العسكرية قبل الفتوح الاسلامية ، وقواد الروم والفرس كانوا قواداً منذ نشأتهم ، وقد مرنوا على الحروب ، وتدربوا على الكر والفر ..

محطات عسكرية :

وما كاد العرب يقتحمون الامصـــار الجديدة التي وصفناها ، حتى دعت الحاجة الى الافادة منها والاحتفاظ بها، ولا يكون هذا إلا باقامة الجند على الحدود او في الامصـــار التي صار فتحها ، فكان من ذلك انشاء المحطات العسكرية في العراق ، فصـــار انشاء البصرة والكوفة ليكونا مركزين للجند في العراق ، وصار انشاء الفسطاط في مصر ، وقسم عمر بن الخطـــاب سورية وفلسطين الى اجناد عسكرية ، اصدر امره الى الجند بالنزول فيها ، وكان من هذه الاجناد : دمشق ، وطبرية ، والرملة ، واللد ..

واذا كانت المحطات السورية قديمة لم يخلقها النظام العربي الجديد ، فان المحطـــات العراقية من صنع عمر بن الخطاب وبأمره ، وهو الذي امر بانشاء البصرة والكوفة ، ومن هاتين المحطتين الصغيرتين ظهرت مدينتان عظيمتـــان كان لهما ابعد الاثر في تاريخ الاسلام السياسي والعقـــلي ، وقد عظم امر هذين البلدين بعد مدة قصيرة من تأسيسها ، فاصبح سكانهما يعدون بعشرات الالوف ، واصبح البلدان مجزناً عسكرياً للجند ، وصار الخلفاء والعمال ، يبعثان البعوث من سكانهما كلما ثار ثائر في المشرق ، او حدثت فتنة في الامصـــار القريبة من العراق وخراسان ..

وكذلك صار انشاء الفسطاط بامر من عمر بن الخطاب ايضاً ، ولو ترك الامر لعمرو بن العاص لفضل الاسكندرية ولنزلها وجنده ، ولكن امير المؤمنين ابى ان يكون بينه وبين جنده مـــاء ، فخطط عمرو الفسطاط ، الذي اصبح مركز العامل في مصر حتى سنة ٩٧٥ ميلادية لما صار انشاء القـــاهرة بامر من الدولة الفاطمية ..

سياسة عمر بن الخطاب المالية :

وقد أثار نزول القبائل العربية في هذه المحطات العسكرية ضجة ونقاشاً في

اول الامر ، ذلك ان الجند العربي وقد نزلوا هذه المحطات بزراريهم واهلهم رغبوا في الاستقرار وتملك الارض وزراعتها ، ولو ترك عمر بن الخطاب هؤلاء العرب وشأنهم وسمح لهم بتملك الارض ، لأحدث في الواقع انقلاباً عظيماً في الحالة الاجتماعية في البلاد المحتلة يصعب وصفه ، ومـا يكون من شأنه وأثره ومصايره ، ذلك ان هذه الارض كانت مسكونة باكثريتها من عناصر اخرى غير عربية تعمل على زراعتها والعناية بها ، فلو تملك العرب الفاتحون الارض لأصبح سكان الارض وفلاحوها عرضة للاستعبـــاد والتشريد ، ولو انصرف العرب الى تملك الارض وزرعها لكانوا الى الفشل اقرب منهم الى النجـــاح ، ولصعب عليهم العناية بالأرض العناية اللازمة ، اول عهدهم بهذه الحياة الزراعية الجديدة ، ثم لفسدت الغاية التي كان يسعى اليها عمر من بقاء العرب بعيدين عن الزراعة والتجارة ليظلوا جنداً للدولة وسلاحاً ماضياً امـام الاخطار التي قد تهدد كل دولة ناشئة ، تحتاج الى عدد كبير من الجند العامل للاحتفـــاظ بالفتوح ، والعمل على تنظيم البلاد الجديدة ، وعندئذ رأى عمر ان لا يقر رجال القبائل على رأيهم هذا ، وقرر ان يترك اصحاب الارض وشأنهم في ارضهم على ان يدفعوا عن ارضهم ضريبة مقررة الى بيت المال اسموها (الخراج) ،وذلك عدا ضريبة الرؤوس التي كانت تؤخذ عن كل رجل غير مسلم — عدا الاطفـال والنساء والرهبان والعجز — مقابل حماية الدولة لهم ، او مقابل عدم استخدامهم في الحرب ودعوتهم لحمل السلاح ، كما قرر في الوقت نفسه ان يصار الى احصاء المسلمين احصاء عـاماً ، وان يخصص لكل مسلم عطاء من بيت المال ، صار تقريره وفاقاً لخدمات كل مسلم في الاسلام وقربه من رسول الله ، بمعنى ان كل مسلم اصبح موظفاً في الدولة لا علاقة له بالارض وزراعة الارض ، وذلك سنة ١٥ من الهجرة .

وقد صار تخصيص العطاء لكل مسلم من العرب وغير العرب خصوصاً من المسلمين الاولـــين الذين نعموا بصحبة رسول الله ، وخدموا الاسلام بانفسهم

وارواحهم ، وقدّم عمر بن الخطاب اهل رسول الله على غير المسلمين ففرض لعائشة زوج الرسول اثني عشر الف درهم في السنة ، ولبقية ازواجه مثل ذلك في بعض الروايات ، وفرض للعباس عم رسول الله عطاء ممتازاً قيل عشرة الاف درهم وقيل سبعة الاف وقيل خمسة الاف ، وهو العطاء الذي خصصه لأهل بدر من السالفين الاولين ولنفسه ايضاً — لأن عمراً شهد بدراً — كما خصص للحسن والحسين مثل عطاء اهل بدر خمسة الاف درهم، وفرض لأسامة بن زيد، خادم رسول الله ومولاه اربعة الاف درهم ، فضله على ولده عبدالله بن عمر لأن رسول الله كان يحبه ويقربه ، ، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القران وجهادهم ، وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق — وكان بينهم سكان البصرة والكوفة — من الفين الى الف الى خمسمائة الى ثلاثمائة درهم في السنة .

وكذلك عومل اهل الكتاب معاملة حسنة فلم يعرض لهم احد ، وتركوا وشأنهم احراراً في دينهم ، على ان يدفعوا مبلغاً معيناً او ضريبة مقررة لبيت المال ، وفي ايام عثمان نعم البربر في افريقية بمثل ما كان ينعم به اهل الكتاب من حقوق وامتيازات ...

ومما لا شك فيه انه لم يكن هناك اكراه في الإسلام اول الفتوح ولا بعدها ولا فكرت الدولة الإسلامية في حالة من الحالات على اجبار الناس على الدخول في الإسلام ، لأن غير المسلمين كانوا في الواقع مصدر ثروة الدولة ، وهذه الحالة لم يكن فيها ما يدعو الى القلق لو ظلت الأمور سائرة على النحو الذي وصفناه، ولكن الأضطراب وقع لما اخذ المسيحيون واليهود وغيرهم يدخلون في الإسلام افواجاً، واخذوا في الوقت نفسه بعد اسلامهم يطالبون بان ينعموا بالإمتيازات التي كان ينعم بها المسلمون العرب ، عندئذ ظهر الإضطراب والقلق في نظم الدولة الإسلامية ، وأخذت الدولة تواجه حالة جديدة لم يكن لها بها عهد ، لان الإقبال على الاسلام اضعف الضرائب والموارد التي كانت ترد لبيت المال ، مما اضطر الدولة الى فرض الضرائب او ابقائها على المسلم الجديد ايضاً ، وهذا

ما لم يكن يقبله المسلم الذي كان يعتقد انه باسلامه سينجو من الضرائب ، وسيكون لهمن الحق في بيت المال مثل ما لغيره من المسلمين العرب ..

عندئذ وقع الخلاف بين المسلم العربي القديم ، والمسلم الجديد من غير العرب وكانوا يطلقون عليهم اسم (الموالي) ، وهـذا الخلاف كان من اعظم الاسباب في انهيار امية ، وقيام الثورات في امصارها ، وانضمام الموالي الى كل ثائـر وحامل سلاح في وجه النظام القائم .

وكذلك نرى ان سياسة عمر بن الخطاب المالية التي كانت حسنة موفقة في اول الامر ، قد اصبحت شراء داهماً يهدد الدولة ، وينذر بالثورة ، ولماحاول عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي ان يعود بالناس الى عهد عمر وان يسبغ على غير العرب من المسلمين نفس الحقوق التي كان ينعم بها العرب المسلمون لم يوفق، ولم تعش مقرراته الا بمقدار ما قام خليفة غيره ، اعاد الامر الى حالهالسابق، فاغضب الموالي ، واثار فيهم روح النقمة والتمرد ، والعمل على هدم الدولة التي كانوا يعتقدون انها حجر عثرة في سبيل حريتهم وسعادتهم .

سياستان :

والواقع اننا امام سياستين سياسة عربية وسياسة اسلامية ، فاما السياسة العربية فقد اقرّها بنو امية لما غلبوا على الخلافـة ، فكان العربي في الدولة هو العنصر الحاكم ، والسيد المطامع ، وكان غير العرب من المسلمين عنصراً ثانيـاً ، ومهما قيل في تقدير المسلمين العرب لبعض العلماء من الموالي ، وتقديمهم ، فالواقع ان الاكثرية الساحقة من المسلمين العرب كانت تعتبر الموالي المسلمين عنصراً ثانياً لا يدانيهم شرفاء ولا مقاماً ، وهذا سبب الاختلاف فياواخر ايام امية ما في ذلك شك ولا ريب .

واما السياسة الاسلامية فهي التي كان يدين بها الموالي الذين كانوا ينظرون الى ان الاسلام قـد سوّى بين المسلمين وانه ليس لعربي فضل على عجمي الا

بالتقوى والعمل الصالح ، ولكن هذه السياسة لم تكن توافق هوى الامويين والاكثرية الساحقة من العرب ، ولذلك لم يكن لها شأن في الدولة ولا أمل لها بالنجاح مادام سلطان امية قائماً ..

... وليس من شك عندنا في ان سياسة عمــــر بن الخطاب نفسها كانت سياسة عربية صرفة ، ترمي الى توحيد العرب وجمعهم ، وتنقية دمائهم (١) وجعلهم العنصر الحاكم في الدولة ، وهذه السياسة كانت مفيدة عهد عمر لأن العرب كانوا اقلية ، واكثرية سكان البلاد المفتوحة كانوا من غير العرب ، فلماتطورت الحالة ، واصبح المسلمين من غير العرب اكثر من المسلمين العرب اصبح النــاس امام حالة جديدة ، وأصبح من الواجب تسوية هذه الحـــالة باسرع ما يمكن مخافة اتساع الخرق ، وانقسام الدولة ، وهذا ما حاوله عمر بن عبد العزيز لمــا راح يقرر التسوية بين المسلمين الجـــدد والمسلمين العرب في الضرائب وغـــير الضرائب ، ولكن مثل هذه التسوية التي كان مردها رفع الضرائب عن المسلمين عامة كان من نتائجها السريعة افقار الخزينة ، قبل البحث في موارد جديدة لها ، وهذا ما اخطأ عمر بن عبد العزيز فيه ، ولم يبحثه ، ولم يحـــاول اقراره لأن السياسة المالية للدولة كانت بحاجة الى تعديل عظيم يفتح امام الدولة موارد جديدة تعوّض عليها مما ستخسره من رفع الضرائب المقررة على المسلمين من الموالي ، ولو وفق عمر بن عبد العزيز في هذه الناحية ، لمــا حدث الاختلاف بعده ، ولما اضطر خليفته الى الغاء كل ما قرره سلفه ، والعودة بالنـــــاس الى الحالة القديمة التي كان الموالي ينكرونها ويطلبون ازلتها .

التسامح العربي والادارة :

ومع ذلك فقد كان العرب فيما عدا هذه الناحية المالية آية في التسامح ورحابة

(١) ومن ذلك اخراج اليهود والمسيحيين من جزيرة العرب الى العراق وغيرها من امصار الامبراطورية .

الصدر ، فقد تركوا الموظفين من المسيحيين وغير المسيحيين في مختلف الوظائف التي كانو يشغلونها في البلاد المفتوحة ، كما انهم لم يحاولوا تبديل النظم المتبعة في الحكم حتى لا يحدثوا في البلاد ضجة قوية تؤثر على التجارة والحياة الاجتماعية المقررة ..

اما حكام المدن في عهد الخلفاء الاولين فكان يصار الى تعيينهم من قبل الخليفة نفسه ، وكانو باكثريتهم من قريش ، وكان العامل يقوم في اول الامر بعدة وظائف ، يصلي بالناس ، ويجمع خراجهم ، ويقود الجند ، ويقضي بينهم ثم صار تفريق القضاء عن السلطة التنفيذية ، فارسل عمر بن الخطاب القضاة من المدينة الى الكوفة ودمشق وحمص والبصرة وغيرها ..

واما في المدينة فكان الخليفة نفسه قاضيها ، وفي ايام عثمان بن عفان صار اختيار قاض خاص للقضاء في العاصمة .

ولما كان التشريع الاسلامي يقوم على القران والحديث ، فقد دعت الحاجة المسلمين الاولين ليس الى قراءة القران وحفظه وتفسيره فحسب ، فان هذا مفروض عليهم ، منتظر منهم ، بل الى جمعه وتوزيعه على الامصار كما حدث في عهد عثمان ، كما دعت الحاجة الى بحث الحديث ، وجمع كل الاخبار المتعلقة باقوال رسول الله واعماله لان كل هذا كان قانوناً يجري عليه المسلمون في اعمالهم واشتهر في عهد الخلفاء الراشدين الاولين عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبدالله بن عمر ، من الذين راحوا يدرسون القران ويفسرون آياته ، ويجمعون الحديث ، كما ازداد العمل على نشر العلم المعروف في ذلك العهد — عهد الخلفاء الراشدين — ولم يكن العلم يعدو القراءة والكتابة ، وقرض الشعر ، وبحث القران وتفسيره ، وجمع الحديث والتدقيق فيه ، والتحدث عن غزوات رسول الله وتاريخ حياته ، وكان يصار الى نشر هذه المعارف في المساجد التي كانت المدارس الاولى في الاسلام ، فعمّ طلب العلم العالم الاسلامي كله ، واخذ الناس

يركبون الارض للاجتماع الى اصحاب رسول الله واخذ العلم والقران والحديث عنهم ، وهذا شيء لم يكن له مثيل لا في عهد اليونان ، ولا الرومان ، ولا عند غيرهم من الامم بعد ظهور المسيحية .

المدنية الاسلامية :

ولقد كان اول مظهر من مظاهر المدنية الاسلامية اقرار النظام الاسلامي الذي يجب ان يتّبع بين جماعة المسلمين ، فنشأت الخلافة وهي رياسة دينية ودنيوية أساسها الدين ، وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم وفاقاً لنصوص القران وسنة رسول الله .

وكان اساس التشريع القران والسنة المعروفة ، فان عرض لهم ما ليس فيها عرفوا الاشباه والامثال وقاسوا ما لا نص فيه على ما فيه نص ، لما بينهما من التشابه ، وكان الخليفة مطاعاً ما لم يخالف القران والسنة ، وكان مجتهداً يأخذ رأي اصحابه فيما يعرض له من امر ، كما ان الخليفة لم يكن من اسرة معينة ، وكان اساس انتخابه الشورى فهو والحالة هذه اقرب الى ان يكون من رؤساء الجمهورية في عهدنا .

ولم يكن للخلافة في هذا العهد شيء من شارات الملك ولا اماراته ، بل كان مثله كمثل بقية الناس ، وكان عمر بن الخطاب يكره ان يكون لعماله حجاب ولم يحتجب الخلفاء إلا عهد بني امية ، وذلك بالمعنى المعروف من الحجابة .

وهنا يجب النظر قليلاً فيما لدينا من المصادر فقد ثبت ان انس بن مالك كان حاجب رسول الله كما رواه مسلم عن جابر عن عمر ، وكان للخلفاء الاربعة الاول حجاب، فكان حاجب ابي بكر (شديداً) مولاه ، وقيل سريق مولاه ، وقيل ان شديداً كان حاجب عمر ، وحجب لعمر مولاه يرفأ ، وكان (يرفأ) حاجب عمر يدعو صهيباً وبلالا وخباباً وعماراً وسلمان — وكلهم من الموالي — قبل الناس ، ويدخل الناس بعدهم على مراتبهم ، حتى كان بعضهم يكره ذلك،

وهذه المصادر تدل على انه كان لرسول الله ولخلفائه من بعده حجاب ، ولكن هؤلاء الحجاب كانوا شيئاً هيناً ليناً لا يمنعون احداً ، ولا كان الخلفاءالراشدون يحتجبون عن احد كما فعل الامويون بعدهم ، ولذلك حين نقول ان الخلفاء الاولين لم يحتجبوا لا نعني انه لم يكن لديهم حجّاب ، ولكن لم يكونو يمنعون الناس او بعض النـاس عن الوصول اليهم، بل كانوا يتصلون بالجميع ويجتمعون الى الجميع ، وهذا لم يكن في عهد بني امية ، الذين كانوا يمنعون قوماً ويقربون قوماً ، وكان حجابهم مثلهم في منع النـاس من الاجتماع اليهم إلا ان يرضى الخليفة بدخولهم اليه ، واما حجاب الخلفاء الراشدين فما كانوا يردون احداً في حال من الاحوال ، كما لم يكن للحاجب في عهد الخلفاء الراشدين راتب من بيت المال.

وكان القضاء يعد من اعمال الخليفة او من يعينه ، وكان اول من عين القضاة ووزعهم بالامصار عمر بن الخطاب ، وكان القاضي مستقلاً في رأيه وحكمه ما كان ذلك موافقاً للقران والسنة ، ولم يكن لأمراء الامصار سلطان عليهم في قضائهم ، وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأساً ، واحيـاناً يكتب الخليفة الى عامله ان يولي قضاء بلده من يرى فيه الكفاءة ، وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل ، وترك ما يرتزقون منه .

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الاحكام كان يستعين بهم القاضي ويستفتيهم اذا اشكل عليه امر ، واهمّ مـا كان يدعوهم الى ذلك ان سنة رسول الله لم تكن مجموعة في كتاب ، بل كانت في صدور الناس يحفظ منها احدهم جزءاً والثاني جزءاً ، وقد لا يحفظ احدهم ما يحفظه الآخر ، فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصاً ، ويكون النص وهو الحديث عند غيره ، لذلك كانوا يسألون : هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله ؟

ومن المؤسف ان الاحكام او الفتاوي الاولى لم تجمع في كتاب خاص يرجع اليه من بعدهم ، ولو جُمعت لساعدت كثيراً على عدم الاختـلاف في كثير من

الفتاوي والاحكام ..

ويظهر لنا ان قضاء القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصرا على فصل الخصومات المدنية ، اما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاة الامصار ، لانا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والامراء بالقتل قصاصاً ، وبالجلد للسكر ، ولم يبلغنا ان قاضياً ليس اميراً او عاملاً قضى بعقوبة منها او نفذها، وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بهـا إلا الخليفة او عامله ، فكانت الدائرة القضائية ضيقة ، ولم يبلغنا ايضاً ان قضاة الامصار كانوا ينيبون عنهم قضاة في غير الحواضر الكبرى ولعل سبب ذلك قلة القضايا والخصومات فيها ، وترك ما يقع فيها من امثال ذلك الى العامل نفسه .

واما قيادة الجنود فكانت من اعمـال الخليفة ، لان رسول الله كان يقود الجيوش بنفسه ، ولما اتسعت رقعة الدول صار تعيين القواد للجيوش ، ورتب عمر بن الخطاب الارزاق للجنود من بيت المال ومن العطاء الذي قرره لكل مسلم وهذا عدا ما كان يصيب الجندي من غنائم الحرب ، التي كان يوزع اربعـة اخماسها على الجنود ، وكان لكل جند عرفاء يلون امر الجند ، ويقبضون ارزاقهم ويوزعونها عليهم .

اما تعبئة الجيوش فقد تطورت تطوراً عظيماً عهد الخلفاء الراشدين لما اتصل العرب بجيوش الفرس والروم ، وكانت العرب تحارب في جاهليتها بطريقة الكر والفر ، وهي ان يكر المحارب على خصمه ثم يتراجع ، ثم يكر دون ما نظام ولا ترتيب ، فلما كان الاسلام صار الجنود العرب يحاربون صفاً واحداً كل قبيلة تحت راياتها ، وكان للجيش مقدمة تكون في الامام ،وهي التي تبدأ المناوشات وتتعرف الطرق ، وترتاد المواضع ، وقلب وهو وسط الجيش وفيه قائد الجند وجناحان ، وساقة وهي الجزء المؤخر من الجيش وكان لكل فرقة من هـذه الفرق الخمس اميراً خاصاً ، او قائداً ، وكان يجعلون على الفرسان خاصة اميراً،

وكان للاحتفاظ بخطوط رجعتهم الشأن الاعظم عند العرب ، حتى لا يؤتوا من خلفهم ، وكانوا يحذرون البيات جهدهم ، مخافة ان يأتيهم عـــدوهم على حين غرة منهم ...

وكان الخلفاء في عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمــالاً مستقلين عن العمال والقواد في بعض المناطق ، خصوصاً المناطق الزراعية الخصبة ، وقليلاً ما كانوا يكلون امر الجباية الى العمال ، وكانوا يدفعون مما يجبون ،ارزاق الجند والمصاريف العامة ، والباقي يرسل الى دار الخلافة ليصرف في مصارفه ،وكانت ايرادات الدولة في اول عهدها لا تتجاوز الخراج والعشر والصدقات والجزية والخراج ما كان يوضع على الارض التي امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في ايدي اهلها ، وكانوا يجعلونه احياناً شيئاً مقدراً كما فعل عمر في السواد وهو الارض الخصبة السوداء فيما بين النهرين في العراق ، واحياناً يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الارض .

اما الاراضي التي اسلم اهلها عليها وهي من ارض العرب او العجم ، او ما ملكها المسلمون عنوة واهلها لا تقبل منهم الجزيه كعبدة الاوثان من العرب ، فهذه ارض عشر ، ومثلها الأراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الفاتحين ، والعشر هو عشر ما يخرج من الارض ، واما الجزية فهو ما يوضع على رؤوس اهل الذمة ، على الرجال دون النساء والاطفال وكانت تؤخـــذ منهم جزاء لهم عن حمايتهم ، ودفع العدو عنهم ، ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذي يتصدق عليه ، ولا ممن ليس له قدرة على العمـــل ، حتى ان عمر بن الخطاب خصّص لعاجز من اهل الذمة راتباً يتناوله من بيت المال ، ورفع عنه الجزية وعن امثاله من الفقراء النصارى واليهود ، وقد اوصى عمر من بعده باهل الذمة خيراً ، وأمر ان يوفى لهم بعهدهم ، وان يقاتل من ورائهم ، وان لا يكلفوا فوق طاقتهم .

وكانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع اموالهم ، من نعمهم السائمـــة

كالابل والبقر والغنم ، ومن نقودهم وما يخرج من ارضهم وفــاقا لاحكام القرآن وسنة رسول الله ، وقرر عمر بن الخطاب العشر او ضريبة الجمارك في عهده ، لان تجــار المسلمين الذين كانوا يذهبون الى بلاد الروم كانوا يدفعون لامرائها عشر اموالهم ، فامر عمر بان يؤخذ من تجار الروم مثل ذلك ، ومن تجار اهل الذمة نصف العشر ، ومن تجار المسلمين واحداً من اربعين .

وكان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر من الذهب والفضة اذ لم تكن لهم نقود خاصة بهم ، وظل الحال على ذلك عهد ابي بكر فلما كان عهد عمر رأى ان يعين وزن الدرهم ، لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية مختلفة الوزن ، فمنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً ، ومنها درهم وزنه اثنــا عشر قيراطاً ، ودرهم وزنه عشرة قراريط ، فاخذ عمر جميع هذه الاوزان واخذ ثلثها ١٤ قيراطاً من قراريط المثقال وضرب الدرهم العربي على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل ..

ويقول المقريزي : وفي سنة ١٧ للهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها باعيانها ، غير انه – أي عمر – زاد في بعضها (الحمد لله) وفي بعضهـا (محمد رسول الله) وفي بعضها (لااله إلاالله) وعلى اخرى (عمر) وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل ، فلما بويع عثمان ضرب في خلافته دراهم ونقشها (الله اكبر).

العرب والعلوم المختلفة :

وللتدليل على اهمية العلم وطلب العلم في الاسلام نقول ان ابن الجوزي ذكر في كشف مشكل الصحيحين : ان عبادة بن الصامت كان يعلم اهل الصفة – وهم فقراء المسلمين في المدينة – القرآن ، وكان يعلم ذلك في المدينة ، وفي الاثار ما يدل على ان دار اهل الصفة في المدينة كانت اول دار فتحت للقراءة ، ولذلك تعتبر اول مدرسة في الاسلام .

ويقول الواقدي : ان عبد الله بن ام مكتوم قدم مهاجراً الى المدينة فنزل دار القراء – اي دار اهل الصفة – .

وكان عبدالله بن سعيد يعلم الكتابة في المدينة ، وكان الاسرى يفتـــدون انفسهم بتعليم كل واحد منهم لعشرة من ابناء الانصار .

وفي عهد رسول الله كان التعليم من الامور التي صرف الرسول همه لترويجها واذاعتها ، فبعث الى الامصار من يعلمهم القران والاسلام ، فلمـا كانت الفتوح كانت معلومات المسلمين لا تتعدى القراءة والكتابة وحفظ القران وبعض الشعر ونوادر العرب ، وكانت الامم التي صار اخضاعها لحكم الاسلام في العراق وسورية ومصر وفارس اكثر من المسلمين حضارة وعلمـــاً ، خصوصاً ما كان يتصل من العلوم بالثقافات اليونانية والفارسية ، وكانت الفتوح الاسلامية مفيدة للطرفين ، افادت المسلمين اذ جعلت كل معارف الامم السابقة تحت تصرفهم ، وفي متناول يدهم ، وافادت الثقافة والفلسفة الاغريقيـة اذ احيتها ، وبعثت فيها روحاً جديدة ، وقدمت لها لغتها العربية التي عمت العالم المعروف في ذلك العهد ، لتكون سبيلاً لنشر هذه المعرفة وتوزيعها بين الناس ، وقد دفع اليونان هذا الدين الذي حفظ حضارتهم وثقافتهم من الضياع بما قدموه من فلسفة وثقافة الى المسلمين الفاتحين .

وكما اتصل العرب بالفلسفة اليونانية والثقافات القديمة بواسطة المسيحيين في سوريا وغير المسلمين في العراق والوثنيين في (حران) من اعمـــال العراق ، واليونان في الاسكندرية ، فانهم ايضاً اتصلوا بالفن اليوناني ، لما استولوا عـلى مصر وسورية وفلسطين وشاهدوا فيها هذه الحصون القائمة ، والمنازل العاليـه والكنائس الجميلة ، وهذا عـــدا الصناعات التي لمسوها بايديهم ، والمنسوجات التي اغرتهم ، فطمعوا ان يكون لهم مثلها ، وان يساوقوا اليونان والفرس في صناعاتهم وحضارتهم ، ولم يفعلوا ما كان يفعله الجماعات الفاتحة قبلهم من هدم حضارة المغلوب واستعباده وقهره ، وتخريب آثاره ، بل تركوا كل شيء على حـاله ، واخذوا يعملون في الوقت نفسه على تعزيزه والافادة منه .

خذ مثلاً لذلك لما نزل المسلمون دمشق وشاهدوا ما فيها من الحضارة القائمة والعمران الرائع ، فقد ابقوا كل شيء على حاله ، ورغبوا في ان يكون لهم مثله ، فقاسموا المسيحيين بعض معابدهم ، وسكنوا المنازل التي تركها اهلها ، وصار الاتفاق فيما بينهم وبين اهل دمشق على ان ينزلوا القسم الشرقي من المدينة ، وانشأوا امام الكنيسة المسيحية الكبرى في دمشق وهي (مار يوحنا) مسجداً متواضعاً ، ثم ما لبثوا في عهد امية ان اخذوا الكنيسة نفسها ، بعد ان عوّضوا على المسيحيين ببعض كنائس الغوطة التي صار الاستيلاء عليها عند الفتح عنوة .

وكذلك كان حالهم في القدس فقد تركوا كنيسة القيامة حيث قبر المسيح ولم يعرضوا لها ، واقاموا لانفسهم مسجداً على انقاض هيكل سليمان ، واما في مصر فان العرب لم يعرضوا لكنائسها وفاقاً لنصوص المعاهدة .

وقف الفتوح :

كذلك كان العرب في اول فتوحهم ، يخلقون في كل بلد نزلوه جواً من العدل والاحسان والعمران ، حتى وقعت الفتنة في اواسط عهد الخليفة عثمان بن عفان ، واخذ المسلمون يختلفون فيما بينهم ، ويتنازعون على الخلافة وحقوق الخليفة ، وسياسة الخليفة .

لقد كان كل شيء يسير على ما يرام في الدولة العربية الناشئة حتى الساعة التي طعن فيها عمر بن الخطاب في صبيحة يوم الاربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة ، وصار دفنه يوم الاحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ للهجرة .

واذا كان ابو بكر قد اختار عمر بن الخطاب ليكون الخليفه بعده ، فان عمراً لم يجد في نفسه الشجاعة الكاملة لاختيار شخص يحل محله ، بعد ما رآه من تزاحم الصحابة على الخلافة ، ورغبة كل شخص منهم في ان ينعم بامجادها ، ففتقت له الحيلة ان يترك الامر للصحابة انفسهم ، واختار من الصحابة هؤلاء

الستة المقربين من رسول الله ليجتمعوا ويختاروا احدهم خليفة للمسلمين ..

وليس هنا مجال البحث في حديث اجتماع (الشوري) كما صار تسميسة الستة بعد ذلك ، يكفي ان نقول انهم اجتمعوا ، واختاروا عثمان بن عفان احدهم ، وهو صحابي تقي ورع ، ولكنه لم يكن بالرجل الذي يستطيع ان يشغل الفراغ الذي شغر بعد وفاة الفاروق .

وكان عثمان لما ولي الخلافة في السبعين من عمره ، وكان حليماً لين العريكة ضعيف الارادة امام اسرته من بني امية ، اي انه كان ضعيفاً امام كل من ناصبوا رسول الله العداء حتى فتح مكة ، اي قرابة عشرين سنة ، ولما اسلموا كان في اسلامهم مجال واسع للظنون والحذر ، وبعضهم كانوا مـن الذين آذوا رسول الله اشد الايذاء ، وتوفي رسول الله وهو غير راض عنهم ، فهؤلاء قرّبهم عثمان اليـه ، وقلد بعضهم المناصب في عهده ، فلم يرض عنهم المسلمون في الامصار خصوصاً البصرة ومصر ، لما ظهر منهم من سوء السياسة وضيق الصدر على زعمهم . فاعترضوا على توليتهم ، واتهموهم بالتقصير ، وضعف العقيدة الدينيـة ، وكان من اثر هذا الاختلاف الداخلي بين عثمان ورجالات الامصار من العرب الاشداء الجفاة ، ان حاصر الثائرون عثمان في المدينة ، وقتلوه بعد ان رفض التنازل عـن الخلافة ، وكان قتله الذي وقع سنة ٣٥ للهجرة بدء الفتنة في الاسلام .

والواقع ان انتخاب عثمان اللين الرقيق بعد عمر بن الخطاب الشديد القوي كان من اكبر الغلطات التي وقع فيها جماعة الشورى ، لان العرب في ذلـك الوقت كانت لا تزال بحاجة الى مثل عمر بشدته وقوته وبأسه ، يأخذهم بالحق والانصاف ، ويأمرهم بالجري على الطريق المستقيم ، ويبدأ بنفسه ثمّ بهم ، فلو وفق جماعة الشورى الى انتخاب رجل كعمر ، لما وقعت الفتنة ، ولا حدث الاختلاف .

وبعد فقد حدثت الفتنة ، ووقعت الجريمة الغليظة بقتـل الخليفة الشيخ

الصالح الذي لم يكن يستحق من رجال الامصار هذه المعاملة الشديدة التي لم تكن من الحكمة وبعد النظر في قليل وكثير ، وبموت عثمان وقف الاسلام مرة ثانية على مفرق الطرق ، فاما مضي في الفتوح والتوسع ، واما اختلاف داخلي لا يعرف احد ما يكون من نتائجه وخطره .

الخلاف بين علي ومعاوية :

فكر اهل المدينة ورجالات الامصار بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان في اختيار شخصية محترمة من المهاجرين – كما جرت العادة في اختيار الخلفاء الثلاثة الماضين – فقرّ رأيهم على اختيار علي بن ابي طالب ، وكان اختيارهم للخليفة الجديد ومبايعتهم له بالانتخاب طبعاً ، وبالانتخاب على الشكل البسيط الساذج المتواضع الذي شهدناه قبلاً في انتخاب الخلفاء الماضين ، اي ان يسمي جماعة من المسلمين فلاناً للخلافة فيبايعه الجميع من سكان المدينة حاضرة الخلافة ، ثم يصار الى ارسال الكتب لولاة الامصار بالبيعة ، فيصار الى اخذ البيعة له من الامصار البعيدة .

ولكن الامويين وعلى رأسهم معاوية بن ابي سفيان ذلك الرجل الحاذق الذكي ، وجد الفرصة سانحة للحصول على كل ما يمكن الحصول عليه لنفسه وعائلته من مقتل الخليفة الشيخ نسيبه ، فرفض مبايعة علي بالخلافة ، واستقل بالشام وما حول الشام من امصار وبلاد .

وبذلك اصبح عثمان مفيداً لعائلته بعد موته ، اكثر منه في حياته ، لأن تشدده في حقه بالخلافة ، ورفضه خلع نفسه منها ، ادى الى قتله ، ولولا قتله ما كان بمقدور معاوية ان يخرج عن الجماعة ، وان يزاحم علي بن ابي طالب ، وان تنال امية الخلافة بالسرعة التي نالتها بها .

ولقد حمل معاوية وهو حاكم الشام لواء الثورة على امير المؤمنين علي بن ابي

طالب بدعوى ان علياً أعان على قتل عثمان ، ولم يدافع عنه الدفاع المطلوب ، وان من قتل عثمان هو اليوم في جند علي ، وهي حجة اتخذها ستاراً ليخفي الاغراض السياسية التي كان يطمع في الحصول عليها ، وهي إما اقتسام الامبراطورية بينه وبين علي ، او الحصول على السلطان كله لنفسه ، ولعائلته من بعده . .

ومعرفة معاوية العظيمة بانصار علي ومن معه ، وتفرقهم وانقسامهم ، واتحاد اهل الشام حوله ، جعله يطمئن الى انه واصل الى غرضه ، ناجح في ثورته .

ويصعب عليّ الايمان – وامية كانت تحكم قريشاً في الجاهلية ، وتحكم العرب بواسطة قريش – وكان سلطانها السياسي لا يعلو عليه سلطان ، ان ترضى بالانقياد لغيرها ابد الدهر ، وهي العائلة الذكية البارعة الحريصة على مصالحها التجارية قبل الاسلام ، والسياسية بعد الاسلام ، وهذا ما يبعثني على الاعتقاد بان خلافة عثمان بن عفان كانت مؤذنة للامويين بدنو الفرصة ، وقرب نجاح الاحلام ، بحيث اذا استطاعت الحصول في عهد الخليفة المسن ، على اكثر ما يمكن الحصول عليه من القوة والسلطان ، كانت بعد ذهابه من القوة بحيث تستطيع فرض سلطانها على خليفته ، والاستئثار بالامر دونه .

وليس من شك اليوم في ان السنوات التي قضاها معاوية في دمشق قد مكنته من تثبيت مركزه ، وتعزيز سلطانه ، وجمع الانصار حوله ، فلما سنحت له الفرصة ، خلع الشام فاذا هو اقوى امير في الدولة العربية ، واذا جنده من اهل الشام واحلافهم يفوق جند الخليفة نفسه ، حتى ليقال ان معاوية حشد في معركة صفين مائة وعشرين الفاً ، وجمع علي تسعين الفاً ، وفي هذه المعركة الفاصلة التي وقعت سنة ٣٧ هجرية والتي دامت سجالاً مائة وعشرة ايام ، والتي قتل فيها من المسلمين الاف من الجنود اختلف المؤرخون في عددهم ، خرج معاوية رابحاً واصبح خليفة بسبب الخلاف الذي دبّ في جند علي ، وقتل علي على اثره . .

- ٢٤ -

دمشق والحضارة العربية

في عهد الامويين

الحضارة في دمشق :

عرضنا في فصولنا السالفة الى هذه الحضارة التي لمعت في جنوبي الجزيرة العربية لمئات خلت من السنين ، ثم قفّينا ذلك بوصف الحياة البدوية في الصحراء ونشوء المدن في الحجاز ، والى هذه الحياة الشعرية الجميلة التي كانت تلمّ بالجزيرة مصعّدة جنوباً ، مندفعة شمالا ، ممتدة شرقاً وغرباً ، ثم حجزنا القول عن وجهه وسبيل الكلام رحب وسيع ، فاجلنا على رغمنا التأريخ لمحمد بن عبد الله والاسلام ، ثم وصفنا هذه الفتوح العربية الصاعقة ، وكيف اوغل العرب في الارض ، وكان لا معدي لهم في كل خطوة عن اقتلاع الاشجار ، واستئصال الاشواك وازالة الحجارة ، بالسلاح احياناً ، وبالحسنى والاتفاق احياناً اخرى ، حتى يظهر الله دينه ، ولم نتبسط في وصف الزحوف والمعارك ، اذ كان هذا بالتاريخ اعلق منه بهذه الفصول في الحضارة والثقافة ، ولم نصف كيف كان

العرب يصطنعون سيوفهم ورماحهم في تخضيد العوائق ، وتذليل الصعوبات ، ولم نصف كيف كان العرب يخفضون جنـــاح الذل من الرحمة للامم المغلوبة ، وكيف كانوا يشقون في حروبهم ، ويتألمون في زحوفهم ، وكلما خيل اليهم انهم فرغوا من الاماكن الواعرة ابتدرتهم امــــاكن مثلها وعورة وشدة وقسوة ، واخذتهم الاخاديد والصخور من كل جانب ، وما زال هذا شأنهم يهبطون فجاً وينزلون فجاً حتى اثخنهم الطواف ، وملكوا ما بين المشرق والمغرب ..

ولقد وصل بنا الطواف الان الى دمشق ، وما قام بها من حضارة وعمران وثقافة ، وما استقام في امصار الامبراطورية ودمشق الحاضرة والعاصمة ، من مثل ذلك ، وليس يغنينا ان نبحث نشوء الدولة عهد الامويين، وليس في هذا كبير امر بعد ما وصفنا نشوءها عهد الخلفـــاء الراشدين ، فقد كان على رأس الدولة الخليفة ، وكان بعد الخليفة عماله وقواده وكتّاب ديوانه ، من كاتب الرسائل الى كاتب الخراج ، الى الحـاجب الى مدير الشرطة او صاحبها كما كان يسمى في ذلك الحين ، الى القاضي الى صاحب البريد ، واذا اختلف بنو امية في نظمهم الادارية في شيء عن عهد الخلفاء الراشدين فهو في انقلاب الخلافة في عهدهم الى نوع من الملك يتوارثه الابن عن ابيه والاخ عن شقيقه ، بعد ان كان المفروض في الخلافة ان تكون شورى يصار فيها الى الاختيار والانتخـاب ، الى ما زاد من خطر الحاجب الذي اصبح موظفاً كبيراً في الدولة يمنع من شاء، ويقدم من شاء للاجتماع بالخليفة والجلوس اليه ، الى استقلال بعض العـــمال استقلالاً داخلياً يكاد يكون تاماً في بعض الامصار ، كزياد بن ابيه في العراق عهد معاوية ، وعمرو بن العاص في مصر عهد معاوية ايضاً ، والحجاج عهد عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ، ويزيد بن المهلب عهد سليمان بن عبد الملك ، واما ما عدا ذلك فيما يتعلق بالادارة فليس في عهد امية شيء جديد .

ولقد حكم الامويون ما يقارب التسعين سنة منذ بويع معاوية بن ابي سفيان

بالخلافة سنة ٤١ للهجرة ، واشتهر اول حكمهم بهذا الاختلاف السياسي الذي ظهر جلياً واضحاً حول مسألة الحكم في الاسلام ، وسبب هذا الاختلاف الذي كان كامناً في بعض الصدور منذ وفاة رسول الله ، دون ان يعين خلفه من بعده ، ان جماعة من الصحابة كعلي بن ابي طالب وبني هاشم كانوا يرون انهم اولى بتراث محمد من غيرهم،وان الخلافة لا يجب ان تكون بالانتخاب والاختيار، وانما يجب ان تجري على انها ارث من رسول الله لمن يخلفه من اهله ابناء بنته فاطمة ، وفي اثناء المعارك التي حدثت بين علي ومعاوية ، ولما رضي علي بمسألة التحكيم ظهرت فرقة ثالثة انكرت التحكيم ، بحجة انه ليس لأحد ان يحكم بامر (الهي) وراحت تقول : (لا حكم إلا لله) ، وأكّدت حق المسلمين في اختيار من يشاؤون ، وعزل من يشاؤون اذا ظهر لهم عجز الخليفة او حاد عن الطريق السوّي ، وهؤلاء هم الخوارج الذين اعجزوا الدولة الاموية بثوراتهم واضعفوها بما جردته عليهم من الجيوش والزحوف ..

ولما قتل علي بن ابي طالب بالكوفة من قبل احد الخوارج ، استقل معاوية بالحكم بعده، خصوصاً بعد ان تنازل له الحسن بن علي بن ابي طالب عن الخلافة، وبايعه المسلمون ، إلا بعض الخوارج الذين انكروا بيعته ، وإلا بعض شيعة علي الذين سكتوا على مضض يترقبون الفرص ، والذين كانوا يقولون ان الخلافة بعد علي وابنه الحسن يجب ان تنتقل الى الحسين من بعدهما ، وعلى اساس هذه النظرية قام الحسين بعد وفاة معاوية سنة ٦٠ للهجرة يطالب بالخلافة بتأثير اهل الكوفة الذين كتبوا اليه بالقدوم اليهم لمناصرته وتأييده ، فلما مشى اليهم مع عائلته ، تثاقلوا عنه ، واحاطت به جنود يزيد بن معاوية فقتل مع انصاره في كربلاء يوم الجمعة لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦١ للهجرة ، ثم ثار بعده عبدالله بن الزبير في مكة ، وكان يزيد بن معاوية قد توفي ، وقام بالامر بعده ابنه معاوية بن يزيد ، فلم يدمْ امره إلا اياماً ثم اختار الامويون مروان بن

الحكم ، وانقسمت الامبراطورية في عهده بينه وبين ابن الزبير الذي فشا امره، وعظم شأنه حتى تمكن عبد الملك بن مروان من القضاء عليه في حرب طاحنة سنة ٧٢ هجرية او ٦٩٢ م ..

وبموت ابن الزبير زالت السيادة السياسية عن الحجاز ، وانتقلت الى دمشق.

ولكن الذي يلفت النظر في امر الحجاز بعد زوال سيادته السياسية ، انه ظلّ ينعم بسيادته الدينية ، وينعم في الوقت نفسه بحيـــاة عذبة وارفة ، وفن موسيقي رائع ، وغناء جميل لا يتصل بهذه الحيـاة الدينية المفروضة في مثل هذه الاماكن المقدسة ..

ولعل مرد ذلك ما تدفق على الحجاز من ثرواث طائلة بسبب الفتوحـات العظيمة التي حملت معها الى البلاد العربية ثروات الامم السالفة ، فلمـــا خسر الحجازيون سيادتهم السياسية ، شغلوا انفسهم بالموسيقى والغناء والشعرالغرامي، فكان اشهر المغنين واعظم الموسيقيين ، وألمع شعراء الغرام في الحجـاز او من اهل الحجاز ..

الشعر في الحجاز وعهد امية :

والواقع اننا في العهد الذي نبحث به الحضـارة العربية عند الامويين كان قد ظهر في البلاد العربية جيل جديد نشأ نشأة اسلامية خـــالصة ، فدرس القران واطلع على الحديث ، ونعم بهذه الحياة الاسلامية الجديدة ..

واما الذين ادركوا الجاهلية والاسلام فكان شعرهم يساوق الشعر الجاهلي في كثير من وجوهه وروحه ، كالحطيئة وكعب بن مالك مثلاً ، فان ما نقله الينا الرواة من شعرهم لا يزال في كثير من وجوهه ماضياً على النحو الجـــاهلي في المدح والهجاء إلا قليلاً ..

واما الذين نشأوا في الاسلام ، وحضروا الفتن الكثيرة التي تقطعت بين

عهدي عثمان بن عفـــان وقيام عبد الملك بن مروان مثلاً ، فقد نشأوا نشأة اسلامية واستظهروا القران كله او قسماً غير قليـل منه ، وتأثروا بالحوادث التي جرت في ايامهم ، واتصلوا بالحضارات التي استقامت في البلاد والتي ظفر بها الاسلام بعد الفتوح ، بحيث خرج شعرهم عن الاساليب الجـاهلية القديمة ، وبحيث ظهرت النفسية الاسلامية والحضارة الجديدة بوضوح في شعرهم ..

ويجب ان نـــلاحظ في الوقت نفسه ان الشعر العربي على تأثره بالاسلام والقرآن ينقسم الى قسمين : محافظ اجتهد اصحابه في الاحتفاظ بالنسق الجاهلي لا يغيرونه مدحاً وهجاءً على رغم تأثرهم بالقرآن تأثراً نلمحه في شعرهم ، حتى ليقال ان النشأة الاسلامية فيهم كانت ضعيفة لا قوية ، كالفرزدق الذي عاش جاهلياً في سيرته وشعره وفي جميع انحاء حياته ، وقد نسك احياناً وقيّـــد نفسه ليحفظ القرآن ليعود الى سيرته الاولى سراعاً ، وكذلك كان شأن جرير إلا قليلاً ، وذو الرمة والاخطل .

فيلاحظ انه على رغم ظهور الاسلام وسلطانه في النفوس ، ثم هذه الحضارة الجديدة قد ظل فريق جاهلياً ، يلحّ في ذلك ويخضع له الشعر ، ولكن هؤلاء المحافظين لهم فضل كبير في حفظ القديم من لغة وادب وعـادات وغيرها ، على ان هذا لم يمنع غيرهم ان يجددوا في الشعر لفظـاً ومعنى واسلوباً وحتى في الاوزان والقوافي ..[1]

هؤلاء دعت اليهم الحياة الاسلامية الجديدة، فبالطبع بمجرد ظهور الخصومة بين الاسلام والوثنية ظهر أثر ذلك في الشعر الا انها كانت معتمدة على الاساليب الجاهلية ، وبعد وفاة النبي اجتهد الخلفاء في كسر شوكة الشعراء وصرفهم عن التهاجي تنفيذاً لقاعدة القضاء على العصبية العربية وكان عمر اشدهم محافظة على تنفيذ هذه القاعدة وكثيراً ما نهى (حسان)ان ينشد شعره في المسجد ولكن

---

(١) طه حسين .

ايام عمر وعثمان مضت وانقسم المسلمون بعد ذلك الى حزبين ،حزب علي والهاشميين ، ثم حزب معاوية والامويين وما هي إلا ان كانت الفتنة الدمويه بين الحزبين في « صفين » حتى صحبتها حرب لسانية اخرى ، غير ان هذه الفتنة انقضت بجمع الحسن بن علي كلمة المسلمين وتنازله عن الخلافة لمعاوية فاجتمعت الكلمة في الظاهر، وكان للمسلمين خليفة واحد هو معاوية .

ولكن هناك حزبان معارضان أحدهما : وهو(الخوارج) معارضته دموية والاخر (شيعه علي) ومعارضته لسانية تنتهز الفرص لتستحيل حرباً أيضاً ، والخوارج كانوا يعتقدون كفر المسلمين ، ونقموا على التحكيم ، واوجبوا حرب علي ومعاوية لكفرهما كذلك .. وسموا انفسهم (الشراة) لانهم اشتروا او باعوا انفسهم من الله ليضحوا بها لنصرة الدين ... وكان حزبهم قوياً له شأن في القرن الهجري الاول،فكان أشد حرصاً على الدين واكثر صلاةوصياماً وزهداً وتضحية بكل لذات الحياة في سبيل رضاء الله لا يحفلون بلذة ولاألم ، وانما يحفلون بالدين وجهاد العدو ،ولا يترددون في قتل الاطفال والتمثيل بالنساء ابتغاء مرضاة الله كما يظنون ...

وكانوا أشد المسلمين ايضاً رقة وعاطفة وحنواً كما يدل على ذلك شعرعمران بن حطان وغيره من شعرائهم ،وقد تأثر حطان هذا بالقران تأثراً عظيماً وكان من اشد الخوارج نسكاً ودعوة الى مذهبه .

والواقع ان الخوارج على انهم كانوا اصحاب قوة سياسية عظيمة ، وعزيمة عسكرية قوية ، كانوا في الوقت نفسه اصحاب حركة ادبية وتجديد ظاهر في الشعر العربي . اما حزب الشيعة فكان هيّن المعارضة ايام معاوية لشدة بطشه هو وزياد ، ولما كان عهد يزيد ، ثار الحسين ، فخذل وقتل فاشتد حقد الشيعة على يزيد ، ونشأت خصومة اخرى بين الشيعة من انصار المدينة وبين الامويين كانت منها موقعة (الحرة) المشهورة التي هي في الحقيقة انتقام المهاجرين

الامويين من الانصار اصحاب بدر واستحلالهم المدينة بعد اقتحامها .

وبفضل هـذه الموقعة تكوّن حزب جديد لا هو شيعي ولا هو خارجي فعال ، ولكنه حزب يرى رأي بني اميـة في الدين ولكنه ينكر عليهم استبدادهم بالامر، ويود أن تكون الخلافة خاضعة لقانون الشورى ، وزعيم هذا الحزب عبدالله بن الزبير الذي عاذ بمكة وثار على يزيد وخلفه حتى قضى عليه الحجاج في عهد عبد الملك بن مروان .

اذاً ، فبعـد انتصاف القرن الاول للهجرة وبين سنة ٥٠ وسنة ٧٠ هـ. كانت هناك أحزاب سياسية تتصادم وتتجاهد . فحزب اميـة ، والزبيريون ، والهاشميون ، والشيعة ، والامويون انفسهم منقسمون فيما بينهم الى سفيانيين ومروانيين وعاصيين ، فكانت حياة سياسية معقدة تظهر في حروب سياسية ولسانية إلا اذا قوي حزب فاخضع سائرها لسلطانه ، ولكن الحرب اللسانية لاتنقطع ، وكان الشعراء الصحف السائرة لذلك العهد يتخذهم رؤساء الاحزاب شيعاً لهم بتأثير المال او العصبية أو الدين، وكان من الشعراء من اتخذ السياسة حرفة يتّجر بها في شعره ، كاسماعيل بن يسار الفارسي الذي نشأ نشأة عربية وكان يحتال على بني امية فيمدحهم لينال عطاياهم وهو يكرههم ويبغضهم .

ومن الذين اخلصوا للامويين الاخطل الشاعر المسيحي ، كما ان عبيد الله بن قيس الرقيات القرشي اخلص للزبيريين وناضل عن مصعب بن الزبير في العراق بسيفه وشعره ، ولما هزم مصعب فرّ بن قيس الرقيات حتى شفعت به ام البنين امرأة الوليد بن عبد الملك عند عبد الملك بن مروان فوفد عليه ومدحه ، وهو يعتبر من أهم الشعراء السياسيين ، لانه سهل الفن الشعري السياسي وجعـله قريب الفهم ، وهو الذي وصل بين الغزل والسياسة ، فاتخذ الغزل وسيـلة سياسية ينتقم بها من خلفاء امية ، فاخذ يذكر نساءهم في عفة وطهارة لاتضر النساء ولكنها تغيظ الرجال ، وام البنين انما شفعت له لانه تغزل بها في رقة

وطهارة ارضتها ولم تغضبها .

الشعر الغزلي :

وفي ايام عثمان كانت الفتوح الاسلامية الاولى قد انتهت اوكادت وكانت نتائجها الاولى قد بدأت تظهر، وأولها كثرة الثروة التي وصلت الى الحجاز، وما هي إلا ان هدأت الاحوال اول حكم عثمان حتى اطمأن اهل مكة والمدينة الى نوع من الحياة ناعم لين ، وما هي الا ان وصلت الى المدينة الوان من العبث واللهو لم يكن ينتظر ان تكون حتى اضطر عثمان الى مطاردتها ، وفي الوقت نفسه كثرت حظوظ الصحابة ولا سيما زعماؤهم من الفيء وأثروا ، فتبع ذلك ظهور افكار تشبه الاشتراكية مصدرها كثرة الاموال عند الناس ، فكان ابو ذر الغفاري صاحب رسول الله ، يذيع مستنكراً على عبد الرحمن بن عوف انه مات عن ميراث ضخم ، وكان ابو ذر يتحدث عن ذلك في نقد شديد ويدعو الى رد الاموال الى بيت المال او صرفها على الفقراء والمساكين ، حتى ضاق به عثمان ، فنفاه الى الشام ، فضاق به معاوية ذرعاً وشكاه الى عثمان فنفاه الى (الربذه) ..

تعليقات طه حسين :

ويقول طه حسين :

«فرق كبير بين حياة الحجاز الاولى وبين هذه الحياة الجديدة . اما أيام الخلفاء ولا سيما عهد عمر فكانت الثروة مستقرة في ايدي اصحابها ينفقونها في سبلها معتدلين ... بل كان عمر لا يسمح لهم بالترف ويضنّ بهم عن اللذات خوف الفساد ، ولكن عصر عثمان لم يكن من الشدة كعصر عمر ، فكان عثمان نفسه هادئاً ليناً يميل الى شيء من الترف ولين العيش يجمع في طعامه ألواناً ، ويسأل بعض صحابته هل كنتم تشهدون ذلك عند عمر ؟ في حين ان عمر قد لامه اصحابه على جمعه بين الخل والزيت أدماً لطعامه.

انتهى عصر الخلفاء واتى عهد الامويين وكان ملكاً عضوضاً شهد الناس فيه عهداً جديداً وتحول الحجاز من اقليم خشن الى جنة فيها الرياض الجميلة وقامت في مدنها الدور والقصور ، وكثر فيها الموالي من امـــاء فارسيات وروميات وعبيد يعملون في الزرع وفي الترف وخدمة الاسياد ... فتغيرت بذلك الحياة الاجتماعيه في الحجاز ثم نشأ عن انتقال الخلافة الى الكوفة ايام علي .. ثم الى دمشق ايام معاوية ، ان فقدت الحجاز مركزها السياسي الذي صار الى العراق فالشام . فشق ذلك على اهل مكة والمدينة فكان رد فعل ظهر في فتنـة ابن الزبير وثورة المدينة التي قمعتها موقعة الحرة . ولكن الامر استقر اخيراً لبني امية ولم يفلح الحجاز في استعادة سلطانه السياسي يجمعـه الى السلطان الديني، وساء ظن الامويين باهل الحجـــاز ولاسيما الاشراف ، فسلكوا معهم مسلكاً خاصاً وحملوهم على الاقامة بقطرهم لا يفارقونه إلا باذن .. مع اعطائهم الجوائز وتوفير المـــال لهم ليصرفوهم عن اعمال الدولة فصار هؤلاء الاشراف محبوسين بالحجاز يحيون في مكة والمدينة والطايف ، ويتخذون القصور والرياض ويعيشون عيشة مترفة فيها حزن لحرمانهم السلطة التي هيئوا لهـا بحكم منزلة ابائهم في الجهاد والفتوح ...

وعندما اضطر الحجاز الى ذلك وأرغم على السكون كانت الحركة السياسية في مركزين مختلفين احدهـــا الشام حيث بنـــو أميـــة يدبرون الدولة ومعهم عصبياتهم .. والمركز الاخر العراق حيث المعارضة باللسان والسيف ، فكان النشاط السياسي كله اما في الشام واما في العراق ... وامـــا الحجاز فحرم حرماناً تاماً وعلى هذا وجد في الحجاز طبقتان وان شئت فقل ثلاث طبقات، الاشراف الذين يمثلون الارستقراطية العربية وقد حيـــل بينهم وبين السياسة وادرّت عليهم العطايا والاموال ... ثم الموالي من الفرس وغيرهم الذين غنمهم المسلمون وعملهم الزراعة وخدمة سادتهم ، ثم طبقـة العرب الذين لم يسافروا الى العراق او الشام ولم يشتركوا في الجهاد جنداً محاربين ، فاستقروا في البادية

يحيون حياة تشبه الجاهلية في بداوتها . . . امـــا طبقة الموالي هؤلاء الاجانب، فقامت بين الطبقتين الاخريين ولم يظهر شأنها الا بعد حين على انها اثرت تأثيراً ظاهراً فاترفت سادتها . .

استمرّ هؤلاء العرب في الحجاز مسجونين ، حرمهم السلطان السياسي حرية الجاهلية المطلقة من لهو وحروب ... كما انهم لم يفوزوا بما كانوا ينتظرون من تمتع بثمرات الحياة الجديدة ولم يخدموا الاشراف لان الموالي قائمون بذلك . . فظلوا فقراء محرومين من حرية الجاهلية متأثرين بالدين الجديد وبالقرآن يحفظونه ويقومون بفروض الاسلام وينتهون بنواهيه دون ان يفيدوا شيئاً مادياً . وعن هذه الحياة العربية في الحجاز نشأ أثران مختلفان من ناحية متشابهان من ناحية اخرى ، وجه الشبه ان مصدرهما اليأس من السياسة عند الاشراف واليـأس من المتاع الحسي عند سائر العرب ، واما وجه الخلاف فهو ان الاشراف مـع حزنهم ويأسهم كانوا اغنياء فداووا اليأس باللهو ، وامـا غيرهم فصادف يأسهم فقراً شكوا بسببه عمال الخلفاء الذين يجمعون منهم الصدقات .

وعن هذين النوعين من يأس الغني والفقير ، نشأ أدب يمثلهما أصدق تمثيل واجمله ، منه ما يمثل حال الاشراف ، والاخر يمثل يأس الفقراء . . ذلك هو الغـــزل .

اما الاشراف فمعقول ان ينصرفوا عن الجد والعمـــل الى اللهو والعبث والمجون يتعزون بذلك اولا ... ثم يطمئنون اليه أخيراً كعـــادة ولون من الوان الحياة . . والواقع انه حينما ندرس حياة مكة والمدينة ايام بني اميـــة ترى انها حياة ترف ولهو . . فكان في المدينة اشراف ينفقون ايامهـم في قول الشعر والاستماع الى الشعراء ومنهم من تورط فيما يحرّم الدين فشرب ومجن ، وكذا كان الحال في مكة ولاولئك وهؤلاء شعراء يتغنون حيـاتهم ويذكرون ما فيها من نعمة وجمال .

واما العرب الآخرون فكان لهم شعراء ايضاً يمثلون النفس التي يئست من نيل المثل الاعلى في الحياة فالتمسته عند المرأة فوجدته هناك ... وبقدر الفرق بين حياة الاشراف بمكة والمدينة والطائف ، وبين حياة البادية خشونة وترفاً ، كان الفرق ايضاً بين شعر البادية وشعر المدن ، غزل البادية طاهر عاف لانه يمثل الطبائع النقية التي لم تفسدها الحضارة ، فليس غريباً ان تجد الحب العذري قد ذاع في البادية وارتقى وأثر في القبائل العربية والشعراء ، ومن شعراء الحب العذري جميل وقيس بن ذريح وغيرهما .. ومن قول هؤلاء :

وخبرك الواشون ان لن احبكم بلى وستور الله ذات المحارم
أصدّ وما الصد الذي تعلمينه شفاء لنا إلا اجتراع العلاقم
حياء وبقيا ان تشيع نميمة بنا وبكم أف لأهل النمائم

نستطيع ان نقرأ شعر هؤلاء العذريين فنجد عندهم تلك العاطفة التي ملكت نفوس المسلمين فعنوا بذلك الشعر ، وصنع البادون شعراً حزيناً يردون به المدن على انه قديم فيحفظه الناس ويتناشدونه .

بينما كان هذا الغزل الطاهر في البادية اذا بغزل آخر يظهر في المدن ، وهو غزل الاشراف ، فالمدينة شاعرها الاحوص ، وعمر شاعر مكة ، والعرجى شاعر الطائف ..

ونكتفي بشيء يسير جداً من شعر عمر بن ابي ربيعة لأنه زعيم هؤلاء الغزليين بل هو زعيم الغزليين في الاسلام .. وقبل هذا احب ان نلاحظ الفرق بين هذا النوع وما قبله ، فهذا لم يكن عفيفاً من كل وجه كشعر البادين ، بل يمثل الجد واللهو والمجون ، وكان اصحابه يختلفون في اللهو باختلاف امزجتهم ، فمنهم المعتدل كعمر ، والمسرف كالاحوص الذي اضطر بعض الخلفاء الى التشهير به ، ومنهم من كان حاد الطبع يميل الى اللهو والفتوة لا يعف حتى عن القتل كالعرجى ، وكاد يكون قائداً مشهوراً لو لم يسجن هذا السجن في الحجاز حتى قال يلوم بني امية :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

كان عمر وغيره يستعدون لموسم الحج ولقيا النساء القادمات الى مكة والغزل بهن .. فكان احدهم يلقي العراقيين ويعرف أسماء النساء ... ثم يلقي الشاميين فيحصى اشراف النساء واحاسنهن وهكذا ، ثم يعود الى مكة ويلتمس الوسائل للاتصال بهن ، وربما وصل الامر الى اجتماع او إثم ومن هنا نستطيع فهم ابيات العرجى :

عوجى علينا ربة الهودج انك إلا تفعلي تحرجي
اني أتيحت لي يمانية احدى بني الحارث من مزحج
نلبث حولا كاملا كله لا نلتقي إلا على منهج
في الحج ان حجت وماذا منى وأهله ان هي لم تحجج

واما رائية عمر بن ابي ربيعة المشهورة — أمن آل نعم انت غاد فمبكر — فانها آية الايات في الجمال والعذوبة والغزل ،والى جانب هذين النوعين الضعيف في البادية ، والعملي في المدن ، وجد غزل آخر فني ، غزل جاهلي ، تأثر به جرير والفرزدق وغيرهما فقال جرير :

ان الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا
غيضّن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وهذا النوع يكثر في شعر من ذكرنا وفي شعر ذي الرمة والراعي ايضاً .

المرأة في الشعر العربي :

والمرأة في الشعر العربي ، شيء لا يزال حتى اليوم سراً من الاسرار فالعربي لم يحارب إلا دفاعاً عن المرأة او الحمى الذي فيه المرأة ، ولم يشرب الخمرة إلا ليذكر المرأة او ينساها ، ومع ذلك فاذا بحثت عن المرأة في الشعر العربي فلا ترى الا وصفاً ظاهراً لها ، واما شعورها وحسها وعواطفها فهذا ما لم يعرض له الشعر العربي في كثير ولا قليل .

المرأة عند العرب اما (طرف كحيل) او (خد اسيل) (وشعر طويل) وخصر نحيل ، واما بدر يضحك عن لؤلؤ، او غصن يرفل في الخز ويمشي ويتكلم ، او ظبية تفترس الاسود وتشق بالحاظها القلوب قبل الجلود .

وهي عند العشاق اما هاجرة تتجنى يجب استعطافها ، واما ممنوعة دونها الرقباء فيجب ذمّ الرقباء والشكوى منهم ، واما انها دانية مطاوعة ولا شيء غير انها دانية مطاوعة .

اما قلب المرأة وما فيه من الاحاجي والاسرار .

واما نفس المرأة ومافيها من نور ونار .

واما المرأة نفسها وهي ذلك الكائن العجيب الجبار .. فليس لها اثر بيّن في الشعر العربي منذ كان حداء وخبباً ورجزاً الى ان صار قصائد وموشحات على كل وزن ولحن .

ولا غرابة في انصراف الشعراء قديماً عن كل ما في المرأة من المعاني الى ما تناله ابصارهم منها .. فقد جاء عليهم دهر لم تكن المرأة فيه اعلى منزلة من بقرة الوحش التي شبّهت بها من بعيد . ثم كان عهد كانت فيه عاراً يجب ان يطمس ولو برماد الجريمة ، وتلاه زمن قضي فيه على المرأة ان تكون احدى اثنتين :اما قنية تختزن ، او قينة تشرى وتباع ..

ويستطاع القول ان المرأة التي عرفت في الشعر العربي هي التي كان يمكن ان يقال عنها انها جميلة ، اما المرأة في ادوارها الاخرى ،في طفولتها وكهولتها واما المرأة البنت والاخت والزوجة فقد خلا الشعر منها الا قليلاً لا ينفع غليلاً، حتى ان حظ الناقة العجماء كان من هذا الوجه اكبر من حظها. وتلك خطة لم ينفرد الشعراء الاقدمون وحدهم بها بل كان الرجال كلهم كالشعراء القدماء من حيث تجاهل وجود المرأة والجهل باسرار نفسها. وربما كانت المرأة نفسها تجهل ما فيها من قوة ولا تفهم ما لها من حق ، ولعل ذلك منشؤه ان « البيت » بمعناه

المعروف اليوم لم يكن له اثر في تلك الازمان وانما كان للمرأة مجرّد خباء تستتر به عن الرجال . اما الرجل فكان يأوي اليه في آخر النهار بعد سفر او معركة او مساجلة ليخفف عن نفسه عناءها كما يذهب الرجل اليوم الى المقهى او النادي للتلهي ..

وكيفما عللنا هذا الامر فاننا نرى في الشعر العربي القديم صورة صادقة للزمان الذي قيل فيه . ولا يعاب شعرهم على ما فيه من الفراغ الهائل من هذه الناحية ، فالمرأة لم تكن إلا كما صوروها . واذا كانوا قد اقتصروا على ناحية واحدة منها فلأن النواحي الاخرى لم تسفرلهم عن وجوهها .

النهضة العلمية في العراق :

وكما اشتهرت مكة والمدينة بهذا النوع من العبث واللهو الذي وصفناه اشتهرت العراق بالبحث والتحقيق والثقافة ، فكانت البصرة والكوفة مقر العلم والحديث والفقه والتشريع ، ونالت المدينتان من السعة والعمران حظاً بعيداً ، حتى اصبحت الواحدة منها تعد عشرات الالوف من السكان بعد ثلاثين سنة مضت من تأسيسها فقط ، وظهر بين علمائها هذه الرغبة الملحة في اقرار حرية الرأي والاستماع الى كل جديد ، ومناقشة كل مذهب واول ما بدأوا فيه من البحث في هاتين المدينتين دراسة اللغة العربية دراسة عالية ، او ما يسمى فقه اللغة ، وكانت المساجد في الكوفة والبصرة جامعات علمية يصار فيها الى التعليم والمناقشة والقاء المحاضرات ، وكان لكل استاذ حلقة كبيرة يلتف حوله الناس فيها ، وبينما كانت المدينة ومكة لا تقبلان من الرأى الا ما يؤيده القرآن والحديث والسنة ، كان العراق لا يرى كبير امر في الاستنتاج والاستنباط والتفسير مقرراً حرية الرأي باوسع مظاهرها والوانها .

المربد :

ومما يجب ان يصار الى بحثه في هذه الناحية هذه الحركه الادبية التي كانت

تجري في (المربد) وهي سوق تساوق سوق عـــكاظ في الجاهلية ، وحكاية (المربد) تمتد الى ما قبل الاسلام ، وهو ضاحية من ضواحي البصرة في الجهة الغربية منها مما يلي البادية ، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة اميال ، وكان سوقـاً للابل والغنم ، وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومـــن خرج من البصرة اليها .

ولما كان العرب في بادية العراق قبل الاسلام – حيث نزلت قبائل من بكر وربيعة ، كونوا فيه امارة المناذرة في الحيرة – فان هذا الاقليم كان معروفاً عندهم كما يظهر لان الرحلات من البادية الى العراق ، ومن العراق الى البـادية كانت مستمرة ، ومعلوم ان البصرة انما خططت في الاسلام عهد عمر بن الخطاب ، ونزل بها العرب على منازلهم من يمنية ومضريه ، ولكن اخبار (المربـد) في الجاهلية ضعيفة مما يدل على قلة خطره واهميته ، وانما كان له الخطر بعد ان فتح العرب العراق وسكنوه وخططوا البصرة ، فقد انشئت فيه المساكن بعد ان كان مربداً للابل ، واتصلت العمارة بينه وبين البصرة ، حتى قـالوا فيه :

« العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة، ودارين عين المربد » [1]

وكان المربد صورة متواضعة لعكاظ ، كان سوقاً للتجارة ،وسوقاً للدعوات السياسية ، وكان سوقاً للادب ، وكان مجتمع العرب من الاقطار يتناشدون فيه الاشعار ، ويبيعون ويشترون ، كسوق عكاظ .

ومن اهمّ اخبار المربد في عصر الراشدين ما كان بعد قتل عثمان بن عفـان من سير عائشة ام المؤمنين الى البصرة ، فانها نزلت بفناء البصرة ، ورأت ان تبقى خارجها ، حتى ترسل الى اهلها تدعوهم بدعوتها ، وهي المطالبـة بدم عثمان ومحاربة علي ، وكان معها طلحة والزبير، ثم سارت الى (المربد) معها ،

(١) عيون الاخبار

وخرج اليها من اهل البصرة من قبل دعوتها ، وخرج الى المربد ايضاً عامل علي على البصرة ، وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده ، واصبح (المربد) وهو يموج بمن اتى من الحجاز ومن خرج من البصرة ، حتى ضاق بمن فيه ، وبذلك اصبح المربد مركزاً سياسياً خطيراً يضيق بالخطباء من انصار عائشة ومن معهما ، ومن يؤيد علياً وعامله... اصحاب عائشة في ميمنة المربد وأصحاب علي في ميسرته ؛ يخطب في المربد طلحة ويمدح عثمان بن عفان ، ويعظّم ما جنى عليه ويدعو الى الطلب بدمه ، ويخطب الزبير كذلك وتخطب عائشة ام المؤمنين بصوتها الجهوري ويؤيدهم من في ميمنة المربد ، ويقولون : صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق ، ويؤثر قول عائشة في اهل الميسرة فينحاز بعضهم اليها ويبقى الاخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان بن حنيف ، ويخطبون كذلك يبينون خطأ هذه الدعوة وان طلحة والزبير بايعا علياً فلا حق لهما في الخروج عليه ، ويؤيدهم أبو الاسود الدؤلي وامثاله .

وهكذا ينتقل (المربد) الى مجمع حافل ، فيه الدعوات السياسية مؤيدة بالحجج والبراهين ، وفيه معرض البلاغة من خطب طويلة وجمل قصيرة متينة ، وفيه الجدل والمناظرة وبحث أهم الاحداث في ذلك العصر ، وهو مقتل عثمان بن عفان ، وتحديد المسؤولية في قتله ، ولم تفد هذه الحرب اللسانية فانتقلت الى حرب بالسلاح واصبح المربد ساحة للقتال .

المربد في عهد امية :

وكان العصر الأموي ازهى عصور المربد ، ذلك لأن العرب كانوا قد انتهوا من الفتوح واستقرت الممالك في ايديهم ، واصبح العراق مقصد العرب ، يؤمه من اراد الغنى وخاصة البصرة ، وقد جاء في الطبرى :

« ان عمر بن الخطاب سأل انس بن حجية وكان رسولاً الى عمر من العراق فقال له :

– كيف رأيت المسلمين ؟

قال : انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب النـاس في البصرة فأتوها .

وكان المربد باب البصرة يمر به من ارادها من البادية ، ويمر بـه من خرج من البصرة الى البادية ، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ويقصده سكان البصرة يستنشقون منـه هواء البادية ، فكان ملتقى العرب ، وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية من مفاخرة بالانساب وتعـاظم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من إحن وحروب وغزوات .

وكان الامويون على وجه العموم ، يعيشون عيشة عربية ويحتفظون بعربيتهم إن اخذوا شيئا من الحضارة صبغوه بصبغتهم وحولوه الى ذوقهم وكذلك فعل عرب البصرة ، ارادوا أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم من سوق عكاظ في الحجاز فبلغوا غايتهم . واحيوا العصبية الجاهلية ، وساعد الخلفـاء الامويون انفسهم على احيائها لمـا كانوا يفيدون منها سياسياً . فرأينا اثر ذلك في الادب والشعر ، ورأينا المربد في العصر الاموي يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلي كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسي ، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية .

ومن اجل هذا خلف لنا المربد اجلّ شعر اموي من هذا النوع ، فكثير من نقائض جرير والفرزدق والاخطل كانت اثراً من اثار المربد قيلت فيـه ، وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة . يروي الاغـاني ان جريراً والفرزدق اجتمعا في المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجاج والاخطل وكعب بن جعيل ... في خبر طويل [1] .

وكان كل من جرير والفرزدق يلبس لباساً خاصاً ويخرج الى المربد ويقول

(١) الاغاني ..

قصائده في الفخر والهجاء، والرواة يحملون الى كليهما ما قاله الآخر فيرد عليه، قال ابو عبيدة :

« وقف جرير بالمربد وقد لبس درعاً وسلاحاً تاماً وركب فرساً اعاره اياه ابو جهضم عباد بن حصن . فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثيـــاب وشي وسواراً وقام في مقبرة بني حصين ينشد بجرير والناس يسعون فيما بينهما باشعارهما فلمـا بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال :

عجبت لراعي الضأن في حطمية   وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

ولما بلغ جريراً ان الفرزدق في ثياب وشي قال :

لبست سلاحي والفرزدق لعبـة   عليه وشاحا كرج وجلاجله [1]

وما زالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضجّ عامل البصرة فهدم منازلهما بالمربد فقال جرير :

فما في كتاب الله تهديم دارنا   بتهديم ماخور خبيث مداخله [2]

وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله النـاس يسمعون منه ؛ جاء في الاغاني : «وكان لراعي الابل والفرزدق وجلسائهما حلقة باعلى المربد بالبصرة»[3] .

وكان الناس يخرجون كل يوم الى المربد ، يعرف كل فريق مكانه فيجلس فيه ينتظر شاعره ، فقد روى الاغاني ايضاً ان جريراً بات يشرب (باطية) من نبيذ ويهمهم بالشعر في هجاء الفرزدق والراعي ، فما زال كذلك حتى كان السحر وقد قالها ثمانين بيتاً في بني نمير فلما ختمها بقوله :

فغض الطرف انك من نمير   فـلا كعبا بلغت ولا كلابا

كبرّ ثم أصبح حتى اذا عرف ان الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربـــد ،

(١-٢) النقائض .   (٣) اغاني

وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق ، قام فادّهن ولف رأسه ، ودعا غلامه فأسرج حصاناً وقصد مجلسهم وأنشدها فنكس الفرزدق وراعي الابل [1]

ونرى بجانب هؤلاء الفحول أعني جريراً والفرزدق والاخطل طائفة اخرى من كبار الرجاز يقصدون المربد وينشدون رجزهم . فالعجاج الراجز يخرج الى المربد عليه جبة خز وعمامة خز على ناقة له قد اجاد رحلها ، يقف بالمربد على الناس مجتمعين ، ويقول رجزه المشهور :

« قد جبر الدين الاله فجبر »

ويهجو ربيعة فيأتي رجل من بكر بن وائل الى ابي النجم ويستحثه على الرد عليه فيخرج ابو النجم الى المربد ويقول رجزه :

« تذكر القلب وجهلا ما ذكر »

ورؤبة الرجاز ينشد رجزه :

« وقاتم الاعماق خاوي المخترق»

ويجتمع حوله فتيان من تميم فيرد عليه ابو النجم في رجزه :

« اذا اصطبحت اربعاً عرفتني » [2]

وكذلك نرى ذا الرمة يقف بالمربد وعليه جماعة مجتمعة وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وينشد ودموعه تجري على لحيته :

« ما بال عينك منها الماء ينسكب » [3]

وينشد كذلك بعض قصائده فيقف خياط فينقد شعره نقداً شديداً ويستخف ببعض تشبيهاته ، فيمتنع ذو الرمة عن الذهاب الى المربد حتى يموت الخياط [4] .

(١) اغاني ٧ — ٥٠ . (٢) انظر الاغاني ٩ ص ٧٨ وما بعدها .
(٣) اغاني ١٦ — ١٢٣ . (٤) اغاني ١٦ — ١١٣

والامراء والولاة قد يتدخلون فيسكتون بعض الشعراء . وقد يهجون بعضهم على بعض خدمة لاغراض حزبية او سياسية فعبد الملك بن مروان يأمر ابا النجم بالمفاخرة مع الفرزدق . وعباد بن حصين–وكان على احداث البصرة– يعين جريراً على الفرزدق، ويعير جريراً الدرع والفرس والسلاح [1] .

وهكذ كان المربد في العهد الاموي معهداً كبيراً انتج ادباً غزيراً من جنس خاص . وكاد هذا الشعر يكون امتداداً للشعر الجاهلي لاتحاد الاسباب والبواعث ، فاما الشعر الغزلي كشعر عمر بن ابي ربيعة وامثاله فليس له كبيراً اثر في المربد لانه كان فوق النزال والمهاجاة والمفاخرة فليس مجاله حياة المربد التي وصفناها .

المربد في العصر العباسي :

بقي المربد في العصر العباسي ، ولكنه كان يؤدي غرضاً آخر غير الذي كان يؤديه في العهد الاموي . ذلك ان العصبية القبلية ضعفت في العصر العباسي بهاجمة الفرس للعرب، واحس العرب بما هم فيه جميعاً من خطر من حيث هم امة لافرق بين عدنانيهم وقحطانيهم ، حين قوي نفوذ الفرس وغلبوا العرب على أمرهم ، وبدأ الناس في المدن كالبصرة يحيون حياة اجتماعية هي أقرب الى حياة الفرس من حياة العرب ؛ وانصرف الخلفاء والامراء عن هذا النزاع الذي كان يتنازعه جرير والفرزدق والاخطل وظهرت العلوم تزاحم الادب والشعر ، وفشا اللحن بين الموالي الذين دخلوا في الاسلام ، وافسدوا حتى على العرب الخالصة لغتهم فتحول المربد يؤدي غرضاً يتفق وهذه الحياة الجديدة .

اصبح (المربد) غرضاً يقصده الشعراء لا للتنافر والمهاجاة ، ولكن ليأخذوا عن اعراب المربد الملكة الشعرية ، يحتذونهم ويسيرون على منوالهم ، فيخرج الى (المربد) بشار وابو نواس وامثالها ، ويخرج الى المربد اللغويون يأخذون

(١) الكامل للمبرد .

اللغة عن اهله ويدونون ما يسمعون ، روى القالي في الامالي عن الاصمعي قال :

—جئت الى ابي عمرو بن العلاء فقال لي : من اين اقبلت يا اصمعي ؟

فقلت : جئت من المربد .

فقال لي : هات ما معك .

فقرأت عليه ما كتبت في الواحي ، فمرت به ستة احرف لم يعرفها ، فخرج يعدو ويقول : شمّرت في الغريب — اي غلبتني .

والنحويون كانوا يخرجون الى المربد يستمعون من اهله مـا يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم ، فقد اشتد الخلف بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفـة في النحو ، وتعصب كل لمذهبه ، وكان اهم مدد لمدرسة البصرة (المربد) وفي تراجم النحاة تجد كثيراً منهم كان يذهب الى المربد يأخذ عن اهـله ، ويخرج الادباء الى المربد يأخذون عن اهله الادب والجمل البليغة والشعر البليـغ والامثـال والحكم مما خلفه عرب البادية وتوارثوه عن آبائهم ، كما فعل الجـاحظ قـال ياقوت : ان الجاحظ اخذ النحو عن الاخفش ، واخذ الكلام عن النظـام ، وتلقف الفصاحه من العرب شفاهاً بالمربد .

ثم عفا اثر (المربد) بعد ذلك وافنى عليه الذي افنى على عكاظ ، بعد ان قام بواجبه من توجيه الادب والبـلاغة وجهة رائعة في العصر الاموي واوائل العصر العباسي .

دمشق :

اما في دمشق فان العرب الساميين اتصلوا فيها بالحضارة الآرامية التي كانت سامية وقريبة الى عقولهم ، وزاد سكان دمشق زيادة عظيمة بعد الفتح حـتى بلغ عدد سكانها في (٧١٠) مائة وعشرين الف نسمة من العرب وحدهم ، وكانت الى ذلك مركزاً تجارياً حسناً ، يأتيها من الامبراطورية البيزنطية آلات الزينة والترف ، ومن مكة والحجاز المغنين والموسيقيين ، ومن البصرة والكوفة ثمار العقل والمنطق ..

واما من حيث الصناعة والعمران فقد استفاد العرب من الصناعة البيزنطية في العمارة ، واخذوا الكثير من اشكالها والوانها وهندستها ، وزادوا فيها من روحهم فكانت آثارهم خاصة بهم ..

وفي عهد الوليد بن عبد الملك صار بناء المسجد الاموي الذي كان قبلاً كنيسة مار يوحنا ، وهذا الاثر العربي الاسلامي الجديد كان خروجاً ظاهراً على الاوضاع البيزنطية القديمة ، وفيه اثار روح اسلامية ظاهرة ، ليس هنا مجال التبسط في وصفها ..

والواقع ان الاسلام نشأ خصيم الوثنية ، يضطرم بغضاً لمظاهرها ورسومها ، وكان النحت والتصوير والنقوش الرمزية وقت ظهور الاسلام من مظاهر الوثنية ورسومها البارزة ، فكان الاسلام يخاصمها ويطاردها ..

ولم يشأ الاسلام ان يفتح صدره لهذه المظاهر الفنية ، كما فعلت النصرانية التي شملتها برعايتها وازدانت بها كنائسها ومعابدها وهياكلها منذ القرن الاول للميلاد ، ثم غدت بعد ذلك مثاراً للخلاف الطائفي ، واعتبرت رمزاً لعبادة الصور ، وثارت حولها تلك المناقشات والخصومات البيزنطية المشهورة ..

ولكن الاسلام خفت حملته على هذه الصور والآثار في القرن الثاني من ظهوره ، لما قامت الامبراطورية الاسلامية وانشئت في ارجائها الهياكل الاسلامية العظيمة ، وبدت الخلافة في عظمتها الدنيوية ، واخذت تبسطها من الترف والبهاء والبذخ ..

وعندئذ عني الخلفاء بالفنون وازدانت قصورهم ومعاهدهم وحدائقهم بمظاهر الفن الرفيع ، واعتمد العرب على الاقتباس اول الامر ، من تراث الفنون الفارسية واليونانية والرومانية بنوع خاص ، واقتبس عرب الاندلس ايضاً من تراث الفن القوطي ، ولم يمض زمن كبير ، حتى امتزج الاقتباس بالابتكار وبدأ الفن الاسلامي في مظاهره المستقلة ، وبلغ منذ القرن الثالث للهجرة سواء

في بغداد او قرطبة مستوى رفيعاً من الروعة والبهاء ، وبرع العرب في صنع الزخارف والنقوش ، والرسوم والصور الدقيقة،وانتهوا في الموسيقى الى ذروة الافتتان والبراعة ، وازدهر الفن الاسلامي في المشرق والمغرب ايما ازدهار .

ولعل من اجمل اثار الفن الاسلامي قبة الصخرة التي بناها عبد الملك بن مروان في القدس ، فانها ما تزال حتى يومنا هذا اثراً رائعاً من اثار الحضارة العربية في عهد الدولة الاموية ..

قبة الصخرة :

كان الحرم الشريف مقدساً منذ العصور القديمة ، فبنى عليه سيدنا سليمان معبداً ذاع صيته . وقد شيّد فيه عبد الملك بن مروان بناء من الحجر مثمّن الشكل ، تعلوه قبة وفي وسطه الصخرة المقدسة ، التي يروي ان النبي عليه السلام وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء ، ولذا يسمى هذا البناء قبة الصخرة ، وان كان يعرف احياناً باسم جامع عمر ، لأن عمر بن الخطاب كان قد أقام في موضعه مصلى صغيراً من الخشب ، قبل ان يقيم عبد الملك بن مروان على انقاضه البناء الحالي بين عامي ٦٨ و٧٢ هجرية (٩٨٧ و ٦٩١ بعد الميلاد) .

ويبلغ طول هذه الصخرة ١٨ متراً من الشمال الى الجنوب ، و١٣متراً من الشرق الى الغرب ، كما يبلغ اقصى ارتفاع لها فوق ارض البناء متراً ونصف متر . وتحت الصخرة مغارة ينزل اليها باحدى عشرة درجة في الجهة الجنوبية الشرقية .

ومهما يكن من شيء فان البناء مقسم من الداخل الى ثلاث مناطق دائرية يفصل كلا منها عن الاخرى صفان مستديران من الاعمدة والدعائم . وفي الوسط سياج من الخشب المدهون يحيط بالصخرة القديمة التي يطوف حولها الزائرون في المناطق المذكورة .

ولكن هذا الشكل المثمّن لم يظهر ثانية في تصميم الجوامـــع الاسلامية ، وظلت قبة الصخرة فريدة في عمارتها ؛ لان تصميمها كان ملائماً كل الملائمة ليحيط بالصخرة المقدسة في الحرم الشريف ؛ بينما كانت الجوامـــع المستطيلة ذات الصحن المفتوح اوفق للعبادة الاسلامية ، فاتخذها المسلمون واحتفظوا بها زهاء أربعة قرون .

كان الجانب الخارجي من جدران البـــناء ، وكانت القبة نفسها مغطاة بالفسيفساء التي استبدلت سنة ١٥٤٥ على يد السلطان سليمان القانوني بلوحات من القاشاني المدهون بالميناء من صناعة تبريز في ايران .

والقبة قائمة فوق اسطوانة محمولة على اعمدة ضخمة . وقد كان استخدام القباب معروفاً في الشام وارمينية قبل بناء قبـــة الصخره ، كما كان في الشام كنائس ذات قباب فوق ابنية مثمّنة الشكل ، وعلى كل حال فان هذا الاثر بديع بتناسب عناصره وغني بزخارفه ، ولا سيما الفسيفساء التي تزين كثيراً من اجزائه الداخلية . وليس غريباً ان يكون للمسلمين مثل هذا الاثر الخالد، بعد ان انتشر الاسلام ، واتسع افق الفن في اعين العرب ، واصبح للخلفاء بني امية بلاط ملكي له ترفه وأبهته ، وكان تسامحهم الديني اكبر عون لهم على استخدام الصناع والفنانين من اهل البلاد المفتوحة ،ولا سيما الشام التي ازدهرت فيها قبيل الفتح العربي مدرسة من ارقى مدارس الفن الهليني ، قدر لفنانيها ان يساهموا في بناء صرح الفن البيزنطي بنصيب وافر .

على ان قبة الصخرة ليست الآن على الحال التي كانت عليها في عصر بنائها فان اكثر الزخارف يرجع الى عصر متأخر ، أللهم الا زخـــارف الفسيفساء المكونة من رسوم الاشجار ومن الاواني التي تخرج منها الفروع النباتية ومن رسوم الأهلة والنجوم .

وطبيعي ان يلاحظ علماء الآثار أن عناصر الزخرفة والعمارة في قبة الصخرة كانت هلينية او بيزنطية او سورية مسيحية أو رومانية ممـــا لا محـــل

لتفصيله هنا ، واخذ الخلفاء الامويون انفسهم بمظاهر الحضـــارة البيزنطية فاقتبسوا الكثير منها ، واقاموا الحجاب على ابوابهم ، ولبسوا الملابس الحريرية، وعنوا بقصورهم في دمشق وخارج دمشق ، ومدوا اليها الماء، وجملوها بالسجاد والبسط والستائر الجميلة ، وجلسوا للناس في مجالس عامة ، كان للخلفية فيها مجلس خاص ظاهر عال مرتفع عن سواه ، ثم جلس الى يمينه وشماله أهل بيته وجلس رجال البلاط وكبار القواد والشعراء والادباء قدامه ، حتى اذا جنّ الليل ، جلس الخليفة للاستماع للقصص والاخبار القديمة ، واول من فعل ذلك معاوية بن ابي سفيان ، ثم اخذ الخلفاء بعده يتوسعون في هـــذه المجالس ، فيجلسون الى المغنين والموسيقيين ومعهم آلات الطرب ، يغنونهم ، ويطربونهم الى ساعة متأخرة من الليل كما فعل يزيد الثاني ، والوليد الثـــاني من اواخر خلفاء اميــة ..

والخليفة في عهد الامويين كان شيخ قبيلة عربية اكثر منه ملكاً بكل ما في الكلمة من معنى ، وكانت الفروق غير ظاهرة ظهورا واضحاً بين الخليفـة وافراد شعبه ، حتى ان كثيرا من العرب كانوا الى عهد الوليد بن عبد الملك يلقبون الخليفة باسمه ..

التشريع الاسلامي والرومان :

ولقد ذهب بعض المستشرقين الى ان التشريع الاسلامي قد تأثر من القانون الروماني ، وهذا الوهم لايزال سائدا عند كثير منهم حتى يومنا هذا ، وسبب ذلك انه لما كان بنو امية قد لبثوا في الشام مدة طويلة يعمـلون بالاحكام التي كانت باقية من ايام الرومان ، فقد توهم المستشرقون ان قسماً من المعاملات في التشريع الاسلامي قد صار اخذه من القانون الروماني ، وهـــذا الرأي فاسد من اساسه ..

وقد بحث صاوا باشا الرومي من علماء الحقوق في عهد الدولة العثمانية هـذه

الناحية، وكتب فيها كتاباً ممتعاً بالافرنسية اسمه نظرية الحقوق في الاسلام فقال:

« ان الصناعة والتجارة لم تكونا مهملتين في الحجاز ، وكان الاشراف يعتنون بها وطالما كانوا يقومون بالرحلة الى الشام، ويجلبون منها ما يلزم لبلادهم اذ كانت المدنية السورية وقتئذ ، اكمل من مدنية الحجاز ، وكان اشراف قريش الذين من عادتهم التردد الى دمشق وسائر مدن سورية ، يطلعون على الاوضاع الرومانية التي بها معاملاتهم ، ولهذا كان مما يرد على خواطر الناس ، حتى الذين يعظمون شأن الشريعه المحمدية منهم ، ان الاحكام التي يتألف منها الفقه الاسلامي ، مستعارة من التشريع الذي كان العمل به جارياً قبل الهجرة ، فالخطأ في هذه المسألة له وجه لا يخفى ، والذي لم يطلع حق الاطلاع على منابع الفقه الاسلامي وتاريخ الشريعة معذور ، اذا ذهب به الظن هذا المذهب .

« والواقع ان الخصومات التي كانت تقع في الاسلام في السنين الاولى من تبسطه في الشام والعراق ، كانت تفصل حسب القانون الروماني تفادياً من وقوف سير العدل ، والخلل في الاحكام ، فالفاتح المسلم رأى ان يزيد في القانون الذي جاء به من الحجاز بما استعاره من القانون الذي وجده في البلاد التي فتحها ، ولهذا ذهب اكثر علماء اوروبا الى ان الخلافة الاسلامية ادخلت في فقهها احكاماً احتاجت الى اخذها من قانون رومه ... لفصل القضايا بين رعاياها ، ومما لا مرية فيه ان كثيراً من المعاملات التي كانت معروفة في الشام والعراق لا سيما ما يتعلق بالايجار والرهن ، لم يكن معروفاً في الحجاز فامراء الاسلام كانوا معذورين في الاخذ من القانون الروماني الذي كان كاملاً في سورية ، وكان يدرس في اشهر مدرسة للحقوق في ذلك العصر ، وهي مدرسة بيروت، التي أسسها الامبراطور جوستينيانوس ، وكان يدرس فيها (دوروتي) مساعد تريبونين الفقيه الروماني المشهور .

«والمقدمات التي ذكرناها والتي بنى عليها علماء اوروبا اعتقادهم بان تشريع

فقهاء الاسلام الذين بدأوا التشريع في ايام الخلفاء العباسيين الاوائل انمـــا هو مجموعة احكام تساوق ما كان جـاريا ومقررا في سورية قبل الفتح الاسلامي مغلوطة ، لان الحقيقة غير ذلك ، ويكفي ان ينظر المرء الى هذه المسألة بالدقة وان يتابع سير الشريعة الاسلامية في تقدمها واطوارها ليعلم ان استقلال الشرع الاسلامى كامل وان هذا ليس من ذاك ..

«ولا شك ان لكل تشريع منبعاً ، يختلف عن الاخر ، ففقه جوستينيانوس ، هو عمل مبني على العقل السليم البشري ، وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية ، واما فقه ابي حنيفة مثلاً فهو مبني على القران وسنة الرسول ، ولن ترى في الفقه الاسلامي حكماً واحداً لا يستند الى هذا او ذاك » ..

اما الحركة العلمية فلم تكن ناشطة قوية في عهد الامويين ونعني بالحركة العلمية ، هذه الثقافات الفلسفية والعلمية المختلفة التي اورثها اليونان العالم القديم والحديث ، وكل ما يذكر بشأن هذه الحركة في ايام الامويين ان خالد بن يزيد الاموي الذي توفي سنة (٧٠٤) كان من اكبر منشطي هذه المعارف ومؤيديها ، وانه ترجم او ساعد على ترجمة بعض الكتب اليونانية في الفلك والطب والكيمياء .

البلديات عند العرب :

وهناك ظاهرة جديدة في العصر الاموي تميزه عن غيره من العصور ، وهي ظهور (الحسبة) في عهده ، وهي تساوق في نظامها واحكامها النظم البلدية المتبعة اليوم في مختلف بلاد العالم ..

وكان المحتسب يجمع سلطة رئيس البلدية ، وسلطة مدير الصحة ، وسلطة مدير الشرطة مع بعض التعديل في هذه الاخيرة ، وظل المحتسب يقوم بمهمته هذه الى اواخر القرن التاسع عشر حين صار اقرار نظام البلديات المنقول عن اوروبـــا ..

واعتبرت الحسبة في عهد الخلفاء من قواعد الامور الدينية يبـــاشرها أئمة

الصدر الاول بانفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها ، وقد ألّف العرب فيها كتباً نذكر منهم محمد بن محمد بن احمد المعروف بابن الاخوة القرشي ، والامام ابن تيمية ، وقد نقل الكتاب الاول (معـــالم القربة في احكام الحسبة) الى الانكليزية وطبع مع اصله العربي في لندن..

ونحن نأخذ عن هذا الكتاب بعض المعلومات المفيدة فيما يتعلق بهذا النظام البلدي عند العرب في صدر الاسلام وبعده ..

وليس هنا مجال التبسط في كل الشروط التي اشترطها المؤلف على كل اصحاب الصنائع المعروفة في عهده ، كالفرانين ، والخبازين ، والجزارين ، والطباخين ، والبزازين ، والصباغين ، والاساكفة ، والبياطرة والحمامات ، والحلاقين ، وعلى الاطباء والمنجمين ، وعلى اصحاب السفن والمراكب ، وعلى معاصر الزيت ، والدباغين ، وعلى النجارين والمدهنين وغيرهم وغيرهم ..

ولكننا نأخذ نماذج من كل ذلك ، نظن انها تصور الحياة العربية ، وتساعد على تفهم التاريخ الاسلامي والحياة الاجتماعية في هذه العصور العربية الزاهرة .

تكلم المؤلف في فصل عقده عن (منكرات الاسواق) فشرح هذه الناحية قائلاً : « اما الطرقات الضيقة فلا يجوز لأحد من السوقة الجـلوس فيها ، ولا اخراج مصطبة دكان عن سمت اركان السقائف الى الممر الاصلي ، لانه عدوان ، ويضيق على المــــارة ، فيجب على المحتسب ازالتـه ومنعه لما في ذلك من الحاق الضرر بالناس » و« لا يجوز اخراج الفواصل والاجنحة وغرس الاشجار ونصب الدكك في الطرق الضيقة ، ويمنع ربط الدواب على الطرق » ، ويعلّل ذلك بقوله : « ان الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد ان يختص بها إلا بقدر الحاجة » ، ويعود الى تعداد الامور الممنوعة فيقول : « ويمنع طرح الكناسة على جواز الطرق وتبديد قشور البطيخ او رشّ الماء بحيث يخشى من التزحلق والسقوط – وهذا يدلنـا على ان بعض الشوارع كانت مبلطة بالحجر – ويمنع ارسال الماء من الميازيب الخارجة من الحائط الى الطرق الضيقة » ، والمعلوم ان

كل هذه الامور قد نصت عليها انظمة البلدية في عصرنا الحــــاضر ، وعاقبت المخالفين بغرامات صارمة ..

ولقد وصلت هذه التعاليم في العصور الاسلامية الى ان ناطت بالمحتسب ان يفرض سلطته الواسعة على من شاء لمنع كل ما يضر المارة،وان يطلب حتى من محملي الحطب والشوك مثلاً ان يشدوا هذه الاحمال ويضموها الى بعضها بحيث لا تمس احد المــارة ولا تمزق ثوبه ..

ولجمعيات الرفق بالحيوان ان تضيف الى انظمتها هذه المادة التي كان يفرضها المحتسبون في العصور الاسلامية . فقد منعوا اصحاب الاحمــــال الثقيلة وغير الثقيلة ان يتركوا هذه الاحمال على ظهور الدواب حين تقف في العراص ، « لأنها اذا وقفت والاحمال عليها أضرّتها وكان ذلك تعذيباً لها » .

فاذا تركنا هذا الفصل الى غيره رأينا سلطة المحتسب تتنــاول كل شيء ، حتى الباعة الذين لا يتحرّون الدقة في الموازين والمكاييل ، فهو يأمرهم بمسحها وتنظيفها من الادهان والاوساخ في كل ساعة ، فربما تحمل شيئاً في خرمها فيضر ، وينبغي اذا شرع في الوزن ان يسكن الميزان ، ويضع فيه البضاعة من كفه قليلا ، ولا يهمز بابهامه فان ذلك كله بخس ، وينتهي الى اوامر ونواه في غاية الدقة لمنع الغش سواء في الموازين او في المقاييس او في المكاييل .

وفي الفصل الحادي عشر تعليمات دقيقه واوامر صارمة تتناول الطحــانين وتحذرهم من خلط رديء الحنطة بجيدها وعتيقها بجديدها وضرورة غربلة الغلة من التراب وتنقيتها من الطين وتنظيفها من الغبار قبل طحنها . وثمة تعليمات في الباب الثاني عشر خاصة بالفرانين والخبازين ومــا يتوجب عليهم عمله من رفع سقائف افرانهم وعمل منافس واسعة للدخان مع كنس بيت النار في كل تعميرة وغسل المعاجن وتنظيفها ، ويمنع المحتسب العجان ان يعجن بركبته او بمرفقيه لان ذلك مهانة للطعام ، وربما قطر في العجين شيء من عرق ابطيه او بدنه

ولا يبيح به ،ن يعجن إلا وعليه ملعبة ضيقة الكمين ، وان يكون ملثماً لانه ربما عطس او تكلم فقطر شيء من فمه او انفه [1] ، ولا نغلو اذا قلنا ان بلديات اكبر مدن العالم لم تحتط هذا الاحتياط في حرصها على النظافة التي لحظها العرب في ازدهار حضارتهم .

فاذا انتقلنا الى الباب السادس عشر وقرأنا هذه التعليمات التي دوّنها بخصوص الجزارين رأينا العجب ، فالمحتسب ، اي رئيس البلدية ، لا يكتفي بمنع الجزارين من الذبح على ابواب دكاكينهم للاضرار التي تنشأ من تلويث الطرق بالروث والدم ، بل يكلفهم ان يذبحوا مواشيهم في المذبح – وهذا يدلنا على ان المذابح العامة كانت موجودة عند العرب في العصور الاسلامية – ويحتم عليهم ان يتحاشوا الغش وان يفردوا لحوم المعز عن لحوم الضأن ، وان لا يخلطوا بعضها ببعض ،وان ينقطوا لحوم المعز بالزعفران ليتميز عن غيره ، وان تكون اذنابها معلقة على لحومها الى اخر البيع ..

ويطول بنا الحديث لو مضينا نسرد هذه التعاليم او هذه النظم التي كان يرجع اليها المحتسب في ممارسة حقه في هذه الشؤون الحيوية التي لها علاقة مباشرة بتنظيم المدن وفتح الطرق وانشاء الحدائق وفرض النظافة ومراقبة الباعة والسهر على تخفيف البؤس عن الفقراء واعانة المحتاجين ومئات المهمات العمرانية والصحية والادارية التي يتطلبها جمال البلدان ورفاهية السكان ..

اما الغرامات التي كان يفرضها المحتسب على المخالفين فكانت غرامات باهظة لأن من يعنى بدقيق هذه القضايا وجليلها لابد ان يفكر بالعقوبات التي تصونها ، ويشرح لنا المؤلف في احد فصول الكتاب بعض هذه العقوبات ، وهي غير العقوبات التي تفرضها الانظمة الحديثة في عصرنا هذا ، اي الغرامة النقدية او الحبس حين لا يستطيع المخالف دفع الغرامة النقدية . فالعقوبات في تلك العصور

---

(١) في الاصل : فقطر شيء من بصاقه او مخاطه .

هي لون من الزجر او ما هو اشد من الزجر ، ويمـــارس هذا الحق ، رئيس البلدية او المحتسب ذلك الرجل الصارم الارادة ، المهيب الجانب ، المسموع الكلمة الذي يلازم الاسواق بنفسه فيركب دابته في كل وقت ، ويدور على السوقة والشوارع ، ويكشف حالة الدكاكين والطرقات ويتفقد الموازين والارطال ، ويراقب الاطعمة ، وما يمكن ان يكون منها مغشوشاً ، يفعل ذلك ليلاً ونهاراً وفي غفلة عن الباعة ، وقد يقوم بهذه المهمة وحده ، او مع الرسل والغلمان والاعوان – وهم الشرطة – حتى اذا شاهد مخـــالفة قمعها بالزجر الممزوج باللين ، فاذا لم يرتدعوا بهذا الانذار استعمل السوط ، واذا لم يقم السوط بردع المخالفين فهناك (الدرة) وهي آلة مخروزة من جلد البقر او الجمل تعلق على دكة المحتسب ، واما الصفات التي يتوجب ان يتميز بهـا مأمور الحسبة فهي العفة والصيانة والشهامة ، ويشترط على المحتسب ان يؤدبهم ويهذبهم ويعرفهم كيف يتصرفون بين يديه وكيف يخرجون في طلب الغرماء ..

وكان للمحتسب صلاحيات اخري تدلنا على مـــا وصلت اليـــه الحضارة الاسلامية ، والمجتمع الاسلامي في صدر الاسلام من العمل على احقاق الحق ، واقامة العدل والانصاف بين الناس ، وقد نشأ نظـام الحسبة في القرن الاول الهجري ، ونما في القرن الثاني بعد نشوء المذاهب الفقهية والشرعية .

– انتهى الكتاب –

الفهرس

مطبعة غندور - شارع بشارة الخوري - بناية تفاح - تلفون: ٣٧٥٢٣

استدراكات

ابن (بجدل) او (بحدل)

ذهب بعض المؤرخين الاقدمين الى ذكر اسم (حسان بن مالك) زعيم الكلبيين بالحاء (ابن بحدل) لا بالجيم ، وهو ما فعله الطبري ، وخالفه غيره ، فسماه ابن بجدل .. وهو ما فعلناه نحن ..

ويبدو ان اكثر المؤرخين يذكرونه بالحاء لا بالجيم .. فاقتضى تنبيه القارىء وقد ورد اسم حسان بن مالك ابن بجدل في اوائل كتابنا السابق (مروان بن عبد الملك) ..

الاخطاء المطبعية

وقعت اخطاء مطبعية قليلة في كتبنا الثلاثة هذه في تاريخ الدولة الاموية لم نجد ما يدعونا الى اصلاحها ، لهوانها ، ولان القارىء سوف يفطن لها من القرينة ..

الموسوعة التاريخية

في تاريخ العرب والاسلام

يصدر قريبـــاً

١ – قصة العرب قبل الاسلام

٢ – سيد العرب

٣ – الجيش الاسلامي الاول وخالد بن الوليد

٤ – الخلفاء الاربعة : ابو بكر وعمر

٥ – « « : عثمان وعلي

٦ – معاوية بن ابي سفيان وعصره –**صدر**–

٧ – عبد الملك بن مروان –**صدر**–

٨ – الايام الاخيرة للدولة الاموية –**صدر**–

وسنعلن عن الكتب التالية وهي تحت التـأليف الان في حينها ،واذا نحن بدأنا في نشر تاريخ الدولة الاموية قبل غيره، فلأن الاجزاء الخاصة بهذه الدولة قد تمّ تأليفها ، وستتبعهـــا الاجزاء الباقية ... وهو ما سبقنا اليه كثير من علمـاء الغرب حين عرضوا لأمثال هذه الموسوعات التاريخية ، يقدمون واحد منها عن الآخر ، لاستقلال كل كتاب بموضوعـاته ، حتى اذا تمّ طبع الموسوعة ، استقامت اجزاؤها وتلاقت وتراصت ، والفت مجموعة فريدة في التاريخ العربي ..

مصادر الكتاب

١ — ابن الاثير — الكامل في التاريخ
٢ — احمد بن ابي يعقوب — تاريخ اليعقوبي
٣ — ابو يوسف — كتاب الخراج
٤ — المقريزي — النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم
٥ — الواقدي — فتوح الشام
٦ — ياقوت — معجم البلدان
٧ — المسعودي — مروج الذهب ومعادن الجوهر
٨ — الماوردي — الاحكام السلطانية
٩ — المبرد (ابو العباس) — الكامل
١٠ — ابن كثير — البداية والنهاية
١١ — ابن قتيبة — الامامة والسياسة
١٢ — ابن قتيبة — المعارف
١٣ — ابو الفداء — المختصر في اخبار البشر
١٤ — ابن العماد — شذرات الذهب في اخبار من ذهب

١٥ ـ ابن عساكر	تهذيب التاريخ الكبير
١٦ ـ ابن عبد ربه	العقد الفريد
١٧ ـ ابو جعفر بن جرير الطبري	تاريخ الامم والملوك
١٨ ـ ابن طباطبا	الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية
١٩ ـ الشهرستاني	الملل والنحل
٢٠ ـ ابن سعد	الطبقات الكبرى
٢١ ـ الدينوري	الاخبار الطوال
٢٢ ـ ابن خلكان	وفيات الاعيان
٢٣ ـ ابن خلدون	العبر وديوان المبتدأ والخبر والمقدمة
٢٤ ـ ابن ابي الحديد	شرح نهج البلاغة
٢٥ ـ الجاحظ	رسائل الجاحظ
٢٦ ـ «	البيان والتبيين
٢٧ ـ البلاذري	فتوح البلدان
٢٨ ـ الاصفهاني	كتاب الاغاني
٢٩ ـ احمد امين	فجر الاسلام
٣٠ ـ طه حسين	علي وبنوه
٣١ ـ جورجي زيدان	تاريخ التمدن الاسلامي
٣٢ ـ حسن ابراهيم حسن	تاريخ الاسلام السياسي
٣٣ ـ الخضري	تاريخ الامم الاسلامية
٣٤ ـ الدكتورة سهير القلماوي	ادب الخوارج في العصر الاموي
٣٥ ـ شكري فيصل	المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري
٣٦ ـ الدكتور عبدالعزيز الدوري	مقدمة في تاريخ صدر الاسلام

٣٧ – محمد كرد علي الاسلام والحضارة العربية .

٣٨ – » » الادارة الاسلامية في عز العرب.

٣٩ – محمد حسين هيكل ابو بكر .

٤٠ – » » الفاروق عمر .

٤١ – المرصفي الوسيلة الادبية

وكذلك افدنا من كتب كثيرة غابت عنـا اسماؤها ، واسماء مؤلفيها ..
كما افدنا من مؤلفات المستشرقين كتوماس أرنولد مؤلف كتاب الخلافة .

وهنري لامنس : صاحب المؤلفات الكثيرة في تاريخ الاسلام الاول .

وبروكلمان مؤلف : تاريخ الشعوب الاسلامية .

و (اوغناس غولدتسيهر) صاحب : العقيدة والشريعة في الاسلام .

وديموبين المستشرق الفرنسي مؤلف : النظم الاسلامية .

و (هوار) : مؤلف تاريخ العرب .

و (رونلدسن) : صاحب كتاب عقيدة الشيعة ..

و (امير علي) : مؤلف كتاب مختصر تاريخ العرب ، وكتاب الخلفاء .

و (غيب)الانكليزي : مؤلف كتاب الآداب العربية ..

و (فون كرمر) الالماني صاحب كتاب : الشرق تحت حكم الخلفاء .

والمستشرق موير صاحب كتاب : الخلافة وظهورها وتأخرها وانهيارها .

ونيكلسون صاحب كتاب : التاريخ الادبي للعرب ..

و (ولهوزن) مؤلف كتاب : المملكة العربية وسقوطها ..

و (فيليب حتي) – تاريخ العرب ..

وغيرها من الكتب الكثيرة ، والمصادر العامة امثال دائرة المعـــارف البريطانية ، ودائرة المعارف الاسلامية ، والدراسات الخاصة ..

للمؤلف

مطبوعات المكتبة الاهلية — بيروت

- هرون الرشيد
- تيمورلنك
- فيصل الاول
- عبد الكريم بطل الريف
- سيد الجزيرة العربية
- البحث عن الله
- الحسين بن علي
- محمد النبي العربي
- ماذا يجب ان تعرف عن محمد والاسلام ؟
- محمد واقوال المستشرقين في رسالته.
- فاطمة بنت محمد
- ابو بكر الصديق (طبعة ثانية)
- عمر بن الخطاب
- عثمان بن عفان
- علي بن ابي طالب
- معاوية بن ابي سفيان
- يزيد بن معاوية
- الحجاج بن يوسف
- خالد بن الوليد (٣ طبعات)
- العراق الجديد
- ستالين

دار احياء الكتب العربية (القاهرة)

- علي وعائشة
- السياسة والخلافة عند الشيعة
- الشيعية الاولى في الاسلام

لجنة النشر للجامعيين — مصر

- الدهاة الثلاثة

مطبوعات مختلفة

- مواقف مؤثرة في تاريخ محمد
- الشيوعية والاشتراكية في الاسلام
- قلعة الموت
- رايات الاسلام « فتوحات العراق »
- الفتوح العربية في سورية
- الخوارج في الاسلام (الطبعة الثانية)
- الحضارة العربية الاموية
- ابطال العرب
- محمد وعصره
- كفاحي تأليف : (ادولف هتلر)
- محاكمة المارشال بتان
- السياسة عند العرب
- الثورة العربية الفلسطينية ١٩٤٨.
- جهاد فلسطين العربية ١٩٣٦
- تاريخ سورية ولبنان «جزءان» .
- اليقظة العربية
- تركيا الجديدة
- دولة الادب والبيان
- رجال الجمهورية « لبنان »
- عشرون سنة بعد الحرب
- العرب « مجموعة في تاريخ العرب »
- هتلر في ساعاته الاخيرة
- لما غضبت دمشق وثار لبنان
- الصراع بين اميركا وروسيا
- كانوا ملوكاً
- اسرار هتلر
- ماذا يريد ستالين ؟
- الجاسوسية في سوريا ولبنان
- حرب الصاعقة
- هتلر في بولونيا
- عنتر بن شداد (٣ مجلدات)
كتبت في اسلوب جديد
- عنتر بن شداد (مجلد واحد)
- النور الاخضر
- الحرب العالمية الاولى (مجلدان كبيران) - الطبعة الاولى -
- النار في الجزائر ..
- الحرب العالمية الاولى طبعة جديدة ١٩١٤-١٩١٨ في (ثلاثة مجلدات).
- الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ في ثلاثة مجلدات.
- الهوى والشباب في عهد الرشيد
- ابو نواس في مباذله
- غراميات هتلر

- الروح السوفياتية في الادب الروسي الحديث
- الفجر العربي ألفه كارانجيا الصحفي الهندي ونقله (المؤلف) الى العربية
- فجر ام ظلام : تأليف كارنجيا .
- نهاية اسرائيل
- اميركي في البلاد العربية

- مدرسة الغرام

سلسلة روايات تاريـــخ الاسلام

- فتاة اليرموك
- فرسان الصحراء
- جريمة في المسجد
- دماء على الرمال
- غادة العراق

وقد نشرت هذه الكتب الاخيرة المكتبة الاهلية

ترجمت معظم الـــكتب التاريخـــة الى الفـــارسية والاورديـــة في الباكستان ..

كما نفدت كل هذه الكتب إلا اقلهـــا ، وهي التي طبعت مؤخراً ، ولا يزيد عددها عن عشرة كتب على ابعد تقدير ..

وهناك ما يزيد عن اربعمائة رواية من الروايات الادبية والبوليسية وقصص المغامرات والبطولة صار ترجمة اكثرها وتأليف البعض الاخر طبعت اكثر من مرة واحدة ونفدت جميعها ولم يبق منها الا اقلها في طبعاتها الجديدة .. وقد اغفلنا ذكرها . لصعوبة استقصائها وحصرها ..